رسالة جامعية

ذكر الله تعالى

بين الاتباع والابتداع

إعداد

عبد الرحمن محمود خليفة

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

الطبعة الأولى
صفر ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة - العزيزية - بجوار الجامعة - ص ب: ٦٩٥٨
هاتف: ٥٥٨٩٠٢٧ - ٥٥٨٩٧٨٠ - فاكس: ٥٥٦٢٩٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة من جامعة أم القرى بكلية الدعوة وأصول الدين أعدها عبد الرحمن محمود خليفة بإشراف سعادة الدكتور عبد الشكور محمد العروسي وناقشها فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي وفضيلة الشيخ الدكتور عبد العزيز بن عبد اللطيف

هذا البحث

هو عمل نال به الباحث درجة الماجستير من جامعة أم القرى بكلية الدعوة وأصول الدين من قسم العقيدة.

قالوا عنه في قاعة المناقشة:

(نحن بين يدي رسالة في غاية الأهمية، والأخ الباحث قد بذل جهداً مشكوراً فيها ورجع إلى مصادر أصلية وكثير منها غير متناول في الأيدي، وناقشها مناقشة علمية، ووفق أيما توفيق في اختيار الموضوع... وهذا من توفيق الله ﷻ له، لأن الإنسان إذا بذل عدة سنوات في قضية ودراسة مسألة من المسائل التي ينتفع بها وينفع بها الأمة فإن هذا من نعم الله ﷻ عليه التي تستوجب على الباحث وعلى من وفق لهذا البحث الشكر والقيام بحقها...).

المناقش الاول للبحث د. عبد الله بن عمر الدميجي

❊ ❊ ❊

(الطالب في تناوله لهذا الموضوع أعتقد أنه أجاد وأفاد، فقد تناول موضوعاً كهذا وهو على ما يبدو يحمل أدوات البحث جيداً...).

المناقش الثاني للبحث د. عبد العزيز بن عبد اللطيف



[اللّهمّ أعنّي على ذكرك
وشكرك وحسن عبادتك]

اعتــذار

اللّهمّ إني أستغفرك بما يوازي غفلتي عن ذكرك، ولك كل شكري وإن كان لا يوافي بعضاً من حلمك ونعمك، اللّهمّ لا تجعلني مقيماً بوادي الغافلين يشير إلى ربوة الذاكرين، ولا تجعلني ممن يقول هذا خطأ وهذا صواب، وهو ليس هناك.

اللّهمّ إني ما رغبت في الإساءة إلى أحد بقدر ما رغبت في النصح لك ولنبيّك ولدينك وللمسلمين، وإني لأعتذر لمن مسست له خاطراً من الذاكرين بسبب تداخل مسالك المُحْدِثين، في خلطهم الغثّ بالسمين، وأعتذر فيما لم يحالفني فيه التوفيق من أسلوب أو رأي، بَيْد أني لو ظفرت برضاء الله ما باليت، والله من وراء القصد.

وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

❀ ❀ ❀

كلمة الشكر

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، أبوء له بنعمه ولا أستقصي، وأثني عليه ولا أحصي، فالشكر كلّه له أوّله وآخره، وظاهره وباطنه، ثم إنه كان من لطفه وتدبيره وتيسيره سبحانه، أن هيّئ لي ذوو فضل من خلقه، كانت لهم آيادٍ بيضاء عليّ وعلى عملي هذا، فكان من حقّهم عليّ بعد شكر الله، أن أذكر لهم فضلهم وفي مقدّمتهم، والداي أجزل الله لهما جزاء الخير، ثم لبيت العلم ورحابه جامعة أُم القرى، ممثلة في إدارتها ومسؤوليها لتهيئتهم لي ولزملائي المناخ العلمي والشكر موصول لكلية الدعوة وأصول الدين بقسميها ـ الدعوة ـ و ـ العقيدة ـ ثم إني أخصّ بالأوفى من الشكر شيخي وأستاذي الدكتور عبد الشكور محمد العروسي، الذي أشرف على بحثي هذا، ولمناقشي هذا البحث: د. عبد الله بن عمر الدميجي، ود. عبد العزيز المرشدي، اللذين استفدت منهما. ومن أهل الفضل عليّ رابطة العالم الإسلامي ممثلة في أمانتها ومسؤوليها سيما إدارة التعليم، فلهم شكري ودعائي، ثم إني لا أنسى كل من أسهم معي في هذا البحث بنصح أو إرشاد، أو عون من أساتذتي، وزملائي، وأصدقائي، وأخصّ بالذكر الزميل العزيز الأستاذ/ عبده محمود زايد الرقباتي، وللجميع مني أوفر الشكر وأصدق الدعاء، ثم عوداً على بدء فكلّ ذلك من الله، فله الحمد سبحانه بما هو أهله، وصلّى الله وسلّم على نبيّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلّم.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموجِد من العدم، والمغدِق على خلقه بالنّعم، خلق الخلق لما شاء، ويسَّرهم على وفق العلم عنده والمراد، لا على وفق الأهواء عندهم والأغراض، فبعث إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتباً ليبيّن لهم القويم من الصّراط، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد نبيِّ الهدى والرحمة الذي كشف الله به الغمَّة ونسخ بشريعته كل شريعة، وعمّ برسالته الأمة، فلم يبقِ لأحد حجّة دون حجّته، ولا استقام لعاقل طريق سوى محجته، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه الأطهار، ومن اقتفى أثرهم وعلى نهجهم خطا وسار ما تعاقب الليل والنهار.

أمّا بعد:

فلا رَيْب أن ذكر الله ودعاءه هو خير ما شُغلت به الأعمار، وأزكى ما حوته الأعمال، وأنفع ما صُرِفت فيه الأنفاس، وأفضل ما تقرّب به العباد إلى ربّهم ومولى نعمتهم سبحانه وتعالىٰ، ولهذا أصبح للذكر والدعاء المنزلة العالية في الدين والمكانة الخاصة في حياة سيّد الذاكرين ﷺ، وقد دلّ الكتاب والسنّة وآثار السلف على جنس المشروع والمستحبّ في ذكر الله ودعائه كما هو هدي الشريعة في سائر العبادات، وبيَّن النبيّ ﷺ لأمّته ما ينبغي أن يقولوه من ذكرٍ ودعاء في الصباح والمساء وقبل الشروع في بقيّة العبادات وفي أثنائها وفي أعقابها وفي آناء الليل وأطراف النهار، وفي كلّ شؤونهم ولكل ما يعرض لهم من أحوال.

ولقد أولى المسلمون هذا الجانب الاهتمام البالغ والعناية الفائقة، تمثّل ذلك فيما يأتي:

١ - إبراز أهل التفسير لما يتعلق بالذكر والدعاء من مكانة وفضل وأثر ضمن تفاسيرهم.

٢ - تخصيص أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد من أهل الحديث، كتباً وأبواباً للأذكار والأدعية المأثورة عن النبيّ ﷺ ضمن مرويّاتهم للسنّة.

٣ - إفراد كثير من أهل العلم للأذكار والأدعية في مصنّفات مستقلة، مبوّبة على ما تقال فيه من أحوال، وأوضاع، وأزمنة، وعوارض، ككتاب (الأذكار) للنووي وهو من أجمعها، وكتاب (الوابل الصيّب) لابن القيم، والذي تميّز بتعديد آثار الذكر وفوائده حتى جاوز بها السبعين، وغير ذلك من الكتب الكثيرة السابقة واللاحقة لهما في هذا الاتجاه.

❖ ومن الدراسات المعاصرة، فيما اطّلعت عليه ما يأتي:

١ - كتاب (السنن والمبتدعات) المتعلقة بالأذكار والصلوات، لمحمد بن عبد السلام الشقيري، وهو كتاب جمع فيه مؤلفه رحمه الله، جملة من الأذكار والأدعية المأثورة ومن رغائب النوافل والصلوات، ثم أتبع ذلك بالمبتدعات في الأذكار والأدعية والصلوات من المكذوبات والموضوعات، وما لا يصح من ذلك، بالإضافة إلى بعض الممارسات التي كانت معروفة في مجتمعه، من الاعتقادات الفاسدة، والعادات المخالفة للدين، وهو كتاب مهم؛ لأنه جمع واستقصى، لكنه كتاب تصنيف، فهو لم يناقش أساس الابتداع في هذه الناحية، ولم يقف مع مفهوم المبتدعة، ولم يتعرّض لتحرير المنهج الفارق بين الاتّباع والابتداع في الذكر، إلى غير ذلك من المباحث المهمة.

٢ - بحث بعنوان (الدعاء في ضوء الكتاب والسنّة) لجهاد محمد بونجا تنجونج، رسالة ماجستير من قسم الكتاب والسُّنّة، بجامعة أم القرى، يقول الباحث عن الدعاء: (هي عبادة عظيمة ذُكرت في كتب التفسير والحديث، والتوحيد، والتصوّف والأذكار، ولذلك فموضوعها يحتاج إلى

جمع ما تبعثر من جوانبه المتعددة في شتّى المصادر)[1]. تحدّث الباحث في رسالته عن إطلاقات الدعاء في القرآن، وعن مشروعيّة الدعاء، وعن أثر الدعاء وفوائده، وعن إجابته، وحالات الرجاء، وآداب الدعاء، وهو لم يتطرّق إلى الابتداع ولا إلى الذكر إلا عرضاً، فضلاً عن تحرير المنهج فيه أو مناقشة المبتدعة وكشف مفهومهم، ومصادرهم ومآربهم وغير ذلك.

وبالمقابل، فقد كان لأهل الأهواء المتنكّبين عن هدي الشارع، كان لهم منحى آخر في فهم الذكر وفي ممارسته بل وفي جنسه، ولهم مؤلّفات كثيرة تحمل منهجهم المنحرف وتؤصل للابتداع في الذكر والدعاء بشتّى الصور.

❖ اختياري لهذا الموضوع وهدفي من البحث ما يأتي:

وسبب اختياري لهذا الموضوع هو أني لم أرَ في حدود علمي من أفرد بالبحث موضوع الذكر، وما ألحقه به المبتدعة من غبش في الفهم والممارسة والمسلك، بل والإضافة فيه بما يكون بديلاً عن المشروع، مع ما في هذا المنحى من خطورة، فقد رأيت أن التصدّيَ له واجبٌ وقربةٌ إلى الله ونصرةٌ لدينه. ومع علمي بقلّة بضاعتي وضعف همّتي وددت أن يكون لي إسهام في معالجة هذا الموقف، وذلك لأن القرب لا يؤثر بها أحدٌ غيره، وقد دفعتني هذه الرغبة إلى الإسهام بجُهْد المُقِلِّ في تحرير المنهج الصحيح لذكر الله والوقوف مع المخالفين في ذلك بالمناقشة والتقويم، واخترت لبحثي عنواناً هو (ذكر الله تعالىٰ بين الاتباع والابتداع)، وخطّتي في هذا البحث ومنهجي فيه هو على النحو الآتي:

❖ الخطة:

وتشتمل على مقدمة، وهي هذه التي أنا بصددها، يليها تمهيد مكوّن من

(١) انظر البحث (رسالة ماجستير) غير المطبوع، بعنوان: «الدعاء في ضوء الكتاب والسنة» ص٩ لجهاد تنجونج مقدم عام ١٤٠٠هـ - ١٤٠١هـ، في المكتبة المركزية لجامعة أم القرى، برقم (٣٠٨).

مبحثين، الأول: تحدّثت فيه عن كمال الدين الإسلامي وتمام البلاغ به، وشمولية وسِعَة الذكر الشرعي، والثاني ضمّنته التعريف بمفردات الموضوع - الذكر - الاتّباع - الابتداع - لغةً واصطلاحاً ومفهوماً، وأتبعت ذلك بتسعة فصول في بابين، ثم أنهيت البحث بخاتمة، وعدد من الفهارس.

وأمّا البابان: فقد قسّمتهما بين شقَّيْ الموضوع، الذكر الشرعي، والذكر البدعي، وذلك على النحو الآتي:

❖ **الباب الأول: الذكر الشرعي، ضوابطه وآثاره ومصادره، وفيه أربعة فصول، وهي:**

الفصل الأول: مفهوم الذكر الشرعي وضوابطه وآدابه، وضمنته مبحثين، الأول: المفهوم الشرعي للذكر، والثاني: ما هو الذكر الشرعي وكيف يكون الذكر شرعياً.

الفصل الثاني: تحقيق الذكر للتوحيد، وقد بيَّنت فيه كيف أن الذكر يحوي التوحيد بأنواعه وأقسامه، ويحققه على أتمّه.

الفصل الثالث: آثار الذكر الشرعي، وقسّمته إلى ثلاثة مباحث، وهي أثره في حق الله، عرَّفت فيه بماهية حق الله، ثم بيَّنت مكانة الذكر في تحقيقه، وأثره في حق الأمّة، وبيَّنت فيه أثر الذكر الشرعي في معاش المسلمين ومعادهم أفراداً وأُمّة، وأثره في حق الرسالة الإسلامية بيَّنت فيه ما يعنيه التقيّد بالوارد بالنسبة لها.

الفصل الرابع: مصادر الذكر الشرعي، دراسة وتقييماً، ذكرت فيه مصادر الشريعة الإسلامية، ثم عقّبت بوقفة مع كل مصدر، لبيان وجه مصدريّته للأذكار.

❖ **الباب الثاني: الذكر البدعي، مفهومه ونشأته وآثاره ومصادره، وفيه خمسة فصول، وهي:**

الفصل الأول: مفهوم الذكر البدعي وسِمَاته، وضمّنته مبحثين، الأول:

بيَّنت فيه كيف يكون الذكر بدعيّاً، والثاني: تحدّثت فيه عن مفهوم المبتدعة للذكر وناقشتهم.

الفصل الثاني: نشأة الذكر البدعي وتطوّره، تحدّثت فيه عن أساس نشوء الابتداع في الذكر، ثم ذكرت المراحل الرئيسية في تطوّره، وفق التسلسل التاريخي في تقديري.

الفصل الثالث: نماذج من الأذكار المبتدعة مع النقد، وهي:

١ - نماذج من أذكار الصوفية مع النقد.

٢ - نماذج من أذكار الرافضة مع النقد.

٣ - نموذج من غير ما ذكر مع النقد.

الفصل الرابع: آثار الذكر البدعي، وقسمته إلى ثلاثة مباحث، **الأول**: أثره في حق الله، **والثاني**: أثره في حق الأمّة، **والثالث**: أثره في حق الرسالة والرسول ﷺ.

الفصل الخامس: مصادر الذكر البدعي، دراسة، وتقويماً ونقداً، تكلّمت فيه عن مصادر المبتدعة في أذكارهم، ثم عقبت بوقفة نقدية لمصادرهم، فيما إذا كانت مما يعتمد عليه، وقد بيَّنت الصواب بالدليل، وأقوال أهل العلم.

الخاتمة: وذكرت فيها بإيجاز نتائج البحث كعناصر، وأبرز النقاط.

ثم أتبعت ذلك بالفهارس العامّة للبحث.

❖ **ومنهجي في البحث كالآتي:**

١ - رقَّمت الآيات الواردة في البحث، مع عزوها إلى سِوَرها.

٢ - عزَوْت الأحاديث إلى من خرَّجها، فإن كانت في الصحيحين اكتفيت بهما أو بأحدهما، وإن كانت في غيرهما من كتب السنن، عزوتها إلى من خرَّجها وبيان حكم العلماء عليها غالباً.

٣ - رجعت لأقوال المخالفين، إلى مصادرهم الأصلية غالباً، وإن لم يتيسّر

لي ذلك، فأنقل عمّن نقل عنهم وأذكر مرجعها الأصلي، الذي أخذ منه من نقلت عنه.

٤ - تعاملي مع النصوص المنقولة بطريقتين، إذا تصرّفت في النص بالزيادة أو النقص، أو بالتغيير في الصياغة، أحلت إليه في الهامش، بـ: انظر، وإذا لم أتصرّف في النص المنقول من أيِّ وجه، أحلت في الهامش بذكر الكتاب مباشرة، وإذا حذفت شيئاً من النص المنقول أضع النقط إشارة إلى الحذف في مكانه، ثم أحيل إلى الكتاب مباشرة كما وصفت.

٥ - أفصل بين الكلام والكلام الآخر من المنقول وغيره، بأن أضع نقطة في نهاية الأول، وأبدأ بالثاني من بداية السطر التالي، غالباً.

٦ - ترجمت للأعلام الوارد ذكرهم في البحث، ترجمة موجزة، عند أوّل ورود للعلم، وكذلك بالنسبة لتوثيق المرجع.

❖ أمّا هدفي من البحث فهو ما يأتي:

١ - ابتغاء مرضاة الله ونصرة دينه.

٢ - إعانة الراغبين في ذكر الله إلى مظانّ مرضاة الله ومراده فيه.

٣ - بذل النصح إلى المخطئين في فهم مكانة الذكر وممارسته.

٤ - إقامة الحجّة على المعاندين بمناقشتهم وإطالة النفس معهم.

٥ - تنبيه الغافلين منهم إلى خطورة ما يفعلون على أنفسهم وعلى دين الإسلام.

هذا ما كان من اختيار الموضوع، وأهمّيته وخطة بحثه والهدف منه، وما اتّبع فيه من منهج، وفي كل ذلك ما كان من صواب فهو من الله، وما كان من خلل أو زَلَل فهو منّي ومن تقصيري، وأسأل الله أن يجبر الكسر ويتمّ النقص، ويجعل العمل له ولإعلاء ذكره، وصلّى الله وسلّم على نبيِّنا محمد نبيِّ الهدى والرحمة، وعلى آله وصحبه وسلّم.

❊ ❊ ❊

التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: كمال الدين الإسلامي وشمولية الذكر الشرعي.

المبحث الثاني: التعريف بمفردات الموضوع: الذكر - الاتّباع - الابتداع.

المبحث الأول

كمال الدين الإسلامي وشمولية الذكر الشرعي

المطلب الأول

كمال الدين الإسلامي وتمام البلاغ به:

لقد شاء الله سبحانه وتعالىٰ أن يختم رسالاته إلى البشرية، فجعل ذلك برسالة الإسلام، وبنبيّ الإسلام محمّدٍ ﷺ ختم تتابع الأنبياء والرسل، فلا نبيّ بعده ولا رسالة بعد رسالته، وقد فضّل الله هذا النبيّ على كل من سبقه من الأنبياء والرُّسل وجعل رسالته خاتمة خالدة مهيمنة، وفضّلها على غيرها وميّزها بأمور، ومن أجلّ ما ميّزها به الكمال، وامتنّ الله به على أهلها، فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، هذه أكبر نِعَم الله تعالىٰ على هذه الأُمّة حيث أكمل الله تعالىٰ لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبيّ غير نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالىٰ خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجنّ، فلا حلال إلّا ما أحلّ، ولا حرام إلّا ما حرّم، ولا دين إلّا ما شرّع[2].

وكمال هذا الدين في كونه لا يحتاج إلى مزيد، ولظهوره على الأديان كلّها وغلبته لها ولكمال أحكامه التي يحتاج إليها، ولشموله لكل مصالح الناس[3].

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢ لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، المكتبة التجارية، دار الفكر، بيروت ١٤٠٧هـ.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ٢/ ١٦ ـ ١٧، الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ترتيب وتعليق سعيد محمد اللحام، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز.

وهذا الدين الكامل كافل للهداية في الدنيا وضامن للنجاة في الآخرة، ولذلك فالتديّن به لا يتأتّى إلّا بالاستسلام الكامل له والانقياد لهديه دون التعاطي عليه بزيادة أو نقص؛ لأن (كتاب الله وسنّة رسوله لم يتركا في سبيل الهداية قولاً ولا أبقيا لغيرهما مجالاً يعتدّ به فيه؛ وإن الدين ـ بهما ـ قد كمل والسعادة الكبرى فيما وضع، وكل مطلوب فيما شرع وما سوى ذلك مما خالفهما فضلال وبهتان وإفكٌ وخسران، وأن العاقد بكلتا يديه مستمسك بالعروة الوثقى ظافر بكل الخير دنيا وأخرى، قام على صحة ذلك البرهان الذي لا شُبهة فيه)[1]، كما قال ﷺ: «... تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟»[2].

والله سبحانه وتعالىٰ الذي أنزل الدين على نبيّه محمد ﷺ كاملاً متضمّناً لكل الأحكام والشعائر والأوامر والنواهي التي شاء أن يختم بها رسائله إلى البشر، قد أمر سبحانه محمّداً ﷺ أن يفضي إلى الأمة بكامل هذا الدين، وذلك لأن البقاء أراده الله للدين لا لمحمّد، كما قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾[3]، مهمّتك يا محمد البلاغ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٧﴾[4]، فهنا يخاطب الله عبده محمّداً بالرسالة آمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتمّ القيام.

وقد شهدت له أمّته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجّة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه أربعين ألفاً[5].

---

(١) الإبداع في مضار الابتداع ص١٦، علي محفوظ، دار نصر للطباعة، الطبعة السابقة.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبيّ ﷺ، مسلم مع النووي ٨/ ١٨٤.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٤. (٤) سورة المائدة: الآية ٦٧.
(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٧٨.

❖ الزيادة والنقص في دينٍ كامل:

تقرّر بما سبق كمال الدين حكماً وواقعاً وشهد الله بذلك وأخبر ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]، والنبيّ ﷺ بلّغه إلى الأمة دون أن يكتم منه شيئاً، وأشهد على ذلك أكبر تجمّع في حياته يوم حج الناس معه قائلاً: «وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون»، فقالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت... فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها على الناس: «اللّهمّ اشهد اللّهمّ اشهد اللّهمّ اشهد»[2].

فالدين على ما رأينا من الكمال، وقد تمّ البلاغ به على هذا النحو، فماذا تعني الزيادة والنقص فيه والحالة هذه، فهما إلى جانب كونهما بدعة فهما يتضمّنان أموراً:

١ ـ الزيادة والنقص فيه إلى جانب كونهما بدعة فهما يعنيان التنقيص من الدين.

٢ ـ والمقدم على ذلك مكذّب لله سبحانه في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[3].

٣ ـ وهو أيضاً كأنه يزعم أن محمّداً ﷺ وحاشاه خان الرسالة وكتم منها شيء، كما قال الإمام مالك[4] رحمه الله تعالىٰ: (من ابتدع في الإسلام

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج، نفس الموضع السابق.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣.
(٤) هو إمام دار الهجرة مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن فتيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة الحميري، ثم الأصبحي، مولده على الأصح في سنة ثلاث وتسعين، وقيل: أربع وتسعين عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ، وروى عن غير واحد من التابعين، وحدّث عنه خلق من الأئمة، منهم: السفيانان، وشعبة، وابن المبارك، والأوزاعي، وابن المهدي، وابن جريج، والليث، والشافعي وغيرهم، توفي في ليلة أربعة عشر من صفر، وقيل: من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، وقيل: تسع وثمانين.
انظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ١٣١ الطبعة السلفية لمؤسسة الرسالة، والبداية والنهاية =

بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمّداً ﷺ خان الرسالة)[1].

٤ ـ وقضية الزيادة والنقص في الدين هي التي أدّت إلى تغيّر تعاليم الأديان السابقة وتبديل معالمها إلى أن أصبحت في وضع لم تكن عليه حين كانت من عند الله، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

❖ ماذا يعني كمال الدين؟

إن مسألة كمال هذا الدين تُعَدّ أكبر خاصية وشامة تميّزه عن الأديان السابقة، وهي التي جعلته مهيمناً عليها، ومنها يأخذ صلاحية الاستمرار وأحقّية الخلود والبقاء إلى أن يشاء الله، والابتداع حرب على هذه الخاصية، وهو هدمٌ لبناء الدين وتفتيتٌ لعراه حتى لا يصمد أمام كرّات المتربّصين؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما يأتي على الناس من عام إلّا أحدثوا فيه بدعةً وأماتوا فيه سنّةً حتى تحيا البدع وتموت السنن)[3]، وكمال الدين بالنسبة لأهله يعني كمال النعمة كما أخبر المولى سبحانه في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى...﴾[4]، ومن حلّت عليه نعمةٌ فالواجب عليه رعايتها، ورعاية كمال الدين تكون بإبقائه على ما هو عليه دون الزيادة فيه أو النقص منه.

إذاً فالدين هو بهذه المنزلة من الكمال والوفاء بحاجات البشر والصلاحية للبقاء والاستمرار، وفي نعمة كمال الدين منجاة لهذه الأمّة مما شقيت به الأمم

= ١٣/٥٩٩ ـ ٦٠٢ طبعة مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، تحقيق د/ عبد الله التركي.

(١) الاعتصام ١/٤٩، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية بمكة، مصطفى الباز، دار الفكر.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٩.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/٣١٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣.

في الزمن الماضي الذين فتحت عليهم دعوات الاتّصال الخاص بالسماء وتلقّي التعاليم من فوق، فالتبست عليهم الأمور واختلط الحق بالباطل، كما حدث في البيئات اليهودية والمسيحية مما شغل العقول وأهدر الطاقات، ونشر الفوضى والاضطراب، وهذه حقائق بيّنة ولكن البدعة تغضّ عنها الطرف[1].

والحاصل والحالة هذه أن المبتدع في هذا الدين له جرم وشؤم، فجرمه في مناوأته لمشيئة الله في إكمال هذا الدين، ولمراده سبحانه من حفظه وإبقائه؛ إذ يقول سبحانه وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

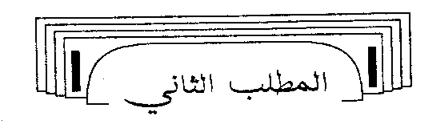
وأمّا الشُّؤم، فهو فيما يؤدّي إليه الابتداع، من إيراد للأمة موارد الأمم السابقة التي بدّلت وحرّفت كتبها، وهو إزالة لنعمة حفظ الدين التي امتنّ الله بها على هذه الأمّة، وكأني بالذهن لا ينصرف حين يسمع قول الله سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾[3]، إلّا إلى المبتدعة العابثين بهذه النعمة التي خصّ الله بها هذه الأمّة.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: العقيدة والعبادة والسلوك ص٤٦ ـ ٤٨ لأبي الحسن الندوي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، الكويت.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.



شمولية الذكر الشرعي: وهي من ناحيتين

الناحية الأولى: شمولية الأذكار الشرعية لكل أحوال الإنسان وكل أوقاته وكفايتها لجميع حاجاته وإشباعها للجوانب العاطفية والنفسية والروحية لديه، كعاطفته للتعبّد وميله إلى كنف يطمئنّ إليه، وذلك بإشعاره بمعيّة الله وحمايته، ولأوجاعه وأسقامه ومخاوفه جاءت أذكار الرقى والتعوّذ من كل الشر وكل الأشرار من الإنس كانوا أو الجنّ، بل إن شمولية الذكر جاءت لأمور الإنسان العارضة من فرحٍ وحزن ومواساة، فقد جاء الذكر الشرعي شاملاً لهذه النواحي وتلك الأحوال شمولية أتت على كل تقلّبات الإنسان بين الأزمنة والأمكنة والأحوال، يقول ابن رجب[1] رَحِمَهُ اللهُ في ذكره لهذا المعنى من الشمولية: (وأمّا ما يفعله الإنسان في آناء الليل وأطراف النهار من مصالح دينه وبدنه ودنياه، فعامّة ذلك يشرع ذكر اسم الله عليه، فيشرع له ذكر اسم الله وحمده على أكله وشربه ولباسه وجماعه لأهله ودخوله منزله وخروجه منه ودخوله الخلاء وخروجه منه وركوبه دابّته، ويسمّي على ما يذبحه من نسكٍ وغيره، ويشرع له حمد الله على عطاسه وعند رؤية أهل البلاء في الدين أو الدنيا وعند التقاء الإخوان وسؤال بعضهم بعضاً عن حاله، وعند تجدّد ما يحبّه الإنسان من النّعم واندفاع ما يكرهه من النقم، وأكمل من ذلك أن يحمد الله في السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء ويحمده على كل حال، ويشرع له دعاء الله عند دخول السوق وعند سماع أصوات الدّيكة بالليل وعند سماع الرعد وعند نزول المطر وعند

(١) ابن رجب هو: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ولد في ٧٢٦هـ، محدث وفقيه، له تصانيف منها: شرح سنن الترمذي، وجامع العلوم والحكم، وذيل طبقات الحنابلة وغيرها. انظر: الأعلام ٣/ ٢٩٥.

اشتداد هبوب الرياح، وعند رؤية الأهلّة وعند رؤية باكورة الثمار، ويشرع أيضاً ذكر الله ودعاءه عند نزول الكرب وحدوث المصائب الدنيوية وعند الخروج للسفر، وعند نزول المنازل في السفر وعند الرجوع من السفر، ويشرع التعوّذ بالله عند الغضب وعند رؤية ما يكره في منامه، وعند سماع أصوات الكلاب والحمير بالليل، ويشرع استخارة الله عند العزم على ما يظهر الخيرة فيه، وتجب التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1]، فمن حافظ على ذلك لم يزل لسانه رطباً بذكر الله)[2]. وشمولية الذكر التي نعنيها هي التي حدت بكثير ممن ألّفوا في الأذكار إلى تسمية كتبهم بـ (عمل اليوم والليلة)، وذلك للتدليل على أنه ليس هناك وقت للمسلم ولا حال في ليلٍ أو نهار لم يأته فيها من هدي الشارع ذكر، فالحمد لله الذي شرع لعباده وسيلة وصِلة بينهم وبينه ليس لها انقطاع.

وآخر شيء أنت في كل هجعة وأول شيء أنت وقت هبوبي

إذاً (شرع الإسلام للمسلم أذكاراً كثيرة مستغرقة كل أوقاته في ليله ونهاره صباحه ومسائه ـ كل ـ ذلك حتى يبقى العبد مرتبطاً في كل لحظة بخالقه يحتمي من كلِّ شرّ بحماه ويتحصّن بعظمته وأسمائه ويستعين به على أمور دينه ودنياه)[3].

وإذا تصفّحنا كتب السنّة وقرأنا فيها أبواب الدعاء وجدنا أدعية الرسول ﷺ في كلِّ حالٍ من أحواله وشأن من شؤونه لا سيما عند الكرب[4].

وهذه هي الناحية الأولى من شمولية الذكر الشرعي وهي الأهمّ، فكتاب

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٤٢٣ لأبي الفرج زين الدين عبد الرحمٰن بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، توزيع الباز، مكة.

(٣) مسك الختام في الذكر والدعاء بعد السلام ص٥، أحمد بن سعيد بن خميس الأنبالي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٤) حياة القلوب بدعاء علّام الغيوب ص١٢ ـ ١٣ لأبي السمح محمد عبد الظاهر بن محمد نور الدين، الطبعة الثالثة، ١٣٨٠هـ، مطبعة دار نشر الثقافة.

الله الذي لم يفرط في شيء ما كان ليفرط في ذكر الله ويبقي فيه مساحة لمستزيد كيف وهو ذاته ذكر، فقد سمّاه الله ذكراً، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[1]، ووصفه الله بالذكر فقال سبحانه: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾[2]، وأخبر سبحانه بأن القرآن ذكرٌ له، وذلك في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[3]، وبذلك أصبح المُعرض عن القرآن مُعْرضاً عن ذكر الله سواءً بسواء، وسنّة سيد الذاكرين لم تُبق في ذكر الله لقائل قولاً، ومن هذا المنطلق يكون النقاش مع الذين ضاق بهم الواسع ولم يسعهم الشامل وأخذوا يتعاطون بالزيادة في دين الله الكامل.

الناحية الثانية: شمولية الذكر الشرعي لفكر الإنسان وقلبه وجميع جوارحه، وهي تتعلّق بأنواع الذكر التي لم نتعرّض لها في الناحية الأولى، إذ أن الكلام هناك لم يشمل غير الحديث عن الذكر اللساني، والذكر كما سيأتي معناه في التعريف: أنواع، وستكون الإشارة هنا في شمولية الذكر الشرعي للجوارح والقلب والفكر، بحيث يكون الإنسان بكلّيته في حركاته وسكناته عابداً لله ذاكراً له امتثالاً لقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾[4]. فتفكّر الإنسان قبل أن ينطق، وقصده قبل أن يعمل، فضلاً عن كل حركة من حركات جوارحه ومدارسته للعلم ليعلم أين أمر الله ونهيه حتى يأتي أو يَذَرْ، وتأمّله في أحكام الله وحكمه، كل ذلك عبادة إذا كان مع ذكر الله ولأجله؛ كما قال جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾. والكلام في الذكر وشموله من هذه الناحية متّسع وطويل ولا يحسن استباقه قبل الحديث عن مفهوم الذكر الشرعي[5]، فنرجئ الحديث عنه إلى ذلك الموضع مكتفين بهذه الإشارة، مع القول بأن شمولية الذكر الشرعي كما شملت وقت المسلم وأحواله، فهي شاملة لفكره وقلبه وجوارحه.

(1) سورة الحجر: الآية ٩.
(2) سورة الأنبياء: الآية ٥٠.
(3) سورة طه: الآية ١٢٤.
(4) سورة الأنعام: الآية ١٦٢ ـ ١٦٣.
(5) سورة الإسراء: الآية ٥٥.
(6) انظر ص٥٥ سعة مفهوم الذكر الشرعي.

المبحث الثاني

التعريف بمفردات الموضوع

الذكر ـ الاتّباع ـ الابتداع

المطلب الأول

تعريف الذكر في اللغة والاصطلاح

❖ الذكر في اللّغة:

مصدر: ذَكَرَ يذْكُر ذِكْراً وذُكراً، وهو حالة غير الإنصات والنسيان، قال في التهذيب[1]: ذكر، يقال: ما زال ذاك مني على ذِكر وذُكر...

والذِّكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، قال: والذكر بالقلب، يقال: ما زال مني على ذكر، أي لم أنسه... والذكر يأتي بمعنى الشرف والصيت، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2]، والحروف الثلاثة: الذال، والكاف، والراء، أصل، وذكر الشيء خلاف نسيانه، ثم حمل على الذكر باللسان، والذكر يطلق على العلاء والشريف أيضاً من باب القياس[3].

الذكر والذِّكرى بالكسر والذكرة، كلّه خلاف النسيان، كما قيل:

أنّى ألمّ بك الخيال بطيفِ ... ومطافه لك ذكرة وشُعُوف

الذكرى. وقولهم: اجعله منك على ذكرٍ بمعنى، ويأتي الذكر للصيت

(1) انظر: تهذيب اللغة ١٠/ ١٦٢ لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري.
(2) سورة الزخرف: الآية ٤٤.
(3) انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٨٥ لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، طبعة دار الكتب العلمية، إيران.

والثناء؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾[1] أي: ذي الشرف، وذكرت الشيء بعد نسيان وذكرته بلساني وبقلبي وتذكّرته وأذكرته غيري وذكرته كل ذلك بمعنى، قال تعالىٰ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾[2]، أي ذكره بعد نسيان[3]. وفي لسان العرب: «الذكر الحفظ للشيء وتذكره، أو الشيء يجري على اللسان»[4].

وحاصل ما ذكره صاحب القاموس[5] عن مادة ـ ذكر ـ دار حول نفس هذه المعاني، ومن خلال الوقوف في المعاجم على مادة ذُكِر بكسر الذال أو بضمّها أو حتى الاسم منها ـ ذكرى ـ نجد أن إطلاقاتها تتلخّص في ما يلي:

١ ـ الذكر: ضدّ النسيان سواءً كان بالقلب أو بالإحضار في الذهن، كما تفيد العبارة التي ردَّدها أصحاب المعاجم (جعلته مني على ذكر)، أي لم أنسه.

٢ ـ الذِّكْر: بمعنى ما يجري على اللسان.

٣ ـ الذكر: بمعنى الثناء والشرف والصِّيت.

وما بقي من المعاني فهو عائدٌ إلى هذه الثلاث ومتفرّع عليها.

❖ الذكر في الاصطلاح:

الذكر في الاصطلاح: هو ذكر المسلم ربّه سبحانه وتعالىٰ بالثناء عليه بما هو أهله، أو بسؤاله الحاجات والالتجاء إليه لكشف الكربات.

قال في الكلّيات: إذا أُريد بالذكر الحاصل بالمصدر يجمع على (أذكار)

---

(١) سورة ص: الآية ١. (٢) سورة يوسف: الآية ٤٥.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٢/٦٦٤ ـ ٦٦٥، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق عبد الغفور عطار، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين.

(٤) لسان العرب ٤/٣٠٨ ـ ٣١٠، أبي الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، دار صادر، بيروت.

(٥) انظر: القاموس المحيط ص٥٠٧ ـ ٥٠٨، للفيروز آبادي محمد بن يعقوب، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

وهو الإتيان بألفاظ ورد الترغيب فيها، ويطلق ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كالتلاوة وقراءة الأحاديث، ودرس العلم، والنفل بالصلاة[1].

وجاء في الكشاف: أن الذكر يجيء لمعانٍ منها: ذكر اللسان، والإحضار في الذهن وهو ضدّ النسيان، وحاصل المصدر ويجمع على (أذكار) وهي ألفاظ ورد الترغيب فيها والمواظبة على العمل، وذكر القلب، والجزاء والطاعة ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[2]، وأوصل معاني الذكر في القرآن إلى ثمانية عشر[3]، وكذلك في قاموس القرآن كما في الكشاف ذكر أن الوجوه التي جاءت بها كلمة ذِكْر في القرآن ثمانية عشرة وجهاً، ملخّصها: العمل الصالح، الذِّكْر باللسان، الذِّكْر بالقلب، الذكر على الأمر والقصة، الحفظ، العظة، الشرف، الخبر، الوحي والقرآن، التوراة، اللوح المحفوظ، البيان، التفكّر، الصلوات الخمس، صلاة واحدة، التوحيد، الرسول ﷺ[4].

وذكر صاحب المفردات[5] بعضاً من هذه المعاني لكنه لم يتتبع كل الوجوه، والنووي[6] رحمه الله في شرحه على مسلم قال: (وذكر الله تعالىٰ ضربان: ذكر بالقلب، وذكرٌ باللسان، وذكر القلب نوعان، أحدهما: وهو أرفع الأفكار

---

(١) كتاب الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ص٤٥٦، لأبي البقاء أيوب الكفوي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) انظر: كشاف مصطلحات الفنون ١/٣١٨ ـ ٣١٩، محمد علي التهانوي، تحقيق لطفي عبد البديع، المؤسسة العامة، دار الكتاب.

(٤) انظر: قاموس القرآن ـ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن ـ ١٨٠ ـ ١٨٣، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق عبد العزيز سيد هلال، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين.

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن ص١٧٩، الحسين محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني.

(٦) هو محيي الدين يحيى بن شرف بن مري أبو زكريا النووي ثم الدمشقي، وُلد بنوى سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وكان من الزهادة والعبادة والورع والتحري على جانب كبير لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره، توفي في ليلة أربع وعشرين في رجب سنة ستمائة وسبعين وست. البداية والنهاية ١٧/٥٣٩ ـ ٥٤١.

وأجلّها الفكر في عظمة الله تعالىٰ وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه، والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي، فيتمثّل ما أمر به ويترك ما نهي عنه، ويقف عمّا أشكل عليه)[1]. وفي لوامع البيّنات: أن الذكر يكون باللسان والقلب، والجوارح، فذكر اللسان بالألفاظ الواردة، وذكر القلب بالتفكّر في أدلّة الذات والصفات، وفي أدلّة التكاليف، وفي أسرار المخلوقات. أمّا ذكر الجوارح، فبالاستغراق في الطاعات، والخلوّ عن المنهيّات، وعلى ذلك يأتي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2]، وبهذا أيضاً يصبح قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[3] متضمّناً لجميع أنواع الطاعات[4].

والذكر في الاصطلاح: يستعمل بمعنى ذكر العبد لربّه عزّ وجلّ، سواء بالإخبار المجرّد عن ذاته، أو صفاته، أو أفعاله، أو أحكامه، أو بمسألته ودعائه أو بإنشاء الثناء عليه بتقديسه وتمجيده، وتوحيده، وحمده، وشكره وتعظيمه.

ويستعمل الذكر اصطلاحاً بمعنى أخصّ من ذلك، فيكون بمعنى إنشاء الثناء بما تقدّم دون سائر المعاني الأخرى المذكورة، ويشير إلى الاستعمال بهذا المعنى الأخص قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[5]، لجعل الآية الذكر غير الصلاة، وهذا الاستعمال الأخصّ هو الأكثر عند الفقهاء[6].

بهذا الاستعراض لتعريف الذكر ومعانيه الاصطلاحية من كتب

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/١٥، طبعة دار الفكر ١٩٨١م.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٩. (٣) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٤) انظر: لوامع البيّنات شرح أسماء الله تعالىٰ ص٤٨ ـ ٤٩، للفخر الرازي، مراجعة عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٦م.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية ٢١/٢٢٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، طباعة ذات السلاسل، الكويت.

المصطلحات وغيرها يكون المتلخّص مما يطلق عليه الذكر التالي:

يطلق ـ على الذكر بالقلب ـ وعلى الذكر باللسان ـ وعلى الذكر بالجوارح، وأن الأصل في الإطلاق لمصطلح الذكر هو على الذكر القلبي؛ لأنه هو الحامل على ذكر اللسان وذكر الجوارح، ولكن كثرة إطلاق الذكر على الذِّكر اللساني جعلته هو الأسبق إلى الأفهام حين تسمع لفظة ذكر، مع أن المعول عليه في الذكر ما كان بالقلب أو باللسان ولكن بشرط حضور القلب، وبالجوارح ولكن مع حضور القلب وقصد وجه الله ومرضاته، وهذا هو المختار في تعريف الذكر ومعناه.

كما قال الشاعر:

وإني لتعروني لذكراك هزَّة كما انتفض العصفور بلّله القطر[1]

والشاهد أن الشاعر جعل سبب اضطراب جسمه واهتزازه مرور ذكرى المحبوبة بخاطره، وتمكُّن هذه الذكرى من قلبه جعله يقول هذا البيت، ولعلّه بيت ضمن قصيدة، والحاصل أن القول والفعل يتبعان تنبه القلب وتذكره للمذكور.

❊ ❊ ❊

---

(١) البيت لأبي صخر الهذلي، انظر: شرح أشعار الهذليين ٢/٩٥٧، وابن عقيل ٢/ ١٢٢.

المطلب الثاني

الاتّباع لغة واصطلاحاً

❖ الاتّباع في اللغة:

مصدر تَبع يتبع اتّباعاً، أي مضى بالأثر، وفي معجم مقاييس اللغة: (تبع) التاء، والباء، والعين، أصل واحد لا يشذّ عنه من الباب شيء، وهو التلوّ، والقفو يقال: تبعت فلاناً واتّبعته وتبعته إذا لحقته، والأصل واحد غير أنهم فرّقوا بين القفو واللحوق، فغيّروا البناء أدنى تغيير، قال تعالىٰ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[1] ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾[2]، فهذا معناه على هذه القراءة اللّحوق، ومن أهل اللغة من يجعل القراءة فيهما واحدة، والتبع هو الظل وهو تابع أبداً للشخص[3]. فهو هنا حصر مادة ـ تبع ـ بكل تصاريف بابها على أنها لا تشذّ عن معاني: التلوّ والقفو، واللُّحوق.

وجاء في اللسان عن تبع: تبع الشيء تبعاً، وتباعاً في الأفعال وتبعت الشيء تبوعاً سرت إثره... وضع الاتّباع موضع التتبُّع مجازاً... تتبّعه اتّباعاً... وتبعت القوم تَبَعاً وتَباعة بالفتح إذا مشيت خلفهم، أو مرّوا بك فمضيت معهم، وقيل: اتبع الرجل سبقه فلحقه... ـ قال ـ: الاتّباع أن يسير وأنت تسير وراءه فإذا قلت اتّبعته فكأنك قفوته[4].اهـ.

وهنا نرى أنه جعل تصريفات مادة ـ تبع ـ تدور حول السَّيْر بالأثر واللّحوق بمن سبق والمشي خلف القوم، أو المضيّ مع من مَرَّ بك، وقال عن الاتّباع أنه مصدر من الكلمة ووضع مجازاً موضع التتبّع، ومعانيه تدور على ما

(1) سورة الكهف: الآية ٨٥. (2) سورة الكهف: الآية ٨٩.
(3) معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(4) لسان العرب ٨/ ٢٨.

ذكرنا، وبما أن التعريف اللغويّ هو الإتيان بمرادف للكلمة المعرّفة، فإن ما تلخّص معنا من المضامين المرادفة لكلمة تبع واتبع هو: القفو، واللّحوق، والسير بالأثر، والمشي خلف من سبق، والمضيّ مع المارّ، والتلوّ؛ وهذه المعاني كلها تفيد الاتّباع، ولعلّ هذا الكم من المترادفات يهيّئ الذهن للمعنى الاصطلاحي.

❖ الاتّباع في الاصطلاح:

قال في قاموس القرآن: تبع على سبعة أوجه: الصحبة، والاقتداء، والاختيار، العمل، الصلاة، الاستقامة، الطاعة.

١ ـ فوجه منها الاتّباع يعني الصحبة، قوله تعالىٰ في سورة الكهف: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾[1] هل أصحبك، ومثله فيها: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾[2] أي صحبتني.

٢ ـ الثاني: الاتّباع: الاقتداء، قوله تعالىٰ في سورة يسٓ: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[3]، أي: اقتدوا به.

٣ ـ الاتّباع: الاستقامة، قوله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[4].

الاتّباع: الاختيار، قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، أي يختار غير دين الإسلام، وقوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾[6]، أي: يختارون... قال: السابع: الاتّباع: الطاعة، قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[7]، يعني: أطعتم الشيطان، كقوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[8]، يعني: أطاعوه ونحوه كثير[9]. وفي المفردات في غريب القرآن:

(1) سورة الكهف: الآية ٦٦. (2) سورة الكهف: الآية ٧٠.
(3) سورة يسٓ: الآية ٢١. (4) سورة النحل: الآية ١٢٣.
(5) سورة النساء: الآية ١١٥. (6) سورة آل عمران: الآية ٧.
(7) سورة النساء: الآية ٨٣. (8) سورة سبأ: الآية ٢٠.
(9) قاموس القرآن ـ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ـ ص٨٦ ـ ٨٧، الحسين الدامغاني، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، تحقيق سيد هلال.

قال عن تبع: يقال تبعه وأتبعه قفا أثره، وذلك تارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]... اهـ[3].

جاء في النهاية: ما حاصله أن التابع يكون وراء المتبوع، يطلب أثره[4].

والاتّباع كما يطلق على المشي بالأثر - حسّاً - فهو يطلق على العمل بكلام الغير والاقتداء به، ويطلق على التمسّك بالآثار المروية دون الأخذ باستحسان الرأي ويطلق على التقليد[5].

وبعد هذا الاستعراض للمعاني الاصطلاحية للاتباع، أصبحت لدينا الآن إطلاقات ووجوه كثيرة لمعانيه في القرآن، ولعلّ كلمة تبع هي واحدة من تلك الكلمات الثرية التي قد يصعب حصر ما يرادفها من الكلمات المؤدّية لنفس المعنى، فهي إن كانت تفيد في اللغة القفوّ، واللّحوق، والتلوّ، والمشي بالأثر، والصحبة الخ.

فهي تفيد في الاصطلاح كما مرّ الاقتداء والائتمار والائتمام والطاعة والعمل بالأثر والتقليد والارتسام... الخ ما هنالك، كما جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ ساق الوجوه والصيغ التي جاءت بها معاني تبع في القرآن، فأوصلها إلى أربع وستين لفظة، وخلص من ذلك بأن - تبع - يتبع تعني سار وراءه سواءً كان السير حسّياً أم معنويّاً، والاتّباع المعنوي هو الاقتداء والامتثال، وأكثر ما جاء في القرآن هو من الاتّباع المعنوي[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٨. (٢) سورة يسٓ: الآية ٢٠ - ٢١.

(٣) المفردات في غريب القرآن ص٧٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث ١/ ١٧٩ - ١٨٠ لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الرازي ومحمود محمد الطناحي، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء ص٤٠، محمد رواس قلعة جي وحامد صادق قنبي، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٦) انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/ ١٥١ - ١٥٧، إصدار مجمع اللغة العربية، =

وبهذا نخلص إلى أن معنى الاتّباع هو سير المتّبِع وراء المتّبَع حسّاً ومعنًى بالاقتداء والامتثال والطاعة في القول والعمل مع عدم منازعته برأي أو استحسان، والله أعلم.

* * *

= الطبعة الثانية ١٩٧٠، المطبعة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف.

مفهوم الاتّباع

ما وصلنا إليه من المعنى الاصطلاحي للاتباع يفاد من خلاله أن على المرء حين يودّ أن يكون في مقام الاتباع، فعليه أن يسير وراء متبوعه حسّاً ومعنًى ويقتدي به في أفعاله ويمتثل نواهيه، ويلتزم بطاعته في القول والعمل، ولا ينازعه برأيه وعقله، وعليه بقي أن نسأل من المُتَّبع إذاً...؟

فالمتبع المقتدي به المطاع هو الرسول محمد بن عبد الله ﷺ؛ كما قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[2]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي جاءت في وجوب طاعة الرسول ﷺ واتّباعه والرجوع إليه، والتحاكم إليه، والرضى بقضائه والتسليم له، والانتهاء عن نواهيه، وعدم مخالفته، وبيان أنه لا طريق توصل إلى الله إلّا التي سلك؛ إذ (الطريق إلى الله عزّ وجلّ مسدود على خلق الله تعالىٰ، إلّا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ والتابعين لسنّته)[6].

ولقد جاء في السنّة النبوية أيضاً ما يؤكّد معنى الاتباع من وجوب الطاعة

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٢.

(٣) سورة النور: الآية ٥٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٥) سورة الحشر: الآية ٧.

(٦) تلبيس إبليس ص١٩ لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، تحقيق السيد الجميلي، الطبعة السابعة ١٤١٤هـ، دار الكتاب العربي.

له ﷺ، فمن ذلك ما أخرجه البخاري[1] بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمّتي يدخلون الجنّة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنّة ومن عصاني فقد أبَى»[2]، وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله»[3].

وجاء عنه ﷺ قوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد...»[4] ـ وفي رواية ـ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[5]، فهذه الأحاديث تؤكد الاتباع وتوضح مفهومه ومعالمه بتأكيدها لوجوب الطاعة للرسول ﷺ والتحذير من مخالفة طريقه وسنّته وبيانها أن كل عمل لا يوافق عمل النبيّ ﷺ فهو مردود على صاحبه، ومن خلال هذه النصوص فإن الاتباع يكون بموافقة النبيّ ﷺ ومتابعته في سنّته قولاً وعملاً وتركاً، فالحلال ما أحلّ والحرام ما حرّم، والدين ما شرع والخروج عن ذلك إحداث وابتداع، وهو رد على صاحبه، ولا يشذّ عن هذا شيء مما هو دين وقربة، ظلّت العقول محجوبة

(١) وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، وقيل: بردزبه لفظة بخارية معناها الزراع الجعفي مولاهم أبو عبد الله البخاري الحافظ إمام أهل الحديث في زمانه والمقتدى به، وُلد في سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفي سنة ست وخمسين ومائتين.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩١ ـ ٤٦٨، والبداية والنهاية ١/٥٢٦ ـ ٥٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، انظر: صحيح البخاري مع الفتح ١٣/٢٦٣ برقم ٧٢٨٠.

(٣) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾، انظر: صحيح البخاري مع الفتح ١٣/١١٩ برقم ٧١٣٧، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية الله، انظر: مسلم مع النووي ١٢/٢٢٣.

(٤) الحديث أخرجه البخاري، انظر: صحيح البخاري مع الفتح ٥/٣٥٥، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، برقم ٢٦٩٧، ومسلم مع النووي، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام ١٢/١٦.

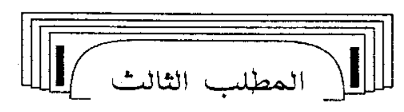
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٦.

عنه قبل نور الوحي؛ كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[1]، يقول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه: (عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبدٍ على سبيل وسنّة ذكر الرحمٰن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسّه النار)[2]، فالذكر هو المنجي من النيران، والذاكر هو السابق إلى الجنان، ولكن بشرط الإخلاص والمتابعة.

* * *

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٢) الأمر بالاتّباع والنهي عن الابتداع ص٤٨ لجلال الدين السيوطي، تحقيق مشهور حسن سلمان، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، دار ابن القيم.



الابتداع في اللغة والاصطلاح، والخلاف في البدعة

الابتداع: مصدر من باب الافتعال، من بدع الشيء إذا كان السابق إليه.

وفي جمهرة اللغة: (بدع) بدعت الشيء إذا أنشأته، والله عزّ وجلّ بديع السماوات والأرض أي منشئهما... وقول العرب: لست ببدع في كذا أو كذا، أي: لست بأول من أصابه هذا، وهو من قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]، والله أعلم بكتابه، وكل من أحدث شيئاً فقد ابتدعه والاسم البدعة[2].

وجاء في اللسان عن ـ بدع ـ: بدع الشيء يبدعه بدعاً، وابتدعه أنشأه وبدأه والبديع والبدع الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: ما كنت أول من أُرسل، والبدعة الحدث وما ابتدع في الدين بعد الإكمال، وابتدعت الشيء اخترعته لا على مثال، والبديع من أسماء الله تعالىٰ لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شيء[3].

وعلى هذا، فإن مدار ـ بدع ـ التي هي أصل المصدر ـ الابتداع ـ هي على ما يلي: الابتداء للشيء، والاختراع له، والإنشاء، والشيء يكون أول، وكل ذلك من فاعله على غير مثالٍ سابق.

وقد يكون منه ذلك بزيادة في الشيء لم تكن فيه أو بنقص مما كان عليه، وقد فصل في ذلك لسان العرب واستطرد في البدعة تكون في الدين بعد

(١) سورة الأحقاف: الآية ٩.

(٢) جمهرة اللغة ١/٢٤٥ لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ، مطبعة المعارف العثمانية.

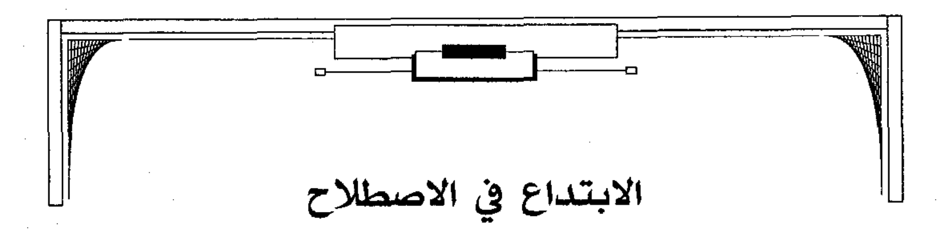
(٣) لسان العرب ٨/٦.

الإكمال، وذكر أقسامها وساق أدلّتها وشواهدها وأتى بمنقولات لذلك[1].

وخلاصة القول هنا: أن الابتداع هو اختراع وابتداء وإنشاء لشيء لم يكن، وقد يكون بإضافة زيادة على ما كان أو بإنقاص منه، بحيث يصبح على غير ما كان.

❊ ❊ ❊

(١) انظر المصدر نفسه.



الابتداع في الاصطلاح

❖ الابتداع اصطلاحاً:

هو الإحداث في الدين سواء كان بالزيادة فيه أو بالنقص منه، وهذا الإحداث الذي يكون في الدين هو الذي عبّر عنه الشارع بأنه بدعة، ففي حديث العرباض بن سارية الذي ذرفت منه عيون الصحابة ووجلت منه قلوبهم يقول فيه النبيّ ﷺ: «فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة...»[1].

فمن هنا سُمّي كل ما يُحدث في الدين بدعة، وأصبحت البدعة علماً لما يُخترع في الدين مع أنها في اللغة تطلق على كل مخترع لغير مثالٍ سبق، سواء كان في الدين أو غيره. وعلى هذا يبقى أن نسأل عن تعريف العلماء للبدعة لكي تتميّز في الاصطلاح عنها في اللغة.

ففي ـ التعريفات ـ قال عن البدعة: (هي الفعلة المخالفة للسُّنَّة سُمّيت البدعة لأن قائلها ابتدعها من غير مقال إمام)[2]، والبدعة عبارة عن: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبّد لله

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٦، وأبو داود في كتاب السنة باب لزوم السنة ٤/٢٠٠ ـ ٢٠١ برقم ٦٤٠٧، والترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة ٥/٤٤ برقم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء ١/١٥ برقم ٤٢، وصححه الألباني في صحيح السنن. انظر: صحيح سنن الترمذي ٢/٣٤١ برقم ٢١٥٧، وصحيح سنن ابن ماجه ١/١٣ برقم ٤٠.

(٢) التعريفات ص٤٤ للفاضل علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت ١٩٦٩م.

تعالىٰ... وهذا على رأي من لا يدخل فيها العادات ويخصّ معنى البدعة بالعبادات[1]. وفي كشاف اصطلاحات الفنون: البدعة هي ما أحدث وخالف كتاباً أو سُنّة أو إجماعاً أو أثراً، فهو البدعة الضالَّة... والتي هي في الشرع: ما أحدث على خلاف الشرع ودليله الخاص والعام[2].

فالبدعة هي: عبارة عن فعلة تصادم الشريعة بالمخالفة أو توجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان[3].

ومن هذه التعاريف يتلخّص أن البدعة هي الطريق المبتدع المخترع ـ على غير مثال تقدم من الشارع؛ إذ البدعة إنما خاصّتها، أنها خارجة عمّا رسمه الشارع[4].

والبدعة بهذا المعنى كما هو واضح هي متقابلة مع الاتباع مقابلة التعاكس والمناقضة، ذلك لأن المبتدع متّبع لهواه أو هوى من أنشأ له تلك البدعة، وأمّا السنة فهو لها معاند وعنها حائد وإلى غيرها متولّي، ومن كان هذا شأنه فكأنه اتّخذ لنفسه شارعاً غير الشارع المعصوم ﷺ، الأمر الذي تأباه العقول السليمة؛ لأن الدين تسليم ومتابعة، والابتداع معاندة ومخالفة، وهو ما جاءت نصوص الشريعة بذمّه والتحذير منه لأنه ابتداع وضلال في آن.

على أن هناك خلافاً قد حصل بين أهل العلم في ذمّ البدعة هل هو على عمومه أم أن هناك قسم من البدعة لا يناله الذم، ويكون من باب البدعة الحسنة؛ كما هو قول أحد الفريقين، ومن الأحسن هنا أن نسوق أقوال الفريقين واستدلالاتهم ليتّضح لنا وجه الخلاف.

الفريق الأول: يرى أن البدعة تنقسم إلى قسمين مذموم ومحمود،

---

(١) انظر: الاعتصام ص٣٦ ـ ٣٧ لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تعريف محمد رشيد رضا، دار الفكر، المكتبة التجارية مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة.

(٢) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٩١.

(٣) انظر: الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ٨١ ـ ٨٢ لجلال الدين السيوطي، تحقيق مشهور حسن سلمان، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، دار ابن القيم للنشر.

(٤) انظر: الأعتصام ١/ ٣٧.

ويأتي في مقدمة هذا الفريق الإمام الشافعي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول: (البدعة بدعتان بدعة محمودة، وبدعة مذمومة... ويقول: المحدثات من الأمور ضربان: **أحدهما**: ما أحدث يخالف كتاباً أو سنّة أو إجماعاً أو أثراً فهذه البدعة الضلالة.

والثاني: ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا، فهي محدثة غير مذمومة، وقد قال عمر رضي الله عنه في قيام شهر رمضان: نَعِمَت البدعة هذه...)[2]، وإلى هذا الرأي يذهب ابن الجوزي[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو يقول: (والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان... وقد جرت محدثات لا تصادم الشريعة ولا تتعاطى عليها، فلم يروا بفعلها بأساً، كما روي أن الناس كانوا يصلون في رمضان وحداناً، وكان الرجل يصلّي فيصلّي بصلاته الجماعة، فجمعهم عمر بن الخطاب على أُبيّ بن كعب رضي الله عنه فلمّا خرج فرآهم قال: نعمت البدعة هذه...)[4]، فهو يرى كما يرى الشافعي انقسام البدعة إلى قسمين: محمود ومذموم، ويستدلّ بذات الأثر الوارد عن عمر رضي الله عنه في صلاة التراويح.

ومن هذا الفريق أبو شامة[5] صاحب كتاب (الباعث على إنكار البدع

---

(١) الشافعي: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المطلبي، ولد بغزّة سنة ١٥٠، وحمل إلى مكة، وإليه تنسب الشافعية، توفي في ٢٠٤هـ.
انظر: البداية والنهاية ١٠/ ٢٥١، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التراويح، باب فضل من قام رمضان، البخاري مع الفتح ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥ برقم ٢٠١٠.

(٣) ابن الجوزي: هو جمال الدين أبو الفرج، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد القرشي التيمي البكري، البغدادي، الفقيه الحنبلي الحافظ المفسّر الواعظ المؤرخ الأديب، المعروف بابن الجوزي، ولد ببغداد سنة ٥١١هـ أو ٥١٢هـ، وتوفي ليلة الجمعة سنة ٥٩٧هـ في داره.
انظر: شذرات الذهب ٤/ ٢٢٩ ـ ٣٣١، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥ وما بعدها، والبداية والنهاية ١٦/ ٧٠٦ ـ ٧١٠.

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص٢٥، ٢٦.

(٥) أبو شامة، هو: عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس =

والحوادث)، فقد ذكر في كتابه انقسام البدعة إلى مستحبّة ومستقبحة، ثم نقل قول الشافعي وما استدلّ به من صنيع عمر رضي الله عنه وذكر وجه الاستدلال، بل إنه ذهب إلى أن البدعة الحسنة مجمع على جوازها، حيث قال: (فالبدع الحسنة: متفق على جواز فعلها والاستحباب لها، ورجاء الثواب لمن حسنت نيّته فيها، وهي كل مبتدع موافق لقواعد الشريعة غير مخالف لشيءٍ منها، ولا يلزم من فعله محذور شرعي)[1]، والكلام عن الإجماع على جواز فعل البدعة الحسنة غير دقيق كما سيتّضح لنا ذلك حين نعرض لوجوه الخلاف في هذه المسألة.

ومن هذا الفريق أيضاً السيوطي[2] رحمه الله، فهو يرى تقسيم البدعة إلى بدعة

= المقدسي الدمشقي الشافعي عالم جليل، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة ٥٩٩هـ، وهو محدث ومفسر وفقيه وأصولي مجتهد، ومؤرخ ونحوي، درّس وأفتى، وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، وله مؤلفات كثيرة، منها: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ومختصر تأريخ ابن عساكر، وتأريخ دمشق الكبير، والصغير، والوصول في الأصول، والباعث على إنكار البدع والحوادث وغيرها.

انظر: شذرات الذهب ٥/٣١٨، والأعلام ٤/٧٠.

(١) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث ص٢٠ ـ ٢٢.

(٢) هو: عبد الرحمٰن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين، الخضيري الأسيوطي، ولقبه جلال الدين لقّبه به أبوه، ولد في رجب سنة ٨٤٩هـ، نشأ يتيماً، وحفظ القرآن وعمره ثمان سنوات، وكذلك بعض المتون في أنواع من الفنون، واشتغل بالعلم مبكراً، وتلقّى على كثير من الشيوخ، منهم البلقيني، والمناوي، وتقي الدين الشبلي وغيرهم، وسافر إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب، يقول عن نفسه: ورزقت التبحر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، ولو شئت أن أكتب في كل فصل مصنفاً بأقوالها وأدلّتها النقلية والعقلية لفعلت... الخ، وقد تعرض لمنازعة معاصريه، ومن أسباب ذلك أنه صرّح بأنه مجدد قرنه؛ كما يقول:

وهذه تاسعة المئين قد أتت ... ولا يخلف ما الهادي وعد

وقد رجوت أنني المجدد ... فيها ففضل الله ليس يجحد

ومؤلفاته حافلة وكثيرة وجامعة ومتقنة ومحرّرة، وربما نيفت على الخمسمائة مؤلف، ثم إنه تجرّد للعبادة، وأعرض عن الدنيا وأهلها منقطعاً إلى الله، وعمل على تحرير =

مذمومة وغير مذمومة، ونقل آراء من سبقه إلى ذلك ممن ذكرنا[1].

الفريق الثاني: يرى أن البدعة من حيث الذم لا تنقسم، فهي ليست حسنة وقبيحة، بل هي حين تكون فيما يتعلق بالدين ليس لها إلّا الذم؛ لأن الدين على الاتّباع والبدعة ضد ذلك، ويأتي في مقدمة هذا الفريق الإمام مالك بن أنس رحمه الله، فهو يقول: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[2]، فما لم يكن يومئذٍ ديناً فلا يكون اليوم ديناً)[3].

ومن هذا الفريق الإمام أحمد بن حنبل[4] رحمه الله، فهو يرى أن البدعة لا تكون إلّا ضلالة، وأن النصوص التي ذمّتها على إطلاقها[5]. وشيخ الإسلام ابن تيمية[6] رحمه الله أيضاً يرى أن البدعة لا تنقسم، وهي لا تكون

= مؤلفاته وترك الإفتاء والتدريس، وأقام في روضة المقياس ولم يتحوّل عنها، إلى أن مات، وكان الأغنياء والأمراء يأتون إلى زيارته ويعرضون عليه الأموال فيردّها، وقد توفي رحمه الله بعد أذان فجر يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ.

انظر لتراجمه في: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ١/١٩١، وصفحات متعدّدة بعدها إلى ٤٢٧، ومعجم المؤلفين ٥/١٢٨ ـ ١٣١، والأعلام ٣/٣٠١ ـ ٣٠٢.

(١) انظر: الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص٨٧ ـ ٩١ للسيوطي، تحقيق مشهور حسن سلمان، الطبعة الثانية، دار ابن القيم ١٤١٦هـ.

(٢) سورة المائدة، الآية ٣. (٣) انظر: الاعتصام ١/٤٩.

(٤) أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الذهلي الشيباني المروزي البغدادي، أحد الأئمة الأعلام، ساق نسبه بهذه الصفة ابنه عبد الله، واعتمده أبو بكر الخطيب في تأريخه، ولد سنة ١٦٤هـ، وتوفي رحمه الله سنة ٢٤١هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١١/٧٧ ـ ٧٩، والبداية والنهاية ١٤/٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٥) انظر: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ٢١٨ عبد الرؤوف محمد عثمان، طبع الإفتاء السعودية بالرياض نقلاً عن طبقات الحنابلة، دار المعرفة بيروت ١/٢٤١.

(٦) ابن تيمية هو: شيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، كنيته =

إلّا مذمومة[١].

ورأي هذا الفريق واضح، فهو يسير مع ما ورد من النصوص في ذمّ البدعة، وأنها ضلالة كلها؛ كما في قوله ﷺ: «... وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٢]، وقوله: «... وشرّ الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[٣]، فرأيهم أن هذا الإطلاق على عمومه ولا يستثنى من ذم البدعة شيء.

والإشكال هو في رأي الفريق الأول الذي يرى أن هذا العموم في ذمّ

= أبو العباس، ولد يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول بحرّان سنة ٦٦١هـ، ولما بلغ سبع سنين انتقل مع والده إلى دمشق هرباً من وجه التتار، وقد نشأ في بيت علم وفقه ودين، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير، منهم جدّه الأعلى وجدّه الأدنى أبو البركات صاحب التصانيف، وأبوه وأخوه، وقد بدأ بطلب العلم أولاً على أبيه وعلماء دمشق، فحفظ القرآن وهو صغير ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وقد عرف بالذكاء وقوّة الحفظ والنجابة منذ صغره، وتوسّع في دراسة العلوم وتبحّر، واجتمعت فيه صفات المجتهد، وقد ترك تراثاً عظيماً من المؤلفات، ولم يترك مجالاً من مجالات العلم إلّا كتب فيه وأسهم، وقد شهد له الأقران والخصوم بسِعَة الاطّلاع وغزارة العلم، وكان مجاهداً بالقلم والسيف، فقد شارك في معارك الدفاع عن حمى المسلمين، وكانت له مواقف في تحريض الجيوش المسلمة، وقد تصدّى بالقلم ووقف أمام الملل والنحل والفرق والمذاهب الباطلة والبدع وأصحابها، وقد عُرف بالصبر واشتهر بالخصال الحميدة آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وقد ظهر في عصر ماجت فيه الساحة بالبدع والخرافات والشبهات، وغزيت بلاد المسلمين من قبل التتار، فشارك في التصدي لكل ذلك، وتوفي رحمه الله وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، فهبّ الناس في دمشق ومن حولها للصلاة عليه وتشييعه، بما يصعب وصفه ويقلّ نظيره.

انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥ ـ ١٣٩، وشذرات الذهب ٦/ ٨٠ ـ ٨٦، والأعلام ١/ ١٤٤.

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/ ١٠٧ ـ ١٠٨، طبع وزارة الشؤون الإسلامية في مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف ١٤١٦هـ.

(٢) الحديث سبق تخريجه في ص٤١.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجمعة باب خطبته ﷺ في الجمعة، انظر: مسلم مع النووي ٦/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

البدعة ليس على إطلاقه، وأن من البدع ما هو حسن، وأبرز ما استدلّوا به هو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة التراويح: (نعمت البدعة هذه)[١]، ووجه الاستدلال من ذلك يتلخّص في أنها لو كانت سنّة لما سماها بدعة، ولو كانت داخلة في الذم لما مدحها بقوله: نعمت البدعة، فهي بدعة حسنة.

ومن أدلتهم ما جاء في الصحيح من قوله ﷺ: «... من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده...»[٢]، ووجه الاستدلال من هذا الحديث يتلخّص في أنه نسب الاستنان إلى المكلف، ثم وصفه بالحسن ووعده بالأجر[٣].

ومراد هذا الفريق هو تخصيص العموم الوارد في ذمّ البدعة وأنها ليست كلها ضلالة، بل إن منها المحمود والمذموم[٤].

والراجح هو ما ذهب إليه الفريق الثاني الآخذ بالأدلّة الصريحة، ولأن إبقاء النصوص على عموم النهي أولى من تخصيصها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله في ذلك: (إن المحافظة على عموم قول النبيّ ﷺ: «كل بدعة ضلالة» متعيّن، وأنه يجب العمل بعمومه)[٥]. ثم إن ما استدلّ به الفريق الأول للتخصيص ليس من محل النزاع؛ لأنه ليس مما يدخل في البدعة أصلاً، فصلاة التراويح سنّة، والمشار إليه في حديث: (من سنّ في الإسلام) هي الصدقة وهي أمرٌ مشروع.

وبهذا نكون قد عرّفنا مراد كل من الفريقين، وإن كنا لم نأت على معظم أدلّتهم ولم نتوقف عند مناقشة بعضهم لأدلّة البعض الآخر؛ كما أننا لم نستقص كل من كان مع أي من الفريقين ممن تعرض لهذه المسألة من أهل العلم، فالمقام هنا إنما هو لتعريف البدعة، والكلام على قدر ما يتّضح به معناها.

---

(١) سبق تخريجه، انظر ص٤٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة باب الحثّ على الصدقة، مع النووي ٧/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) انظر: الاعتصام ١/ ١٧٨.

(٤) انظر: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٥) انظر: الفتاوى ١٠/ ٣٧٠.

والجدير هو معرفة وجه الاختلاف ووجوه الاتفاق بين رأي الفريقين فيما يتعلق بما أطلق عليه: (البدعة الحسنة)، فوجوه الاتفاق هي في كون الفريقان متّفقين على ذمّ البدعة المذمومة شرعاً، وعلى أن كل ما لا دليل عليه من الشرع ولا يدخل تحت أصل من أصوله فهو ملحق بالمذموم، ولا خلاف عليه، ولعل من أطرف وجوه الاتفاق أن الفريقين متفقان على أن المختلف فيه بينهما من المحدثات حسن وغير مذموم؛ لأنه يندرج تحت أصل شرعي مقرّر، أو كونه مما لا يتمّ الواجب إلّا به، أو لكونه من المصالح المرسلة[١].

ووجه الخلاف في رأي الفريقين يتمثل: في أن هذا القسم الذي اعتبره الفريق الأول داخلاً في البدعة هو في اعتبار الفريق الثاني خارج عنها.

فما سمّاه الفريق الأول بدعة حسنة، هو في تسمية الفريق الثاني سنّة حسنة مما يجعل الخلاف لفظي وهو في تسمية هذا الجزء المستحسن، وإن كان مآل الأمرين واحد[٢].

وهنا أمور مهمة مستفادة من موقف الفريقين يتعيّن ذكرها، وهي:

١ - أن ما لا دليل عليه من الشرع، ولا يدخل تحت أصل من أصوله فهو بدعة مذمومة من كل الوجوه دون أي خلاف.

٢ - إن التحسين والتقبيح وكون الفعلة حسنة أو سيّئة هي أمور شرعية لا يستقلّ العقل بمعرفتها دونه، وليس هناك كثير نزاع بين أهل السنة في هذا[٣].

٣ - إن ما مثل به الفريق الأول مما اختلف في تسميته هو مما يندرج تحت أصل من أصول الشرع أو مما حسّنه.

٤ - إن من كان دليله الهوى في إنشاء المحدثات واعتماده على مقياس العقول

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي ١/ ١٨٢ - ١٨٥.
(٢) انظر: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ص٢٤٢.
(٣) انظر: الاعتصام ١/ ١٨٤.

في تحسينها أو تقبيحها، فهو بمعزل عن أهل السنة وينعق في وادٍ آخر، وليس له في هذا الخلاف أي مستند، فأهل السنة بمجموعهم يقفون صفّاً واحداً في وجه أهل الأهواء والبدع.

ولعلّ ما يوضح ذلك هو معرفة ما كان عليه أصحاب الرأي الأول القائل بالبدعة الحسنة من الدفاع عن السنة ومحاربة البدع وأهلها، بدءاً من الشافعي ومروراً بابن الجوزي في التلبيس، وأبي شامة في الباعث على إنكار البدع والحوادث، وانتهاءً بالسيوطي في الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع.

❊ ❊ ❊

الباب الأول

الذكر الشرعي وآثاره

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الذكر الشرعي وضوابطه وآدابه.

الفصل الثاني: تحقيق الذكر الشرعي للتوحيد.

الفصل الثالث: آثار الذكر الشرعي.

الفصل الرابع: مصادر الذكر الشرعي.

الفصل الأول

مفهوم الذكر الشرعي

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: سعة المفهوم الشرعي للذكر.

المبحث الثاني: كيف يكون الذكر شرعياً.

المبحث الأول

سعة المفهوم الشرعي للذكر

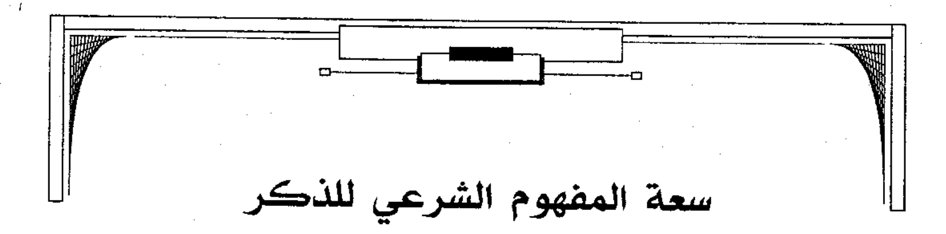
التمهيد

سيكون الكلام في هذا الفصل في مبحثين:

المبحث الأول: حول مفهوم الذكر في الشرع، نتلمّس فيه مقاصد النصوص الشرعية المتعلّقة بالذكر، لنخرج من خلال هذا التلمّس والتتبّع، بمفهوم للذكر واسع، سِعَة هذا الدين، وشامل شمولية النصوص الشرعية، التي أحاطت حياة الإنسان وكيانه وتقلّباته بالذكر، ذلك لأنها أطلقت الذكر على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، وعلى الوحي وعلى القرآن، بل وعلى الدين كلّه، فضلاً عن إطلاقه على ذكر الله سبحانه باللسان.

المبحث الثاني: سيكون الكلام فيه عن ما هو الذكر الشرعي، وكيف يكون الذكر شرعياً، وما هي الضوابط والآداب التي تجعل الذكر موافقاً لما أراده الله من عباده شرعاً ومحقّقاً لما يستحقه سبحانه من الثناء والتمجيد والتنزيه، وتتحقق منه، من ثمَّ، الثمرة المرجوّة التي هي رضى المذكور سبحانه، وما أعدّه من ثواب للذاكرين في المعاد، وما يعود عليهم من موعود نفع الذكر في الدين والدنيا.

* * *



سعة المفهوم الشرعي للذكر

إن الحكمة من خلق الإنسان هي القيام بعبادة الله؛ كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]، أي لتكون حياتهم كلها عبادة لي، وعلى هذا فإن المتحتّم عليهم هو أن لا تغادر العبادة شيئاً من حياتهم إلّا وشملته، والذكر هو روح العبادة ومعناها ومبناها، وليس للعبادة معنىً ولا قيمة، إذا لم تكن ذكراً لله، وشمولية الذكر للعبادة هي كشمولية العبادة للحياة، وتعلو العبادة ويزداد شأنها بقدر تمكن ذكر الله من قلب العابد القائم بها، فإذا كانت الحياة للعبادة، فإن العبادة ما كانت إلّا للذكر.

إذ أن جميع الأعمال إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالىٰ، والمقصود بها تحصيل ذكر الله؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[2]، واللام في لذكري للتعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكري، وفي الحديث الذي روته عائشة ﵂: «إنما جُعِل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله تعالىٰ»[3]، ويلزم منه أيضاً أن تكون إقامة العبادات عند ذكره سبحانه، وقال تعالىٰ: ﴿اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾[4]، فقيل: المعنى إنكم في الصلاة تذكرون الله، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦. (٢) سورة طه: الآية ١٤.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب الرمل ٢/ ١٧٩ برقم ١٨٨٨، والترمذي في كتاب الحج باب كيف ترمي الجمار ٣/ ٣٤٦ برقم ٩٠٢، وصحيح ابن خزيمة ٤/ ٢٧٩ برقم ٢٨٨٢، ومسند أحمد ٦/ ٦٤ ـ ١٣٩، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك مع التلخيص ١/ ٤٥٩.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

تعالىٰ إياكم أكبر من ذكركم إياه، وللآية مقصودان، أحدهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثاني: ما فيها من ذكر الله، وهو أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر[١].

بل إن التفاضل بين أعمال الطاعات وبين العاملين يكون بكثرة وفور الذكر في قلوب المطيعين وفي قوالب الطاعات.

ذلك لأن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً لله عزّ وجلّ، فأفضل الصوَّام أكثرهم ذكراً لله عزّ وجلّ في صومهم، وأفضل المتصدّقين أكثرهم ذكراً لله عزّ وجلّ، وأفضل الحجّاج أكثرهم ذكراً لله عزّ وجلّ، وهكذا سائر الأعمال[٢].

ونشوء الأعمال على تربة الذكر، ومخالطته لها حال الأداء، وتفاضل الطاعات وتفاضل أهلها به، هذه الحقيقة هي التي تعرف من خلالها مكانة الذكر في مفهوم الشرع، والمعنى الذي قصدته النصوص من تفضيل الذكر على كثير من جلائل أعمال الطاعات، قال في فتح الباري وهو يتحدث عن كيف يُفضل الذكر على الجهاد وعلى كل الأعمال، قال: (إن أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، أمّا من اتفق له أن جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته، أو صيامه، أو تصدّقه، أو قتاله الكفار مثلاً، فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالىٰ)[٣].

ثم ذكر ما أجاب به القاضي أبو بكر بن العربي[٤] عن ذلك فقال: (بأنه

---

(١) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٨ ـ ١٠١، ابن قيم الجوزية، المكتبة التجارية بمكة المكرمة، مصطفى الباز.

(٢) انظر: المصدر نفسه ص٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) انظر: فتح الباري ١١/٢١٠.

(٤) ابن العربي: أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي المعروف بابن العربي، ولد سنة ٤٦٨هـ، فقيه ومحدث ومفسّر وقاض، بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، له تصانيف منها: ترتيب السالك في شرح موطأ مالك، =

ما من عمل صالح إلّا والذكر مشترط في تصحيحه، فمن لم يذكر الله بقلبه عند صدقته، أو صيامه مثلاً، فليس عمله كاملاً، فصار الذكر أفضل الأعمال من هذه الحيثية)[١].

وبهذا يتبيّن أن الذكر ليس تربةً للعبادات فقط، بل هو أيضاً نواتها وغرسها وساقها، ثم هو أيضاً ثمرها، فهو الذي يجعل الحياة عبادة، ويجعل العبادة واسعة سعة الحياة، ولذلك (ففضيلة الذكر لا تنحصر في التسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، ونحوها، بل كل عامل لله تعالىٰ بطاعة، فهو ذاكر لله سبحانه، مجالس الذكر، هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحجّ، وأشباه هذا، ويدلّ له)[٢] قوله سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣]، فهؤلاء المثني عليهم يعملون بالتجارة، والبيع والشراء، وذكر الله حاضرٌ في قلوبهم وألسنتهم لم تنفك عنه، ولم يشغلهم عن ذلك شاغل، والله أعلم.

والذكر أيضاً يخالط جوارح المسلم العابد وحواسّه، كما خالط العبادة، فهو كما (قيل: على سبعة أنواع: ذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالحمد والثناء، وذكر اليدين بالبذل والعطاء، وذكر البدن بالجهد والوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء)[٤].

فكل جارحة من جوارح المسلم، وكل جزء من كيانه له طريقة لذكر الله

= ومشكل الكتاب والسنة، عارضة الأحوزي في شرح الترمذي، وأحكام القرآن والعواصم من القواصم وغيرها، توفي سنة ٥٤٣هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٩٦ ـ ٢٩٧، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص١٣٦ ـ ١٣٨.

(١) فتح الباري ١١/٢١٠.

(٢) انظر: نزل الأبرار ص٨ ـ ٩ محمد صديق حسن خان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

(٣) سورة النور: الآية ٣٧.

(٤) لوامع البيّنات ص٦٠، للفخر الرازي، مراجعة عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٦م.

سبحانه وتعالىٰ، كما أن لكل كائن في هذا الوجود لغته التي يسبّح بها مولاه وخالقه ومدبّر أمره: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(١).

ولذلك، فالإسلام حين خاطب الإنسان خاطبه بكله، وحين دعاه إلى السموّ أراد ذلك لكليته، دون أن يغادر منه خلية فضلاً عن جارحة، ذلك لأن الشأن الذي يريده الإسلام لهذا الإنسان، والمهمة التي يودّ انتدابه لها في الكون، لا يتناسب معها، أن يغفل الإنسان عن ذكر الله ولو للحظة.

ومن هنا، فأمر الذكر في مفهوم الشرع عظيم، عظم مسؤولية الإنسان في هذه الحياة، وخطير خطورة ما يحفّ به فيها، ولقد أدرك السابقون المقتفون لهدي سيد الذاكرين ﷺ والحادبون على معرفة مقاصد الشرع ومراميه، ماذا يعني ذكر الله في مفهوم هذا الدين، جاء في الجامع لأحكام القرآن حول قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٢)، أقوال منها: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، الذكر طاعة الله فمن لم يطعه لم يذكره، وإن أكثرَ التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، والذكر ذكران: ذكر الله عزّ وجلّ بين نفسك وبين الله عزّ وجلّ، ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرّم الله عزّ وجلّ(٣).

ويقول بعض أهل العلم: وذكر الله تعالىٰ ضربان: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر القلب نوعان، أحدهما: وهو أرفع الأذكار وأجلّها الفكر في عظمة الله وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سمٰواته وأرضه.

والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي، فيتمثل ما أمره به، ويترك ما نهى عنه ويقف عما أشكل عليه، وأمّا ذكر اللسان مجرّداً فهو أضعف الأذكار، ولكن فيه فضلٌ عظيم كما جاءت به الأحاديث(٤).

والمراد بذكر اللسان الألفاظ الدالّة على التسبيح والتحميد والتمجيد،

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤. (٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/١٧١ أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبع بالأوفست.

(٤) شرح النووي على مسلم ٩/١٦ ـ ١٧/١٥.

والذكر بالقلب التفكّر في أدلّة الذات والصفات، وفي أدلّة التكاليف من الأمر والنهي، حتى يطّلع على أحكامها، وفي أسرار مخلوقات الله، ويكون بالتفكّر في معاني الألفاظ التي يردّدها اللسان، والذكر بالجوارح هو أن تسير مستغرقة في الطاعات، ومن ثم سمّى الله الصلاة ذكراً(١) فقال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٢).

فالسعي إلى الطاعات هو سعي إلى ذكر الله، ومن هنا نعرف أن مفهوم الإسلام للذكر شامل لمفهومه للعبادة؛ إذ أن كل ما يحب الله إتيانه من الأقوال والأفعال يكون فاعله عابداً، ولكن بشرط أن يذكر الله، وإن ترك كل ما أراد الله أن يترك يكون عبادة، ولكن بشرط أن يكون ذلك الترك لله ولذكره.

أمّا الفهم الذي لا يتعدّى بالذكر حدود اللسان، فهو بعيد عن الصواب، حتى لو كان مع حضور القلب وكان من المداومة والإكثار ما كان، فهو على ما فيه من ثواب، إلّا أنه لا يرقى إلى ذلك الفهم الواسع الشامل الذي ذكرنا.

كما ذكر في فتح الباري، قال: (هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال، كالطهارة من الحرام، والمعاصي العظام، فلا تظن أن من أدمن الذكر وأصرّ على ما شاءه من شهواته، وانتهك دين الله وحرماته، أنه يلتحق بالمطهرين المقدّسين ويبلغ منازلهم، بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى، ولا عمل صالح)(٣).

فالذكر المجدي هو الذي يُرى أثره في حركات الإنسان وسكناته، وفيما يأتي ويَذَر من أعمال.

وعن معنى إحصاء أسماء الله التسعة والتسعين، الذي رتّب عليه دخول الجنّة، في قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنّة»(٤)، يقول بعض أهل العلم: إن لفظ الإحصاء يحتمل وجوهاً:

---

(١) فتح الباري ١١/٢٠٩. (٢) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٣) انظر: فتح الباري ١٢/٢٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط برقم ٣٧٣٦، البخاري مع الفتح ٥/٤١٧، ومسلم كتاب الذكر والدعاء باب في أسماء الله تعالىٰ مع النووي ١٧/٥.

منها: إن الإحصاء هنا بمعنى العد، يريد أن يعدّها فيدعو ربه بها؛ لقوله سبحانه: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[1]، واعتُرِض على هذا الوجه، بأن الله سبحانه جعل استحقاق الجنّة مشروطاً ببذل النفس والمال، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2]، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾[3].

فالجنّة لا تُسْتَحق إلّا ببذل النفس والمال، فكيف يجوز الفوز بها بسبب إحصاء ألفاظ يعدّها الإنسان عدّاً في أقل زمان، وأقصر مدّة.

ومنها: أن معنى الإحصاء: يكون بمعنى الإطاقة، قال سبحانه تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[4] أي: لن تطيقوه... والمعنى: من أطاق رعاية هذه الأسماء أدخل الجنّة، والمراد من رعاية هذه الأسماء، ما قاله ﷺ في سؤال جبريل عليه السلام عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[5]، فإذا قال العبد: الرحمٰن الرحيم، علم أنه لا يجد الرحمة إلّا منه، وإذا قال: الملك، علم ـ أن كل شيء ـ ملكه، ثم إنه يعامل ربه كما يعامل العبد الذليل الملك العزيز... وعلى هذا سائر الأسماء،... فـ ـ المعتبر هو الإتيان بالعبودية، على وجه يليق بمعرفة هذه الأسماء[6].

فالمعوّل عليه هي العبادة الحقّة الكاملة، وليس مجرد الترديد، والعدّ، حتى لو كان المردّد المعدود هو أسماء الله وصفاته.

وحول قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[7]، مما قاله بعض أهل التفسير: اعلم أن الله تعالىٰ كلّفنا في هذه الآية بأمرين: الذكر والشكر، أمّا الذكر فقد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون

(١) سورة الجن: الآية ٢٨. (٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٠٧. (٤) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري مع الفتح كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ، الإيمان، والإسلام، والإحسان ١/١٤٠ برقم ٥٠، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/١٥٧، واللفظ لمسلم.

(٦) انظر: لوامع البينات ص٨١ ـ ٨٢. (٧) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

بالجوارح... أمّا ذكرهم إيّاه تعالىٰ بجوارحهم، فهو أن تكون جوارحهم مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها، وعلى هذا الوجه سمّى الله تعالىٰ الصلاة ذكراً بقوله تعالىٰ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]، فصار الأمر بقوله ـ اذكروني ـ متضمنًا جميع الطاعات[2].

وعليه، فهكذا ينبغي أن يفهم ذكر الله، فهماً شاملاً يسع وقت الإنسان كله، وأحواله كلها وكيانه كله، ولعل هذا الفهم الشامل وحده، هو الذي يفسّر لنا المكانة التي أعطاها الشارع للذكر، فوق كل الأعمال والثواب العظيم الذي رتّبه عليه، وقبل ذلك ومعه نستطيع أن ندرك ماذا يعني إلحاح الشارع، على طلب الذكر من الإنسان فرداً كان أو جماعة، وفي أي مجلس من مجالس الناس، أن لا يخلو كل ذلك عن الذكر؛ كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالىٰ فيه إلّا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة»[3]، وفي رواية: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلّوا على نبيِّهم، إلّا كان عليهم ترة[4]»[5].

(١) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٣ ـ ٤/١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٨٩ ـ ٥١٥ ـ ٥٢٧، وسنن أبي داود، كتاب الأدب، باب كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله ٤/٢٦٤ برقم ٤٨٥٥، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، انظر: المستدرك ١/٤٩٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/١٥٩ برقم ٧٧، وصحيح الجامع الصغير وزيادته ٢/١٠٠٢ رقم ٥٧٥٠.

(٤) ترة: بكسر التاء وتخفيف الراء، معناه: نقص، وقيل: تبعة، ويجوز أن يكون حسرة، كانت سبباً في نقص حسناتهم وخسارتهم للأجر، وكأنهم فقدوا حميماً وأصابهم مكروه. انظر: القاموس ٢/١٥٠.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٥٣، ٤٨١ ـ ٤٨٤، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات باب ما جاء في القوم يجلسون ولا يذكرون الله ٥/٤٦١ رقم ٣٣٨٠، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ١/٤٩٦، وصححه الألباني في الصحيحة ١/١٥٦ رقم ٧٤، وصحيح الجامع الصغير ٢/٩٨١ رقم ٥٦٠٧.

فطلب الشارع الذكر في كل مجلس، أيِّ مجلسٍ كان، ومن كل المسلمين إذا جلسوا من أي الفئات كانوا، ومهما اختلفت الأحوال، والأعمال، والأغراض التي يجلسون من أجلها؛ كما يفيده الحديث بروايتيه: «ما من قوم» و«وما جلس قوم مجلساً» بهذا التعميم لأي قوم وأي مجلس، فإن هذا يعني والعلم عند الله، أن الذكر المطلوب ليس هو ترديد الألفاظ والإكثار منها، والاهتزاز والطرب بترديدها، وإنما يعني أن يكون ما يقال في المجلس، وما يجري فيه من أعمال، والأغراض التي يكون من أجلها ابتداءً، والغايات التي يرمي إليها، أن يكون شرع الله أمراً ونهياً، في كل ذلك حاضر.

فذكر الله عند الأخذ في الأفعال، واجب على المكلف، في كل فعلٍ أو قول، وأن لا يقدم على شيء من ذلك حتى يعرف حكم الله تعالىٰ لإمكان أن يكون الشرع منع منه، وإن عدم انفكاك المكلّف عن معرفة حكم الله في كل ذلك، هو استدامة منه للذكر[1].

وبعد هذا التوضيح لسعة المفهوم الشرعي للذكر، نقول: إذا كان شأن المبتدعين في هذا الدين الكامل الشامل عجيباً، فشأنهم في جانب الذكر أعجب وأغرب!! ففي الوقت الذي نجدهم يبتكرون أذكاراً، وينشئون أدعية، في مجال الأذكار القولية، وكأن هدي الشارع في ذلك على سعته قد ضاق بهم، فإن مبلغهم في فهم الذكر سواء اتّبعوا أم ابتدعوا، ومع الجلبة التي أثاروها حول الذكر، فإن فهمهم له قاصر، وكأني به وقد هين عظيماً وحقّر جليلاً!!!

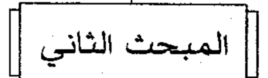
الذكر الذي رأينا من سعته شموله لكل العبادات، ومن شموله هو بحيث لا يغادر شيئاً من حركات الإنسان وتقلّباته وسكناته، ورأينا من قدره أن كل الشعائر إنما شرعت وأقيمت لإقامته، ومن خطورته هو بحيث لا يكون لشيء ما، مما يقع من المكلّفين في هذا الوجود شأن، وقد خلا من ذكر الله، ومع هذا يأتي هؤلاء المبتدعة على فترة من الزمن، ليضيق بهم الفهم، حتى أن مساحة الذكر وسعته عندهم، لا تصل إلى مجالس العلم بالحلال والحرام

(١) انظر: الفتوحات الربانية ١/١١٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وحلق التفقّه في الدين، فيسمّوا أهلها علماء الرسوم والقشور!!

هو أمرٌ غريب وفهم عجيب حقاً، لكن يحسن بنا الحديث عنه قبل العجب منه، ولذا فليرجئ العجب إلى أن يصل بنا البحث إلى مفهوم الذكر البدعي مبحث فهم المبتدعة للذكر.

❋ ❋ ❋



كيف يكون الذكر شرعياً

التمهيد

❖ كيف يكون الذكر شرعياً:

في هذا المبحث سيكون الكلام على الذكر القولي: حقيقته وآدابه وضوابطه التي تجعله موافقاً لهدي الشارع بحيث يكون ذكراً شرعياً صحيحاً.

فالذكر القولي حقيقته: هو ما يقع باللسان مما ينطبق عليه الوصف من كونه ذكراً لله تبارك وتعالىٰ ويكون: بـ ـ تسبيحه، وتحميده، وتمجيده، وتلاوة قرآنه، والصلاة على نبيّه محمد ﷺ، وسؤال الله الحاجات للدين والدنيا والآخرة، والاستعاذة به سبحانه من كل ما استعاذ منه نبيّنا محمد ﷺ[(١)].

كما يكون ذكر الله سبحانه بالإخبار المجرّد عن ذاته، أو صفاته، أو أفعاله، أو أحكامه، أو بإنشاء الثناء عليه[(٢)].

ويكون ذكر الله سبحانه بتقديسه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالىٰ، والأذكار القولية التي ينطبق عليها المفهوم الشرعي للذكر قسمان:

القسم الأول: المأثور، وهو ما جاءت به النصوص، ويكون من الآتي:

١ ـ ما كان من كتاب الله كالآيات والسور المخصوصة التي أمر بتلاوتها في

(١) الاقتداء في الذكر والدعاء ص١٠، محمد جودة صوان، الطبعة الثانية ١٤٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية ٢١/ ٢٢٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

مناسبات ومواطن وأحوال، لا سيما المتضمن لتعظيم الله والثناء عليه منها.

٢ ـ ما كان بتلاوة القرآن المطلقة، إذ أن القرآن على عمومه ذكر.

٣ ـ ما كان من الثابت في السنة، وورد أن النبيّ ﷺ كان يقوله مطلقاً أو لسبب، أو أمر به مطلقاً أو لسبب، ويكون كل بحسب ما ورد في الإطلاق والسبب[(١)].

ولهذا الذكر المأثور ضوابط وآداب، وبينه تفاضل، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

القسم الثاني: هو ما ينشئه العبد من الثناء والدعاء، وله أيضاً ضوابط وشروط وآداب، كما سيأتي بيانه.

❃ ❃ ❃

(١) انظر المصدر نفسه ٢١/ ٢٢٧.

المطلب الأول

الأذكار المأثورة وضوابطها

وتأتي في مقدمة ما ينطبق عليه المفهوم الشرعي للذكر، الأذكار المأثورة وهي: ما ورد عن النبيّ ﷺ تعليمها والأمر بها، أو ورد عنه قولها في مناسبة خاصة أو في غير مناسبة، ومن قبيل الذكر المأثور الأذكار القرآنية كذكر ركوب الدابّة[1] في قوله تعالىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[2]، ولقد جاءت صيغ الأذكار في الكتاب العزيز والسنّة المطهّرة متقاربة الألفاظ متجانسة المعاني، سهلة النطق على كل لسان، يسيرة الحفظ على كل جنان، فيجب على الذاكر أن يتقيّد بهذه الألفاظ التي نطق بها الكتاب وجاءت بها السنّة[3].

ففي القرآن الكريم صيغ للذكر سمت ورقت فوق كل كلام، وفي الحديث الشريف جوامع من الذكر والدعاء، والحري بالمسلم أن يأخذ بما تيسّر منها، فيدعو الله ويذكره بها فهي أفضل وأنفع من أي صيغ أخرى وكلام آخر[4].

❊ ❊ ❊

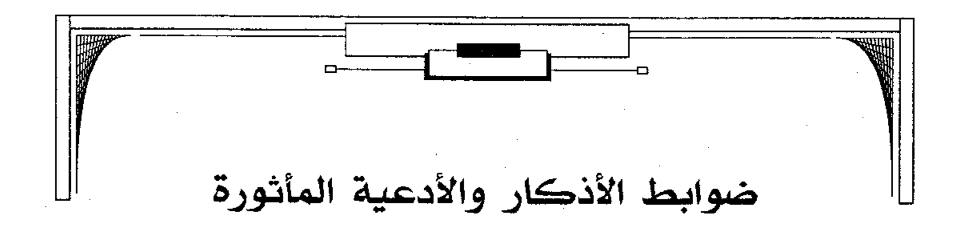
---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ٢١/ ٢٢٧.

(٢) سورة الزخرف: الآية ١٣ ـ ١٤.

(٣) انظر: مسك الختام في الذكر والدعاء بعد السلام ص٤٣ ـ ٤٤ أحمد بن سعيد الأنبالي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، دار ابن حزم، بيروت.

(٤) من مقدمة التحقيق لكتاب حلية الأبرار وشعار الأخيار ـ الأذكار النووية ـ ص٦ ليحيى بن زكريا النووي، تحقيق علي الشربجي وقاسم النووي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة.



ضوابط الأذكار والأدعية المأثورة

وللأذكار والأدعية المأثورة ضوابط، تجعل الاشتغال بها موافقاً لمفهوم الذكر الشرعي، وهي:

١ ـ أن تكون مما جاء في كتاب الله أو من الثابت عن رسول الله ﷺ[1].

٢ ـ أن يتأدّب معها بمنهج الشرع في الإطلاق والتقييد، فيشتغل بالذكر المقيّد بسبب في سببه ومناسبته، ويبقي ما أطلقه الشارع على إطلاقه فلا يقيده بمناسبة ولا هيئة ولا عدد لم يقيده بها الشارع[2].

٣ ـ الالتزام بالأعداد التي يفهم أن الأجر ربط بها، كالمأثور عقب الصلاة من الأذكار.

٤ ـ الالتزام بالألفاظ التي يفهم أن الشارع حرص على أدائها كما هي؛ كألفاظ الأذان والإقامة وألفاظ التشهّد[3] والتلبية.

٥ ـ مراعاة آداب الذكر العامة، الواجب منها، والمسنون، والمستحب، كما سيأتي.

فإذا راعى الذاكر هذه الضوابط والآداب، يكون ذكره شرعياً، أُدّي على هدي الشارع ويتحقّق له به ما رتّب عليه من رضا المذكور سبحانه، وثوابه الذي

---

(١) انظر: مسك الختام في الذكر والدعاء بعد السلام ص٤٤، وفقه الأدعية والأذكار ص٦٢ ـ ٦٣، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، طبع على نفقة بعض المحسنين، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

(٢) انظر: الاعتصام ١/ ٣٩، والموسوعة الفقهية ٢١/ ٢٤٠.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١١ ـ ٥١٨، وفتح الباري ١١/ ١١٢، والفتوحات الربانية ٣/ ١١٤.

أعدّه للذاكرين، ويثمر ثمراً لا ينقطع في الدنيا ولا في الآخرة، إذا سلم من الموانع التي تمنع تحقق ذلك الوعد، فالمشتغل بالذكر مع الإخلاص وموافقة الهدي لن يتقدّمه أحد حين تقام الموازين؛ ذلك أن أعمال الآخرة في مضمار سباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار[1].

والمأثور عن النبيّ ﷺ كثير، سواءً كان من القرآن، أو من السنّة، وقد أفرده كثير من أهل العلم بالتأليف منهم ابن السني[2] في (عمل اليوم والليلة)، والنووي[3] في (حلية الأبرار وشعار الأخيار) المعروف بكتاب الأذكار، وابن الجزري[4] في (الحصن الحصين) وغيرهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

والذكر المأثور ينقسم إلى قسمين كما تبيّن، مطلق ومقيّد، والمطلق أنواع، وبين المطلق والمقيّد تفاضل، في أيّهما يقدم على الآخر في الاشتغال به، وبين أنواع المطلق أيضاً تفاضل من نفس الحيثية.

وسنبدأ أولاً بذكر أنواع المطلق وتفاضلها، ثم نأتي على الحديث عن التفاضل بين المطلق والمقيّد من الأذكار.

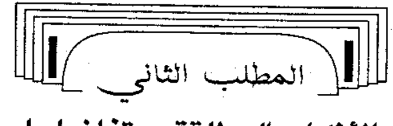
❊ ❊ ❊

(١) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب ص١٠٣ لابن القيم الجوزية، المكتبة التجارية، بمكة المكرمة، مصطفى أحمد الباز، دون أي بيانات أخرى.

(٢) ابن السني: هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط الدينوري أبو بكر بن السني، ولد سنة ٢٨٤هـ، محدث ثقة شافعي من تلاميذ النسائي ناهز الثمانين، سمع بالعراق ومصر والشام والجزيرة وصنف كتباً منها عمل اليوم والليلة وله مخطوطات كثيرة، مات ؒ فجأة وهو يكتب، سنة ٣٦٤هـ.
انظر: الأعلام ١/٢٠٩.

(٣) النووي سبقت ترجمته في ص٢٩.

(٤) ابن الجزري، هو: أحمد بن محمد بن محمد أبو بكر شهاب الدين ابن الجزري القرشي الشافعي، توفي سنة ٨٣٣هـ أو ٨٣٥، انظر: الأعلام ١/٢٢٧.



الأذكار المطلقة وتفاضلها

❖ الأذكار المطلقة:

يقصد بها تلك الأذكار المأثورة التي وردت عن الشارع، ولم تربط بسبب ولا مناسبة، ولا هيئة، ولا عدد، وتفاضلها يكون كما يلي:

أ ـ القرآن الكريم:

إذ أن القرآن الكريم بمجموعه وعلى عمومه ذكر، قال في التذكار في أفضل الأذكار: (إن القرآن أفضل الذكر، إذا عُمِل به)[1].

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم، وهو بصدد قوله ﷺ: «إن أحبّ الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»[2]، قال: وفي رواية: أفضل، هذا محمول على كلام الآدمي، وإلّا فالقرآن أفضل، وكذا قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل المطلق)[3]، ولا ريب فإنه كلام الله وهو ذكر في نفس الوقت؛ كما قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾[4]، بالإضافة إلى أن تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقاً، مثل تفضيل أصل الدين على فروعه، وقد يكون مقيداً، ومثال ذلك أن قراءة القرآن أفضل من مجرد الذكر بسنّة رسول الله ﷺ[5]. قال في التبيان: إن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل

(١) التذكار في أفضل الأذكار ص٣٩ لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، علق عليه أحمد الصديق الغماري، الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح ١٧/١٩.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/١٧ ـ ١٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٥٠.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى ١١/٣٩٩.

وغيرهما من الأذكار، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك، والله أعلم[١].

❖ القرآن أفضل الأذكار، لماذا؟

ووجه أفضلية القرآن، هي بدلالة الخبر، وباعتبار النظر، وذلك كما يأتي:

فالخبر لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾[٤]، فهذه البركة، وهذا التيسير، وهذا الأمر بالتلاوة المقرون بالأمر بتوحيد العبادة، وبالإسلام عن طريق الحصر لم ترد إلّا للقرآن[٥].

ومنها ما رواه الترمذي عن أبي أُمامة مرفوعاً: «... ما تقرّب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه»[٦]، أي: القرآن.

وأمّا اعتبار النظر، فـ: لأن الذكر هو شيء شرع فيه العبد، من علمه بربّه، والقرآن قد تكلّم به الرب تبارك وتعالىٰ، فإذا تلاه العبد فإنما يتلو كلام الربّ سبحانه وتعالىٰ، وهو أفضل الذكر والله أعلم؛ لأنه مشتمل على جميع الذكر، من تهليل، وتذكير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، وعلى الخوف، والرجاء، والدعاء والسؤال والأمر بالتفكّر في آياته، والاعتبار بمصنوعاته، إلى غير ذلك مما شرع فيه من واجبات الأحكام وفرّق فيه بين الحلال والحرام، ونصّ فيه من غيب الأخبار، وكرّر فيه من ضرب الأمثال، والقصص والمواعظ

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص٢١، لأبي زكريا يحيى النووي، تحقيق محمد بشير عيون، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دمشق، بيروت.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٠.

(٣) سورة القمر: الآية ١٧.

(٤) سورة الكهف: الآية ٢٧.

(٥) انظر: تفسير عبد الحميد بن باديس ص٣٧ ـ ٣٨، جمع وترتيب محمد صالح رمضان وتوفيق محمد شاهين، الطبعة الثانية، دار الفكر.

(٦) الحديث أخرجه الترمذي أبواب فضائل القرآن، باب ١٧ ٥/١٧٦ برقم ٢٩١١.

حسب ما قال، وقوله الحق: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[١]، فمن وقف على ذلك وتدبّره، فقد حصّل أفضل العبادات، وأسنى الأعمال والقربات[٢].اهـ.

وبهذا يتّضح أن القرآن الكريم، هو أفضل الأذكار على الإطلاق، وأنه أفضل ما يشتغل به؛ لأنه كلام الله، فهو لذاته أشرف كلام، وأفضلية القرآن المطلقة هي طالما الحديث عن الذكر بإطلاقه العام، دون الأذكار المقيّدة بالأسباب، والأحوال، والمناسبات، فتقدم لذلك.

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار ص٤٠.

المطلب الثالث

تلاوة القرآن الكريم

بعد أن علمنا أن تلاوة القرآن الكريم مع التدبّر هي أفضل الأذكار، بَقِيَ أن نعلم ما يتعلق بالقرآن عموماً، أو ببعض سوره، أو بعض آياته من تفاضل؛ ذلك لأن: «القرآن وإن كان كله ذكراً بالمعنى الأعمّ للذكر، إلّا أن فيه مما يتعلق بتعظيم الله تعالىٰ، والثناء عليه الشيء الكثير، وهو الذكر بالمعنى الأخص، وقد جمع مؤلّفو كتب الأذكار، جملاً من ذلك في كتبهم»[1].

فالقرآن وإن كانت له الأفضلية المطلقة بكليته على بقية الأذكار، فإن لبعض سوره وبعض آياته مزية وأولوية في التلاوة، وتلاوته وإن طلبت في كل وقت إلّا أن تفاضل الأوقات والأحوال له اعتبار في تفاضل القراءة، والحديث في هذا الباب واسع.

فأفضل القراءة ما كان في الصلاة، وأمّا القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل والنصف الأخيرة منه أفضل، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأمّا قراءة النهار فأفضلها ما كان بعد صلاة الصبح، ولا كراهة في القراءة في وقتٍ من الأوقات[2].

هذا بالنسبة لقراءة القرآن المطلقة، وأمّا بالنسبة لقراءة القرآن، أو بعض سوره، أو بعض آياته، في أوقات وأحوال مخصوصة، فتفاضلها على ما يلي:

قراءة القرآن عموماً: من السنة كثرة الاعتناء بتلاوة القرآن في شهر رمضان، وفي العشر الأخيرة منه أكثر، وليالي الوتر آكد، وفي عشر ذي الحجّة، ويوم عرفة، ويوم الجمعة.

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ٢١/٢٢٧.

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن ص١٧٤ وما بعدها.

أمّا السور المخصوصة: فمنها ما يقرأ في صلاة صبح يوم الجمعة، وفي صلاة الجمعة، وفي صلاة العيد، وفي سنّة الصبح والمغرب، ولمن أوتر بثلاث الخ... وقراءة الإخلاص والمعوذتين حين يأوي إلى الفراش.

أمّا الآيات المخصوصة: فكآية الكرسي في كل المواطن، وعقب الصلوات، وحين يأوي إلى الفراش، وأواخر آل عمران، وأواخر البقرة، هذا إلى جانب آيات الذكر الواردة لأسباب معينة[1].

❖ من آداب الذكر بتلاوة القرآن الكريم:

القرآن الكريم أشرف كتاب، وأجلّ خطاب، كلام رب الأرباب، عندما يتوجّه إليه المسلم عليه أن يستشعر أنه مقبل على الله سبحانه وتعالىٰ بتلاوة كتابه، يتلقّى منه ويناجيه، فهذا المتلوّ هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ، الذي لا يتطرّق إليه باطل، من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل العزيز العليم، والذي هو معراج الأرواح إلى حيث تزول حجب الماضي عن أخبار الغابرين وحجب الغيب عن أحوال وأهوال أهل الملأ الأعلى؛ إذ يختصمون، فلا غرو من أن لتلاوة هذا الكتاب آداباً لا يحسن تجاوز هذا الموضع، إلّا بذكر شيء منها.

فأولها: الإخلاص، ومراعاة الأدب للمناجاة بالقرآن.

الثاني: يستحب أن يكون القارئ على طهارة، وإن كان على غيرها جاز، إن كانت القراءة من غير مصحف.

الثالث: يستحبّ أن تكون القراءة في موضع نظيف.

الرابع: يستحب استقبال القبلة، والجلوس بخشوع ووقار.

الخامس: أن يحافظ على البسملة في بداية كل سورة، ما عدا سورة براءة.

السادس: فإذا شرع فليكن شأنه الخشوع والتدبّر[2].

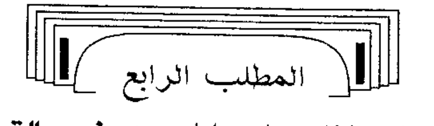
---

(١) انظر المصدر السابق ص١٧٤ - ١٨٢.

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص٦٩ - ٨١.

هذا هو ما يتعلّق بتلاوة القرآن، على عمومه، أو بعض سوره، أو بعض آياته بالتلاوة المطلقة أو المخصوصة بالأحوال والأوقات، وما يتعلق بتفاضلها وآدابها، وكون الذكر بتلاوة القرآن، هو أفضل الأذكار المطلقة.

* * *



المطلب الرابع

ما كان ثناء على الله من غير القرآن

أمّا أفضل الأذكار المأثورة بعد القرآن الكريم، فهي تلك الأذكار التي تتضمن الثناء على الله سبحانه بما هو أهله من التوحيد، والتحميد، والتمجيد، والتعظيم، والتي فيها ذكر أسمائه الحسنى، وصفاته العلى المتضمنة لأفعاله، وقدرته، وتفرّده بالربوبية، وباستحقاق العبادة، وبالكمال المطلق، وتلك الأذكار التي تتضمن تنزيهه سبحانه من كل نقص وعيب لا يليق به تعالىٰ وتقدّس، والتي جاءت على لسان محمد ﷺ.

فهذا النوع من الأذكار المطلقة، المتضمّن لهذه المعاني، يأتي في الأفضلية بعد القرآن الكريم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنواع الأذكار مطلقاً بعد القرآن أعلاها ما كان ثناءً على الله)[١].

ولهذا كان أفضل الكلام بعد القرآن، الكلمات الباقيات الصالحات: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلّا الله، والله أكبر»[٢].

يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في حكم صلاة من لا يحسن قراءة الفاتحة، قال: (فإن لم يحسن الفاتحة، قرأ بقدرها من غيرها، فإن لم يحسن شيئاً من القرآن، أتى من الأذكار: كالتسبيح والتهليل ونحوهما، بقدر الفاتحة)[٣].

وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر أنواع الأذكار، وتقسيمها

---

(١) قاعدة في أنواع الاستفتاح في الصلاة، وأنواع الأذكار مطلقاً، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح، مسلم مع النووي ١٧/١٩.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/٩٦.

وتفاضلها، وعلى أي شيء يكون التفاضل في رسالة له سمّاها ـ قاعدة أنواع الاستفتاح في الصلاة، وأنواع الأذكار مطلقاً، وكذلك في فتاويه، وحاصل ما قاله فإن الذكر بعد القرآن، ثلاثة أنواع[1]:

١ ـ فأفضله ما كان ثناءً على الله، وهو مثل: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالىٰ جدك، ولا إله غيرك»[2].

٢ ـ ثم ما كان إنشاءً من العبد، مثل قوله: «وجهت وجهي إليك»[3].

٣ ـ ثم ما كان دعاءً من العبد، مثل قوله: «اللّهمّ... باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»[4].

وعلى هذا، فذكر الله المحض، المتضمّن للثناء المطلق، على الله سبحانه، بأسمائه الحسنى وبصفاته العلى، هو أشرف الأذكار وأفضلها وأعلاها؛ وذلك لأنه مطلوب لنفسه ولأنه أشرف عبادة يتوجّه بها مخلوق للخالق، تقدّست أسماؤه، وتعالت عن المثيل والنظير صفاته، سبحانه، المتفرّد بالوحدانية، وبالربوبية، والألوهية، وبالكمال.

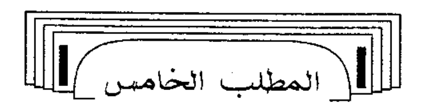
❊ ❊ ❊

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٢٢/٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللّهمّ وبحمدك...، ١/٢٠٦ برقم ٧٧٦، الترمذي أبواب الصلاة، باب ما يقال عند افتتاح الصلاة ٢/١٠ رقم ٢٤٢، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب افتتاح الصلاة ١/٢٦٥ برقم ٨٠٦، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
انظر: المستدرك ١/٢٣٥، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/١٣٥ برقم ٦٥٧.

(٣) الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب النوم على الشق الأيمن، البخاري مع الفتح ١١/١١٩ برقم ٦٣١٥، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب الدعاء عند النوم، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/٣٤.

(٤) الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوّذ من المأثم والمغرم، انظر: البخاري مع الفتح ١١/١٨٠ برقم ٦٣٦٨، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب الدعوات والتعوّذ، انظر: مسلم مع النووي ١٧/٢٩٠.



العلاقة بين الذكر المحض، وبين الدعاء، وأيهما أفضل

الدعاء والسؤال حين يوجّه إلى الله فهو ذكر له سبحانه، بأنه الغني المعطي، الذي لا ينفد ما عنده، وبأنه القريب المجيب، الذي تقضى عنده الحاجات، وبأمره تفرج الكربات، وبأنه القادر المريد المتصرّف في ملكوته بما يشاء؛ إذ الخلق خلقه والأمر أمره، فهو ذكر جليل من هذه الناحية، فكل دعاء ذكر، إذ بينهما عموم وخصوص؛ ولأن الدعاء التجاء إلى الله وركون إليه، وانتظار للمطلوب والمأمول من جهته وحده دون سواه، ولذلك جاء في الحديث: «إن الدعاء هو العبادة...»[1]، ولا عجب فالدعاء محبوب عند الله، وشأنه معه كريم وعظيم؛ كما قال ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله تعالىٰ من الدعاء»[2]، ولكن مع ما للدعاء من مكانة وشأن عظيم، فإن الثناء المطلق على الله سبحانه بما هو أهله، أفضل من الدعاء.

ومما يبين فضل الثناء على الدعاء، أن الثناء المشروع يستلزم الإيمان

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء ٢/٧٦ برقم ١٤٧٩، والترمذي أبواب الدعوات، باب فضل الدعاء ٥/٤٥٦ برقم ٣٣٧٢، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، تفسير سورة غافر ٦/٤٥٠ برقم ١١٤٦٤، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء ٢/١٢٥٨ برقم ٣٨٢٨ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، المستدرك ١/٤٩١، وصحيح الترمذي ٣/٢٤ برقم ٢٣٧٠.

(٢) الحديث رواه الترمذي في أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/٤٥٥ برقم ٣٣٧٠، وابن ماجه، كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ٢/١٢٥٨ برقم ٣٨٢٩، والحاكم في المستدرك ١/٤٩٠، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢/٩٥١ برقم ٥٣٩٢، وصحيح ابن ماجه ٢/٣٤٢ برقم ٣٠٨٧.

بالله، وأمّا الدعاء فقد لا يستلزمه؛ إذ الكفار يسألون الله فيعطيهم، كما أخبر الله بذلك في القرآن، في أكثر من موضع. . . بخلاف الثناء المشروع؛ كقوله: «سبحانك اللَّهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جدّك، ولا إلٰه غيرك»[1]، فإن هذا لا يثني به إلّا مؤمن[2].

وإذا كان الثناء أفضل من الدعاء، فإن هذه الأفضلية لا تقف عند هذا الحد، ومما يزيد التفاضل بين ذكر الثناء والدعاء وضوحاً، هو حين نعلم بأن تقديم الثناء على الله، وحمده سبحانه، أدبٌ من آداب الدعاء، وشرط من شروط إجابته، وهو مقدمة لا يسوغ ابتداء الدعاء بدونها، يقول النووي رحمه الله: (أجمع العلماء على استحباب ابتداء الدعاء بالحمد لله تعالىٰ، والثناء عليه ثم الصلاة على رسول الله ﷺ)[3].

وهذا الكلام، تقرير لهدي الشارع ومستنبط منه، فها هو المصطفى ﷺ يسمع ذات يوم رجلاً يبدأ بالدعاء في الصلاة دون الحمد والتمجيد، فيصف فعله بالتعجّل؛ كما جاء في الحديث: إن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجّد الله تعالىٰ، ولم يصل على النبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عجّل هذا. . . ثم دعاه فقال له أو لغيره: إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربّه سبحانه والثناء عليه، ثم يصلّي على النبيّ ﷺ، ثم يدعو بما شاء»[4].

وهذا النص صريح في تقديم الثناء على الدعاء، ولا يحيج إلى غيره، وعليه فبهذا النقل وهذه الشواهد، يخلص بنا الكلام إلى أن الذكر المحض الذي يدور حول الثناء والتمجيد والحمد والتنزيه لله سبحانه، مقدم على خبر العبد عن نفسه، وعلى الدعاء.

(١) الحديث سبق تخريجه في ص٧٦.
(٢) قاعدة في أنواع الاستفتاح في الصلاة، لابن تيمية ص١١.
(٣) حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار ـ المعروف بالأذكار النووية ص٢٠٧ لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق وتعليق علي الشربجي، وقاسم النووي، الطبعة الأولى ١٤١٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.
(٤) الحديث رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء ٢/ ٧٧ برقم ١٤٨١.

❖ التفاضل بين التهليل والتسبيح:

لعلّ أظهر الأحاديث التي وقف عندها من تكلّم في التفاضل بين التهليل والتسبيح هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه، الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «من قال لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيّئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتِ أحد أفضل مما جاء به إلّا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»، وفي رواية قال عن التسبيح والتحميد: «لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به. . .»[1]، قال النووي رحمه الله: قوله ﷺ في حديث التهليل: «ومحيت عنه مائة سيئة»، وفي حديث التسبيح: «حطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» عن التسبيح، وقد قال في حديث التهليل: «ولم يأت أحد أفضل مما جاء به»، فالجواب عن هذا أن التهليل المذكور أفضل ويكون ما فيه من زيادة الحسنات ومحو السيئات، وما فيه من فضل عتق الرقاب، وكونه حرزاً من الشيطان زائداً على فضل التسبيح وتكفير الخطايا؛ لأنه قد ثبت أن من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضوٍ منها عضواً منه من النار، فقد حصل بعتق رقبة واحدة تكفير جميع الخطايا مع ما يبقى له من زيادة عتق الرقاب الزائدة على الواحدة، ومع ما فيه من زيادة مائة درجة وكونه حرزاً من الشيطان، ويؤيّده ما جاء في الحديث بعد هذا، أن أفضل الذكر التهليل مع الحديث الآخر: «أفضل ما قلته أنا والنبيّون قبلي لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له»[2]، وفيما يتعلق بحديث: أفضل الذكر لا إلٰه إلّا الله، وحديث: أحبّ الكلام إلى الله أربع، فهذا الأخير فيه تلميح بقوله تعالىٰ حكايةً عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[3]، ويمكن

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، صحيح مسلم شرح النووي ١٧/ ١٧ ـ ١٨.
(٢) انظر: شرح النووي على مسلم ١٧/ ١٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ٣٠.

أن يكون سبحان الله وبحمده مختصراً من الكلمات الأربع المتقدمة؛ لأن سبحان الله تنزيه له عمّا لا يليق بجلاله وتقديس لصفاته من النقائص، فيندرج فيه معنى لا إلٰه إلّا الله، وقوله: وبحمده صريح في معنى الحمد لله... ويستلزم ذلك معنى الله أكبر؛ لأنه إذا كان كل الفضل والأفضال لله ومن الله وليس من غيره شيء من ذلك، فلا يكون أكبر منه، ومع ذلك فلا يلزم أن يكون التسبيح أفضل من التهليل؛ لأن التهليل صريح في التوحيد والتسبيح متضمن له، ولأن نفي الآلهة في قوله: لا إلٰه، نفيٌ لمضمونها من فعل الخلق والرزق والإثابة والعقوبة، وقول: إلّا الله، إثبات لذلك، ويلزم منه نفي ما يضادّه ويخالفه من النقائص، فمنطوق سبحان الله تنزيه، ومفهومه توحيد، ومنطوق: لا إلٰه إلّا الله توحيد، ومفهومه تنزيه، فيكون لا إلٰه إلّا الله أفضل؛ لأن التوحيد أصل والتنزيه ينشأ عنه[1].

وقال ابن حجر رحمه الله[2] في الجمع بين أفضل الذكر وأحب الكلام وكون

(١) مشتهى الخارف الجاني في ردّ زلقات التجاني، لمحمد الخضر الشنقيطي ص١٧٢، مطبعة دار الكتب العربية بدون بيان.

(٢) ابن حجر، هو: الإمام العلامة الحافظ فريد وقته علم الأئمة الأعلام عمدة المحقّقين، وخاتمة الحفاظ المبرزين والقضاة المشهورين، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد علي بن محمود بن أحمد الكناني العسقلاني المصري الشافعي، ويعرف بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه، وُلد في مصر في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣هـ، مات أبوه وهو ما يزال طفلاً فنشأ يتيماً، وكان لديه ذكاء عجيب وسرعة في الحفظ نادرة، حجّ سنة أربع وثمانين، وجاور بمكة في السنة التي بعدها، وصلّى التراويح بالمسجد الحرام في تلك السنة، وهو إمام حافظ محقق متين الديانة حسن الأخلاق، نظر في الأدب والتأريخ أول أمره ففاق في فنونها، وحفظ مختصرات العلوم وحفظ القرآن وقرأ التجويد، وسمع الحديث، وسمع البخاري من الزفتاوي، ثم طلبه من ذوي الإسناد العالي، ورحل إلى دمشق سنة اثنتي وثمانمائة وسمع فيها من الأحاديث مائة ألف في مائة يوم، وحجّ مرات فسمع ببلاد الحرمين وبالإسكندرية وببيت المقدس وببلاد اليمن على جمع من الشيوخ، ومسموعاته ومشايخه كثيرة جداً لا توصف، واشتغل ودأب فحصّل فنوناً من العلوم وبلغ الغاية فيها، وكان مع ذلك مثالاً في التواضع، وانتفع به كثير من الأقران والشيوخ، وتخرج به كثير من الطلبة، وحدَّث بجملة مسموعاته ومؤلفاته، وتولى القضاء سنة سبع وعشرين =

التهليل هو الأفضل: (ويحتمل أن يجمع، بأن تكون - من - مضمرة في قوله «أفضل الذكر» وفي قوله: «أحب الكلام»، بناءً على أن لفظ أفضل وأحبّ متساويان في المعنى، لكن يظهر مع ذلك تفضيل لا إلٰه إلّا الله لأنها ذكرت بالتنصيص عليها بالأفضلية الصريحة، وذكرت مع أخواتها بالأحبيَّة، فحصل لها التفضيل تنصيصاً وانضماماً... فالرجل إذا قال: لا إلٰه إلّا الله، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملاً حتى يقولها). وليس هذا لسبحان الله أو الحمد لله أو أي نوع آخر من أنواع الذكر عدا كلمة التوحيد، ثم تكميلاً للكلام على أفضلية هذه الكلمة على ما سواها، يسوق ابن حجر رحمه الله سؤال موسى عليه السلام ربّه أن يعلّمه ما يدعو به كما سيأتي، فيجاب بالتهليل، وأن التهليل من عظمه يميل بالسماوات والأرضين ومن عليهنّ، يقول ابن حجر: (فيؤخذ منه أن الذكر بلا إلٰه إلّا الله أرجح من الذكر بالحمد لله، ولا يعارض ذلك حديث: الحمد لله تملأ الميزان[1]، فإن الملء يدلّ على المساواة، والرجحان صريح في الزيادة فيكون أولى)[2].

وبهذا الاستعراض للنصوص والنقول، يتبيّن أن أفضل الذكر بعد القرآن هو ما كان ثناءً على الله، وأفضل شيء في ذلك الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلّا الله، والله أكبر، وحين يكون التفاضل بين هؤلاء الأربع، فلا إلٰه إلّا الله هي الأفضل لتضمّنها لكل ما هو لله من حق، وكمال، وتفرّد، مع ما فيها من تنزيه له سبحانه عمّ لا يليق به تعالىٰ.

ولعلّ المقام هنا يقتضي تعطير بعض الأسطر بنصوص كريمة مما جاء في فضل لا إلٰه إلّا الله، هذه الكلمة التي بُعِثت من أجلها الرسل، وأنزلت الكتب،

= وثمانمائة بعد أن عرض عليه مراراً، فأبى إلى أن ألزم به، وتوفي رحمه الله في أواخر ذي الحجة سنة ٨٥٢هـ، ولم يخلف بعده في مجموعه مثله رحمه الله.
انظر: مفتاح السعادة ١/ ٢٥٧، وشذرات الذهب ٧/ ٢٧٠.

(١) الحديث رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، صحيح مسلم مع النووي ٣/ ٩٩ - ١٠٠.

(٢) انظر: فتح الباري ١١/ ٢١١.

وقدّمت الرقاب، وأقيم سوق الجنّة والنار، يقول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[١]، قال ابن عباس وغيره: «الكلمة الطيبة هي لا إله إلّا الله»[٢].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلّا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»[٣]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «قال موسى ﷺ: يا ربّ علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: قل: لا إله إلّا الله، قال: يا رب كل عبادك يقول هذا؟ قال: قل: لا إله إلّا الله، قال: إنما أريد شيئاً تخصّني به، قال: يا موسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفّة، ولا إله إلّا الله في كفّة مالت بهم لا إله إلّا الله»[٤]، فسبحان الله ما أعظمها من كلمة، وما أثقل وزنها عند الله، تميل بالسماوات السبع ومن فيهنّ، وبالأرضين السبع ومن يعمرهن، ولم لا تميل بهم، وهنّ، وهم، لا كنّ، ولا كانوا، إن لم تكن، فما صلح أمر الدنيا والآخرة، ولا استقام نظام الكون وما اتّسق عقده، إلّا لأنه لا إله إلّا الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[٥]، فهو سبحانه واحدٌ لا ينازعه أحدٌ في ملكه وملكوته خلقاً وتسييراً، فهو الذي قدّر وهدى: ﴿قَالَ رَبُّنَا

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ ـ ٢٥. (٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٥٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، البخاري مع الفتح ١/٢٣٣ برقم ٩٩.

(٤) السنن الكبرى للنسائي، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ١٩٩، أفضل الذكر وأفضل الدعاء ٦/٢٠٨ برقم ١٠٦٧٠، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٣/١٣٥ برقم ٨٥٤، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك ١/١٢٨.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[١]، وهو المتفرّد باستحقاق العبادة دون أن يشاركه في جميع أنواعها أحد، وهذا هو ما تتحقّق به لا إله إلّا الله، وبقدر ما يتحقّق منها يبعد الفساد من الكون.

فلا عجب في كون لا إله إلّا الله أفضل الأذكار، سيما وقد شهد من لا ينطق عن الهوى ﷺ بكونها كذلك، فعن جابر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: «أفضل الذكر لا إله إلّا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»[٢].

❋ ❋ ❋

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في أن دعوة المسلم مستجابة ٥/٤٦٢ برقم ٣٣٨٣، وابن ماجه كتاب الأدب، باب فضل الحامدين ٢/١٢٤٩ برقم ٣٨٠٠، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك ١/٤٩٨، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/٤٨٤ حديث رقم ١٤٩٧، وصحيح الجامع الصغير ١/٢٤٨ برقم ١١٠٤، وصحيح ابن ماجه ٢/٣١٩ برقم ٣٠٦٥، وصحيح الترمذي ٣/١٤٠ برقم ٢٦٩٤.

الخلاصة

وخلاصة القول في الذكر المطلق والذكر عموماً، هو أنواع، وبين أنواعه تفاضل وحسب هذا التفاضل يكون ترتيب الاشتغال به، وفيما يلي نذكر ما تلخّص معنا في ترتيب الأذكار المطلقة من حيث تفاضل الاشتغال بها[1].

١ ـ فأفضلها الذكر بالقرآن الكريم على عمومه.

٢ ـ ثم ما كان ثناء على الله سبحانه بصحيح السنّة؛ كسبحان الله، والحمد لله ولا إلٰه إلّا الله، والله أكبر؛ كما جاء في الحديث: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهنّ من القرآن لا يضرّك بأيهنّ بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلّا الله، والله أكبر»[2].

٣ ـ ثم ما كان خبراً من العبد عن عبادته، وتذلُّلِهِ، واعترافه بما يجب عليه لله؛ كقوله: «وجهت وجهي إليك وفوّضت أمري إليك...»[3].

٤ ـ ثم ما كان دعاءً من العبد، مثل قوله: «اللّهمّ.. باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»[4].

ومن هذا الترتيب يتّضح أفضلية الذكر بعمومه على الدعاء، وذلك لأن الدعاء أساساً لم يشرع مجرّداً عن الثناء والذكر، بل جاءت النصوص تحضّ

(١) انظر لترتيب الاشتغال بالأذكار المطلقة، مجموع الفتاوى ٢٢/٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٠، قال الهيثمي في الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد ١٠/٩٠، وأصل الحديث في صحيح مسلم بلفظ: «أحب الكلام إلى الله»، مع النووي ١٤/١١٧.

(٣) متفق عليه، سبق تخريجه انظر ص٧٦.

(٤) متفق عليه، سبق تخريجه انظر ص٧٦.

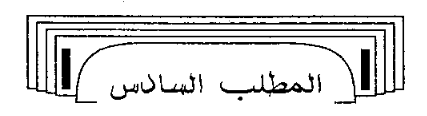
على تقديم الثناء على الدعاء، وتستنكر على من يهجم على الدعاء دون أن يثني على الله سبحانه، فمما (ينبغي أن يعلم أن الذكر المجرد أفضل من الدعاء من حيث الجملة)[1] كما أسلفنا، ومن اشتغل وانشغل بذكر الله لم يفته الطلب ولن يسبقه في الظفر بالإجابة من اشتغل بالدعاء، كما ورد في الحديث القدسي: «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[2]، وفي هذا ما يُغني في توضيح ترتيب تفاضل الأذكار المطلقة من حيث الاشتغال بها.

وهي القرآن على عمومه، ثم الذكر المجرد من حيث الجملة، ثم الدعاء والسؤال، وهذه هي الخلاصة في موضوع تفاضل الذكر المطلق، والله أعلم.

* * *

(١) الموسوعة الفقهية ٢١/٢٣٧.

(٢) سنن الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ٢٤، ٤/٢٥٦ برقم ٣٠٩٤.



ما ينشئه العبد من ذكر مطلق وضوابطه

قبل أن يختم الكلام عن الذكر المطلق، فهاهنا ما يلحق به، وهو ما ينشئه العبد من ذكر، والسؤال الوارد هو: هل يجوز للمسلم أن ينشئ ذكراً مطلقاً من عند نفسه، وما هي ضوابطه؟ والإجابة عن ذلك هي بالجواز مع الضوابط، ولكن قبل الحديث عن هذا الجواز هناك ثلاث نقاط يحسن تقديم ذكرها، فهي مما ينبغي أن يعلم قبل الإقدام على إنشاء المرء للذكر من عند نفسه، وهذه الأمور هي:

١ ـ ما علم ضرورة من كمال هذا الدين وتمامه على الإطلاق، وسعة وشمول وكفاية ما جاء به هدي الشارع في الذكر، حيث أنه لم يترك حالاً من أحوال الإنسان، ولا وقتاً من أوقاته دون أن يشرع له فيه ذكراً، بل شرع له من الأذكار المطلقة ما لا تطوله الهمّة، وتنقضي دون الوفاء به الحياة، إلّا أن رحمة الله اقتضت التسديد والمقاربة.

لأن الإنسان مع عجزه وتقصيره ليس له من سبيل إلى الإتمام والإحصاء؛ كما قال الرؤوف الرحيم: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[(١)]، وكيف له أن يحصي والقرآن كله على عمومه ذكر، والسنة وتعلّمها ذكر، فضلاً عن ما جاء فيهما من الأذكار على المعنى الأخصّ.

وعليه، فما الذي يدفع من ينشئ الذكر من عند نفسه، إلى الإنشاء، أيبتغي

---

(١) سورة المزمل: الآية ٢٠.

سعة فوق سعة هدي الشرع في الذكر، أم تراه فطن لخلّة يودّ سدادها!؟

٢ ـ ثم يقال لمن يريد أن ينشئ ذكراً لله تعالىٰ أن الأمر متعلق بالله: الذي ليس له مثيل ولا نظير، فما ظنّك برب العزّة سبحانه، وبمقام عبده الذليل بين يديه، ومن عسى أن يبلغ بجهد بيانه كنه الثناء عليه، وهذا رسوله وصفيّه ﷺ قد أظهر العجز والانقطاع دونه، فقال: «أعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)]، فسبحان من جعل عجز العاجزين عن شكره والثناء عليه شكراً لهم، كما جعل معرفة العارفين بأنهم لا يدركون كنه صفته إيماناً لهم[(٢)].

فنقول والحالة هذه لمنشئ الذكر الذي يشمر للج عن ساقه والموج يغمره وهو في الساحل: إن السلامة في إظهار العجز والتسليم لهدي الشارع، فالله أعلم بنفسه والرسول المقتدى به ﷺ، الذي هو أعلم الناس بالله يقول: لا أحصي ثناءٍ عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فاعلم هذا ثم أنت وذاك.

٣ ـ ثم إن لم يكف هذا وأنشأ الإنسان ذكراً مستوفياً لكل الضوابط واشتغل به، فليعلم بأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، واشتغل بالمفضول عن الأفضل، وهذا هو ما قرّره أهل العلم من أن الاشتغال بالذكر الوارد أفضل من الاشتغال بذكر يخترعه الإنسان من عند نفسه، ووجه الأفضلية واضح، وهو (ما فيه من الاقتداء بالنبيّ ﷺ مع ما فيه من العلم باللغة والعلم بالتوحيد، وكمال النصح للأمة، بالإضافة إلى الكفاية)[(٣)]، مع ما أُوتي ﷺ من جوامع الكلم.

---

(١) أخرجه مسلم، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ٤/٢٠٣، ومسند الإمام أحمد ٦/٥٨.

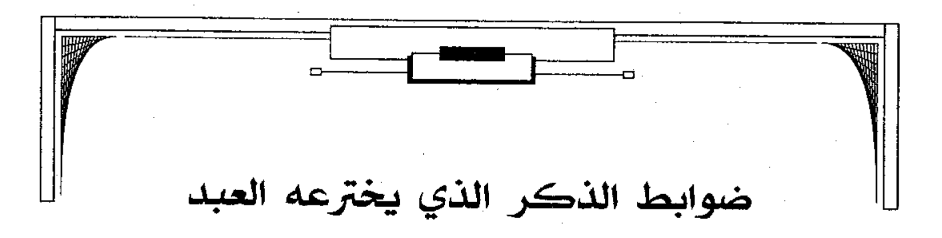
(٢) شأن الدعاء ص١٥ ـ ١٦، لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، دار المأمون للتراث.

(٣) الفتوحات الربانية ١/١٧، لمحمد علان الصديقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون مزيد بيان.

وهذه الأمور الثلاثة التي قدّمناها على الإجابة في مسألة إنشاء الذكر، هي مما ينبغي معرفته قبل معرفة جواز إنشاء الذكر من عدمه، ذلك لأن معرفتها، أو عدم الالتفات إليها هو بيت القصيد الذي يجعل الذكر في مفترق الطريق بين الاتّباع والابتداع.

وإنشاء الأذكار دون الالتفات إلى هذه الأمور، ودون التقيّد بالضوابط التي سنذكرها هو الباب الذي ولج منه معظم أرباب الطرق حين وضعوا ما وضعوا من أدعية وأذكار، وجعلوا لها رسوماً وآداباً تؤدّى من خلالها، وشروطاً لتلقينها، وأضفوا عليها هالات، ورتّبوا عليها أجوراً، وأغروا الأتباع بأنها طريق للفتوحات، فغدوا مشرِّعين من كل الوجوه، وتوجّهوا بمن تبعهم إلى خلاف جهة الاتّباع.

❊ ❊ ❊



ضوابط الذكر الذي يخترعه العبد

وبعد تقديم ما تقدم من تلك الأمور التي تدعو الضرورة إلى معرفتها، فلم يبق إلّا بيان حكم ما ينشئه العبد، مع ذكر الضوابط التي يجب مراعاتها، فيقال: (يجوز في الأذكار المطلقة الإتيان بما هو صحيح في نفسه، مما يتضمّن الثناء على الله تعالىٰ، ولا يستلزم نقصاً بوجهٍ من الوجوه، وإن لم تكن الصيغة مأثورة عن النبيّ ﷺ، وهذا في الذكر المطلق)[(١)]، وهذا من حيث المضمون.

أمّا من حيث الألفاظ والعبارات، فعلى المنشئ (أن يتخيّر لدعائه والثناء على ربّه أحسن الألفاظ وأنبلها، وأجمعها للمعاني، وأبينها؛ لأنه مناجاة سيّد السادات الذي ليس له مثيل ولا نظير)[(٢)].

وأمّا إذا كان المخترع دعاءً، فعلى المنشئ أن يعلم (أن الدعاء ليس كله جائزاً بل فيه عدوان محرم، والمشروع لا عدوان فيه، وأن العدوان يكون تارة في كثرة الألفاظ، وتارة في المعاني)[(٣)].

فمع وضوح اللفظ والعبارة وحسنهما، لا بدّ من سلامة المعنى وتقيّده بمضمون الشرع وضوابطه، والوقوف عند حدوده إطلاقاً ومنعاً، ومن خلال هذه الأمور نستطيع أن نحدّد أبرز الضوابط لإنشاء الذكر بما يلي:

١ ـ أن يكون التوجّه فيه إلى الله خالصاً من أي شائبة لغيره؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[(٤)].

٢ ـ أن يكون الذكر المنشأ مطلقاً غير مقيد بزمان ولا مكان ولا هيئة ولا عدد؛ إذ أن ربط العبادة بالظرف والهيئة والعدد هي من خواصّ الشرع

(١) الموسوعة الفقهية ٢١/٢٣٨.
(٢) شأن الدعاء ص١٥.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/٤٧٥.
(٤) سورة البينة: الآية ٥.

التي لا ينازع فيها[1]

٣ ـ أن يكون المنشأ متضمناً للثناء على الله بما هو أهله سبحانه، وفي حال النفي عن الله أن يقتصر على ما ورد نفيه[2].

٤ ـ أن لا يكون مما يستلزم نقصاً في حقّه سبحانه بوجهٍ من الوجوه.

٥ ـ أن تكون ألفاظ ما ينشأ واضحة وبيّنة، فلا تكون أسماءً غير معروفة، أو ألفاظاً غريبة، أو طلاسم[3] لا يُعرف ما هي[4].

٦ ـ أن تكون معاني ما ينشأ جامعة ومانعة وبيّنة، ثناءً كان أو دعاء.

٧ ـ وإذا كان المنشأ دعاءً فعلى الداعي أن يعلم أنّ مِنَ الدعاء ما ليس جائزاً، فمن الدعاء ما فيه اعتداء، وقد يكون الاعتداء في الألفاظ أو في المعاني، ولا بدّ من معرفة ذلك وتجنّبه، فالسجع المتكلّف والتقعّر في الألفاظ هو من العدوان في الدعاء، قال في الأذكار: من آداب الدعاء ألّا يتكلف السجع، وقد فسّر به الاعتداء، والأولى أن يقتصر على الدعوات المأثورة، فما كل أحد يُحسن الدعاء فيخاف عليه الاعتداء[5].

ثم إن السجع بالألفاظ لا يناسب مقام الدعاء الذي هو تذلّل وخشوع وإظهار عجز وفاقة، وإذا كان هذا تكلف الألفاظ، فتكلف المعاني أولى

(١) انظر: الاعتصام ١/٣٩.

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص١٣٦ ـ ١٣٧، لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى.

(٣) الطِّلَّسم: عقد لا ينحل، وقيل: هو مقلوب اسمه، أي: المسلط، من القهر والتسليط، وهو علم باحث عن كيفية تركيب القوى السماوية الفاعلة، مع القوى الأرضية المنفعلة في الأزمنة المناسبة للفعل والتأثير المقصود مع أشياء أخرى جالبة لروح الطلسم، وهو قريب المأخذ بالنسبة إلى السحر.
انظر: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ٦/٣٠٢، إسماعيل البغدادي، دار الفكر ١٤٠٢هـ.

(٤) انظر: النهاية ٢/٢٥٥.
(٥) الأذكار النووية ص٦٢٨.

بالمنع، ويكون الاعتداء فيه حين يسأل الداعي ما لا ينبغي أن يسأل مما يناقض سنن الله في الكون أو في الشرع.

وأسوق هنا نموذجاً لدعاء مخترع، فيه جملة من الاعتداءات، وهو حزب الفتح لأبي الحسن الشاذلي[1] يقول فيه: (... ونسألك محبة لا لشيء ولا على شيء، وخوفاً لا من شيء ولا على شيء، ونسألك تقديساً ليس وراءه تقديس، وكمالاً ليس وراءه كمال، وعلماً ليس فوقه علم، ونسألك الإحاطة بالأسرار... أسألك بحرمة الأستاذ[2]، وبحرمة النبيّ الهادي ﷺ، وبحرمة الاثنين[3]، والأربعة[4]، وبحرمة السبعين والثمانية[5]، وبحرمة أسرارها منك إلى محمد ﷺ)[6].

فهذا الدعاء يشتمل على كثير من الاعتداءات، والنبيّ ﷺ قد أخبر محذراً مما سيقع في أُمّته من الاعتداء في الدعوات، فقال ﷺ: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء»[7]، فكيف جاز لهذا الداعي أن يسأل الله المحبة لا

(١) أبو الحسن الشاذلي ستأتي ترجمته عند الحديث عن الطريقة الشاذلية في الباب الثاني في فصل نشأة الذكر البدعي وتطوّره ص٣٢٣.

(٢) الأستاذ: لعله يعني به القطب، وهو عندهم الغوث، عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان ومكان، وهو على قلب إسرافيل، انظر: ملحق التعريفات للجرجاني ص٢٣٥.

(٣) الاثنين هما: عندهم الإمامان، شخصان أحدهما عن يمين الغوث ونظره في الملكوت، والآخر عن يساره ونظره في الملك وهو أعلى من صاحبه، وهو الذي يخلف الغوث، انظر المصدر نفسه والصفحة.

(٤) الأربعة: هم الأوتاد، عبارة عن رجال منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة، المصدر نفسه والصفحة.

(٥) لم أجد لرمز السبعين والثمانية تفسيراً فيما وقفت عليه من مصطلحات القوم، ولعلّهم الأبدال.

(٦) انظر كتاب: أبي الحسن الشاذلي ص١٧٢ ـ ١٧٤، عبد الحليم محمود، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة.

(٧) رواه أبو داود في كتاب الطهارة، باب الإسراف في الماء ١/٢٤ برقم ٩٦، وابن ماجه في كتاب الدعاء باب كراهية الاعتداء في الدعاء ٢/١٢٧١ برقم ٣٨٦٤،

لشيء ولا على شيء، والخوف من لا شيء ولا على شيء، إن لم يكن من قبيل الاعتداء، والله سبحانه يحب لكماله وجلاله وعظمته ولمظاهر رحمته وحلمه، ولإيجاده وجوده، ولسعة كرمه وجليل إنعامه ومن يحصي نعم الله على خلقه إلّا هو سبحانه؛ كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[١]، وأفضال الله علينا في هذه الدار العاجلة لا نحصيها، وهي دون ما أعدّه الله لأهل طاعته وأوليائه في جنّته، مما لم ترَ العين، ولم تسمع الأذن، ولم ينقدح منه خاطر في بال بشر، وبعد هذا كلّه يأتي من يقول: اللّهمّ إنّا نسألك محبة لا لشيء ولا على شيء، وهو كلام ربما لجاز أن تقوله الملائكة الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢]، فهم لم يمكنوا من غير الطاعة وخلقوا على هيئة لا ينتظرون معها أقواتاً ولا أرزاقاً، أمّا في شأن البشر فهو كلام مصادم لما فطروا عليه، سيّما وقد جُبِلوا على حب من أحسن إليهم، ولو كان يسيراً، فكيف بالله الذي ما أتت نعمة إلّا وهي من جهته؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٣].

وهذا الدعاء مبني على ادّعاء غير صحيح، يقول به فريق من المتصوّفة، أنهم لا يعبدون الله رغبة ولا يخافونه رهبة، وإنما كما يقول قائلهم هذا: لا لشيء ولا على شيء.

مع أن الحقيقة هي أن (كل سائل راغب راهب، فهو عابد للمسؤول وكل عابد فهو أيضاً راغب راهب، يرجو رحمته ويخاف عذابه... يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٤]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٥]، ولا يتصوّر أن يخلو داع لله

= وأحمد في المسند ٥/ ٥٥، وحسّنه الألباني في الجامع الصغير ١/ ٦٨٤ برقم ٣٦٧١، وصحيح ابن ماجه ٢/ ٣٣١ برقم ٣١١٦، وصحيح أبي داود برقم ١٣٣٠.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.
(٢) سورة التحريم: الآية ٦.
(٣) سورة النحل: الآية ٥٣.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.
(٥) سورة السجدة: الآية ١٦.

دعاء عبادة، أو دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع)[١].

فالخوف حاصل، لكنه ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصودٌ لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنّة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٢].

والله سبحانه وتعالىٰ لم يجعل الخوف منه بلا شيء وعلى غير شيء، وإنما ذكر ما يخوف به عباده من العذاب؛ كما في قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾[٣]، ثم إن في هذا الدعاء سؤال ما لا ينبغي كالتقديس الذي ليس وراءه تقديس، والكمال الذي ليس وراءه كمال، والعلم الذي ليس فوقه علم، فهل يتصوّر في البشر التقديس والكمال بهذا المعنى، وإن قصد به ما يمكن بلوغه للبشر، مع أنه لم يقل ذلك، فهذه قد تكون منزلة أفضل البشر محمد ﷺ، ومنزلته في أفضليته لا ينازعه فيها أحد، وليس لأحد أن يطلبها من الله، ثم إنه يسأل علماً ليس فوقه علم، ومن الذي يكون له علماً كهذا، والله سبحانه يقول لنبيّه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٤]، والله سبحانه يقرّر بأنه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٥]، فسؤال الله العلم الذي ليس فوقه علم يناقض هذا التقرير والتوجيه الربّاني، باستدامة طلب المزيد من العلم، ثم إنه يسأل الله بحرمة المذكورين في دعائه، والسؤال بحرمة الغير وجاه الغير لا يصح، ثم من هؤلاء المجاهيل الذين يسأل الله بحرمتهم، والحاصل أن هذه الأمور التي حواها هذا الدعاء، تجعله ضمن الأدعية المجانبة للصواب، والله أعلم.

وهذه الضوابط المذكورة لما ينشئه العبد من عنده من الأذكار، لا تنفكّ عن كل ما يأتي به العبد من الأذكار والأدعية، والرقى[٦]،

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٢) انظر: نور الوعد ونار الوعيد في أهل الجنّة والنار ص٦٣، لعبد الحميد كشك، نشر طائر العلم للنشر، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
(٣) سورة الزمر: الآية ١٦.
(٤) سورة طه: الآية ١١٤.
(٥) سورة يوسف: الآية ٧٦.
(٦) الرُّقية: الرُّقى والرُّقْيُ، والاسترقاء في الحديث، الرقية: العوذة التي يرقى بها الآفة =

والتعاويذ[1]، والقسم؛ إذ كل هذه الأمور مما ينبغي أن يتوجه بها إلى الله وحده، وتطلب منه وحده، وأن تكون به وحده وتصرف إليه وحده لا يُشرك فيها معه غيره، فضلاً من أن يتوجّه بها إلى غيره، وهذا من المجمع عليه، جاء في شرح الطحاوية: (واتفقوا كلهم ـ يعني الأئمة ـ على أن كل رقية وتعزيم[2] أو قسم فيه شرك بالله تعالىٰ فإنه لا يجوز التكلّم به، وإن أطاعته به الجنّ أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلّم به لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف، ولهذا[3] قال النبيّ ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شركٌ»)[4].

فيكره من ذلك ما كان بغير اللسان العربي وبغير أسماء الله تعالىٰ وصفاته وكلامه المنزل، وأن يعتقد أنه نافع لا محالة فيتكل عليه، . . . ولا يكره منه ما كان في خلاف ذلك؛ كالتعوّذ بالقرآن وأسماء الله تعالىٰ، والرقى المرويّة[5].

ومن هنا، فإن المعول عليه هو حسن اللفظ دون تكلّف، مع وضوح العبارة وصحة المضمون.

وأمّا بالنسبة لأسماء الله عزّ وجلّ، فليس للذاكر والداعي المنشئ من عند

= كالحمى والصرع وغير ذلك. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٥٤.

(١) التعوّذ: يقال عذت به أعوذ به عوذاً وعياذاً ومعاذاً، أي: لجأت إليه، والمعاذ المصدر، والمكان والزمان: أي لقد لجأت إلى ملجأ ولذت بملاذ، والاستعاذة والتعوّذ وما تصرف منهما الكل بمعنى، وبه سميت ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾ المعوّذتين، انظر: النهاية ٣/ ٣١٨.

(٢) العزائم: الرقى، يقال: عزم الراقي عزماً، والعزيمة ما عزمت عليه والرقية. انظر: مختار الصحاح ص١٨١ مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٦م، والمعجم الوسيط ص٦٢٩، الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

(٣) انظر: شرح الطحاوية ص٥٠٥، لابن أبي العزّ الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، تخريج ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، دار المأمون للتراث.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمى، مسلم بشرح النووي ١٤/ ١٨٧.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٥٥.

نفسه أن يطلق على الله اسماً أو وصفاً لم يرد من الشارع إطلاقه أو الإذن به؛ لأن ذلك من الأمور الموقوفة على الشارع إذناً ومنعاً.

(فما ورد الشرع بإطلاقه في أسماء الله تعالىٰ وصفاته أطلقناه، وما منع الشرع من إطلاقه منعناه، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم، فإن الأحكام الشرعية تتلقّى من موارد السمع، ولو قضينا بتحليل أو تحريم من غير شرع لكنّا مثبتين حكماً دون سمع)[1]، ثم إن أسماء الله توقيفية لا تؤخذ قياساً واعتباراً من جهة العقول. . . والمعنى بالتوقيف ورود الإذن من الله تعالىٰ[2].

وهناك رأي يفرق بين الأسماء والصفات في التوقيف وعدمه، فيقول: إن إطلاق الاسم على الله لا يجوز إلّا بالتوقيف، ففرّق بين الاسم والصفة، ـ يقول ـ اسمي محمد واسمك أبو بكر، فهذا من باب الأسماء. وأمّا الصفات فمثل وصف الإنسان بكونه طويلاً فقيهاً وكذا وكذا، لأن وضع الاسم في حق الواحد منّا سوء أدب، ففي حق الله أولى. وأمّا ذكر الصفات في حقنا بالألفاظ المختلفة، فهو جائز من غير منع، فكذا في حق الباري[3].

بَيْد أن هذا التفريق ليس هو الأولى، يقول الإمام أحمد رحمه الله: (لا يوصف الله إلّا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث)، وعلى هذا مذهب السلف[4].

ومراد الذاكر في المقام الأول، إنما هو الثناء على الله وتمجيده بما هو أهله، ثم هو يريد ويطمع أن يحقق مرضاة الله ومحبّته، ويفوز بما أعدّه الله

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص١٣٦ ـ ١٣٧.

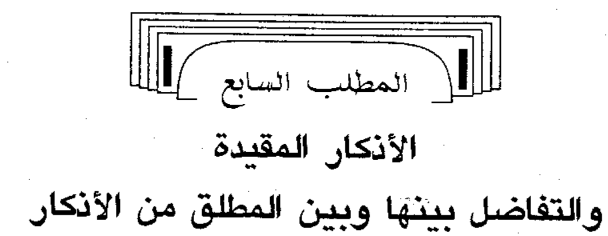
(٢) انظر كتاب معنى لا إله إلّا الله ص١٥٩ ـ ١٦٠ للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق علي محيي الدين علي القرة داغي، دار النصر للطباعة الإسلامية بمصر، ساعدت على طباعته اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر في العراق.

(٣) المصدر نفسه ص١٦٠ ـ ١٦٤.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٥/ ٢٦.

للذاكرين من الجزاء العاجل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، ومن كان هذا مراده، فالأحرى به أن ينأى بذكره عن كل ما يجعل هذه الغايات في غير مأمن من احتمال عدم التحقيق، فضلاً من أن يكون موزوراً بينما يود المغانم والأجور، ولهذا فالأسلم له أن يجعل أسماء الله وصفاته التي يتضمنها ذكره أو تلك التي يتوسّل بها إلى الله في دعائه أن تكون مما أذن الله بإطلاقها في كتابه أو جاءت تسميته ووصفه بها على لسان رسوله ﷺ في السنّة الصحيحة، وهذه هي خلاصة ما ينبغي معرفته من الضوابط للذكر والدعاء المنشأ، والله أعلم.

❊ ❊ ❊



الأذكار المقيدة
والتفاضل بينها وبين المطلق من الأذكار

الأذكار المقيّدة: ويقصد بها الأذكار التي قيد لها الشارع ما تقال فيه من الحال والمناسبة والظرف المكاني والزماني، وقيّد لها العدد والهيئة، وبعبارة أخرى هي الأذكار التي ثبت أن الرسول ﷺ قالها أو أمر بها في أوقات مخصوصة أو سبب أو مناسبة معيّنة تقال فيها؛ كأذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم والاستيقاظ، وأذكار الصلاة وما يقال عقب التسليم منها وغير ذلك من أذكار المناسبات والأحوال، والأوقات المتكرّر منها والعارض، وهذه الأذكار تصدّى لجمعها من ألف في الأذكار المأثورة وصنّفها على أبوابها ومناسباتها وبيان الأسباب التي تقال فيها ذوات الأسباب منها، كالنووي والجزري، وقبلهما ابن السني وغيرهم كثير.

❖ التفاضل بين الذكر المطلق والمقيّد:

ذكرنا فيما سبق من المطالب الذكر وأنواعه، وذكرنا ما بين تلك الأنواع من التفاضل، وهنا نذكر التفاضل بين الذكر المطلق والمقيّد من حيث الاشتغال بهما، وفي هذا المقام كلام قيم لابن قيم الجوزية رحمه الله[1]

(١) ابن قيم الجوزية: هو الإمام المفتي المتفنّن، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي الزرعي، ثم الدمشقي الحنبلي، ولد سنة ٦٩١هـ، ولقد نشأ في أسرة علمية، سمع الحديث، واشتغل بالعلم، فبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث، وقد لازم ابن تيمية منذ أن ظفر به وإلى أن مات الشيخ رحمه الله، فأخذ عنه علماً جمّاً، وقد صار فريداً في بابه في فنون كثيرة، وظل يطلب العلم ويشتغل به في ليله ونهاره، مع إكثاره للصلاة والابتهال، وكان حسن الخلق، وحسن =

يرتّب فيه تفاضل الأذكار كلها من جهة المقدم منها حين الاشتغال بها، فيقول: (قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلى كلٍّ منهما مجرداً، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعينه فلا يجوز أن يعدل عنه، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، وكذلك التسميع والتحميد في محلّهما وكذلك التشهّد، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد... قال: وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالىٰ على خلقه، لكن لكل مقام مقال، وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوصة أفضل من المطلقة)[1].

وهذا كلام جميل أتى على بغيتنا في التفاضل الذي نحن بصدده؛ ذلك لأن: ما ورد من الذكر مختصّاً بمكان أو زمان أو حال، كأذكار الطواف وليلة الجمعة، أو حال النوم (أو غير ذلك)، فالاشتغال به أفضل من الاشتغال بالتلاوة[2].

وهذا الترتيب والتفضيل ليس خاضعاً لتقديرات الذاكر، بل مبناه على قضية، وهي أن (ثواب الأذكار قد قدّره الشارع وصرّح بما يحصل لفاعلها من الأجر، وكون هذا الذكر أفضل من هذا الذكر إنما يظهر بما يترتّب عليه من الأجر، فما كان أجره أكثر كان فعله أفضل ـ و ـ الحاصل أن أفضل الأذكار تلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إلّا فيما شرع بغيره، وذلك في المواطن التي ورد النهي عن قراءة القرآن فيها؛ كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح: «إني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً»[3]، وهكذا ما وردت به السنّة المطهرة من الأذكار في الأوقات وعقيب

= التلاوة، له من التصانيف الكبار والصغار الشيء الكثير، توفي سنة ٧٥١هـ.
انظر: البداية والنهاية ١٨/٥٢٣ ـ ٥٢٤.

(١) الوابل الصيب ص١٧٨.

(٢) الفتوحات الربانية ٣/٢٢٧ ـ ٤/٣٨٨.

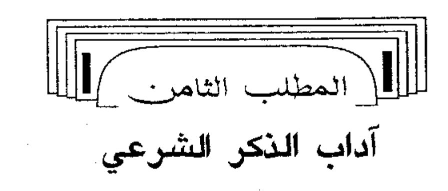
(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، صحيح مسلم بشرح النووي ٤/١٩٦.

الصلوات، فإنه ينبغي الاشتغال بما ورد عنه ﷺ، فإن إرشاده يدلّ على أنه أفضل من غيره ثم سائر الأذكار المأثورة، والدعوات المشهورة في دواوين السنّة، يأتي بها الذاكر في أوقاتها، ومنها ما هو غير مؤقت فيأتي بها كما جاءت ولا يبتدع بل يتبع)[1].

فخلاصة الكلام في ترتيب التفاضل والاشتغال بالأذكار عموماً، يكون بتقديم ذكر المكان والزمان والسبب على غيره، ثم ما أعطاه الشارع مزية الفضل تنصيصاً، أو رتّب عليه من الثواب أكثر من غيره، والله أعلم.

* * *

(١) نزل الأبرار ص١١ لمحمد صديق حسن خان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.



آداب الذكر الشرعي

الذكر عبادة عظيمة، ومن أجل العبادات وأشرفها، وله آداب كشأن كل العبادات، بل الآداب في الذكر والدعاء آكد من غيره، وذلك لعظم شأن المذكور المدعو سبحانه ومراعاة الآداب الشرعية تجعل الذكر أدعى للقبول والدعاء قمن بالإجابة، والآداب التي ينبغي على الذاكر مراعاتها كثيرة، وسآتي هنا على طرف منها، وهي تتعلق بالذاكر ظاهراً وباطناً، ومنها ما يتعلق بالموضع الذي يذكر فيه، ومنها ما يتعلق بالأحوال، ومنها ما يتعلق بالذكر نفسه.

١ ـ صفة الذاكر:

ينبغي للذاكر أن يكون على أكمل الصفات، فإن كان جالساً في موضع استقبل القبلة، وجلس متذللاً متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه، مع جواز أن يكون الذكر على غير هذه الحال بلا كراهة، لكن إن كان بغير عذر فهو تارك للأفضل، وينبغي عليه أن ينظف فاه وإن كان فيه تغيُّر أزاله بالسواك، وإن كان ثمة نجاسة فعليه أن يغسلها بالماء وإلا فالذكر مكروه ولا يحرم، كما هو الشأن في قراءة القرآن على الأرجح، والطهارة من الحدث للذاكر هي الأكمل والأفضل لكن لم يقل أحد باشتراطها لثبوت السنة بأن النبي ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه، وكان يذكر داخلاً للخلاء وخارجاً منه[1].

٢ ـ صفة الموضع:

أما الموضع الذي يذكر فيه فينبغي أن يكون خالياً نظيفاً، فإنه أعظم في

(١) انظر: الأذكار النووية ص٣٨، ٣٩، والموسوعة الفقهية ٢١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

احترام الذكر والمذكور، ولهذا مُدح الذكر في المساجد والمواضع الشريفة كما في قوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[1]، وقال سبحانه عن المشاعر المعظمة: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[2]، والأصل أن يكون ذكر الله تعالى في جميع المواضع، إذ هو مندوب فيه ما لم تكن مواضع قذارة أو تخلي[3].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾[4].

وهذه الآداب المذكورة في صفتي الذاكر وموضع ذكره، هي مما يتعلق بظاهر الذاكر غالباً، أما باطن الذاكر فأدبه هو.

٣ ـ حضور القلب في الذكر:

إذ المراد من الذكر تعظيم المذكور، وأنه أعظم من أن تنشغل القلوب بغيره، خاصة حال العبادة، وهذا لا يكون إلا بحضور القلب حالة الذكر، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله وذلك بتدبر معاني ذكره وتعقلها، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكهما في المعنى[5].

ولكي يحصل حضور القلب والظفر بالمراد، على الذاكر أولاً أن يطلب العون من الله على الذكر[6]، قائلاً: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك)[7]، والاستعانة بالله هي شأن المسلم في كل عبادة، كما في قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ

(١) سورة النور: الآية ٣٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٨.
(٣) انظر: الأذكار النووية ص٣٨، ٣٩.
(٤) سورة الجمعة: الآية ١٠.
(٥) انظر: الأذكار النووية ص٤٠، ٤١، ومسك الختام في الذكر والدعاء بعد السلام ص٢٧.
(٦) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٢/ ٢٤٢.
(٧) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٢/ ٨٦، رقم ١٥٢٢، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٣٢ برقم ٩٩٣٧، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، انظر: المستدرك ٣/ ٢٣٧.

﴿نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[1].

وعليه فينبغي للمسلم أن يحضر قلبه عند كل عبادة، وأن يجاهد نفسه وشيطانه، ويبتعد عن كل ما يشغله حال العبادة سواء كانت صلاة أو تلاوة أو ذكراً، أو فكراً، أو دعاء، ويستحضر عظمة المعبود، وأما ترديد الألفاظ باللسان والقلب وهو معرض ناء غافل لاه فلا جدوى ترجى وراء ذلك، فحضور القلب وإقبال الذهن وتفريغ الوجدان والانصراف بالكلية إلى الله تعالى في العبادة أمر في غاية الأهمية[2].

ذلك لأن الله لا ينظر إلى الأجسام والأشباح، بل إلى ما وقر في القلوب قبل أن تتحرك به الجوارح، وهو ما نبه إليه الناصح الأمين ﷺ بقوله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[3].

ولعل كثرٌ من المشتغلين بترديد الأذكار ذاهلون عن هذه القضية مع أنها غاية، والذكر وسيلة إليها، لا سيما أولئك الذين يمارسون الأذكار مع الحركة والاهتزاز والاضطراب، أو ما هو أبعد من ذلك وأغرب كخلط الذكر بالرقص والدوران وربما مع آلات الطرب، وأين كل هذا من حضور القلب والسكينة والخشوع والوقار.

٤ ـ تحري الأزمنة الفاضلة:

جاء الحضُّ على الذكر من الشارع، بما يشمل كل تقلبات المسلم مع الزمان والمكان والحال، وهذا هو الأصل. إذ أن الذكر مرغوب على الدوام، ولكن قد يأتي من الشارع ما يجعل لبعض الأوقات مزية، ومزيد شرف، فمن ذلك الغدو والآصال، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾﴾[4]، وقال

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.
(٢) مسك الختام في الذكر والدعاء بعد السلام ص٢٦، ٢٧.
(٣) رواه مسلم، كتاب الأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، ودمه وعرضه وماله، انظر: صحيح مسلم مع النووي ١٦/١٢١.
(٤) سورة الإنسان: الآية ٢٥.

أيضاً: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾[1]، ولعل خصوصية هذين الوقتين لأنهما وقت شغل لأهل الهمة في الدنيا، ووقت ثقل وكسل لأهل الدعة والخمول، والله أعلم.

وأشرف أوقات الذكر بعد صلاة الصبح، وذلك لشهود الملائكة له كما قال سبحانه: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[2]، ومن الأزمنة الفاضلة عشر ذي الحجة للذكر ولكل الأعمال الصالحة، كما قال ﷺ: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾[3]. ومن الأوقات الفاضلة يوم الجمعة وليلتها لا سيما الساعة التي فيها، والتي رغب الشارع إلى تحريها والظفر بها حيث لا يوافقها سائل إلا أعطاه الله ما سأل، ولكن الشارع الحكيم أخفى تلك الساعة ضمن ساعات يوم الجمعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «... فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي، فيسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه»[4]، قال النووي: اختلف العلماء من السلف والخلف في هذه الساعة على أقوال كثيرة منتشرة، ولكن كثيراً من الصحابة على أنها بعد العصر، والمراد بقائم يصلي من ينتظر الصلاة، ويستحب أن يكثر في يوم الجمعة وليلتها من قراءة القرآن والأذكار والدعوات والصلاة على رسول الله ﷺ[5].

٥ ـ أحوال رُغبَ فيها وأحوال رُغبَ عنها:

هناك أحوال رغب فيها الشارع بأن جعلها مظنة القبول والإجابة للذكر والدعاء، وهذه الأحوال هي التي تعقب الفراغ من الأعمال الصالحة[6].

فمن ذلك عقب قضاء الصلوات لا سيما صلاة الجمعة، قال تعالى:

(١) سورة غافر: الآية ٥٥.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٨.
(٣) سورة الحج: الآية ٢٨.
(٤) رواه البخاري في كتاب الدعوات باب الدعاء في الساعة التي في يوم الجمعة، البخاري مع الفتح ١١/٢٠٢ برقم ٦٤٠٠، وصحيح مسلم كتاب الجمعة، مع النووي ٦/١٣٩.
(٥) انظر: الأذكار النووية ص٢٨٥ ـ ٢٨٧.
(٦) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٢/٢٤٦.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[١]، ومما يؤكد أن هذا الموطن من مواطن الذكر مجيء الأمر به حتى عقب صلاة الخوف، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[٢]. ومن المواطن الأحوال الفاضلة، بعد الفراغ من أداء شعيرة الحج، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[٣]، إلى غير ذلك.

وعلى هذا فإن أداء الأعمال الصالحة لا سيما التي افترضها الله على عباده يعقبها حال تتنزل فيه رحمة الله، ويكون الباب الذي صعدت منه الأعمال الصالحة، كأنه ما يزال مفتوحاً، فتصبح مظنة القبول راجحة. والله أعلم.

أما الأحوال التي رغب عنها الشارع:

فهي التي يكره فيها اشتغال اللسان بالذكر، ذلك لأن الشارع قد استثنى من حضه على الذكر أحوالاً اعتبر اشتغال اللسان بالذكر فيها مكروهاً، وهذه الأحوال على قسمين:

القسم الأول: هي الأحوال التي تطغى على الإنسان فيها بحكم خلقته نزعة الطين فيكون في أحوال دنية، وفي وضع لا يرقى معه إلى منازل الذكر السامية التي يجاور، ويكاد أن يجاري فيها الإنسان الملائكة، والأحوال المرغب عنها هي:

حالة الجلوس على قضاء الحاجة، حالة الجماع، حالة النعاس، ففي هذه الحالات يكون الإنسان ألصق إلى قبضة التراب منه إلى نفخة الروح، فيعذر عن الذكر والحالة هذه حتى يكون في حال أعلى وأرفع.

والنوع الثاني: فهي الحالات التي يكون فيها الإنسان في أداء عبادة معينة منصرفاً إلى أدائها كما شرعت، ولا ينشغل عنها بالذكر، ومن هذه الحالات، حال الخطبة في الجمعة لمن يسمع الخطيب، وحال القيام في الصلاة فيشتغل

---

(١) سورة الجمعة: الآية ١٠.
(٢) سورة النساء: الآية ١٠٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

بالقراءة، ولا يكره الذكر في غير هذه الأحوال المذكورة[١].

٦ ـ من الآداب أثناء الذكر:

١ ـ هناك أحوال تعرض للذاكر يستحب له فيها قطع الذكر ليعود إليه بعدها، فمنها: إذا سُلِّمَ عليه رد السلام، وإذا عُطِسَ عنده شَمَّتَ، وكذا إذا سمع الخطيب أو المؤذن استمع وأجاب، وكذا إذا رأى منكراً أزاله، أو معروفاً أرشد إليه، وكذا إذا غلبه النعاس، فالمستحب له في مثل هذه الحالات أن يقطع الذكر ويفعل ما تقتضيه ثم يعود لتكملة ذكره.

٢ ـ التلفظ بالذكر نطقاً لا بد منه لاعتبار الذكر، يقول النووي: (اعلم أن الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها واجبة كانت أو مستحبة لا يحسب شيء منها ولا يعتد به حتى يتلفظ به)، وذلك لأن قول النبي ﷺ في أكثر من مناسبة: بأن من قال كذا كان له من الأجر كذا، لا يحصل له ذلك الأجر إلا بما يصدق عليه معنى القول، وهو لا يكون إلا بالتلفظ باللسان، ولا يحصل ذلك عند الجمهور بمجرد تحريك اللسان بغير صوت بل لا بد من صوت[٢].

٣ ـ وفي خفض الصوت بالذكر أو الرفع به فيه، فالمستحب في الذكر خفض الصوت به لأنه مناجاة بين الذاكر وربه، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[٣].

قال النووي في شرحه على مسلم: قوله ﷺ للناس حين جهروا بالتكبير: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً»[٤]، معناه: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت

---

(١) انظر: الأذكار النووية ص٤٠.
(٢) انظر: الأذكار النووية ص٤١، ٤٢.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.
(٤) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة صحيح البخاري مع الفتح ١١/ ١٩١ برقم ٦٣٨٤، وفيه بصيراً بدل قريباً، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ١٧/ ٢٥.

إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة، ففيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر، إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت الحاجة إلى رفعه رفع[1].

ويستثنى من هذا الأصل مواضع ينبغي فيها الجهر بالذكر ورفع الصوت به لما في ذلك من المصالح التي قدرها الشرع، فمنها: ما قصد به الإسماع والتبليغ كالأذان والإقامة وتكبيرات الإمام وقراءته في الجهرية إلخ.

ومنها: بعض أنواع أذكار الصلاة التي وردت السنة بالجهر فيها كالتأمين والقنوت والتكبير، وتكبيرات العيد، والتلبية في الحج.

ومنها: بعض الأذكار التي يراد بها التنبيه أو التعليم، أو فائدة أخرى كأن يرفع صوته بالتسمية على الطعام حتى ينبه غيره[2].

وبهذا الإيجاز عن آداب الذكر نختم الحديث عن مفهوم الذكر الشرعي وضوابطه وآدابه.

❋ ❋ ❋

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/٢٥، ٢٦.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية ٢١/٢٥١.

الفصل الثاني

تحقيق الذكر الشرعي للتوحيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التوحيد وأقسامه.

المبحث الثاني: تحقيق الذكر الشرعي للتوحيد.

المبحث الأول

التوحيد وأقسامه

المطلب الأول

تعريف التوحيد لغة وشرعاً

التوحيد لغة: أصل المادة من وحَّد يوحِّد توحيداً، قال في لسان العرب: (والتوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد، ذو الوحدانية والتوحد، والله الأحد والمتوحد وذو الوحدانية، ومن صفاته الواحد الأحد، والفرق بينهما أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والواحد اسم بني لمفتتح العدد، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثيل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله ﷻ)(١).

والتوحيد: مصدر من وحَّد يوحِّد توحيداً، أي اعتقده واحداً، وسمي دين الإسلام توحيداً لأن مبناه على أن الله واحد في كل ما له سبحانه(٢).

أما التوحيد شرعاً: فمعناه (هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتعريف بها ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً)(٣)، و(الله تعالى واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهو رب العالمين، المستحق وحده

---

(١) لسان العرب: جمال الدين بن منظور الإفريقي ٣/٤٥٠، ٤٥١ دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد ١٧/سلمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب نسخة دار الباز للنشر.

(٣) شرح جوهرة التوحيد ص١٠ إبراهيم بن محمد البيجوري دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

لجميع أنواع العبادة)[1].

والتوحيد الذي هو إفراد الله سبحانه بكل ما لا يشترك فيه معه أحداً غيره في ما هو له من الكمال والتنزيه، وفي ما هو حقه من الإفراد بالربوبية والألوهية، هو في مضمونه لا يزيد على حقيقة الإيمان بالله، الذي هو صنو معنى التوحيد، إذ هما متفقان في المعنى سيما في حال ذكر أحدهما في موضع دون الآخر.

فالإيمان بالله هو: الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق وحده لا شريك له... وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال منزَّه عن كل نقص وعيب، وهذا هو التوحيد)[2] (الذي هو أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله ﷻ)[3]، وأن العبادة لا تكون لغيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[4].

* * *

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/٤٢ د/مانع حماد الجهني، دار الندوة العالمية للنشر والتوزيع الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

(٢) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص١٧د/ صالح بن فوزان عبد الله الفوزان، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء، الرياض.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٧، لابن أبي العز، تحقيق جماعة من العلماء، تخريج محمد ناصر الدين الألباني الطبعة الثامنة ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

المطلب الثاني

أنواع التوحيد وأقسامه

إن ما تفرد الله به وتوحد مما هو له، ومما هو أهله، ومما هو شأنه إيجاداً وتقديراً وتدبيراً، ووحّده به الكون كله طوعاً أو كرهاً، واعتقده المؤمنون فيه قولاً وتصديقاً وعملاً، هذا التوحيد قسمه أهل العلم من خلال استقرائهم لنصوص الكتاب والسنة المتعلقة به وبالنظر إلى مباحثه التي يتعلق بها إلى ما يأتي:

١ ـ توحيد قولي علمي، وهو الذي تدل عليه أسماء الله وصفاته.

٢ ـ توحيد قصدي عملي[1] كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾[2].

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: (وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والمقصد[3]).

وهذا التقسيم، هو بالنظر إلى التوحيد من جهة العبد الموحِّد به، فهو من هذه الناحية توحيد علم واعتقاد، وتوحيد عبادة وعمل، وأما بالنظر إلى التوحيد نفسه فهو ثلاثة أنواع:

١ ـ فمن جهة انفراد الله بالخلق والرزق والتدبير يسمى توحيد الربوبية.

٢ ـ ومن جهة انفراده بالأسماء الحسنى والصفات العلى، يسمى توحيد الأسماء والصفات.

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص٤٦٥، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) سورة الكافرون: الآية ١، ٢.

(٣) مدارج السالكين ٣/٤٤٩ ابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر ١٤١٢هـ.

٣ ـ ومن جهة استحقاق الله وحده للعبادة، يسمى توحيد الألوهية أو توحيد العبادة والعمل[1].

وانقسام التوحيد إلى هذه الأقسام الثلاثة من هذه الناحية ذكره شارح الطحاوية بقوله: (فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع: أحدها الكلام في الصفات، والثاني توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء، والثالث توحيد الإلهية وهو استحقاقه ﷻ أن يعبد وحده لا شريك له)[2].

والكلام في التوحيد هنا تعريفاً وتقسيماً، تمهيدٌ للكلام على الذكر وعلاقته بالتوحيد، ثم لمعرفة كيف يتحقق التوحيد من خلال الذكر الشرعي، وقد سبق نقل تقسيمين للتوحيد: تقسيماً له من جهة الموحَّد به، وتقسيم آخر له من حيث كونه توحيداً لله، وليس بين التقسيمين نفرة أو خلاف، فكل ما في ذلك أن التقسيم الأول أدخل الأسماء والصفات ضمن توحيد العلم والاعتقاد، والتقسيم الثاني جعل الكلام في الأسماء والصفات قسماً ثالثاً للتوحيد، وإلا فإن التوحيد متلازم الأنواع والتسليم ببعض أنواعه ملزم بالآخر.

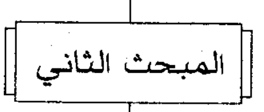
وإلى هذه الأنواع، ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر[3].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص١٠٩، محمد أحمد ملكاوي الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ، دار ابن تيمية بالرياض.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٨.

(٣) المصدر نفسه ص٧٨ ـ ٨٩.



تحقيق الأذكار الشرعية للتوحيد

المطلب الأول
تحقيق الأذكار المطلقة للتوحيد

لقد مر الحديث عن الأذكار المطلقة[1] ومدى سعتها ثم كيف يكون التفاضل فيما بينها إجمالاً.

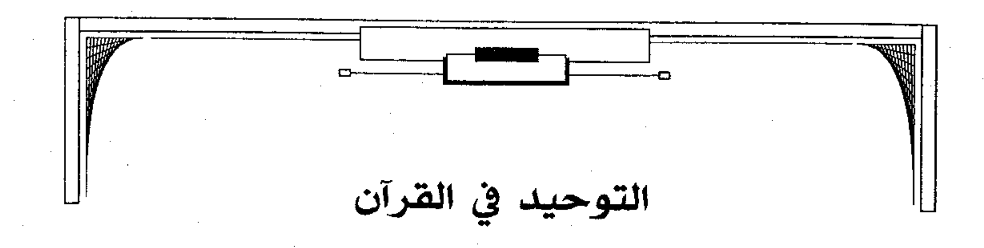
فأفضلها القرآن الكريم، ثم ما كان ثناءً على الله من المأثور من غير القرآن، وأفضل المأثور في ذلك الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم ما كان إخباراً من العبد بعبوديته تذللاً وإنابة، ثم ما كان دعاءً ومسألة.

وهذه الأنواع الأربعة هي التي دارت حولها الأذكار المطلقة، وسنأتي هنا بنماذج من هذه الأنواع لنرى كيف يتحقق التوحيد من خلالها.

وأولها القرآن الكريم.

❊ ❊ ❊

(١) انظر البحث السابق في ترتيب تفاضل الأذكار ص٦٩ وما بعدها.



التوحيد في القرآن

من رحمة الله وجليل إنعامه أن يكلم عباده عن نفسه ويعرفهم بأسمائه وصفاته وأفعاله، مما يبصرون وما لا يبصرون، ويجيبهم بنفسه على سؤال فطرتهم: مم جاؤوا، ولم؟ كل ذلك في وحي معجز أوحاه إلى رجل منهم، ثم تكفل لهم بحفظه ما بقي لهم على وجه الأرض وجود، فكيف كانت طريقة هذا القرآن في تقرير عقيدة التوحيد؟

لقد سلك القرآن سبيلين لتقرير هذه الحقيقة الكبرى:

الأول: الحديث عن بديع صنع الله في خلقه، وبيان ما في هذا الكون من إعجاز يشي بعظمة الخالق سبحانه.

الثاني: الحديث المباشر عن الله: ذاته وأسمائه وصفاته ونعمه ومخلوقاته[(١)].

فالطريق الأول: في الجانب الكوني: (يأخذنا القرآن في جولات وجولات نرتاد آفاق السماء، ونجول في جنبات الأرض، ويقف بنا عند زهرات الحقول، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها، وهو في كل ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا)[(٢)].

ولقد أكثر القرآن من الحديث حول هذا الجانب، نسوق من ذلك بعض

(١) العقيدة في الله ص٩٥، د/عمر سليمان الأشقر، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م مكتبة الفلاح - الكويت.

(٢) المصدر نفسه، والصفحة.

الآيات، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[(٢)].

وحديث القرآن في هذه الناحية طويل جداً، والغرض هنا هو الإشارة إلى طريق القرآن الموصل للتوحيد وكان هذا طريقه الأول.

الطريق الثاني: حديث القرآن المباشر في التعريف بالله - ذاتاً وأسماءً وصفاتاً - أو بمعنى آخر: حديث القرآن عن ما يتعلق بوحدانية الله في ربوبيته لخلقه، وما يتعلق بتوحده سبحانه في أسمائه وصفاته، أو ما يتعلق بما يجب أن يوحد به سبحانه في ألوهيته، ومن ذلك:

١ - توحيد الربوبية:

الكلام السابق، في طريق القرآن الأول لتقرير العقيدة، متعلق بالدرجة الأولى بتوحيد الربوبية، في لفته النظر إلى خلق الله وتدبيره، وسعة ملكه، ثم هو مستلزم لتوحيد الألوهية، لكن النصوص التي سنوردها هنا هي مباشرة في مواضيعها، ففي توحيد الربوبية قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٥ - ٩٨.

(٢) سورة الزخرف: الآية ١١ - ١٤.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٦.

وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾[3].

٢ ـ توحيد الأسماء والصفات:

لله سبحانه ذات متصفة بصفات الكمال منزهة عن صفات النقص، وهذا التوحيد، هو في جانب المعرفة والإثبات ـ لأنه متعلق بحقيقة الرب تعالى، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سماواته على عرشه، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد إفصاح[4]، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[5]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾[6]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[7]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[8].

وهذه الآيات التي سقناها تتضمن المنهج القرآني في التوحيد في هذا الجانب، والتوحيد في ذلك يعني: إثبات أسماء الله تعالى وصفاته التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ ونفي الشريك له في الأسماء، وعدم التمثيل والتعطيل في الصفات[9].

وهذا هو المنهج الذي يجب أن يتبعه المسلم بشأن أسماء الله وصفاته التي وردت في الكتاب أو على لسان المصطفى ﷺ.

(١) سورة يونس: الآية ٣١.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٨٦، ٨٧.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٨٧.
(٤) مدارج السالكين ٣/٤٤٩.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٦) سورة الإخلاص.
(٧) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.
(٨) سورة الشورى: الآية ١١.
(٩) انظر: عقيدة المؤمن ص٧٧، لأبي بكر جابر الجزائري، دار الفكر، دون مزيد بيان عن الطبعة، ومجموع الفتاوى ٥/٢٦.

٣ ـ توحيد الألوهية ـ والعبادة ـ:

وهو ثمرة توحيد الربوبية والأسماء والصفات وجناه الطيب، وبدونه يفقد توحيد الربوبية والأسماء والصفات معناه، وتنعدم فائدته[1].

ومن نصوص القرآن المباشرة في توحيد الألوهية: قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات، والمقصود كما سبق هو الإشارة إلى طريقة القرآن في تقرير التوحيد، بالتلميح والتصريح إجمالاً، فالموضع لا يحتمل البسط[5]. . .).

والقرآن كله ينبض بالتوحيد، إذ التوحيد هو قضية القرآن الكبرى يجدها تاليه مبثوثة فيه هنا وهناك، يقول ابن القيم رحمه الله: بل نقول قولاً كلياً، إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته. . . فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزئه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[6].

وقضية تحقيق القرآن للتوحيد أوسع من أن يتناولها الإنسان في مثل هذا المبحث، وهي القضية العظمى التي جاء القرآن من أجلها، وساق المشاهد والشواهد، وحاجج العقول وألهب العواطف، واستثار الفطر وأخذ بمجامع الناس إلى وحدانية رب الناس، لكن وبما أنه قد تقرر عندنا أن القرآن الكريم هو أفضل الأذكار على الإطلاق، ونحن الآن بصدد كيف يحقق التوحيد من

(١) المصدر نفسه، ص٧٧.
(٢) سورة محمد: الآية ١٩.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦٢، ١٦٣.
(٤) سورة التوبة: الآية ٣١.
(٥) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص١٣٧ ـ ٣٠٠.
(٦) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٥٠.

خلال الذكر، فكان لا بد من المرور على ذكر شيء من منهج القرآن في تحقيق التوحيد، وإن لم يكن وابل فلا أقل من الطل.

وإلا (فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ توحيد، ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ـ به ـ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد)[1].

وهذه هي فاتحة الكتاب يُستشف التوحيد من كل آياتها، فكيف سيكون شأن هذا الكتاب مع قضية التوحيد وقد استهل بها هكذا؟ وبهذا نكتفي عن الحديث في مسألة تحقيق الذكر بالقرآن للتوحيد.

❖ تحقيق لا إله إلا الله للتوحيد:

قال الله ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[3]، وقال ﷻ عنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾[4]. وكلمة لا إله إلا الله، لهج بها لسان سيد الذاكرين ﷺ كثيراً، وقد بين في سنته مكانة هذه الكلمة وعظمها ووزنها ثقلاً وثواباً، الأمر الذي جعلها أفضل الذكر بعد القرآن الكريم، كما تقرر معنا في مبحث تفاضل الأذكار في الفصل السابق.

○ معنى لا إله إلا الله:

فما معنى هذه الكلمة التي تتكون من نفي وإثبات؟ وما معنى الألوهية

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٨٩، ٩٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨، ١٩.
(٣) سورة محمد: الآية ١٩.
(٤) سورة إبراهيم: الآية ٢٤.

التي أثبتت لله بعد أن نفيت عن غيره؟ فلا إله إلا الله: هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل... وإثبات التوحيد بهذه الكلمة، باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرّد قد يتطرق إليه الاحتمال، ولهذا ـ والله أعلم ـ لما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قال بعده: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1]، والنفي فيها للماهية وليس للوجود، إذ هو أقوى في التوحيد الصرف[2].

فهي كلمة تنفي استحقاق إلهية ما سوى الله سبحانه، فوحده سبحانه الإله الحقّ، ومعنى إله: هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً[3].

إذاً معنى: لا إله إلا الله، أي انتفى انتفاءً عظيماً، أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم[4].

❖ تحقيق لا إله إلا الله لأنواع التوحيد:

نريد أن نبين هنا كيف أن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تتضمن إثبات أنواع التوحيد الثلاثة التي مر معنا ذكرها.

أولاً: توحيد الألوهية: لا إله إلا الله، هي الكلمة الصريحة الجامعة في التوحيد، فهي التي ما إن سمعها مشركو العرب، حتى كان ردهم كما حكى القرآن: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾[5]، والآلهة، هم من تصرف لهم العبادات، وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة هو الذي تعجب منه المشركون، والله سبحانه عندما شهد لنفسه بالتوحيد في الإلهية كانت شهادته بأنه لا إله إلا هو: (ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبيّن وأعلم، وحكم وقضى، أن ما سواه ليس بإله ـ وأن ـ إلهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره. اهـ)[6].

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٣.
(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص١٠٠، ١٠١.
(٣) مجموع الفتاوى ١/٢٢.
(٤) تيسير العزيز الحميد ص٥٣ ـ ٥٦.
(٥) سورة ص: الآية ٥.
(٦) شرح الطحاوية ص٩٢.

ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله إلا الله. . . فالإله ـ هو ـ الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك[1].

وتوحيد الألوهية هو الذي كان يبدأ به كل رسول دعوته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[2]، وهو مضمون كلمة: (لا إله إلا الله التي جاء بها خاتم النبيين والرسل محمد ﷺ، ودعا إلى قولها واعتقادها، ولم يطالب بغيرها في دعوته بمكة، ومن أجلها عودي وأوذي وحورب كل من دعا إليها من الرسل وأتباعهم، وذلك لأن قولها واعتقادها يستلزم الكفر الكامل لكل ما عبد الناس من آلهة دون الله سبحانه وتعالى[3].

وتحقيق لا إله إلا الله قولاً وعملاً واعتقاداً وأداءً للمقتضى، هو توحيد الألوهية الذي هو قطب رحى الدين، ومضمون لواء المرسلين، وهو الفيصل بين أهل التوحيد على التحقيق وبين الأدعياء الذين شقّتْ عليهم عقبته، ومالت بهم عنه الطريق.

ثانياً: توحيد الربوبية: إن كلمة لا إله إلا الله تتضمن توحيد الربوبية، وذلك لأن تمام تحقيقها لا يتم إلا بعد الإقرار لله بالوحدانية في الربوبية أولاً (ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولاً، لم يكونوا يخالفونه في هذا بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء)[4].

ولإقرار المشركين بوحدانية الله في الربوبية والخلق، كان القرآن يحاججهم به ويوبخهم في انصرافهم عن توحيده سبحانه، بالألوهية، وقضية تضمن لا إله إلا الله لتوحيد الربوبية أو تحقيقها له هي قضية العلاقة بين توحيد الربوبية والألوهية.

---

(١) انظر: العبودية ص٨، ٩، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

(٣) انظر: عقيدة المؤمن للجزائري ص٧٧، ٧٨.

(٤) التدمرية ص١٨٠، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد بن عودة السعودي، الطبعة الأولى، شركة العبيكان، الرياض ١٤٠٥هـ.

وعلاقة أحد النوعين بالآخر هي في أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، بمعنى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الإلهية، وأن توحيد الربوبية يدخل ضمن توحيد الألوهية)[1].

وهذا المعنى هو نفسه الذي نعنيه حين نقول أن لا إله إلا الله تتضمن توحيد الربوبية، وتحقيقها علماً ويقيناً هو تحقيق للاعتراف بوحدانية الله رباً وخالقاً ومدبراً، ثم توحيده بالعبادة والطاعة والمحبة والخوف والرجاء، ولا جرم فإنها كلمة التوحيد وعنوان الإسلام وشعار الملة.

ثالثاً: تضمُّن لا إله إلا الله (لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى)، لقد عرفنا أن توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بالعبادة هو ثمرة الإقرار لله بالوحدانية في الربوبية، وثمرة معرفة الله بأسمائه الحسنى وتفرده بصفات الكمال والجلال وتنزهه عن كل صفات النقص.

والمقصود: أن الإيقان بلا إله إلا الله يعني أحقية الله بالكمال المطلق والتنزيه المطلق، وهذا من لوازم أحقيته بالعبادة دون غيره، وهو معنى لا إله إلا الله.

ومن ناحية ثانية: أن لا إله إلا الله، هي بمنطوقها تصرح بالتوحيد، وبمفهومها تتضمن إثبات الكمال والتنزيه عن كل نقصٍ، وذلك لأن نفي الآلهة في قول: (لا إله) نفي لمضمَّنها من فعل الخلق والرزق والإثابة والعقوبة عن غير الله وقول: (إلا الله) إثبات لذلك ويلزم منه نفي ما يضاده من النقائص، وعلى هذا فإن لا إله إلا الله: توحيد لله في إلهيته ومفهومها توحيد له سبحانه في أسمائه وصفاته[2].

وتوحيد الأسماء والصفات يقوم على قاعدتين هما: نفي كل النقائص عن الله سبحانه، وإثبات كل صفات الكمال والجلال له سبحانه، وكلمة لا إله إلا الله بإثباتها الألوهية يلزم منها حصول القاعدتين: نفي النقائص وإثبات

---

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ص٢٣. (٢) انظر: فتح الباري ١١/٢١١.

الكمالات، إذ بذلك استحق الله وحده الألوهية. وكونه سبحانه معبوداً يستحق الإفراد بالعبادة، فذلك لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبوداً لذاته إلا هو[1].

فكونه ﷻ الأحق بالعبادة فذلك لأنه الإله المتصف بكل صفات الألوهية التي هي صفات الكمال والتي تقف حياة الخلائق ومصالحهم ومصائرهم في الدنيا والآخرة على الارتباط بآثارها.

❖ تحقيق سبحان الله والحمد لله للتوحيد:

سبحان الله والحمد لله، كلمتان عظيمتان، وترتيب فضلهما في الذكر بعد القرآن وكلمة التوحيد، والتسبيح والتحميد بينهما تكامل كتكامل جزئي قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

أو كتكامل وترابط طرفي كلمة الشهادة: لا إله إلا الله، ووجه الترابط والشبه بين هذه الصور الثلاثة هو تقديم النفي والتخلية على الإثبات والتحلية.

ومن حيثية تقديم التخلية على التحلية، قال بعضهم: (التحميد أفضل من التسبيح لأن فيه إثبات سائر صفات الكمال، وفي التسبيح تنزيهه عن سائر النقائص والإثبات أكمل.

وعلى هذا فقدَّم التسبيح على الحمد لأنه من باب التخلية، والحمد من باب التحلية، والأول مقدم، والله أعلم)[3].

ولعل مسألة التخلية والتحلية، وقضية النفي والإثبات، والحديث عن التسبيح والتحميد وتحقيقهما للتوحيد يحسن بنا أن نربطها بتوحيد الأسماء والصفات فنقول:

❖ تحقيق سبحان الله والحمد لله لتوحيد الله في أسمائه وصفاته:

إن الكلام في الأسماء والصفات أو ما ينبغي لله ويليق به وما لا ينبغي

(١) انظر: الفتوحات الربانية ١/ ١٨٤، والكواشف الجلية على معاني الواسطية ص١٩، جمع عبد العزيز المحمد السلمان، الطبعة التاسعة عشر، ١٤١٨هـ.
(٢) سورة الشورى: الآية ١١.
(٣) الفتوحات الربانية ١/ ١٨٤.

في حقه ولا يليق به، هو التوحيد الذي سماه العلماء (توحيد في العلم والاعتقاد)، وعن هذا النوع من التوحيد يقول ابن القيم رحمه الله: «فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص)[1].

وهذه المعاني التي جعلها ابن القيم مداراً لتوحيد العلم هي التي يدور حولها معنى سبحان الله والحمد لله: فسبحان الله تنزيه لله عن الشبيه والمثال ونفي للعيوب والنقائص عنه سبحانه، والحمد لله: إثبات لكل صفات الكمال ونعوت الجلال له سبحانه، وتوحيده ﷻ هنا إنما يكون بإثبات صفات كماله، وتنزيهه عن الشبيه، والنقائص[2].

وهذا هو حاصل التسبيح والتحميد.

يقول ابن رجب: إن التحميد إثبات المحامد كلها لله، فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها، والتسبيح هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب[3].

وقصر الحمد على الله وصرفه إليه وحده (يتضمن مدح المحمود ـ سبحانه ـ بصفات كماله ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه)[4].

وعلى هذا، فإن تحقيق سبحان الله والحمد لله للتوحيد وتضمنهما لتوحيد الله بما يليق به وما هو أهله من الكمال، وتنزيهه عما لا يليق به من النقائص، أمر في غاية الوضوح.

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٥.
(٢) انظر المصدر نفسه ١/ ٢٦.
(٣) جامع العلوم والحكم ص٢٠٣.
(٤) مدارج السالكين ١/ ٢٥.

❖ تحقيقهما لتوحيد الإلهية:

سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، هاتان الكلمتان الخفيفتان[(١)] في نطق اللسان، الثقيلتان في ميزان الرحمن والحبيبتان له سبحانه، اللتان هما غراس الجنة، لقد جاء لهما من الفضل في النصوص ما يكاد يوازي فضل كلمة الشهادة لا سيما (سبحان الله)، مما حدا بأهل العلم بأن يبحثوا في المفاضلة بين التهليل والتسبيح، وهنا سأورد بعضاً من كلام أهل العلم على تضمن هاتين الكلمتين لمضمون كلمة الشهادة الذي هو توحيد الإلهية.

○ أولاً: سبحان الله:

معناها تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص، فيلزم نفي الشريك[(٢)].

ونفي الشراكة في استحقاق العبادة لغير الله هذا معناه تخلية ذمة العبد عن العبودية لغير الله، وبإدراك المُسَبِّح لهذا المعنى يكون قد أفرد الله بالألوهية.

يقول ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في تضمن التسبيح لتوحيد الإلهية: (سبحان الله: تنزيه له عما لا يليق بجلاله وتقديس لصفاته من النقائص. فيندرج فيه معنى لا إله إلا الله)[(٣)].

ذلك لأن أول ما ينزه عنه الله سبحانه أن يشاركه غيره في استحقاق العبادة، وبهذا التسبيح نزه الله نفسه عن مشاركة غيره له في ذلك فقال: ﴿سُبْحَنَهُۥ وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(٤)]، وإذا كانت كلمة التهليل هي الكلمة الصريحة في توحيد الألوهية، فإن سبحان الله صريحة في التنزيه ومتضمنة لما صرحت به كلمة التهليل، (فمنطوق سبحان الله تنزيه ومفهومه توحيد)[(٥)].

وسبحان الله أبلغ في الدلالة على التنزيه من لا إله إلا الله، لأنها وإن

---

(١) حديث كلمتان: متفق عليه، صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح ١١/٢١٠ برقم ٦٤٠٦، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ١٧/١٩.

(٢) فتح الباري ١١/٢١٠.

(٣) انظر: فتح الباري ١١/٢١١.

(٤) سورة النحل: الآية ١.

(٥) انظر: فتح الباري ١١/٢١١.

دلت عليه، إذ يلزم من إثبات الألوهية انتفاء سائر النقص، وهو معنى التسبيح، إلا أنه بطريق الالتزام، وسبحان الله يدل عليه بالتصريح التام، والتسبيح (إنما كان أفضل الكلام لأنه يتضمن التنزيه ومنه نفي الشريك فيكون متضمناً لكلمة التوحيد)[(١)].

فتحقيق سبحان الله لتوحيد الله في الألوهية هو لتضمنها تنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد، وعن كل صفات النقص، ومعنى ذلك استحقاقه للوحدانية المطلقة ولكل صفات الكمال والجلال، فإذا لم يكن أحد أكمل منه في الصفات، ولا أحد أبعد منه من صفات النقص والعيب، فلا أحد أحق منه بالعبادة ووحدة الألوهية المطلقة فيها، وهذا هو مفهوم سبحان الله.

○ ثانياً: الحمد لله:

هذه الكلمة العظيمة تتضمن توحيد الألوهية من جانبين: الأول: كونها حمداً وثناءً على الله وحده دون سواه.

والثاني: لأنها دعاء كما ورد بذلك الحديث: «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله»[(٢)]، والحمد والثناء وقصرهما على الله توحيد، والدعاء وصرفه لله وحده توحيد، وكلاهما توحيد إلٰهية وعبادة.

فالحمد لله: هو الشكر لله والاستخذاء له، والإقرار له بنعمته وهدايته، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (الحمد لله كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه وأحب أن تقال)[(٣)].

فالحمد لله كلمة عبادة وتوحيد، بل (إن طائفة قالت: قول العبد: (الحمد لله رب العالمين) أفضل من قوله لا إله إلا الله، لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، والحمد كلمة مستغرقة لجميع أجناس الحمد وصنوفه)[(٤)].

---

(١) الفتوحات الربانية ١/١٨٢ ـ ١٨٤.

(٢) سبق تخريجه في ص٨٣.

(٣) انظر: ابن كثير ١/٢٤، ٢٥.

(٤) المصدر نفسه ١/٤ ـ ٢٥.

فالحمد لله: هو الشكر الخالص لله دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برء من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، وهي ثناءٌ أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا به عليه، فكأنه قال قولوا (الحمد لله)[1].

والحمد لله: دعاء، والدعاء هو العبادة، وهي مطلوبة في افتتاح كل دعاء، ولعظم الثواب الذي وصفه الشارع لقائلها من كونها تملأ الميزان، وغير ذلك، فقد فاضل العلماء بينها وبين كلمة التوحيد لا إله إلا الله.

فقال بعضهم: الحمد لله أفضل لأنه جعلها أفضل العبادة، وتلك إنما جعلت أفضل الذكر الذي هو نوع من أنواع العبادة)[2].

وهذا القول مرجوح ولكن له وجوهاً تجعله جديراً بالإيراد فيما نحن بصدده، (وإلا فكلمة التوحيد هي الأفضل لتكفلها بالنجاة في الدنيا والآخرة، والحمد لله هو أفضل الدعاء الذي ندب الشارع إلى بدء الدعاء وختمه به)[3].

والحمد، كما يعني الثناء فهو محبة لله ﷻ، فلا يكون حمدُ المحمودِ إلا مع محبته، وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة، فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود، وهو سبحانه المعبود المحمود، ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين تحميده وتوحيده[4]. إذاً الحمد: شكر وثناء وتوحيد، ودعاء وحب وعبادة، وهذا هو توحيد الألوهية.

❖ تضمُّن سبحان الله والحمد لله لتوحيد الربوبية:

سبحان الله: كلمة تنزيه لله ﷻ مطلقة، تنفي الشريك عنه في ربوبيته وفي ألوهيته كما قال سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/٢٣، ٢٤. (٢) الفتوحات الربانية ١/١٩١.
(٣) انظر المصدر نفسه ١/١٩١.
(٤) الكواشف الجلية في معاني الواسطية ص١٩.

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[1]. فسبحان الله نفي للشريك كله وتضمن للتوحيد كله، وتنزيه لله عن النقائص والعيوب كلها، وتضمن لإثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[2]. والحمد لله: كلمة ثناء مقتضية لكل صفات الكمال لله، فهو لذلك أهل لكل المحامد، وهي كلمة عبادة يتوجه بها الحامد إلى المحمود سبحانه، وهي دعاء في نفسها، وهي في مفتتح كل دعاء من غيرها وفي ختمه.

أما تضمنها لتوحيد الله في ربوبيته: فالحمد لله: كلمة الشكر الخالص لله دون غيره، لما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد، لما بسط على خلقه في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، هي: شكر لله واستخذاء له وإقرار بنعمته وهدايته وابتدائه[3]، فالحمد لله: مدحٌ وثناءٌ ودعاءٌ وشكرٌ، وهذه هي أنواع التوحيد، ووجه تضمنها للربوبية (هو بالنظر إلى الخلق والتدبير والأرزاق والنعم كلها من الله، فالحمد كله راجع إليه)[4].

فالحمد لله بهذا الوجه هي توحيد لله ﷻ في ربوبيته، والحمد لله: مع الألف واللام تكون للاستغراق، وذلك لأن المحامد أجناس والحمد صنوف وكل ذلك لله[5].

والحمد المتضمن لتوحيد الربوبية هو ركن من أركان معنى الحمد لله، فالمُلك والخير والأمر هذه الأمور التي أشار إليها حديث الحمد هي مفردات بناء توحيد الربوبية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا كان الرب محموداً حمداً

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.
(٢) سورة الصافات: الآية ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/٢٣ ـ ٢٤. (٤) انظر: الفتوحات الربانية ١/٢١٠.
(٥) انظر: تفسير ابن كثير ١/٢٣ ـ وما بعدها.

مطلقاً على كل ما فعله، وحمداً خالصاً على إحسانه إلى الحامد، فهذا حمد الشكر[1].

❖ الخلاصة في الكلمات الأربع:

وخلاصة القول في هذه الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإن كل واحدة منهن تدل على جانب من التوحيد، وتتضمن بقية الجوانب، ولذلك لا يضر الذاكر أن يردد واحدة منهن استقلالاً، أو أن يبدأ بأي واحدة منهن حين يكون الذكر بهن مجتمعات، وعند الذكر بهن معاً.

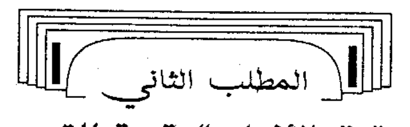
وعلى ترتيب مجيئهن في الحديث فإنهن يحققن أوضح صور التوحيد على التدرج اللائق بالمعارف الإلهية، وذلك: أولاً: بنفي النقائص عن الله، المدلول عليه بسبحان الله، ثم إثبات الكمالات مع التنبيه على معنى الفضل والإفضال من الصفات الذاتية، والإضافية، المدلول عليه بالحمد، ثم إثبات الألوهية له تعالى ونفيها عما سواه وفيه توحيد الذات ونفي الضد والند، ويكون هذا بكلمة التوحيد، ثم إثبات الكبرياء له تعالى، والاعتراف بالعجز عن القيام بما يليق به من الثناء لعجز سائر الخلق عن ذلك[2]، وهذا بالتكبير.

وبهذه الخلاصة أكتفي عن الكلام في تحقيق الأذكار المطلقة للتوحيد وأقسامه.

❁ ❁ ❁

(١) العقيدة الواسطية بشرح الكواشف الجلية ص١٨.

(٢) انظر: الفتوحات الربانية ١/ ١٨٥.



المطلب الثاني

تحقيق الأذكار المقيدة للتوحيد

الأذكار المقيدة: هي التي جعل الشارع لها وقتاً أو مكاناً أو مناسبة تقال فيها، كما سبق بيان ذلك[1].

وسآتي هنا بنماذج من هذه الأذكار المقيدة وأقف معها من جهة تحقيقها للتوحيد أو تضمنها لكل جوانبه أو بعضها.

❖ نماذج من أذكار القرآن المقيدة وتحقيقها للتوحيد:

فمن القرآن الكريم: آية الكرسي، ورد الأمر بالذكر بها في الصباح والمساء وعقب الصلوات وعندما يأوي الإنسان إلى فراشه، وسورة الإخلاص، والمعوذتان: في الصباح والمساء وعقب بعض الصلوات، وخواتيم سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] إلى آخر السورة، يقرؤها المسلم إذا استيقظ من الليل أو خرج من بيته ونظر إلى السماء[3].

نقف مع هذه الآيات والسور بإيجاز، وننظر إلى الجوانب المتعلقة منها بالتوحيد.

❖ فأولاً: آية الكرسي:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾[4].

(١) انظر: الفتوحات الربانية ٣/ ٢٩٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

(٣) انظر: الأذكار النووية ص١٦١ ـ ١٧١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

يقول ابن كثير[1]: هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله[2].

ومعنى آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره فالجميع مفتقر إليه، ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾: أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول، فمن تمام قيوميته أنه لا تعتريه سِنَة ولا نوم، أي لا تغلبه سنة وهو النعاس والنوم أقوى منه، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾: وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ، فلا أحد يتجاسر على الشفاعة لأحد إلا بإذنه له عليها، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾: دليل عى إحاطة علمه بجميع الكائنات، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾: أي لا اطلاع لأحد على شيء من علم الله إلا على ما أطلعه الله عليه، أو على شيء من علم ذاته وصفاته إلا على ما أطلعه منه، ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾: كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله ﷻ[3].

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾: أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك يسير لديه، فهو القائم على كل نفس والرقيب

---

(١) ابن كثير: هو الإمام الحافظ العمدة شيخ المحدثين المؤرخ المفسر، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، القرشي البصروي، ثم الدمشقي، الفقيه الشافعي، ولد بمجدل، قرية شرقي بصرى من أعمال دمشق سنة ٧٠٧هـ، ثم انتقل إلى دمشق، حفظ القرآن الكريم، وقرأ بالقراءات، وبرع في التفسير والمتون وعرضها على شيوخه، وتفقه عليهم، وأقبل على علم الحديث فتخرج فيه، وصحب تقي الدين بن تيمية، وكانت له به خصوصية، ومناضلة عنه، وكان يفتي في بعض المسائل رأيه حتى أوذي بسبب ذلك، وقرأ الأصول، وأقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والعلل والتأريخ، وولي مشيخة أم صالح، والأشرفية، مصنفاته كثيرة وجليلة ومتنوعة، فحياته كانت حافلة، فتعلم وعلم وصنف حتى آخر حياته، ففقد بصره وهو يؤلف، وبارك الله في عمره، توفي يوم الخميس سادس عشرين شعبان سنة ٧٧٤هـ وكان ذلك في دمشق. انظر: شذرات الذهب ٧/ ٢٣١، وكشف الظنون ١/ ٢٢١، والأعلام ١/ ٣٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣١٦، ٣١٧.

على جميع الأشياء، فلا يعزب ولا يغيب عنه شيء، وكل الأشياء بين يديه حقير، وكل الخلائق إليه فقيرة، وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، لا إله غيره ولا رب سواه[1].

وهذه الآية الكريمة الوقوف مع مضمونها يبين عظمتها لأنها حوت أصول الاعتقاد الذي يتعلق بذي الجلال سبحانه، وجاءت بمجامع التوحيد.

فإنها أجْلَت على منصتها عرائس المسائل الإلهية وأشرقت على صفحاتها أنوار الصفات العلية، حيث جمعت أصول الصفات من الألوهية والوحدانية والحياة والعلم، والملك والقدرة والإرادة، واشتملت على سبعة عشر موضعاً فيها اسم الله تعالى ظاهراً في بعضها ومستتراً في البعض، ونطقت بأنه سبحانه موجود منفرد في ألوهيته حي واجب الوجود لذاته، موجد لغيره منزهٌ عن الحلول مبرء عن التغيير والفتور، لا مناسبة بيه وبين الأشباحِ ولا يحل بساحة جلاله ما يعرض للنفوس والأرواح، مالك الملك والملكوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، العالم وحده بجلي الأشياء وخفيها، وكلِّيها وجزئيها، واسع الملك والقدرة، لا يشق عليه شاق، ولا يثقل شيء لديه، متعال عن كل ما لا يليق بجنابه، عظيم لا يستطيع طير الفكر أن يقوم في بيداء صفات قامت به[2].

هذا كله مما نطقت به الآية الكريمة، أو أشارت إليه، وتضمنته، أو نفته أو أثبتته بمفهوم المقابل، وهذا هو التوحيد بكل أنواعه في الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

❖ ثانياً: سورة الإخلاص:

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾[3]. هذه السورة من أربع آيات، لكنها في الفضل

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٣١٨.

(٢) انظر: روح المعاني ٣/ ١١.

(٣) سورة الإخلاص.

والمكانة بحيث تعدل ثلث القرآن، وبهذا حكم لها المصطفى ﷺ: وذلك أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فذكر له أنه سمع رجلاً يردد قل هو الله أحد لا يزيد عليها حتى أصبح، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[1]، روى القصة والحديث أبو سعيد الخدري ؓ. وعن كيفية كونها تعدل ثلث القرآن، يقول ابن حجر: حمله بعض العلماء على ظاهره فقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن، لأنه أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت هي على القسم الثالث فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار[2].

وتفسير هذه السورة بإيجاز: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وقيل: هو السيد الذي كمل سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه وفي كل صفاته، وقيل: الصمد الباقي بعد خلقه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه[3].

○ التوحيد في سورة الإخلاص:

وهذه السورة هي الكلمة الفصل فيما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى، ومضمونها هو الأساس الذي يبنى عليه الاعتقاد ويقوم عليه التوحيد.

فقد (تضمنت هذه السورة توجيه الاعتقاد وصدق المعرفة وما يجب إثباته لله من الأحدية المنافية لمطلق الشراكة، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص، ونفي الولد والوالد المقرر لكمال المعنى، ونفي الكفء المتضمن لنفي الشبيه والنظير، وهذه مجامع التوحيد الاعتقادي، ولذلك عادلت ثلث القرآن)[4].

---

(١) الحديث بهذا الجزء أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد برقم ٥٠١٣، البخاري مع الفتح ٨/٦٧٦.
(٢) فتح الباري ٨/٦٧٨. (٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٦٠٩، ٦١٠.
(٤) فتح الباري ٨/٦٧٨، ٦٧٩.

❖ ثالثاً: المعوذتان:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾[1].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾[2].

ومما جاء في فضل الذكر بهما ما روته عائشة ؓ: أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[3].

○ معاني آيات السورتين بإيجاز:

١ ـ الفلق: عن جابر وابن عباس، هو الصبح، وقال به غيرهم أيضاً كقوله فالق الإصباح، وعن ابن عباس قول آخر، الفلق: الخلق، وقيل هو جزء من جهنم يضج منه أهلها، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾ من شر جميع المخلوقات ومنهم إبليس وجهنم، ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣)﴾ الشمس إذا غربت، أو الليل إذا ذهب، وقيل: الكوكب إذا سقط ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ يعني السواحر إذا رقين ونفثن في العقد.

٢ ـ ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ عن ابن عباس قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس، ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)﴾، هل هو خاص ببني آدم أم يدخل فيه الجن وجاء تغليباً قولان، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ لعله تفصيل لقوله الذي يوسوس في صدور الناس[4].

---

(١) سورة الفلق. (٢) سورة الناس.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذات برقم ٥٠١٧، البخاري مع الفتح ٨/٦٧٩، ٦٨٠.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٦١١ ـ ٦١٦.

التوحيد في المعوذتين

أولاً: ما تضمنته السورتان من الالتجاء الخالص إلى الله من شر ما خلق وفلق مما يحصل من أذاهم الحسي والمعنوي بالتعوذ بالله وطلب العوذ والحماية منه وحده، والاطمئنان إلى ركنه سبحانه بذكره.

ثانياً: ما جاء في السورتين لا سيما في سورة الناس من صفات الرب ﷻ، من الربوبية والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، فأمر المتعوِّذ أن يتعوَّذ بالمتصف بهذه الصفات[1].

❖ نماذج من الأذكار المقيدة التي جاءت بها السنة وتحقيقها للتوحيد:

○ ١ ـ ذكر ورد قوله عند إرادة النوم:

كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك أموت وأحيا»، وإذا قام قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[2]، يقول النووي رحمه الله: «اللهم باسمك أموت» قيل: معناه بذكر اسمك أحيا ما حييت وعليه أموت، وقيل: معناه بك أحيا، أي أنت تحييني وأنت تميتني، والاسم هنا هو المسمى. «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» المراد بأماتنا النوم، وأما النشور فهو الإحياء للبعث يوم القيامة، فنبه ﷺ بإعادة اليقظة بعد النوم الذي هو كالموت على إثبات البعث بعد الموت، والحكمة من هذا الذكر وهذا الدعاء بهذه الصيغة لتكون خاتمة

(١) انظر نفس المصدر ٤/ ٦١٥.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، برقم ٦٣١٢، البخاري مع الفتح ١١/ ١١٧، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء، باب الدعاء عند النوم، ١٧/ ٣٥.

الأعمال وبدايته بذكر التوحيد والكلم الطيب[1].

وهذا التوحيد يتحقق حين يكون ذكر الاسم مع اعتقاد عظمة المذكور وتفرده بالألوهية والملك»[2].

٢ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت»، وقال رسول الله ﷺ: «من قالهن ثم مات تحت ليلته مات على الفطرة»[3].

أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري: أي أسندته إلى حفظك لما علمت أنه لا مسند يتقوى به سواك ولا ينفع أحد إلا حماك، ومجمل حال هذا الداعي التفويض الكامل لكل أموره التي هو مفتقر فيها إلى الله سبحانه، والالتجاء الكامل إليه سبحانه من كل ما يضره ويؤذيه من الأسباب الداخلة والخارجة.

وكلمات هذا الحديث تتضمن جوهر المعتقد السليم من الرضا والتسليم والالتجاء إلى ركن الله الشديد، وهذه هي معاني التوحيد مما جعل حال هذا الذاكر أشبه بمن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة، وهو الذي يعنيه قوله: مات على الفطرة، أي: الإسلام[4].

○ ٣ ـ ذكر يقال في حال الاستيقاظ ليلاً:

عن ابن عباس رضي الله عنهما كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق،

(١) شرح النووي على مسلم ١٧/ ٣٥.

(٢) انظر: الفتوحات الربانية ١/ ٢٨٧.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) انظر: الفتوحات الربانية ٣/ ١٤٢ ـ ١٤٤.

ومحمد حق، اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ـ أو ـ لا إله غيرك»[١].

(لك الحمد): أي الثناء بكل جميل يليق بك، ولك الحمد أولاً على ما أنعمت، (القيم) قال ابن عباس: الذي لا يزول، وقال غيره: هو القائم على كل شيء يدبر أمر خلقه، ولك الحمد ثانياً على ما مننت به من النعم المتكررة على الدوام، وكرر الحمد ثالثاً نظراً إلى ما منَّ به من شهود معالم القهر وخوارق الملك والملكوت، وأنت منوِّر السموات والأرض بما أقمت فيهما من أدلة وحدانيتك ومظاهر قدرتك، وهذا الخبر من جوامع الكلم. فالقيم إشارة إلى أن الوجود وقيامه منه، والملك كله له، وهو الحاكم بالإيجاد والإعدام، يفعل ما يشاء، وكل هذه النعم منه سبحانه على عباده، ولذلك قرن الكلام بالحمد وفيه أمر المعاش والمعاد إليه سواء، وهو الحق وقوله الحق، وفيه إشارة إلى النبوات والجزاء والثواب والعقاب، وفيه وجوب الإيمان والإسلام والتوكل والإنابة والتضرع إلى الله تعالى والاستغفار[٢].

وهذا الحديث تضمن ربوبية الله بجلاء، وتضمن ألوهيته بذكر الساعة والجنة والنار والنبوات ولا سيما محمد ﷺ، وبقوله في خاتمته لا إله إلا أنت وطلب المغفرة منه سبحانه، وفيه أن الحق هو الله وأن القيومية له سبحانه والملك، ولذلك فالحمد بعد الحمد له أيضاً، وهذه المعاني مستلزمة لكل صفات الكمال والبراءة من كل صفات النقص، وعلى هذا فالحديث جامع لأنواع التوحيد صراحة وتضمناً واستلزاماً.

○ ٤ ـ الأذان والإقامة للصلوات المفروضة كل يوم:

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب إذا انتبه من الليل برقم ٦٣١٧، البخاري مع الفتح ١١/١٢٠.

(٢) انظر: الفتوحات الربانية ١/٣٦١ ـ ٣٧٣.

لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

الأذان: وهو ذكر مؤقت بوقت، وحال وهيئة، وألفاظه معينة، ولغرض مخصوص، ومعانيه كلها تعظيم لله وإفراد له بالإلهية والدعوة إلى عبادته وتكرير ذلك وتأكيده.

فالأذان كلماته جامعة لعقيدة الإيمان ومشتملة على نوعيه من العقليات والسمعيات، فابتدأ بإثبات الذات بقوله: الله، وما يستحق من الكمالات والتنزيه عن أضدادها، وقوله: الله أكبر هذه اللفظة مع قلة حروفها واختصار صيغتها مشعرة بما قلناه، وللاعتبار بهذا المضمون وبهذا المقام كرر هذه اللفظة أربع مرات ثم صرح بإثبات الوحدانية والإلهية ونفي ضدها من الشراكة المستحيلة في حقه، وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المتقدمة على سائر وظائف الدين. ثم جاء بإثبات النبوة لنبينا محمد ﷺ ورسالته إلى هداية الخلق أجمعين ودعائه إلى الله تعالى إذ هي ثابتة بالشهادتين وموضعها بعد التوحيد، لأنها من باب الأفعال الجائزة الوقوع، ثم دعا إلى ما دعاهم إليه من العبادات فصرح بالصلاة ورتبها على النبوات لأن معرفتها من جهتها، ثم أشار إلى بقية الفروع إجمالاً لئلا يشذ عن الأذان شيء كما لم يشذ عنه من العقائد شيء فقال: حي على الفلاح، وهو البقاء في النعيم، وفيه الإشارة إلى أمور الآخرة من البعث والجزاء، ثم كرر التكبير لأن هذا مقام الاعتناء به فهو الأصل الذي بني عليه كل ما تقرر من العقائد والقواعد، وختم ذلك بكلمة التوحيد إشارة للتوحيد المحض، وما قيل في الأذان يقال في الإقامة، وكان لفظ الجلالة، الله، آخر الأذان والإقامة وهو الذي كان به البدء، إشارة إلى أنه الأول والآخر في كل شيء[١].

○ ٥ ـ من الأذكار التي تقال بعد الصلاة:

ما رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة ﷺ: أن رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: الفتوحات الربانية ٢/٨٣، ٨٤.

كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد»(١).

هذا الذكر من الأذكار العظيمة، ولقد كان من هدي النبي ﷺ الذكر به عقب الصلوات كما في هذا الخبر، وهو من الأذكار التي أُمرنا بالإكثار منها مطلقاً من غير تقييد بوقت، وهو أيضاً دعاء يوم عرفة وخير ما قاله ﷺ والنبيون من قبله عليهم السلام. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، له الحمد، وهو على كل شيء قدير، فهو ذكر فيه كل معاني التوحيد ومجامعه من الإفراد بالربوبية والألوهية والتنزيه، والإشارة إلى اتصافه سبحانه بالكمال.

فقوله: وحده، وقوله لا شريك له: أي هو في ذاته منفرد وفي صفاته وأفعاله، فوحده لتوحيد الذات، وما بعده تأكيد لتوحيد الأفعال، أي ليس له معين ولا ظهير، ففي قوله: وحده، الإفراد له بالذات، وفي قوله: لا شريك له، الإفراد له في كمال الصفات، قوله: له الملك، أي الملك المطلق الدائم الحقيقي الذي لا انتهاء لوجوده، له لا لغيره، كما يؤذن به تقديم الظرف المتأخر في الرتبة، وقوله: وله الحمد، أي الثناء باللسان على الجميل الاختياري على جهة التعظيم له لا لغيره، وما كان لغيره فمن باب المجاز إذ لا نعمة حقيقية لغيره أصلاً، وهو على كل شيء قدير: هو إثبات لصفة القدرة لله المرتبطة بإرادته، والمعنى عبارة عن نفي العجز عنه، فالقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، والقدير الفعال لما يشاء، فهذا الذكر أفاد التوحيد وتضمنه في جمل أربع: ثبوت الإلهية والإفراد بها لا إله إلا الله، والملك في قوله: له الملك، وسائر الثناء في قوله: وله الحمد، والقدرة في قوله: وهو على كل شيء قدير(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة برقم ٨٤٤، البخاري مع الفتح ٢/٣٧٨، ٣٧٩، ومسلم في صحيحه، انظر: مسلم بشرح النووي، كتاب الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ٥/٩٠، ٩١، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: الفتوحات الربانية ١/٢٠٢ ـ ٢٠٥.

فتوحيد الألوهية في كلمة الشهادة، والربوبية في الملك، وفي القدرة وفي الحمد الأسماء والصفات.

٦ ـ دعاء الاستخارة(١):

عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن: «إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله، فاقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، ويسمي حاجته»(٢).

هذا الدعاء يتوجه به المسلم إلى ربه ومولاه العظيم العليم القادر، حين يقع في العجز البشري ومحدودية الإحاطة بمجريات الأمور وعواقبها، فتصيبه الحيرة في اختيار أفضل الأمرين، فيلجأ إلى خالق الكون علام الغيوب العالم بما كان وما لم يكن وأن لو كان كيف يكون، يلجأ إليه لجوء المسلم المطمئن بأنه أرجع الأمر إلى صاحب الأمر والخلق ليختار له ما فيه الخير من الأمرين ثم يرضه به حتى ولو كان ظاهره القريب مما لا يساعد على التقبل.

وليتضح مدى ما في هذا الدعاء من إظهار العجز والتسليم، وتمام التفويض إلى الله نقف مع بعض مفردات دعاء الاستخارة، ونشرح معانيها لبيان تضمن ذلك للتوحيد.

قوله: (أستخيرك بعلمك): أي أسألك أن تشرح صدري لخير الأمرين

(١) الاستخارة: هي الطلب من الله الخيرة، وخار الله له أي إعطاءه ما هو خير، والمراد طلب خير الأمرين. فتح الباري ١١/١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب الدعاء عند الاستخارة برقم ٦٣٨٢، البخاري مع الفتح ١١/١٨٧.

بسبب علمك كليات الأمور وجزئياتها إذ لا يحيط بخير الأمرين على حقيقته إلا من علمه كذلك وليس ذلك إلا إليك، فلا يطلب من غيرك، قوله: (وأستقدرك بقدرتك): أي إياك أسأل أن تقدرني على خير الأمرين أو أن تقدر لي الخير، بسبب أنك القادر الحقيقي، والمعنى: أسألك الخير مستعيناً بعلمك وقدرتك لأني لا أعلم فيم خيري، وأستعين بقدرتك لأنه لا حول لي ولا قوة إلا بك، فإنك تقدر ولا أقدر: أي فأنت القادر على كل شيء أردت حصوله، وأنا لا أقدر، وأنت علام الغيوب: فلا يشذ عن علمك شيء، اقدره لي: أي اقض لي به وهيئه، واجعله مقدوراً لي وميسراً)[١].

ففي هذا الدعاء نجد كل مضامين التوحيد بأقسامه وذلك في قول الداعي: اللهم، وتوجهه بالدعاء وهو العبادة إلى الله وحده، ففي هذا الجانب توحيد لله في الإلهية.

وفي سؤال الله الفضل العظيم والخير فيه الإشارة إلى توحيد الله في ربوبيته، فالخلق كله له والأمر كله بيده والكون خاضع له سبحانه، وفي هذا الدعاء: الاعتراف الكامل والإقرار لله بالقدرة النافذة والعلم المحيط، وفي ذلك إثبات لهاتين الصفتين، وضمناً هو إثبات لكل صفات الكمال لله الذي يقدر ولا يقدر غيره ويعلم بكل جزئيات وكليات الغيب ولا يكون ذلك إلا له، والكمال مناف للنقص والعيوب، ومجانب له، وبالتالي فالكلام متضمن لتنزيه الله عن ذلك، وهذا هو توحيد الأسماء والصفات، فهذا الدعاء متضمن للتوحيد بأنواعه، والله أعلم.

○ ٧ ـ ما يقال عند الكرب والأمور المهمة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض، رب العرش الكريم»[٢].

---

(١) الفتوحات الربانية ١/٣٤٨ ـ ٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب برقم ٦٣٤٦، البخاري مع الفتح ١١/١٤٩.

كلمات هذا الذكر تنبض بصدق الإيمان وبمجامع التوحيد ومعاقد الإخلاص، فعند اشتداد الأمور وتوالي الكروب، يُعلم المؤمن الصادق ويتميز عن المنافق الدعي، ففي يوم الخندق وعند تألب الأحزاب بالقلة المؤمنة، حين اشتداد الكروب، وبلوغ القلوب الحناجر، كان الثبات هو موقف المؤمنين، زيادة في الإيمان، وصدق في الالتجاء إلى الله ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[١]. والرسول ﷺ في لحظات حمي الوطيس وانفضاض الصفوف وظهور بوادر الغلبة لجيش الكفر في المعارك يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[٢]، ذلك لأن الثبات على جوهر الدعوة، لا يظهر إلا في المواقف العسيرة، وهكذا أهل التوحيد والصدق، هم مع لا إله إلا الله في الشدة والكرب، كما هم معها في حال الأمن والرخاء، أما عن التوحيد في هذا الذكر فحسبه أن كلمة التوحيد ذاتها تتكرر فيه ثلاث مرات مع ما فيه من وصف الباري سبحانه بالعظمة والحلم، وأنه رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، وهذه هي مضامين أنواع التوحيد.

نقل ابن حجر في الفتح قال: وقال الطيبي[٣]: صدر هذا الثناء بذكر الرب ليناسب كشف الكرب، لأنه مقتضى التربية، وفيه التهليل المشتمل على التوحيد، وهو أصل التنزيهات الجلالية، والعظمة التي تدل على تمام القدرة، والحلم الذي يدل على العلم، إذ الجاهل لا يتصور منه حلم ولا كرم، وهما أصل الأوصاف الإكرامية[٤].

وعن مناسبة ذكر اسم الله ـ العظيم ـ لدعاء الكرب، وأيضاً ذكر كونه

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٢) انظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ ص٢١٠، محمد بن عبد الوهاب، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة ١٤١٨هـ.

(٣) الطيبي: هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، مفسر ومحدث، كان شديداً في الرد على الفلاسفة والمبتدعة، ومن تصانيفه شرح المشكاة، وشرح الكشاف، توفي سنة ٧٤٣هـ، انظر: الدرر الكامنة ٢/١٥٦، ١٥٧.

(٤) فتح الباري ١١/١٥١.

العظيم سبحانه، فالمناسبة أن الله العظيم ذاتاً وصفةً لا يتعاظمه شيء من المسؤولات وإن عظم، فمنه سبحانه إزالة الكرب الذي لا يزيله غيره، وكونه حليماً: أي على من قصَّر فلا يعاجل بالعقوبة بل يعامل بما هو أهله فيكشف السوء، ومناسبة العرش العظيم: أن من وسعت ربوبيته العرش الذي وسع المخلوقات جدير بأن يزيل الكرب ويرفع اللغوب[1].

ومع هذا الدعاء العظيم يخلص بنا الكلام وقد تبين من خلاله كيفية تحقيق الأذكار الشرعية للتوحيد بأنواعه وأقسامه ومجامعه، وقد رأينا ذلك في المطلق من الأذكار والمقيد منها سواء كان من القرآن أو السنة، وكيف لا يكون الذكر مؤدياً لهذه النتيجة وهو أفضل عبادة وأحبها إلى الله سبحانه، وهو روح كل العبادات من غيره، وبقدر وفوره فيها يكون خلوصها لله من الشوائب.

ولا غرو فذكر الله هو أشرف وأعلى وأسمى ما اشتغلت وانشغلت واستغرقت فيه الخلائق طوعاً وكرهاً كل على حسب حاله. والله أعلى وأعلم.

* * *

(١) انظر: الفتوحات الربانية ٤/ ٤.

الفصل الثالث

آثار الذكر الشرعي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أثر الذكر الشرعي في حق الله.

المبحث الثاني: أثر الذكر الشرعي على الأمة.

المبحث الثالث: أثر الذكر الشرعي على الرسالة.

المبحث الأول

أثر الذكر الشرعي في حق الله تعالى

المطلب الأول

التعريف بحق الله سبحانه تعالى

قبل الدخول في أثر الذكر على تحقيق وأداء حق الله ﷻ، من الأحسن الإجابة على سؤال قد يرد، وهو: ما هو حق الله.

❖ ففي الكتاب العزيز:

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[(١)]، وفي أبناء آدم فطر تقر بأنهم لم يخلقوا من غير شيء، وأنهم لم يخلقوا أنفسهم، وأنه لا بد لهم من خالق، لكن هذه الفطر ظلت تحار في تجاوز عقبة الإجابة على: لم كان خلقهم؟ فكانت الإجابة ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾. ومعنى ليعبدون: وما خلقت الجن والإنس إلا ليوحدون، وفي معناها أقوال أخرى ومنها: لآمرهم بالعبادة أو ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً، ومنها إلا ليعرفوني، أو إلا لآمرهم وأنهاهم، وقيل: لأستعبدهم، والمعنى متقارب. فأصل العبادة الطاعة والتعبد والتنسك، فمعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا[(٢)].

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عنها: (ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/٥١، ٥٢، لأبي عبد الله الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، طبع بالأوفست، بيروت.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٢٥٥.

ليعبدوه وحده لا شريك له)[1].

وعلى هذا فالآية تتضمن أمرين حولهما كانت الأقوال وهما: العبادة، والتوحيد، وللعبادة والتوحيد بها له سبحانه خلق الخلق، وهذا مراده منهم، وذلك هو حقه عليهم.

❖ وأما في السنة المطهرة:

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»[2]. يقول النووي رحمه الله حول معنى حق الله: الحق المستحق على العبد من غير أن يكون فيه تردد وتحير، فحق الله تعالى على العباد، معناه ما يستحقه عليهم متحتماً عليهم[3].

وعن معنى «أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً» في الحديث قال: أما العبادة فهي الطاعة مع الخضوع، فيحتمل أن يكون المراد بالعبادة هنا معرفة الله تعالى والإقرار بوحدانيته، أو أن يكون المراد بالعبادة الطاعة مطلقاً فيدخل فيها جميع وظائف الإسلام، وقوله ﷺ: «لا يشركوا به شيئاً»، فإنما ذكره بعد العبادة لأن الكفار كانوا يعبدونه ﷻ في الصورة ويعبدون معه أوثاناً يزعمون أنها شركاء فنفى هذا[4].

ففائدة جملة (يعبدوه لا يشركوا به شيئاً) أي يوحدوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئاً، ومع هذا المعنى تفيد بأن التجرد من الشرك لا بد منه في العبادة، وإلا فلا يكون العبد آتياً بعبادة الله بل مشرك، وهذا المعنى هو المقصود حين يقال: إن العبادة هي التوحيد[5].

والخلاصة أن الآية التي سبق إيرادها، هي فيما خلق له الجن والإنس،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة تحت عنوان حق الله على العباد، انظر: مسلم مع النووي ١/ ٢٣٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ٢٣١.

(٣) انظر المصدر نفسه ١/ ١٦٢.

(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب ص٤٧، دار الباز للنشر والتوزيع.

والحديث في الحق المتحتم عليهم، والمضمون هو العبادة والتوحيد، وهما المقصودان بحق الله تعالى والله أعلم.

وليس تقرير هذا الحق لله ﷻ، من الآية والحديث السابقين، بل الأدلة بمجموعها (قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار: أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم، فإذا شهد سبحانه (أنه لا إله إلا هو) تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده)[1].

والآيات التي تتحدث عن خلق السموات والأرض وأن ذلك بالحق مثل قوله تعالى: ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ (٣)﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ (٨)﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[4]، وهذا كثير في القرآن.

فالحق الذي خلقت به السموات والأرض ولأجله: هو التوحيد وحقوقه من العبادة والأمر والنهي، والثواب والعقاب[5]. وعلى هذا فحق الله المتحتم على الثقلين أداؤه والقيام به هو:

١ ـ توحيده سبحانه ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا في جانب العلم والاعتقاد.

٢ ـ إفراده ﷻ بالعبادة الشاملة لكل أفعال الخلق وأقوالهم الظاهرة والباطنة مما أراد وأحب ورضي سبحانه، وهذا في جانب القصد والطلب والعمل.

وبعد هذا يبقى النظر في أثر الذكر على تحقيق هذين الركنين اللذين يقوم بهما حق الله.

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٥٤.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ١ ـ ٣.

(٣) سورة الروم: الآية ٨.

(٤) سورة الدخان: الآية ٣٨، ٣٩.

(٥) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٥٦.

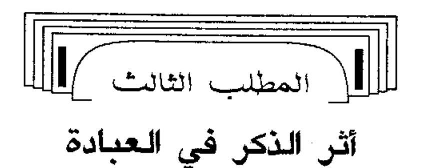
المطلب الثاني

أثر الذكر في تحقيق التوحيد

وهو الجانب العلمي الاعتقادي مما ينبغي أن يعلمه المسلم ويعتقده ويعرف به خالقه من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأفعاله سبحانه، وهو ما سبق الكلام عليه في الفصل السابق: تحقيق الذكر للتوحيد، وقد اشتمل على بيان كيف يُحقق التوحيد بكل أقسامه من خلال الذكر، سواء في ذلك الذكر المطلق أو المقيد، واحتوى الفصل على نماذج من الأذكار والتطبيق عليها في مسألة تحقيقها للتوحيد من خلال تضمنها لمسائله ومعانيه إقراراً وإثباتاً، و نفياً وتنزيهاً.

والأثر الذي نعنيه هنا هو هذا التحقيق والتضمن الذي اشتمل عليه الفصل السابق، والذي كان فيه العرض بما يغني عن التكرار هنا أو الحاجة إلى مزيد.

❊ ❊ ❊



المطلب الثالث

أثر الذكر في العبادة

أما أثر الذكر في العبادة: والتي يقصد بها، الجانب العملي من حق الله على عباده، وذلك بمفهوم العبادة الجامع لكل ما يحب الله ويرضى من أفعال العباد وأقوالهم الظاهرة والباطنة، وكل ما شرع سبحانه أمراً كان أو نهياً في باب الطلب والقصد والعمل.

فأثر الذكر هنا واضح وجلي، وذلك لأن الذكر يتخلل العبادة من كل جوانبها:

١ ـ قبل الشروع فيها.

٢ ـ وفي أثناء أدائها.

٣ ـ وبعد الفراغ منها.

٤ ـ وهو الفيصل في تفاضلها.

وبيان ذلك بإيجاز على ما يلي:

❖ ١ ـ مكانة الذكر قبل الشروع في العبادة:

فإن العبادات وكل أعمال الطاعات إنما شرعت أساساً لإقامة ذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]، أي لتذكرني بها، ذلك لأن لام لذكري هي للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل ذكري[2].

والصلاة هنا للإشارة إلى كل الطاعات، ذلك لأنها العمود الذي ضربت

---

(١) سورة طه: الآية ١٤.

(٢) انظر: الوابل الصيب ص٩٨.

عليه قبة العبادة، ففي معنى قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، والذكر طاعة الله فمن لم يطعه لم يذكره»[2]. وعلى هذا المعنى فأعمال الطاعات كلها تدخل في ذكر الجوارح، ذلك لأن الذكر بالجوارح: يكون باستغراقها في الطاعات وخلوها عن المنهيات، وعلى هذا المعنى يأتي قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[3] ويكون الأمر في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ متضمناً للأمر بجميع أنواع الطاعات[4].

وفي الحديث عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى»[5]، فالطاعات وأعمال العبادة بأنواعها إنما شرعت لتحقيق ذكر الله سبحانه، وعليه فما الظن بمكانته وأثره فيها.

❖ ٢ ـ أثر الذكر في العبادة حال أدائها:

وأما مكانة الذكر وأثره في حال أداء العبادة، وقد علمنا أن الذكر أصلاً هو التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له[6].

وهذا يعني أن العبادة حين تؤدى بدافع الذكر أولاً، ومع الذكر حال الأداء، فإنها ستحقق مراد الشارع وقصد العابد، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[7]، قال ابن كثير ﵀: يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين، على ترك الفواحش والمنكرات، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك، وتشتمل أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي أعظم من الأول[8].

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٦٠.
(٣) سورة الجمعة: الآية ٩.
(٤) انظر: لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى، للفخر الرازي ص٤٨، ٤٩.
(٥) الحديث سبق تخريجه، انظر ص٥٥.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٦٠.
(٧) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.
(٨) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٢٥.

وقيل: إنكم في الصلاة تذكرون الله وهو ذاكرٌ مَن ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولَما فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وإذا ذكر العبد ربه فذكر الله تعالى سابق على ذكره فإنه لما ذكره ألهمه ذكره[1].

فالصلاة بهذه الروح ترفع صاحبها إلى مقام الذاكرين فيحصل له وجل القلوب من ذكر الله وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه وزيادة الإيمان بذلك، وتكون النفس قد تهيأت لأعمال القلوب من تحقيق التوكل والخوف من الله في السر والعلن، واختيار تلف النفوس على الكفر، واستشعار قرب الله من العبد ودوام استحضاره وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما، والحب في الله والبغض في الله، وأن تكون جميع الحركات والسكنات له وسماحة النفوس بالطاعات المالية والبدنية إلخ[2].

○ مرتبة الإحسان في العبادة:

والمسلم الذاكر لربه حين يؤدي العبادات وهو مستحضر معيَّة معبوده ومستشعر لنظره إياه، فإنه يكون قد دلف إلى أعظم المراتب والمقامات وهي مرتبة (الإحسان)، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[4]. والإحسان عظيم الشأن رفيع المنزلة، وهو جليل المعنى ودقيق المضمون، ولذلك كان ضمن أمور الدين العظيمة التي جاء جبريل ﵇ إلى النبي ﷺ على هيئة السائل عنها تعليماً لهذه الأمة، في واقعة رواها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ جاء فيها قال ـ يعني جبريل ـ: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، . . .» إلخ الحديث[5]، أي: إن العبد ـ يعبد الله تعالى على هذه الصفة، وهو استحضار

(١) الوابل الصيب ٩٨، ٩٩.
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم ص٤٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ١١٢.
(٤) سورة لقمان: الآية ٢٢.
(٥) الحديث متفق عليه، وسبق تخريجه ص٦٠.

قربه وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها، وقوله ﷺ: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قيل: تعليل للأول، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالى في العبادة، واستحضار قربه من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإن تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه[1].

وهذا المعنى دل عليه القرآن في مواضع كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[4]، وقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾[5].

ومن الأحاديث كقوله ﷺ: «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً»[6]، وقوله: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني...»[7]، يقول ابن رجب رحمه الله: (ومن فهم شيئاً من هذه النصوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتحاداً فإنما أتي من جهله وسوء فهمه عن الله ﷻ وعن رسوله، والله ورسوله بريئان من ذلك كله، فسبحان من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[8]، من مثلك يا ابن آدم خلي بينك وبين المحراب وبين

(١) جامع العلوم والحكم ٣٢، ٣٣.
(٢) سورة الحديد: الآية ٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.
(٤) سورة يونس: الآية ٦١.
(٥) سورة النساء: الآية ١٠٨.
(٦) الحديث متفق عليه، وسبق تخريجه، في ص١٠٥.
(٧) الحديث متفق عليه، صحيح البخاري مع الفتح كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه ١٣/٣٩٥ برقم ٧٤٠٥، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله ١٧/٢.
(٨) سورة الشورى: الآية ١١.

الماء، كلما شئت دخلت على الله ﷻ، وليس بينك وبينه ترجمان، ومن وصل إلى استحضار هذا في حال ذكر الله وعبادته استأنس بالله واستوحش من خلقه ضرورة)[1].

وفي هذا ما يكفي في بيان مكانة الذكر وأثره في حال أداء العبادة، وقد رأينا الذكر إلى أي منزلة يرتفع بالعبادة حين يمازجها، وإلى أي رتبة ومقام يرقى بالعابد حين يخالط شغاف قلبه حال أداء العبادة.

❖ ٣ ـ مكانة الذكر وأثره بعد الفراغ من العبادة:

بعد أداء العبادات والأعمال الصالحة لا سيما الصلاة والصيام والزكاة والحج، بعد الفراغ من ذلك يعقب موطن من مواطن الذكر، وذلك لأن المعبود سبحانه مذكور لا يُنسى، والقربات تدفع إلى بعضها، والحسنة تجر إلى أختها، ونفس العابد متهيئة عقب العبادة لاستدامة ذكر المعبود، وباب الرحمة الذي صعدت منه العبادة ما يزال مفتوحاً، ودوام الصلة بالله من خلال ذكره بعد الفراغ من العمل الصالح من أمارات قَبول العمل.

ففي التوجيه إلى عدم الانقطاع عن الذكر عقب أداء العبادات يقول الله ﷻ عن الصلاة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾[2]، وعن صلاة الخوف يقول: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[3]، ويقول سبحانه عن إكمال شهر الصيام: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4]، وعن الانتهاء من مناسك الحج يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[5]، وهكذا نرى التوجيه الرباني بأن يكون مبدأ العبادة لله وبذكره، وأن يصاحب الذكر العبادة حال الأداء، وأن تختم به، ويتبعها بعد الانقضاء، فالذكر (والاستغفار

(١) جامع العلوم والحكم ٣٤٠.
(٢) سورة الجمعة: الآية ١٠.
(٣) سورة النساء: الآية ١٠٣.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٥.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

تمام الأعمال الصالحة كلها، فتختم به الصلاة والحج وقيام الليل، وتختم به المجالس، فإن كانت ذكراً كان كالطابع عليها، وإن كان لغواً كان كفارة لها)[1].

وفي إشارة القرآن إلى هذه المواطن ما يكفي ويشفي، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[2]، أي إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله بالقلب واللسان على أي حال كنتم ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[3]، وأديموا ذكره بالتكبير والتهليل والدعاء بالنصر لا سيما في حال القتال[4]. وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾[5]، أي فإذا فعلتم منسكاً من مناسك الحج فاذكروا الله وأثنوا عليه بآلائه عندكم[6].

وقد أمر الله ﷻ عباده بشكر نعمة صيام رمضان بإظهار ذكره وغير ذلك من أنواع شكره، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[7]، فإن الله تعالى إذا تقبل عمل عبد وفّقه لعمل صالح بعده، كما قال بعضهم: ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بحسنة بعدها، كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى[8].

واستدامة الذكر بعد الفراغ من العبادات والانصراف عنها كما هو إتباع للحسنة بالحسنة وأمارة على قبول العبادة المفروغ منها، فهو أثر من آثارها، واستمرار هذا الأثر استمرار للصلة بالله، فينصرف الذاكر من العبادة ولا ينصرف عن المعبود ولا ينقطع عنه، إلى أن يأتيه وقت آخر للعبادة أو موسم من مواسمها، وهو أشبه بمن جلس في المصلى لا تحبسه إلا الصلاة ينتظرها، بيد أن هذا الذاكر يمتثل قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[9]، فله مزية على الجالس في

(١) لطائف المعارف بما لمواسم العام من وظائف ٢/٣٠٣، لابن رجب الحنبلي، تحقيق عبد المنعم إبراهيم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، مكتبة مصطفى الباز.
(٢) سورة النساء: الآية ١٠٣. (٣) سورة النساء: الآية ١٠٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣/٣١٨، ٣١٩. (٥) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١/٣٩٩. (٧) سورة البقرة: الآية ١٨٥.
(٨) انظر: لطائف المعارف ٢/٣٦٣. (٩) سورة الجمعة: الآية ١٠.

المصلى بين الصلاتين: لأنه يذكر الله في سوقه ومتجره، وحال بيعه وشرائه وأخذه وإعطائه فلم تشغله الدنيا عن الآخرة مع أنه لم ينس نصيبه منها[1].

وإن عدم انقطاع المسلم عن الذكر قبل أداء العبادة وفي أثنائها وبعد الفراغ منها يجعله في عبادة متصلة شاملة لكل أوقات وأحوال حياته حتى يصبح على مراد الله كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[2]، ولذا فالمداومة على ذكر الله ﷻ في العبادة وبين كل عبادة وأخرى، يحقق للمسلم السر الذي خلق من أجله تحقيقاً لقول المولى المعبود جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[3]. ومزية أخرى للمداومة على الذكر، أنها تجعل قلب الذاكر متذوقاً لطعم الإيمان،وروحه متعلقة بالعبادة وبأوقاتها ومواسمها، فهو (لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد خضوع أو تنفيذ أوامر فحسب بل إنه يجد فيها تلذذاً بمناجاة الله وطاعته ويجد فيها سعادة لا تدانيها سعادة، وقد كان النبي ﷺ ينتظر فريضة الصلاة انتظار الظمآن اللهف إلى شربة الماء العذب)[4].

وعليه فالمداومة على الذكر هي شارة على أن العابد لم ينقطع عن معبوده بالفراغ من عبادة ما، وهي أمارة على قبول العبادة المفروغ منها، وهي عامل من عوامل التعلق بالله باغتنام أوقات مناجاته وانتظار مواسم العبادات ومناسباتها، واللسان لا يزال رطباً بذكر الله، والمسلم منتشر في الأرض ومبتغ من فضل الله وقلبه لم يبرح التعلق به سبحانه إلا في تنويع الروابط وتجديد الاتصال: فهو في عبادة دائمة إذ ليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أنعم من محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه[5].

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٣٩٢.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦٢، ١٦٣. (٣) سورة الذاريات: الآية ٥٦.
(٤) انظر: العبادة في الإسلام ص١١٠، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة.
(٥) المصدر نفسه ص٩٨.

❖ ٤ ـ أثر الذكر في تفاضل الأعمال والعبادات:

العبادات والأعمال الصالحة بعد الإيمان بالله ﷻ، يكون تفاضلها وثقل وزنها عند الله سبحانه، بمكانة الذكر فيها، وهذا بعد: تقديم الواجبات في الأفضلية على النوافل واعتبار الأشخاص والأحوال والأزمان، لأن هذه الاعتبارات لها مكانة في مزية التفاضل وتقديم الأعمال على بعضها[1].

وحين تتجرد الأعمال عن هذه الاعتبارات، فالفيصل في تفاضل الأعمال وفي منازل العمال إنما هو لأكثرهم ذكراً لله ﷻ، يقول ابن القيم رحمه الله: (إن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً لله ﷻ، فأفضل الصوام أكثرهم ذكراً لله ﷻ في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكراً لله ﷻ، وأفضل الحاج أكثرهم ذكراً لله ﷻ، وهكذا سائر الأحوال)[2].

بل إن مكانة الذكر في العبادة والطاعات وأعمال البر، يجاوز مسألة تمامها وتفاضلها إلى درجة كونه قد ينوب عنها سواءً كانت عبادات بدنية أو مالية، وشاهد ذلك قصة فقراء المهاجرين الذين شكوا إلى رسول الله ﷺ ما يجدونه في أنفسهم من حرج حيال عجزهم عن مسابقة أهل الدثور في تحصيل الأجور، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي... قال: «ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله: تسبِّحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين...» الحديث[3].

(١) الوابل الصيب ص٩٩.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) الحديث، أخرجه البخاري، في كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، برقم ٨٤٣. البخاري مع الفتح ٢/٣٧٨.

فالرسول ﷺ علّم هؤلاء الفقراء ذكراً ينوب عن العبادات المالية، ويلحقون به من سبقهم بالأجور في ذلك، ولا يلحقهم إلا من قال ما قالوا من الذكر، (فجعل الذكر عوضاً لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد)[1]، وهذه مزية عظيمة للذكر تجعل الصادق فيه والمكثر منه مسابقاً للباذل والمنفق والمجاهد.

○ أثر الذكر فيما يشق من العبادات:

والجهاد من أشق الأمور على النفوس والأبدان، ومن أعظم ابتلاءات التكليف، وهو لا بد منه لأمة تود أن يكون لها شأن وكيان بين الأمم، سيما إن كانت أمة رسالة كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[2]، ويكفي في مشقة أعباء الجهاد وصعوبته على النفوس قول الله فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[3]، ولذلك لا يقدم على هذا الكره إلا صاحب الإيمان القوي، ولا يصبر على مقارعة العدو ويثبت في أرض النزال إلا من كان متعلقاً بمن يجود له بهذه النفس وهذا الجسد، يبتغي الثواب الذي أعده سبحانه ثمناً لذلك. والذكر بعد الإيمان بالله، هو من أكبر عوامل الثبات والنصر كما يقول المولى سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾[4]، وللعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يُعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم واذكروه بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء

(١) الوابل الصيب ص١٠٠.
(٢) سورة العنكبوت: الآيات ١ ـ ٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٦.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٤٥.

ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم[2].

والذكر في هذا الموطن يعني ما ذكر وزيادة، إذ هو ثبات للقلوب والألسنة، وتطمين للنفوس بمعية الله، وهو تذكير بما وعد الله من ثواب وجنة، ولهذه الأهمية والآثار الحاصلة منه، (لم يرخص الله في تركه بل افترضه على عباده وهم أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف)[3].

وهي حالة يقع فيها الذهول عن كل شيء فأمروا فيها بذكر الله تعالى، وهو تعالى الذي يفزع إليه عند الشدائد ففيه تنبيه على أنه ينبغي للعبد أن لا يشغله عن ذكر الله تعالى شيء وأنه يلتجئ إليه عند الشدائد يقبل عليه فارغ البال واثقاً بأن لطفه تعالى لا ينفك عنه في حال من الأحوال[4].

والمذكور ﷺ مع ذاكره بالنصر والتأييد وتفريج الكرب، وأنعم بذلك من أثر عظيم للذكر، ولعل هذا العرض لأثر الذكر في العبادة، لا يحتاج فوق هذا إلى زيادة.

❊ ❊ ❊

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٠.
(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن ٤/٣٨٢.
(٣) انظر المصدر نفسه ٤/٣٨٢.
(٤) الفتوحات الربانية ٥/٥١.

المبحث الثاني

أثر الذكر الشرعي على الأمة

المطلب الأول

أثر الذكر الشرعي على المجتمع المسلم

من ثمار الذكر وآثاره على المجتمع، هو ما يتميز به تعامل المسلمين فيما بينهم في تجمّعاتهم وأسواقهم وبيوعهم ومناكحاتهم وصلات البر بينهم، وحل خصوماتهم، فهم لن يجلسوا مجلساً لشيء من ذلك أو لغيره إلا وذكر الله حاضر بينهم، ذلك لأنهم يعلمون أن غياب الذكر عن مجالسهم يجعلها حسرة عليهم، ذلك لأنه (ليست العلاقة بالله ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في أرجاء الدنيا يفعل ما يريد، كلا هذا تدين مغشوش، الدين الحق أن يراقب المرء ربه حيثما كان وأن يقيد مسالكه بأوامره ونواهيه، وأن يشعر بضعفه البشري فيستعين بربه في كل ما يعتريه، ومن هنا وجدنا دعواته ﷺ تتناول شؤون الحياة المختلفة، ولهجه بذكر الله يخالط كل ما يضع فيه يده)[1].

والذكر لا تنحصر فضيلته في التسبيح والتحميد والتهليل، بل يشمل كل ما يعمله المرء طاعة لله، فمجالس تعلم الحلال والحرام، وكيف يكون الشراء والبيع لا تختلف عن كيف تصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وما شابه ذلك، يدل لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[2]، أما الفهم الذي أحدثه الفقراء من أخذ السبحة والتنحي عن الحياة جانباً طوال

(١) انظر: فن الذكر والدعاء ص٣٩. (٢) سورة النور: الآية ٣٧.

الصباح والمساء مع ترك الجمعة والجماعات وعدم الإتيان ببقية العبادات والتي هي داخلة في حقوق الإسلام وحقوق النفس والأهل وحقوق الله تعالى، فهذا الذكر ما أجدره أن يسمى غفلة لا ذكراً[(١)].

وذكر الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، مع العلم بمعاني ذلك من أكبر الضوابط في حياة الأمة والمجتمع المسلم، إذ (الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر، اقتضائها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة وهي من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، كعلم العبد بتفرد الرب بالنفع والضر والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة، يثمر جُلًّا من أنواع العبوديات تنعكس على الفرد وعلى من حوله، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وأنه لا تخفى عليه خافية، فعلمه بكل ذلك يكون له أثر في أنواع من التعبد[(٢)].

ولأجل هذا تعرَّف الله لعباده بهذه الأسماء والصفات، وعلى قدر معرفة العباد لها ولمعانيها يكون علمهم بالله وتقديرهم له قدره سبحانه، إذ كل اسم له تعبد مختص به علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية التعبد بأسماء: التودد والبر واللطف والإحسان، عن أسماء: العدل والجبروت والعظمة والكبرياء، وآثار ذلك والحظ منها، أن نعلم أنه سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته ـ فهو عليم، يحب كل عليم، ـ جواد، يحب كل جواد، عفو يحب العفو وأهله، ـ حيي، يحب الحياء وأهله، ـ صبور، يحب الصابرين، حليم، يحب أهل الحلم[(٣)].

---

(١) انظر: نزل الأبرار ٨، ٩.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٥١٠، ٥١١، تعليق وتخريج علي بن حسن الحلبي الأثري، مراجعة بكر أبو زيد، دار ابن عفان الخُبر بالسعودية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ١/ ٤٢٠.

❖ من حظوظ العباد بمعرفتهم لأسماء الله تعالى ما يأتي:

إن ذكر الله ودعائه والثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، إلى جانب ما فيه من كونه محبوباً لله ومحققاً للتوحيد والتمجيد والتنزيه والثناء عليه سبحانه، فهو له فوائد جمة يقف الحصر دون إحصائها، ومن أجمل هذه الفوائد وأجلها ما يناله العبد من حظوظ حين يتحقق بمعاني الأسماء، ويوقن بها قلبه، فيكون نصيبه منها التخلق بها والتأدب بنواميسها فتشع منه نور متعدي النفع، لا يكون قاصراً عليه، ونسوق هنا أمثلة دون أن نحصر وذلك لبيان ما لمعرفة معاني أسماء الله من أثر وحظ ينعكس على حياة المسلم فرداً وجماعة.

فمعرفة الله بكونه الرحمن الرحيم، تورث المسلم التوجه بكليته إلى جناب قدسه، ويتوكل عليه، ويلتجئ فيما يعن له إليه، ويشغل سره بذكره، ثم إنه يرحم عباد الله فيعاون المظلوم ويصرف الظالم عن ظلمه بالطريق الأحسن، وينبه الغافل، وينظر إلى العاصي بعين الرحمة دون الازدراء، ويسعى إلى سد خلة المحتاجين بقدر سعته[(١)].

ومعرفته بكونه ـ الخالق البارئ المصور ـ تجعله يعرف أنه لم يكن شيئاً ولا عيناً، فحوَّله الله شيئاً وجعله عيناً، فحري به أن لا يعجب بحاله ولا بأفعاله، فكيف لا يتواضع من يعلم أنه في الابتداء نطفة وفي الانتهاء جيفة، وفي الحال صريع جوعة وأسير شبعة وحمال وحشة، كنيف في قميص، إذا أمسك عن الكلام ساعة تغير عليه خلوفه، ومن شاهد عيوب نفسه ونقصها عرف جلال ربه وقدره ولم يتكبر على خلقه.

الرزاق: خالق الأرزاق والأسباب، فكل ما ينتفع به منتفع فهو رزقه، ومن تحقق هذا المعنى عرف أنه لا يستحقه إلا الله تعالى، ومن تيقن بذلك فلا ينتظر

---

(١) انظر: مشكاة المصابيح الكاشف في حقائق السنن ٥/ ١٤، لشرف الدين حسين بن أحمد. تحقيق مجموعة من أهل العلم، نشر إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، باكستان. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

الرزق ولا يتوقعه إلا منه ويكل الأمور كلها إليه، ثم إنه يجعل يده خزانة ربه بالإنفاق وإيصال الأرزاق إلى الناس.

الفتاح: الحاكم بين الخلائق من الفتح بمعنى الحكم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾[1] أي احكم، وذلك لأن الحكم فتح الأمر المغلق بين الخصمين، والله سبحانه بيَّن الحق وأوضحه، وميَّز الباطل وأدحضه، وحظ العبد من ذلك أن يسعى في الفصل بين الناس، وينتصر للمظلومين ويكون همه تيسير المتعسر على الخلق من أمور الدنيا والدين.

الخافض الرافع: هو الذي يخفض القسط ويرفعه، أو يخفض الكفار بالخزي والصغار ويرفع المؤمنين بالنصر والإعزاز، وحظ العبد من ذلك أن يخفض الباطل ويرفع الحق ويعادي أعداء الله ويسعى في خفضهم ويوالي أولياء الله فيرفعهم، ويعلم أنه ليس المرفوع قدراً والمعلَّى شأناً والمستحق مجداً وفخراً من رفع الطين على الطين وتكبر على المساكين وتجبر على أشكاله بكثرة ماله، وإنما المشرَّف شأناً والمعلَّى رتبة ومكاناً مَن رفعه الله بتوفيقه وأيده لتصديقه وهداه إلى طريقه.

الحليم: هو الذي لا يستفزه غضب ولا يحمله غيظ على استعجال العقوبة والمسارعة إلى الانتقام، وحاصله راجع إلى التنزيه من العجلة، وحظ العبد، أن يتخلق به ويحمل نفسه على كظم الغيظ وإطفاء ثائرة الغضب بالحلم.

الكريم: الذي يعطي من غير مسألة ولا وسيلة، وقيل: المقدس عن النقائص والعيوب، والحظ منه، أن يتخلق به فيعطي من غير موعدة ويعفو عن مقدرة ويتجنب الأخلاق المردية والأفعال المؤذية[2].

ومثل هذا يقال عن بقية أسماء الله الحسنى وصفاته العُلَى، فهي ترتفع بالمسلم حين يعيشها ويتخلّق بها إلى عنان القمم وعالي القيم، وجميل

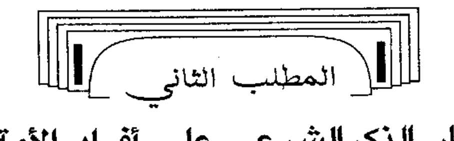
---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

(٢) انظر: مشكاة المصابيح، المصدر السابق ٥/ ٢٤ ـ ٤١.

الخصال، ونبيل الشيم، وتصبغ على المسلمين ومجتمعهم التراحم والتعاون والتواصل والتواضع والتحابب والتعاطف، وتكسوهم بلباس التقوى والطهر، وتسبل عليهم ستر الحياء والعفة والعفاف، وتجعل تنافسهم في ميدان الخير وتسابقهم إلى ما عند الله، وتزهدهم في متاع الدنيا بحيث لا يلتفتون إلى شيء من الدنايا فأكرم بذلك وأنعم من أثر طيب.

* * *



المطلب الثاني

آثار الذكرالشرعي على أفراد الأمة:
وهي عامة وخاصة

أ ـ الآثار العامة:

فمن آثار الذكر وفوائده العاجلة على الفرد، الذي يتذوق طعمها في دار الدنيا، أن الذكر (يطرد الشيطان ويقمعه، ويرضي الرحمن، ويزيل الهم والغم من القلوب، ويجلب الفرح، وينور الوجه والقلب، ويجلب الرزق، ويكسو الذاكر المهابة والنضرة ويورثه المراقبة والإنابة والقرب من الله والمعرفة به، وهو حياة القلب وقوته وجلاءه من الصدأ ويزيل الوحشة بين العبد وربه، وهو سبب لذكر الله لصاحبه في الشدة، وسبب للاشتغال عن الغيبة والنميمة. . . إلخ)[1].

ومن أجلِّ تلك الثمار أن الذكر تطمين في مقابلة كل الحاجات، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2]، أي إن حاجات العبد غير متناهية الجهات وكل الخلق متناهون، وليس في مقابلة حاجات الإنسان إلا كرم الله وقدرته اللذان لا نهاية لهما، فلهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3].

ب ـ الآثار الخاصة وهي:

○ أولاً: علم المسلم بربه سبحانه وتعالى:

إن أولى ثمار الذكر الشرعي هي إكساب المسلم الذاكر به العلم بالله

(١) انظر: الوابل الصيب ٨٤، ٩٨. (٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٣) انظر: لوامع البينات ص٥١، ٥٢.

الجليل العظم قيوم السموات والأرضين وذلك بمعرفة ما يليق به سبحانه من التعظيم والتمجيد والتوحيد والثناء والإجلال، وبتقديسه سبحانه عن كل نقص وعيب بذكره سبحانه بما يشتمل على توحيده وإفراده بالعبودية، سيما ما كان من الذكر بأسمائه الحسنى كما أمر سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[1].

ذلك لأن: الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض وأنه يعلم السر وأخفى، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه[2].

والمسلم: يعرف إلهاً ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[3].

فالإله في الإسلام هو خالق كل شيء ورازق كل حي ومدبر كل أمر، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة، خلق فسوَّى وقدَّر فهدى، يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4]، له الخلق

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن قيم ٢/ ٥١٠، ٥١١.
(٣) سورة طه: الآية ٤ ـ ٨. (٤) سورة المجادلة: الآية ٧.

والأمر، وبيده ملكوت كل شيء[1].

إن معرفة المسلم بربه على هذا النحو من التعظيم والإجلال والتقديس والتنزيه، وعلمه وإيقانه بمدى إحاطة علم الله وقدرته وجبروته وأن كل شيء منه وإليه، إن معرفة كهذه وعلم بإله له كل هذه الصفات العلى، بل هو سبحانه أجل وأعظم مما نقول ولسنا نحصي عليه الثناء، وحسبنا ما أثنى به هو على نفسه ﷻ.

هذه الحقيقة لو وعاها الناس من أن الله هو المحيي والمميت، وأنه هو الرزاق الذي يجود عليهم بحياتهم، لكانت فائدتها تحريرهم من العبودية التي لازمتهم أجيالاً كثيرة، وهي عبوديتهم لملوكهم وزعمائهم الطاغين عليهم، ورؤساء دينهم المتألهين، الذين أوقعوا في نفوسهم أنهم من طينة أفضل، وأن بيدهم النفع والضر، نعم إن هذه الحقيقة لو وعاها الإنسان لحررته من الركون إلى الأوهام والأساطير التي تشل العقل وتحول بينه وبين ارتياد الطرق السليمة والمناهج القويمة[2].

يقول الله سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[3]، ومعرفة المسلم بربه وأنه: رب العالمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين... الأول بالحق الموجود بالضرورة، المعروف بالفطرة، الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات، وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات، المشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون، وبكل ما كان وما هو كائن وما سيكون، الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات، وبث به في الأرض جميع الحيوانات ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ

(١) انظر: الإيمان والحياة ص٣٤، ٣٥، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة الطبعة السابعة ١٤٠١.

(٢) روح الصلاة في الإسلام ص١٨، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين الطبعة ١٦.

(٣) سورة محمد: الآية ١٩.

بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾[1]، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه، ويكشف السوء ويفرج الكربات ويقيل العثرات، الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر، فهو الإله الحق والرب الحق والملك الحق، والمنفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه، المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه، لا يبلغ المثنون وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء، ثناءً عليه بل ثناؤه أعظم من ذلك، فهو كما أثنى على نفسه[2].

بإيمان كهذا، وبذكر على هذا النحو، نعرف ربنا وخالقنا ومعبودنا ومأمولنا الذي عنت له الوجوه، وخشعت القلوب، وخفتت الأصوات، ولهجت به الألسن بكل اللغات، وإليه رفعت الأكف بالدعوات، وبالخوف منه وجلت القلوب وذرفت الدموع، ثم إليه اطمأنت النفوس، ومالت ولانت القلوب والجلود ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[3]، إذ لا ملجأ ولا منجا إلا منه وإليه، فمنه الخوف وفيه الرجاء، وهو المذكور المشكور المسبَّح بحمده، ومعرفته هي أولى ثمار وآثار الذكر الشرعي.

○ ثانياً: إدراك الذاكر لمعاني الذكر:

والذكر ليكون مؤثراً ويتحقق منه الأثر المرجو في حياة المسلم يشترط فيه إلى جانب كونه شرعياً مأثوراً، أن يكون الذاكر به، عالماً بمعانيه موقناً بها متفاعلاً مع مضامينها، فعلم المسلم بمعاني الذكر، فرع عن علمه بالرب المذكور، وتقديره قدره، وتابع له كما قال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[4]، ومهما كانت كلمات الذكر ومعانيه إن لم يتفطن لها الذاكر ويتمثل معانيها لن يكون لها الأثر، ذلك لأن أمر الذكر أجل من أن يكون مقصوراً على مجرد اللَّوك باللسان، والإكثار منه في الأعداد.

فإن الذكر الذي ارتضاه الله ديناً وقبِله من عباده قربة، أعمق أثراً وأرفع

(١) سورة النمل: الآية ٦١.

(٢) انظر: مدارج السالكين ٣/٢٨١، ٢٨٢.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣. (٤) سورة محمد: الآية ١٩.

قدراً من أن يكون حديث لسان أو ترديد كلام[1].

ومهما حمل الكلام المذكور به من معاني إلا أن الأثر مرهون بسمو الذاكر إلى تلك المعاني فهماً وانفعالاً وحضور قلب، فكلمة التوحيد لا إله إلا الله مثلاً: هذه الكلمة هي الأساس الأول للإيمان واللبنة الأساسية الأولى للعقيدة، والفارق الذي يميز بين الإيمان والكفر، بيد أن هذه الميزة العظيمة والفرق الكبير لا يتأتيان بمجرد النطق بها، فإنك إذا كنت مصاباً بالصداع فلن ينفعك تكرار لفظ الأسبرين ولو كان ألف مرة دون أن تتناوله فعلاً وينفعل بدمك وجسمك، وكذلك هذه الكلمة الطيبة فهي وإن كانت تنقذ الإنسان من الحكم عليه بالكفر وتدخل قائلها في دائرة الإسلام، لكنها لن تجنى ثمارها الحقيقية إلا إذا استقرت في سويداء قلبك وأفاضت إلى جوارحك وأعضائك فتُصهر في بوتقتها وتنفعل معها[2].

وهكذا قل عن بقية كلمات الأذكار، وبهذا تجنى منها الثمار ويكون لها على الأمة الإيجابي من الآثار.

* * *

(١) انظر: ليس من الإسلام ص٢٣٤، محمد الغزالي. الطبعة الرابعة ١٩٦٣م. دار الكتب الحديثة.

(٢) من كلام المحقق لكتاب: معنى لا إله إلا الله، الزركشي ص٤٦، تحقيق علي محيي الدين علي قره داغي، دار النصر للطباعة شبرا مصر، دون معلومات إضافية.

المطلب الثالث

آثار الذكر الشرعي في المعاش والمعاد

إن الذكر الشرعي المقدر فيه قدر المذكور سبحانه، والذي يؤديه الذاكر بمواطأة القلب واللسان عالماً بمضامينه ومتمثلاً لمعانيه ومتفاعلاً معها، له من الآثار على المسلمين أفراداً أو أمة ما يصعب تقصيه، وقد ذكره من ألف في الأذكار أو جمعها متقصياً فوائد الذكر وفضائله، وسنذكر هنا بعضاً من هذه الفوائد والآثار وهي على قسمين.

القسم الأول

آثار الذكر في حياة المسلمين الدنيوية

١ ـ الحياة الطيبة الحقيقية:

إن الحياة البدنية التي تسري في الجسم ويتحرك بها على وجه الأرض هي قاسم مشترك بين كل الأحياء، وكل الدواب، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾[1].

وهذه الحياة لا يختلف فيها مسلم عن كافر، بل ربما لا يتميز فيها الإنسان عن بقية الكائنات كثيراً، لكن الحياة الحقيقية ليست حياة الجسد، وإنما هي حياة الروح وحياة القلب، وهذه الحياة هي التي يقول عنها الباري سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ

(١) سورة النور: الآية ٤٥.

فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[2]، والمراد بهذا: من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده ومحبته وعبادته وحده[3].

ولذلك سلب الله هذه الروح من المعرضين عن دعوة المصطفى ﷺ، واعتبر ذهولهم عنها بسبب أنهم موتى حيث يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾[4]، ويقول عنهم أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[5]، فشبههم في موت قلوبهم بأهل القبور، فإنهم قد ماتت أرواحهم وصارت أجسامهم قبوراً لها فهم لا يسمعون، وقد أحسن القائل في وصف من هذا حالهم إذ يقول:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... فليس لهم حتى النشور نشور[6]

فالحياة هي حياة الروح المتغذية بالوحي الإلهي، المتعلق قلب صاحبها بذكر الله، وهي التي وصفها الله بالحياة الطيبة بقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[7]، وبقوله أيضاً: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾[8]، فذكر الله تعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة[9].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

(1) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.
(2) سورة الشورى: الآية ٥٢.
(3) مدارج السالكين ٣/٢٥٨.
(4) سورة النمل: الآية ٨٠.
(5) سورة فاطر: الآية ٢٢.
(6) انظر: مدارج السالكين ٣/٢٦٢.
(7) سورة النحل: الآية ٩٧.
(8) سورة هود: الآية ٣.
(9) مدارج السالكين ٣/٢٥٩.

أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾[1]، وعلى هذا فحياة الروح والقلب هذه، لا يحياها ولا يذوق طعمها إلا الذاكر لله ﷻ، كما قال المصطفى ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[2]، فما بين الذاكر والغافل هو ما بين الحي والميت، وشتان ما بينهما.

وفي هذا التمثيل منقبة للذاكر جليلة، وفضيلة له نبيلة، بما يقع منه من ذكر الله سبحانه[3].

وهذه الحياة المعنية، هي حياة خص الله بها من تعلّقت نفوسهم به ومالت قلوبهم إليه ولم تزل ألسنتهم رطبة بذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾[4]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[5].

فذكر الله تعالى هو قوت أنزله ﷻ كما أنزل المن والسلوى لتنعم به قلوب الذاكرين نعيماً ليس في الدنيا من جنسه.

(فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها... حتى قال قائلهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها؟ قيل: ما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره)[6].

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً[7].

(1) سورة طه: الآية ١٢٤.
(2) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله، البخاري مع الفتح ١١/٢١٢، برقم ٦٤٠٧.
(3) نزل الأبرار ص١٩، ٢٠.
(4) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(5) سورة الزمر: الآية ٢٣.
(6) الوابل الصيب ص٩٧، ٩٨.
(7) مدارج السالكين ٣/٢٥٩.

وهذا النعيم العاجل هو ثمر من ثمار هذه الحياة التي ينبوعها الوحي، وعمودها العلم بالله، وغراسها ذكره وطاعته، فكان من ثمارها لهذا الذاكر الذي تيقظ لمذكوره حين سدح الغافلون بأن كافأه الرب البر الرحيم: بأن ينبه قلبه من النوم ويوقظه من السنة فلا يفوته شيء من الأرباح، ويجمع الله له ما تفرق من قلبه وإرادته وهمومه وعزومه والحياة والنعيم في اجتماع ذلك[1].

فالذاكر بين الغافلين هو كالحي بين الموتى حياة متكاملة في البدن والروح والشعور ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[2].

٢ ـ القوة في الأبدان لأعباء المعاش والجهاد:

ومن مكملات حياة الذاكرين الفاعلة المؤثرة: **القوة**، إذ تكون لأهل الذكر قوة على الأعمال لا تكون مع الغفلة وهي أثر من آثار الذكر يخص الله بها أهله، يقول ابن القيم رحمه الله: إن الذكر يعطي الذاكر قوة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه[3].

وشاهد ذلك موقف النبي ﷺ مع ابنته فاطمة وعلي رضي الله عنهما، لما سألته خادماً وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة فعلَّمهما: أن يسبِّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبِّرا أربعاً وثلاثين، وقال لهما: «فهذا خير لكما من خادم»[4]، فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم[5].

وفي هذا التوجيه الكريم لأحب الناس إليه ﷺ إلى ذكر الله وتسبيحه

(١) انظر: الوابل الصيب ص٨٥. (٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٣) الوابل الصيب ص١٠٢.

(٤) الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التكبير والتسبيح عند المنام، برقم ٦٣١٨، انظر: البخاري مع الصحيح مع الفتح ١١/١٢٣، وانظر: مسلم مع النووي كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ١٧/٤٥.

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم ١٧/٤٥.

وحمده وتكبيره، فلعل ذلك لما في الذكر للقلب من لذة وأنس وسلوى وهو سيد الأعضاء، وذلك يزيل المتاعب وينسي العناء ويبيت المسلم مطمئناً إلى ما عند الله من ثواب وفرج، وما أحسن ما نظمه أحد أهل العلم في هذا المعنى إذ قال:

فذكر إله العرش سراً ومعلناً ... يزيل الشقاء والهم عنك يطرد

ويجلب للخيرات دنياً وآجلاً ... وإن يأتك الوسواس يوماً يشرد

فقد أخبر المختار يوماً لصحبه ... بأن كثير الذكر في السبق مفرد

ووصى معاذاً يستعين إلهه ... على ذكره والشكر بالحسن يعبد

وأوصى لشخص قد أتى لنصيحة ... وقد كان في حمل الشرائع يجهد

بأن لا يزال رطباً لسانك هذه ... تعين على كل الأمور وتسعد

وأخبر أن الذكر غرس لأهله ... بجنات عدن والمساكن تمهد

وأخبر أن الله يذكر عبده ... ومعه على كل الأمور يسدد[1]

٣ ـ رقة القلب وخشوعه:

ومن آثار الذكر الطيبة في شخص المسلم والتي يكون بها صلاحه في نفسه، وفي علاقته بربه، وعلاقته بإخوته من أفراد الأمة، رقة القلب وخشوعه، وهي تنشأ عن الذكر فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ويذهب بالغفلة عنه[2].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5]، وقوله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

(١) الأبيات للشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي رحمه الله نقلاً عن موارد الظمآن في دروس الزمان ٦/٢٤٠، عبد العزيز المحمد السلمان، الطبعة ١٩، مطابع الخالد الرياض ١٤١٠.

(٢) انظر: لطائف المعارف ص١٣. (٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٢. (٥) سورة الحج: الآية ٣٤، ٣٥.

ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[1]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2].

ومن هنا تأخذ مجالس الذكر قيمتها، لما يتلى فيها من آيات الله ويقرأ فيها من سنة رسوله ﷺ، ولما يُعْرَضُ فيها من بضاعة الدنيا والآخرة، ويبين فيها الرابح من البضاعتين.

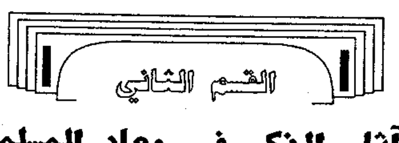
﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾[3].

وكلما كان من يُذكِّر الناس ويعظهم أعمق إيماناً وأصدق لهجة وأسبق إلى امتثال أوامر الشرع ونواهيه، كلما كان الأثر أبلغ في نفوس الناس وأعمق في قلوبهم، فها هي الصورة التي جسدها العرباض بن سارية رضي الله عنه لموقف من مواقف الرسول ﷺ في مجلس من مجالسهم تلك بقوله: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون)[4]، إذ شأن الذكر مع القلوب عظيم لأن صلاحها وعافيتها تتوقف عليه فلا غنى للمرء عن الذكر إن لم يكن له غنى عن عافية وصلاح قلبه، والحوجة في الحالين واحدة «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[5].

وقد علم بالضرورة أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقيمة الذكر للقلب هي كقيمة النفس للروح، بل هو غذاؤه ودواؤه في آن.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الحديد: الآية ١٦.
(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.
(٣) سورة الكهف: الآية ٤٥.
(٤) الحديث سبق تخريجه في ص٤١.
(٥) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرء لدينه برقم ٥٢، البخاري مع الفتح ١/١٥٣.



آثار الذكر في معاد المسلم

١ ـ النجاة من عذاب الله:

إن ما ينتظر الناس في يوم المعاد شيء عظيم، فالناس في دنياهم هذه لا يعرفون أن يحل بأحدهم أمر ثم لا يتحول عنه أبداً، أو تنزل به حادثة لا يعقبها أمل بالزوال، ولكن أمر الآخرة على غير هذا، فإذا كانت الدنيا تتغير وتتبدل، وحوادثها من جنسها تتغير وتتبدل وتزول، فإن الآخرة هي الحيوان الحقيقي الذي ليس له تبدل ولا زوال ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وعظم هذا وهوله يتمثل في أن الخسارة يومها لا ينتظر بعدها ربح، والشقاء يومها لا سعادة بعده أبداً، ولذلك ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[2]. والناس يومها إما هالك لا ينجو أبداً، أو ناج لا يهلك أبداً، ويأتي ذكر الله ﷻ منجياً من هذا الهلاك لأهله كما قال المصطفى ﷺ: «ما عمل آدمي عملاً قط، أنجى له من عذاب الله من ذكر الله»[3].

وهذه نهاية الغايات وأعظم المطالب، وهي أولى آثار الذكر وثماره، وأجل فوائده في المعاد.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٢٣٩، وسنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب فضل الذكر ٥/٤٢٩، رقم ٣٣٧٧ وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب باب فضل الذكر ٢/١٢٤٥، برقم ٣٧٩٠، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي المستدرك ١/٤٩٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته ٢/٩٨٦، برقم ٥٦٤٤، وصحيح الترمذي ٣/١٣٩، رقم ٢٦٨٨، وصحيح سنن ابن ماجه ٢/٣١٦ برقم ٣٠٥٧.

٢ ـ السبق يوم القيامة يكون للذاكرين:

وزيادة على النجاة فإن من فوائد الذكر ومزاياه العظيمة أن أهله لا يسبقهم أحد ولا يتقدم عليهم متقدم، فهم يأتون يوم القيامة خفافاً قد حط عنهم الذكر أثقال الدنيا وأزال الاستغفار والتوبة عنهم بقايا الذنوب، ففيما روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ مرَّ على جبل يقال له جمدان، فقال: «سيروا هذا جمدان، سبق المفرِّدون»، قالوا: ومن المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذّاكرات»[1]. المرور على هذا الجبل تزامن مع سبق بعض الركب وتأخر البعض، فنبه النبي ﷺ على أن السبق الحقيقي هو لمن أدمن الذكر حتى أولع به.

ذلك لـ: أن عمال الآخرة كلهم في مضمار سباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القترة والغبار يمنع من رؤية سبقهم فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق[2].

فما أجله من فضل وما أعظمها من مثوبة الزحزحة عن النار والفوز بالجنة، ثم السبق والتقدم في يوم الحاجة.

٣ ـ الذكر سبب للإظلال في يوم المحشر:

كما جاء صريحاً في حديث السبعة الذين يظلهم الله في يوم لا ظل إلا ظله، يقول النبي ﷺ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[3].

٤ ـ والذكر سبب لتكثير الشهود يوم القيامة:

فكل معالم الأرض تأتي شاهدة للذاكرين يوم تحدث الأرض أخبارها.

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه مسلم، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله، ١٧/ ٤.

(٢) انظر: الوابل الصيب ص١٠٣.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد، برقم ٦٤٧٩، البخاري مع الفتح ٢/ ١٦٨.

فالجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر الله ﷻ عليها، قال ابن مسعود: إن الجبل لينادي الجبل باسمه، أمر بك اليوم أحد يذكر الله ﷻ؟ فإذا قال نعم استبشر[1].

٥ ـ والذكر سبب لنضرة الوجه في الدنيا، ونور في الآخرة:

فالذاكرون أنضر الناس وجوهاً في الدنيا وأنورهم في الآخرة[2].

٦ ـ وبالذكر تبنى دور الجنة وقصورها:

والذكر غراس الجنة وصاحب الذكر به يرتع في رياضها في الدنيا وبه يدخلها يوم القيامة وهو يضحك[3].

وبعد الظفر بسلعة الله الغالية ـ الجنة ـ عندها فقط يتوقف قطار الذاكرين، وفيها يكون حط رحالهم، فما أسعدها من دار وقرار، ويا للأنس لهذه الأنفس إذ حلّت بدار المولى لها جار ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾[4].

وهل فوق هذا للمسلم من غاية، فاللهم وفقنا لذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

❊ ❊ ❊

---

(١) الوابل الصيب ص١٠٦.

(٢) المصدر نفسه ص١٠٨.

(٣) الوابل الصيب ص٩٧ و١٠٥.

(٤) سورة الفجر: الآية ٢٧ ـ ٣٠.

المبحث الثالث

أثر الذكر الشرعي على الرسالة

❖ من جهة كونه متقيداً بالوارد فيها:

حين نقول (ذكر شرعي) فالقصد أنه من مصدر رباني، والكلام هنا في أثر الذكر الشرعي على الرسالة من جهة كونه رباني المصدر، أي متقيداً بها.

وهذه الحيثية هي التي يترتب عليها الأثر لتعلقه بها، وهي ليست قاصرة على الذكر، وإنما في كل ما ينسب إلى هذه الرسالة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1]، أي كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على تعليمكم الكتاب ودراستكم له، والمطلوب أن لا ينفك العلم عن العمل، إذ لا يعتد بأحدهما دون الآخر[2].

فالعمل متقيد بالعلم، والعلم متقيد بالكتاب الذي تعلمون وتدرسون لا بغيره، والتقيد بالشريعة يكون باتخاذ كتابها مصدراً وعدم تجاوزه بحيث لا حلال إلا ما أحلَّ، ولا حرام إلا ما حرَّم، ولا دين إلا ما شرع، وهذا التقيد وهذا الالتزام وعدم التجاوز، له على الشريعة أثر عظيم يتمثل في الاعتبارات الآتية:

١ ـ إظهار الرسالة بأنها رسالة كفاية وكمال كما هو شأنها.

٢ ـ يكون سبباً من أسباب بقائها على صورتها غضة طرية دون تغيير ولا تبديل على مر العصور.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١/٣٢١.

٣ ـ وفيه تحقيق لمراد الله في حفظها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[1].

٤ ـ فيه إغلاق للأبواب على الأدعياء والمتنبئين والمتنحلين.

٥ ـ يجعل الرسالة رسالة تسير بأتباعها في وحدة وتماسك في العقيدة والعبادة والفكر والسلوك.

ذلك لأن انقطاع النبوة بمحمد ﷺ واكتمال الدين به، فيه توفير للجهود البشرية والطاقات الإنسانية، وفيه توجيه للإنسان إلى النظر إلى الأرض والكون ليستخدم مواهبه وطاقاته، لا إلى السماء بين آونة وأخرى لينزل إليه وحي جديد وعلم مفيد، فيتفادى بذلك بلبلة فكرية وصراع مذهبي وتمزق اجتماعي.

فبهذا الدين المكتمل الموحد المرجع المحدد المعالم مضت الأمة في وحدة وتماسك وفي وضوح من الطريق، دون أن تنتظر لذلك نبياً جديداً يبعث ولا إماماً معصوماً ينهض ليحقق ما عجز عنه الأنبياء ويكمل ما تركوه ناقصاً (كما يعتقد الإمامية)، ولا تعتمد في نهضتها أو عودتها إلى إسلامها على أشياء غامضة تجل عن العقول، أو تدق عن الأفهام، وذلك مما يوصد الباب أمام المغرضين والطامحين من أصحاب النيات السيئة والأغراض المشبوهة في دس العقائد وتحريف العبادات، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون[2].

فمرجعية المصدر الرباني: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[3]، وأنه لا مرجع حين التنازع إلا إلى كتاب الله وسنة نبيه عملاً بقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[4]. هذه المرجعية هي واحدة مما أقام الله عليه حفظ هذا الدين، وهذه الرسالة، بالإضافة إلى مضمون هذه الرسالة، وجوهر هذا الدين، اللذين لا يكاد يعلوهما غيم أو يطغى عليهما زبد، إلا ويذهب جفاءً، ويبقى جوهر

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) انظر: العقيدة والعبادة والسلوك ص٤٨، ٤٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١١. (٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

الرسالة كيوم أنزل، كما قال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[1].

فما أنزله الله هو المعوَّل عليه للنفع والمخول للبقاء، وأما غيره فهباء وإن أزبد حيناً من الدهر، وغُرَّ به بعض الدهماء، وفي هذا ما يكفي لبيان الأثر الإيجابي للتقيد بالوارد، على الرسالة، والله أعلم وأحكم.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

الفصل الرابع

مصادر الذكر الشرعي دراسة تقيمية

فيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف المصدر وذكر المصادر الشرعية.

المبحث الثاني: وقفة تقيمية مع المصادر الشرعية.

المبحث الأول

تعريف المصدر وذكر المصادر الشرعية

المطلب الأول

تعريف المصادر

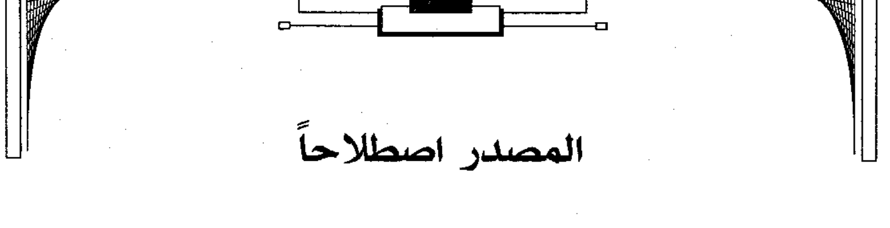
المصادر: جمع مصدر، وهو المرجع ومآل الأمر في اللغة، قال في لسان العرب: المصدر أصل الكلمة التي تصدر عنها صوادر الأفعال، وتفسيره أن المصادر كانت أول الكلام كقولك: الذهاب والسمع والحفظ، وإنما صدرت الأفعال عنها فيقال: ذهب ذهاباً، وسمع سمعاً وسماعاً، وحفظ حفظاً. فالمصادر هي التي منها صدرت الأفعال، فالصادر هو المنصرف والوارد هو الجائي، يقال: صدر القوم عن المكان أي رجعوا عنه، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾[1]، أي يرجعون، وصدر كل شيء أوله، وأعلاه أي قمته، فصدر النهار أوله وصدر الليل كذلك، وصدر الشتاء أوله والصيف كذلك[2].

وفي معجم مقاييس اللغة: صدر: الصاد والدال والراء أصلان أحدهما يدل على خلاف الوارد، يقال: صدر عن البلاد، وصدر عن الماء، إذا كان وردها ثم شخص عنها أي انصرف، والآخر صدر الإنسان وغيره[3].

ومن هذا التعريف اللغوي لكلمة مصدر يتضح أن صدر كل شيء هو أوله الذي به ومنه يبدأ، وهو مرجعه ومآله الذي إليه يؤوب، وهذا المعنى هو المطلوب هنا.

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٦.
(٢) لسان العرب ٤/٤٤٩ مادة صدر.
(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٣٣٧، باب الراء فصل الصاد.



المصدر اصطلاحاً

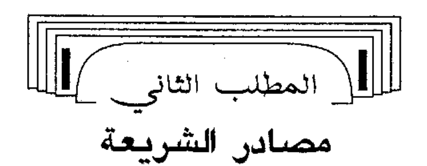
ومعنى المصدر في الاصطلاح: هو مضمون هذا المعنى الذي اتضح من التعريف اللغوي لكلمة مصدر.

فالمصدر في الاصطلاح: هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتعمق، بحيث يصبح أصلاً لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه[1].

ومن هنا نأخذ أن المصدر هو الأصل الذي يُستقى منه ويؤخذ، وإليه يرجع، لأنه أول من تناول الأمر على حقيقة الشمول حتى صار أصلاً يرجع إليه، فما كان أصلاً للشيء والمبتدئ له فهو المصدر له.

❊ ❊ ❊

(١) لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص١٢٢، للدكتور محمد عجاج الخطيب، الطبعة الثالثة ١٩٧١م بيروت لبنان.



المطلب الثاني

مصادر الشريعة

إن للشريعة مصادر خاصة، تؤخذ منها أحكامها ومعاملاتها وعباداتها، وكل ما هو من هذا القبيل وهو من غير هذه المصادر، لا يكون شرعياً ولا ينسب إلى شريعة الإسلام، والذكر واحد من تلك الأمور، والشرعي[1] منه هو ما كان وقفاً على الشريعة من حيث المصدر.

❖ **والمصادر الأساسية للشريعة بإيجاز هي[2]:**

١ ـ القرآن.

٢ ـ السنة.

٣ ـ الإجماع.

٤ ـ القياس.

❊ ❊ ❊

(١) سبق الكلام في فصل مفهوم الذكر عن كيف يكون الذكر شرعياً وتبين معنى الشرعي وما يجعل الذكر متصفاً بذلك، ص٦٤ وما بعدها.

(٢) انظر المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضاً أو نقداً ص١٠٠، صادق سليم صادق، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

المصدر الأول للشريعة الإسلامية

القرآن الكريم

القرآن الكريم: هو كلام الله الذي نزل به جبريل الأمين، على نبينا محمد ﷺ، الذي يُتعبد بتلاوته[١].

هذا القرآن هو المصدر الرئيس والأول لكل أمور الدين والشريعة، ولمعاملات الأحكام الدينية والدنيوية، ذلك لأنه كلام الله ووحيه الخالد، فهو عند أهل السنة حجة في جميع قضايا الدين العلمية والعملية، وهو الفرقان بين الحق والباطل، وقد سمَّاه الله تعالى فرقاناً.

كما في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[٢]، وقد أقام الله به الحجة وأوضح به المحجة[٣].

وهذا القرآن أراد الله من الإيحاء به إلى النبي الخاتم ﷺ أن يكون الرجوع إليه والأخذ عنه والاحتكام إليه والاهتداء به كما قال الله سبحانه عنه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[٤]، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾[٥]، فكل ما ورد في القرآن الكريم هو شرع للمسلمين[٦].

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن ص ٢١، لمناع القطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة ٢١، بيروت ١٤٠٠هـ
(٢) سورة الفرقان: الآية ١.
(٣) المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، ص١٠١.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٩.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٤.
(٦) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/٤٠، نشر دار الندوة العالمية للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

فعلى المسلمين أن يتخذوه إماماً وحجة، يهتدون به ويقتدون كما كان عليه حال السلف إذ لم يكن بينهم منازع للقرآن أو معارض له بعقل، أو رأي وقياس، ولا بذوق[١] ووجد[٢] أو مكاشفة[٣]، وتلك نعمة من أعظم ما أنعم الله بها عليهم كانت سبباً للاعتصام بالكتاب والسنة إذ لم يعارضوهما بشيء من غيرهما[٤].

ولا غرو، فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٥]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[٦]، والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها، المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها، لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها إلّا القرآن: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[٧].

والمسلمون وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى، فحري لهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن حتى يأخذوا بأيديها إلى شاطئ السلام[٨].

نعم ما أحرى بالمسلمين أن يقوموا على هذا القرآن ويقيموا دنياهم

(١) الذوق: هو أول مبادي التجليات الإلهية، ملحق مع التعريفات للجرجاني، ص٢٣٧، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م.
(٢) الوجد: ما يصادف القلب من الأحوال المفنية عن شهوده، ملحق التعريفات ص٢٣٦.
(٣) المكاشفة: تطلق بإزاء الأمانة بالفهم، وتطلق بإزاء تحقيق زيادة الحال، وتطلق بإزاء تحقيق الإشارة، ملحق التعريفات ص٢٣٩.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى ١٣/٢٨، ٢٩.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.
(٦) سورة الفرقان: الآية ١.
(٧) سورة طه: الآية ١٢٣، ١٢٤.
(٨) مباحث في علوم القرآن مناع القطان ص١٧، ١٨ الطبعة الحادية والعشرون ١٤٠ مؤسسة الرسالة بيروت.

ودينهم عليه، شكراً لله على إنعامه به عليهم وتفضله بحفظه وبقائه لهم، فها هم على مرِّ تاريخهم، ومن يوم أُنزل هذا القرآن، يسهون حيناً وتأخذهم الغفوة حيناً آخر، وقد يصل بهم التفريط فيه وفي أنفسهم حتى يفقدوا أزمة الأمور ومقاليدها لفترات من التاريخ، وما أن يفيقوا ويستيقظوا إلا ويجدوه غضاً طرياً على نضارته كيوم أنزل، لم تمتد يد الزمان لتطول حرفاً من حروفه بزيادة أو نقص، فضلاً عن مضمونه ومحتواه، فما أعظمها من نعمة، نعمة هذا القرآن مصدر هذا الدين، كمالٌ واستيفاءٌ، مع مزِيَّتي الحفظ والبقاء.

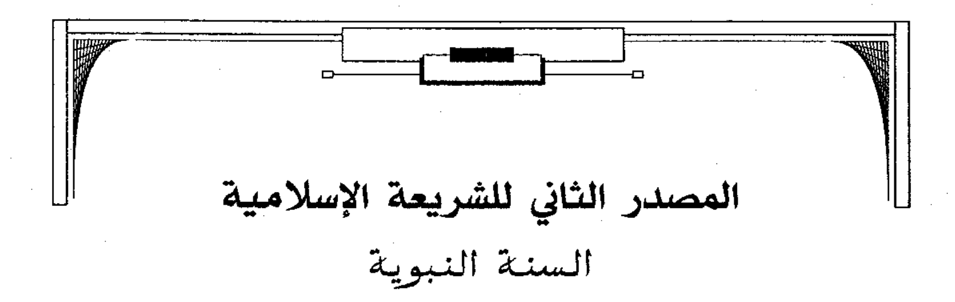
فكان من أهم ما يجب على أهل هذا الدين كشفه والبحث فيه، فهماً وعنايةً ما كان لأصل دينهم قواماً، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجة[1].

فالمصدر الأول والأساسي إذاً لدين الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومعاملة، هو القرآن الكريم، كلام الله ووحيه إلى محمد النبي الخاتم ﷺ.

والذكر وهو ليس بدعاً من العقيدة والعبادة، فالقرآن هو المصدر له والمرجع والمنبع، ومنزلة القرآن منه من جهة المصدر هي منزلة القرآن من باقي أمور الدين، وقد تعرض البحث في فصل مفهوم الذكر الشرعي إلى شيء من ذلك، وسيأتي أيضاً في هذا الفصل في مبحث تقييم مصادر الذكر مزيد من التوضيح.

* * *

(١) انظر: إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ٣، ٤ تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف مصر، الطبعة الثالثة ١٩٧١م.



المصدر الثاني للشريعة الإسلامية

السنة النبوية

المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي هي: السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهي بإيجاز:

السنة في اللغة: هي الطريقة، حسنة كانت أو قبيحة، فمن بدأ أمراً عمل به قوم بعده فقد سنَّه كما قال ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنَّ سُنة سيئة فعليه وزرها...»[1]، فالسنة هي السيرة والطريقة[2].

ويقصد بها في الاصطلاح: ما كان السَّنُّ والسير فيها أمراً ونهياً وفعلاً وتقريراً.

لأن اصطلاح المحدثين للسنة هي: ما أُثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة[3]. وعلى هذا فهي ثلاثة أقسام: قولية - وفعلية - وتقريرية. وهي وحي من عند الله من حيث المعنى والأصل، واللفظ من الرسول ﷺ[4].

وقد دل القرآن عى أنها مصدر للتشريع وعلى أنها وحي من عند الله، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[5]،

(١) الحديث سبق تخريجه في ص٤٧. (٢) لسان العرب ١٣/ ٢٢٥.

(٣) السنة حجيتها ومكانتها في الإسلام د/ محمد لقمان ص١٤، مطبعة الإيمان بالمدينة المنورة ط ١٤٠٩هـ.

(٤) انظر: الثبات والشمول في الشريعة الإسلام، عابد السفياني ص٩٩، مكتبة المنار مكة ط١ ١٤٠٨هـ.

(٥) سورة الحشر: الآية ٧.

وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾[١]، وجاءت السنة بذلك أيضاً كما في قوله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»[٢]، فهذه النصوص وغيرها تدل بوضوح على أن السنة وحي ومصدر للتشريع.

والأصل في السنة أنها تبين الكتاب وهي شارحة له، إذ تفسر مبهمه، وتفصل مجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه، وتشرح أحكامه وأهدافه. فالقرآن جمع الكليات والسنة بينت الجزئيات[٣]، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤]، هذا من حيث الأصل، ولكن قد تستقل السنة بإنشاء الأحكام، فتأتي بما ليس في القرآن لكنها مع ذلك تتمشى مع القرآن في قواعده، وتحقق أهدافه وغاياته[٥].

وما تستقل به السنة من الأحكام والعبادات لا يسع المسلم إلا التسليم به والعمل به إذ أنه وحي وتشريع.

فالسنة لا تقل في المنزلة حينئذ ـ أي حين تنفرد بالتشريع ـ عن القرآن فيما تنص عليه من أحكام[٦].

فما سنَّه الرسول ﷺ حق لأنه لا ينطق عن الهوى، وما صدر عنه قولاً كان أو فعلاً، أو تقريراً يعتبر من التشريع الذي يجب اتباعه فيه والعمل به[٧].

---

(١) سورة النجم: الآية ٣، ٤.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة ٤/ ٢٠٠ رقم ٤٦٠٤، الترمذي أبواب العلم، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ ٥/ ٣٨، برقم ٢٦٦٤، وصحيح ابن حبان باب الاعتصام بالسنة ١/ ١٨٩ وصحيح الجامع ١/ ٥١٦، برقم ٢٦٤٣، وصحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٣٩، ٢١٤٦.

(٣) الموافقات في أصول الشريعة، ٢/ ٢٤٣، لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد نشر مطبعة المدني، بدون مزيد بيان.

(٤) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٥) انظر: السنة حجيتها ومكانتها في الإسلام، محمد لقمان ص١٩، ٢٠.

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

(٧) انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ١٨/ ٦، ٧، والموافقات للشاطبي ٢/ ٢٤٣.

وعليه فالسنة هي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، ولأنها موحى بها فهي من عند الله من حيث المعنى والمضمون، وبالتالي فهي مصدر أساسي للتشريع الإسلامي، والكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان لأنهما وحي، وبقية المصادر عليهما تستند ومنهما تأخذ.

أما عن موقع الذكر من السنة وموقعها منه باعتبارها مصدراً له فذاك حديث طويل، وقد سبق شيء من ذلك في فصل مفهوم الذكر الشرعي، وفي آثار الذكر الشرعي، وستأتي إشارة إلى مصدرية السنة للذكر في مبحث: تقييم مصادر الذكر الشرعية إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

المصدر الثالث للتشريع الإسلامي

الإجمـــاع

والمصدر الثالث للتشريع الإسلامي بعد الكتاب والسنة هو: الإجماع.

والإجماع في اللغة: مصدر أجمع يجمع إجماعاً، فهو مجمع، وجمع أمره عزم عليه، وأجمع القوم على كذا أي اتفقوا[1].

وهو في الاصطلاح: اجتماع واتفاق مخصوص من حيث المجمع عليه، ومن حيث من يقع عليهم الاعتبار في الإجماع.

إذ هو: اتفاق مجتهدي الأمة بعد وفاة محمد ﷺ في عصر على أي أمر كان[2].

والمناسبة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ظاهرة، إذ أن المجتهدين يعزمون على طلب الحق، فإذا اتفقوا على أمر كان ذلك منهم إجماعاً[3].

والإجماع الذي هو اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ على أمر ما، حجة تثبت به الأحكام، فهو مصدر للتشريع الإسلامي، وذلك لأن الكتاب والسنة قد أتيا بما يدل على وجوب اتباعه، ونهيا عن مخالفة ما أجمع عليه المسلمون، وجماهير العلماء على حجية الإجماع أخذاً من أدلة الكتاب والسنة[4].

فمن أدلة الكتاب على حجية الإجماع ولزوم اتباعه قوله تعالى: ﴿وَمَن

(١) لسان العرب ٨/٥٧ مادة جمع.
(٢) جمع الجوامع حاشية البناني ٢/٢٧٦، شرح الجلال المحلي، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
(٣) انظر: الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية ص٥٤٥ الهامش.
(٤) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، صادق سليم ص١١٣.

يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[1].

وأما في السنة فقد جاء الكثير من الأحاديث الملزمة بالجماعة والإجماع والمحذرة من مخالفة الجماعة والخروج عن الإجماع، فمن ذلك قوله ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي ـ أو قال: ـ أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار»[2]. فهذه الأدلة وغيرها تفيد وجوب اتباع الإجماع، وأنه حجة شرعية، فالأمة لا تضل عن الصواب، ولا تجتمع على الخطأ، فما أجمعوا عليه تثبت لهم به العصمة عن الخطأ[3].

فلو أجمع المسلمون على شيء فإجماعهم معتبر شرعاً، والعصمة ثابتة لهم عن الخطأ، وبهذا يتقرر كون الإجماع مصدر من مصادر الشريعة يجب الأخذ به والعمل بمقتضاه، والله أعلم.

وسنتعرض في المبحث القادم تقييم مصادر الذكر الشرعي لعلاقة الإجماع بالذكر من جهة هل يكون مصدراً له أو لا.

* * *

(١) سورة النساء: الآية ١١٥.
(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، ٤/٢٦٦، برقم ٢١٦٧، وأخرجه الحاكم في كتاب العلم، وصححه ووافقه الذهبي ١/١١٥ ـ ١١٧، وصححه الألباني في صحيح السنة ٣/٣١٩، برقم ١٣٣١، وصحيح سنن الترمذي ٢/٢٣٢، رقم ١٧٥٩.
(٣) انظر: الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية ص٥٤٧.

المصدر الرابع للتشريع الإسلامي

القياس

والقياس هو من مقايسة الشيء بالشيء أو على شيء للتسوية بينهما، مع وجود مقتض لذلك، والقياس في اللغة: تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به تقول: قست الثوب بالذراع إذا قدرته به، ويقال فلان لا يقاس بفلان أي لا يساويه[1].

فهو مقايسة وتقدير وتسوية بين أمرين بينهما ما يجعلهما كذلك، والقياس في الاصطلاح هو تقرير لهذا المعنى: إذ هو مساواة فرع بأصل لاشتراكهما في علة حكم شرعي لا تدرك بمجرد اللغة[2].

وهو يعتبر المصدر الرابع للتشريع الإسلامي لأنه: إلحاق فرع بأصل أو شيء من الأحكام بمماثل له لشبه بينهما أو لعلة جامعة للخروج بحكم للمقيس والملحق، بناء على ثبوت ما بينهما من مشاكلة وكون أحدهما نظيراً للآخر.

فالقياس طريق لمعرفة أحكام الله تعالى فيما ليس فيه نص من كتاب، أو سنة، حيث يلحق الفرع الذي لا نص فيه بأصل منصوص عليه، تسوية بينهما في الحكم، لما بينهما من التشابه كإلحاق كل مسكر بالخمر في الحكم، لعلة الإسكار، والعمل بالقياس ثابت بالكتاب والسنة وعمل الصحابة رضوان الله عليهم.

ففي الكتاب العزيز: جاء الكثير مما يدل على أن الشبيه والنظير حكمه

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول، ص١٩٨، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦.
(٢) تيسير التحرير ٣/ ٢٦٤.

حكم شبيهه ونظيره، وجاء أيضاً أن من ليس بينهما الشبه والمساواة لا يتفقان في الحكم والعاقبة، وعن أساس القياس ابتداءً يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[1].

وعن الإشارة في أن المتشابهين لا يختلفان في الحكم يقول الله سبحانه: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾[2]، وقوله سبحانه مخاطباً كفار قريش: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾[3]. والمقصود هنا هو التسوية بينهم وبين من قبلهم في العذاب لأنهم اشتركوا في الاعتقاد[4].

فإذا كان الاعتقاد واحداً والأفعال متجانسة فلم تختلف النتيجة والعاقبة، فهذا لا يستقيم في القياس كما أنكر الله على اليهود ادعاءهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[5].

وفي الإشارة إلى أن عدم التساوي لا يقتضي اتفاق الحكم يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[6]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[7]. وهذا استفهام إنكاري هل يتساوى من يعمل الصالحات ويسعى بالخير، بمن كان كسبه السيئات وسعيه بالإفساد، أم هل يتساوى التقي النقي بالفاجر الدنس، كلا لا مساواة في الحال، وتبعاً لا مساواة في الحكم والمآل.

وأقيسة القرآن سواءً كانت من هذا الباب أو غيره كثيرة جداً، وهناك من تتبعها[8]. والحاصل أن الأدلة من القرآن قائمة على حجية القياس وعلى أنه باب لأخذ الأحكام.

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.
(٢) سورة محمد: الآية ١٠.
(٣) سورة القمر: الآية ٤٣.
(٤) الثبات والشمول ص٣٦٦.
(٥) سورة المائدة: الآية ١٨.
(٦) سورة الجاثية: الآية ٢١.
(٧) سورة ص: الآية ٢٨.
(٨) انظر: إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية ١/ ١٣٠.

وأما السنة: فقد جاء فيها العمل بالقياس واضحاً، وحوت أدلة على حجيته وأشارت إلى الوجه الذي يقوم عليه القياس، وهي علة الشبه بين المقيس والمقيس عليه، وقد جمعت أقيسة النبي ﷺ في مصنف أوصلها إلى مائة قياس[١].

فمن أقيسة السنة قول النبي ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٢].

وهو إثبات الحكم النقيض لثبوت مناقضة الفرع للأصل في العلة، لأن المقيس والمقيس عليه أتيا الشهوة، لكن المقيس عليه وضعها في الحرام فاستحق الوزر، والمقيس وضعها في الحلال فاستحق الأجر.

ومن أقيسة السنة: قياسه ﷺ حكم القبلة في الصوم، وهو فرع على حكم المضمضة بالماء وهو الأصل بجامع أن كلاً منهما لا يضر[٣].

وذلك أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: صنعت اليوم يا رسول الله أمراً عظيماً، قبّلت وأنا صائم، فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم»، فقلت: لا بأس بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ففيم؟»[٤]. فحكم القبلة في الصوم كحكم المضمضة فيه. ومن الأقيسة حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج، أفأحج عنها؟ قال: «نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك ديناً أكنت قاضية؟»، قالت: نعم، قال: «فاقضوا الذي له فإن الله أحق بالوفاء»[٥].

---

(١) انظر: أقيسة النبي ﷺ، ناصح الدين عبد الرحمن ـ ابن الحنبلي، ص١ ـ ٢٠٤، تحقيق أحمد حسن جابر وعلي أحمد الخطيب الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة ٧/٩١، ٩٢.

(٣) الثبات والشمول ص٣٦٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ١/٢١، ٥٢، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ١/٤٣١.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين، برقم ٧٣١٥، انظر: البخاري مع الفتح ١٣/٣٠٩.

وقد ترجم البخاري رحمه الله لهذا الحديث بقوله: (باب من شبَّه أصلاً معلوماً بأصل مبين بيَّن الله حكمهما ليفهم السائل)[١].

ومن هذه النصوص الصريحة لأقيسة النبي ﷺ نحصل على مقصدنا من دلالة السنة على العمل بالقياس واعتبارها إياه طريقاً للوصول للأحكام الشرعية، وبالتالي كونه مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي.

ونصوص الوحيين ماضية في الإشارة إلى القياس واعتبار العلة، وأن الشبيه له حكم الشبيه، وأن ما اختلفت فيه العلة لا يتفق في الحكم في غير ما استشهدنا به من أقيسة النبي ﷺ الصريحة، والمتحصل من ذلك، هو قيام الدليل على حجية القياس والعمل به واعتباره طريقاً للوصول إلى الأحكام الشرعية، وبالتالي كونه مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر المصدر نفسه والصفحة.

المبحث الثاني

وقفة مع هذه المصادر من جهة مصدريتها للذكر

المطلب الأول

وقفة تقييمية مع المصدرين الرئيسيين

❖ أ ـ القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي والأول للأذكار الشرعية، كما هو كذلك لكل أمور الشريعة، ثم إن القرآن كلام الله المذكور سبحانه، وإن أولى ما يتقرب به إلى الله أو يذكر به كلامه، بالإضافة إلى أن الذكر يتعلق بالله ذاتاً وأسماءً وصفاتٍ وآلاءً، والله أعلم بذاته وما يتعلق بها من أسماء وصفات وأفعال، وعلى هذا فإن أكمل الذكر وأفضله وأحبه إلى الله هو ما كان بالقرآن، ويكون القرآن مصدراً للذكر بما يأتي:

١ ـ ما جاء في القرآن من الحث على الذكر والإكثار منه، والإشارة إلى ما فيه من فوائد وثمار، في معاش المسلم ومعاده، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[2]، وقوله: ﴿. . . وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٥.
(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

٢ ـ كون القرآن بمجموعه داخلٌ في الذكر المطلق من ناحية التلاوة والتدبر، فقد سماه الله ذكراً فقال سبحانه: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾[2]، وقد رَغّب سبحانه على تلاوته فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[3]، وقال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[4]، وهو أفضل الأذكار إلا في ما ورد النص فيه من الأذكار المقيدة من غيره[5].

وقد سبق توضيح ذلك في فصل مفهوم الذكر الشرعي مبحث تفاضل الأذكار.

٣ ـ ما جاء في القرآن من الذكر بالمعنى الخاص، فالقرآن وإن كان كله ذكراً بالمعنى الأعم للذكر ـ كما ذكر في الفقرة السابقة ـ إلا أن فيه مما يتعلق بتعظيم الله تعالى والثناء عليه ـ وهو الذكر بالمعنى الأخص، الشيء الكثير الطيب[6].

لأنه مشتمل على التهليل والتذكير والتحميد والتسبيح والتمجيد، وعلى الخوف والرجاء والدعاء والسؤال، والأمر بالتفكر في آيات الله والاعتبار بمصنوعاته إلى غير ذلك[7].

وفيه الكثير من الأذكار التي ورد الأمر بها في أحوال وأوقات ومناسبات معينة، كقوله سبحانه: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[8].

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾[9]، وقوله:

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤١، ٤٢.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٢١.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٨.
(٥) انظر: الأذكار للنووي، كتاب تلاوة القرآن ص١٨١، والتذكار في أفضل الأذكار للقرطبي ص٤٨.
(٦) انظر: الموسوعة الفقهية ٢١/٢٢٧.
(٧) انظر: التذكار في أفضل الأذكار ص٤٨، ٤٩.
(٨) سورة الزخرف: الآية ١٣.
(٩) سورة النحل: الآية ٩٨.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[1].

ومن ذلك ما جاء لبعض السور والآيات من تخصيص كآية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾[2].

وأنها تقرأ في الصباح والمساء وعقب الصلوات، وكذلك خواتيم سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ...﴾[3] إلى آخر السورة وأنها تكفي لو قرأت ليل كل يوم، ومن السور، فاتحة الكتاب وهي رقية، والمعوذتان وهما مما يتحصن به المسلم في المساء والصباح، وتقرءان عقب الصلوات، إلى غير ذلك من الآيات والسور[4].

فهذا كله يمكن للذاكر والداعي أن يتشبع به فتكون ألفاظ ذكره ودعواته ومعانيها ومضامينها مستقاة من القرآن وصادرة منه، حتى لو كان جمعها وتأليفها من تلقاء العبد المسلم حين يذكر أو يدعو بذكرٍ أو دعاءٍ مطلق في بعض أحيانه وأحواله، فالقرآن يعتبر معيناً لا ينضب، ومصدراً خصباً لا يجدب، ومورداً لا ينقطع سلسبيله العذب، من هذه الجهة.

٤ ـ ما حكى الله في كتابه من أذكار، وأدعية لبعض أنبيائه، وأثنى بها عليهم، ورضيها وتقبلها منهم ففرج ما بهم من كرب، ونصرهم ورفع منازلهم، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.
(٤) انظر في هذا البحث فصل: مفهوم الذكر الشرعي، مبحث آداب الذكر بالقرآن وتلاوته، وما لبعض سوره وآياته من مزايا ص٧٣ وما بعدها.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٣، ٨٤.

وقال عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾، وعن زكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[1]، إلى غير ذلك مما يجده تالي هذا الكتاب مقروناً مع أكثر قصص الأنبياء.

٥ ـ ما جاء في القرآن من القواعد والضوابط للذكر والدعاء، وللذاكر والداعي، وهو كثير، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾[3]، وقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات التي وضعت الأسس التي ينبغي قيام الذكر والدعاء عليها من توحيد الله وإفراده بالتوجه إليه والطلب منه والإخلاص له.

٦ ـ ومن ذلك ما جاء في القرآن من الأمر بالذكر والدعاء بأسماء الله الحسنى والحذر من الإلحاد فيها والميل بها كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾[6]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾[7]، وقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾[8]، إذ أنه سبحانه له الكمال المطلق، والمثل الأعلى في الصفات، وهو منزّه عن المثيل والنظير وعن كل نقص كما قال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[9].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٧ ـ ٩٠.
(٢) سورة محمد: الآية ١٩.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١١٧.
(٤) سورة غافر: الآية ١٤.
(٥) سورة الإسراء: الآية ٤٦.
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.
(٧) سورة الأعلى: الآية ١.
(٨) سورة الحاقة: الآية ٥٢.
(٩) سورة الروم: الآية ٢٧.

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(1)، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾(2).

٧ ـ ما في القرآن أيضاً من آداب عامة للذكر والدعاء كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾(3)، وهذه الآية تضمنت جملة من الآداب والتوجيهات، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾(4)، وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾(5)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾(6)، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾(7)، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(8)، إلى غير ذلك مما بسط في هذا الكتاب العزيز من آداب ينبغي مراعاتها وأوضاع وأحوال يتطلب بلوغها في الذكر والدعاء.

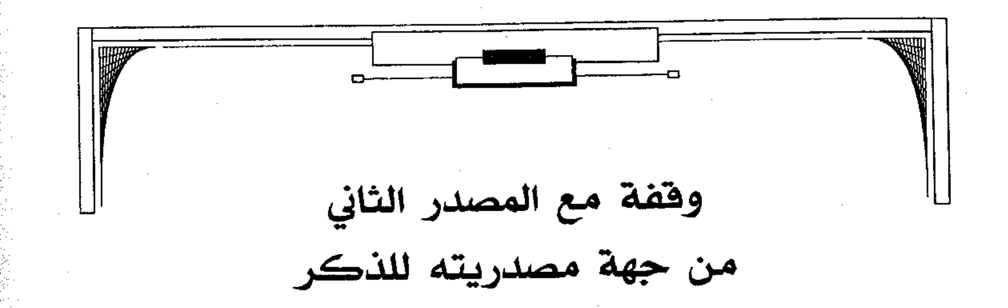
وهذه الجوانب السبعة المذكورة، هي للتدليل على كون القرآن هو المصدر الأول والرئيسي للذكر، والمراد بها أنها أبرز الجوانب فيما سُقتها من أجله في تقديري، وإن كانت الجوانب والوجوه التي تجعل من القرآن مصدراً للذكر لا تقف عندها ولا تحصر فيها، بل الحصر والاستقصاء لم يكن مراداً ولست أنا أهله، وكذلك بالنسبة للنصوص والشواهد المسوقة ضمن تلك الجوانب، التي يكون القرآن مصدراً للذكر من خلالها هي للإشارة وليست هي كل ما يمكن أن يساق.

والحاصل في هذه الوقفة مع مصادر الذكر الشرعي، أن المراد منها هو القول بأن العمود الذي يقوم عليه الذكر الشرعي يصدر من شجرة القرآن

(1) سورة الشورى: الآية ١١.
(2) سورة الصافات: الآية ١٨٠.
(3) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.
(4) سورة الأعراف: الآية ٥٥.
(5) سورة الإسراء: الآية ١١٠.
(6) سورة الأنفال: الآية ٢.
(7) سورة الحديد: الآية ١٦.
(8) سورة الرعد: الآية ٢٨.

المباركة، وأغصانه وفروعه وأوراقه تروى من سلسبيل القرآن ومعينه وفيضه العذب الصافي، فالذكر الشرعي من القرآن أصله وأساسه، وحوله يدندن في مضامينه وألفاظه، ومن سناه وقبسه يأخذ مسلكه وآدابه وضوابطه.

* * *



وقفة مع المصدر الثاني
من جهة مصدريته للذكر

❖ **ب ـ السنة النبوية:**

السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر الذكر الشرعي، كما هي كذلك لبقية أمور الشريعة والدين، بل إن الذكر يحتل من السنة قلبها وقالبها، وحيزاً كبيراً منها كمًّا وكيفاً، ولا عجب فهي سنة سيد الذاكرين ﷺ المتعلق بالله قلبه، وبطاعة الله جوارحه، والذي لم يزل لسانه رطباً بذكر الله حتى رحل عن هذه الدنيا التي لم تره يوماً فاتراً عن ذلك أو مشتغلاً عنه بغيره، وإذا كانت السنة هي ما أثر عن محمد ﷺ الذي كان هذا هو حاله، فأكرم بها وأنعم من موطن للذكر ومصدر له وساحة لغراسه.

وعليه فإن مجال الذكر مع السنة رحب وممتد امتداد ما يعرض للناس من أحوال وشؤون مما تحفل به دنياهم، شاملاً لكل حوائجهم وحاجاتهم، وقد سبق الكلام عن هذا(١).

والبحث هنا ليس بصدد التعرض لهذا الوابل المنهمر، وإنما هو بصدد ذكر الجوانب التي تكون السنة مصدراً للذكر من خلالها.

وهذه الجوانب هي:

١ ـ ما جاء في السنة النبوية من الحث على الذكر وبيان فضله ومكانته وثوابه وما أعده الله للذاكرين، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال

(١) انظر في التمهيد: شمولية الذكر الشرعي ص٢٤، وما بعدها، وفي فصل مفهوم الذكر الشرعي مبحث سعة مفهوم الشارع للذكر ص٥٥، وما بعدها.

رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم...»(١) الحديث، وقوله ﷺ في الصحيح: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»(٢)، إلى غير ذلك من الأحاديث التي جاءت متضمنة لهذا المعنى، الذي يدفع بالمسلم دفعاً إلى الذكر والاشتغال به، والبحث عن ما يذكر به في مظانه وموارده ومواطنه ومصادره، رغبة في هذا الفضل وهذه المنزلة.

٢ ـ ما حوته السنة من أذكار شاملة لحياة المسلم من يوم وعيه إلى لحظة غيابه عن هذه الدنيا أو غياب الوعي عنه، مغطية ليله ونهاره، تبدأ معه حين يرفع جنبه من مرقده ويفتح عينه من نومه وترد إليه روحه من موتته الصغرى، ملازمة له في كل ما يأتي ويدع، وفي كل ما يعرض له جالساً وقائماً، مزاولاً عمل جوارح أو عمل فكر أو قول لسان، وإلى أن يأوي إلى فراشه فيكون على الذكر وضع الجنب كما كان رفعه عليه، وعلى ترديد الذكر تختم الجوارح حركتها واللسان نشاطه كما كان به بدء الحركة والنشاط، الأمر الذي حدا ببعض من جمع هذه الأذكار أن يسمي ما جمع بـ: «عمل اليوم والليلة».

وما جاء في السنة قولاً كان، أو فعلاً منه ﷺ، أو أمراً، أو إقراراً، ينقسم إلى ذكر مطلق لم يقيده ﷺ بزمان أو حال أو هيئة أو عدد، والسنة فيه أن يؤدَّى مطلقاً دون تقييده بشيء من ذلك، وإلى ذكر مقيد بسبب أو زمان وحال أو عدد أو هيئة، والسنة فيه أن يؤدَّى على ذلك، وقد سبق التفصيل في هذا التقسيم وما ينبغي فيه من الالتزام حال الذكر بأي من القسمين(٣).

وهذه المأثورات من الأذكار زخرت بها الصحاح وكتب السنن والمسانيد في أبواب الدعوات والأذكار، وقد أفرد لها بعضهم مصنفات منفصلة جمع فيها

(١) الحديث متفق عليه، وسبق تخريجه، ص١٥٢.

(٢) الحديث سبق تخريجه في ص١٧١.

(٣) انظر: فصل الذكر الشرعي، مبحث التفاضل بين الذكر المطلق والمقيد، ص٩٧.

مأثورات الأذكار، منهم ابن السني في (عمل اليوم والليلة)، والنووي في (الأذكار)، وابن القيم في (الوابل الصيب)، وغيرهم[1].

والحاصل أن هذا الجانب الواسع مما حوته السنة من الأذكار بمطلقه ومقيده، هو العمدة للذكر الشرعي من جهة المصدر، وفيه من الكفاية والشمول والسعة، ما تنقضي دون الوفاء به طاقة كل حريص وحياته، فضلاً من أن تعرض للمرء عارضة أو نازلة، أو رغبة في خير وطاعة، أو رهبة من ذنب وكرب أو بلاء في الدنيا أو الآخرة، فلا يجد لها في هذا المأثور ما يناسبها.

ومع هذا فكم كان عجيباً حين عمد فئام من الناس إلى عيونهم فأغمضوها عن هذه الحقيقة وراحوا وهم على تلك الحال يهرفون بما يعرفون وما لا يعرفون من أذكار بديلة عن المأثور، أقلّ ما يقال فيها أنها استبدال للبصل والثوم بالمن والسلوى، ولطين الأرض ووحلها بما نزل من السماء، وكم كان العجب مضاعفاً حين وجدت بضاعتهم هذه سوقاً وطالبين على فترة من تاريخ المسلمين، بل وحتى اليوم في بعض السراديب، وبعض النواحي التي ما تزال ترتع فيها جرثومة الجهل، ولم يعمها بعد ضوء الصحوة الإسلامية.

وعلى كل، فالسنة النبوية أتت من الأذكار بما لا يبقي مساحة لقائل سيما حين يضم مأثورها إلى ما جاء به الكتاب فيكون في المجموع فصل الخطاب.

٣ ـ وتكون السنة مصدراً للذكر حين يعيها المسلم ويكون لها وعاءً فيحفظ ألفاظها الجميلة الواضحة، ومعانيها الجليلة العظيمة فيما جاءت به من ذكر وثناء وتحميد وتسبيح وتمجيد ودعاء، لا سيما في الأذكار المطلقة، ثم يترسم ملامح هذه الألفاظ ويتقيد بتلك المعاني عندما يقول ذكراً من عنده أو يتوجه إلى الله بدعاء.

وحين تتخذ السنة مصدراً وسنداً للذاكر والداعي من هذه الحيثية، فسيكون هواه تبعاً لما جاء به المصطفى ﷺ، فلن ينشئ ويقول إلا ما شاكل

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ٢١/ ٢٣٥

هدى الشارع في الذكر أو ماثله مما وضح لفظه وصح معناه واستقام مبناه واحتوى على الوارد من ذلك في أكثره، وهذا في الذكر والدعاء المطلق كما سبق بيانه[1].

٤ ـ ما جاءت به السنة من آداب للذكر والدعاء، وتكون السنة مصدراً للذكر والدعاء من هذه الناحية حين يتقيد الذاكر والداعي بهذه الآداب في ذكره ودعائه فيما إذا أنشأ ذكراً من عند نفسه، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[2].

وفي هذا الحديث آداب منها طلب العون من الله في بدء الذكر، ثم سؤال الله أن تكون العبادة مؤداة على الوجه الحسن الذي يرضيه، ومن ذلك قوله ﷺ: «اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[3]. وفي هذا الحديث إشارة إلى ما ينبغي أن يعلمه الذاكر والداعي عن ربه سبحانه من أنه يسمع السر وأخفى، وأنه مع من ذكره بالعلم والإحاطة والنصرة والتأييد، فلا داعي للتكلف والمبالغة في رفع الأصوات، وأن الذكر والدعاء لا يناسبهما سوى الخشوع والوقار تعظيماً للمذكور وهيبة منه فهو أقرب ما يكون.

ومن ذلك ما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فذكر منهم ﷺ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[4].

وهذه ميزة ومنقبة عظيمة ومحمودة، وهي الخلوة بالله عن الناس والتي فيها الإخلاص لله والاستغناء به، وصاحبها أبعد عن الرياء ومنصرف إلى الله بمجموعه، حيث لا شواغل.

(١) انظر مبحث: ما ينشئه العبد من عند نفسه، في فصل الذكر الشرعي، ص٨٦ ـ وما بعدها.

(٢) الحديث سبق تخريجه في ص١٠١.

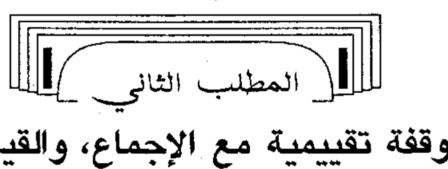
(٣) الحديث متفق عليه، وسبق تخريجه ص١٠٥.

(٤) أخرجه البخاري، وسبق تخريجه في ١٧٦.

ومن كان كذلك حري به أن تحصل له المنقبة الأخرى وهي أن تفيض عيناه بالدمع وهو في حال لا تره فيها إلا عين الله الذي لا خشية إلا منه، وليس أنسب لبكاء الخشية من الخلوة، وهاتان الخلَّتان من أهم آداب الذكر والدعاء، إلى غير ذلك مما حفلت به السنة مما يدخل في هذا الجانب.

وهذه الجوانب الأربعة ليست هي كل ما هنالك، وإنما هي للإشارة إلى بعض الوجوه التي تجعل من السنة مصدراً للذكر.

❊ ❊ ❊



وقفة تقييمية مع الإجماع، والقياس، من جهة المصدرية للذكر

❖ أ ـ الإجماع:

لقد عرفنا أن الإجماع مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية، وهو يكون كذلك عند حدوث واقعة ما في دنيا المسلمين، وفيما إذا استجد أمر في ساحتهم مما لم تتناوله النصوص صراحة ويخفى على العوام وعلى غير أهل الشأن كيفية النظر إليه من خلال مجموع الأدلة وقواعد الشريعة ومبادئها ومراميها، فيقع الاتفاق من مجتهدي ذلك الوقت على حكم لتلك الحادثة أو الواقعة المستجدة فذلك هو حكم الله فيها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]، وأولو الأمر هنا هم من يعتد باجتهادهم وإجماعهم من العلماء لأنهم أوعية هذا الدين حفظاً، ووعاته فهماً، مما يؤهلهم لمعرفة مقاصده ومراميه وخاصه وعامه ومنطوقه ومفهومه فضلاً عن ناسخه ومنسوخه.

فيبذلون ويستفرغون المجهود وغاية ما في الوسع، ويستنفذون أقصى ما يمكن من طاقة لتحصيل الحكم الشرعي للنازلة أو الواقعة[2].

لكن هل الإجماع الذي هو بهذه المثابة، من أنه استكشاف للحكم الشرعي واستنباط له، وطريق من طرق الوصول إليه، وهو في المحصلة لا يقوم استقلالاً دون دليل يعتمد عليه، فهل يكون دليلاً لإنشاء العبادات وأخذ الأحكام دون دليل.

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) انظر: الثبات والشمول ص٨٧.

○ **هل يكون الإجماع مصدراً للأذكار والأدعية؟**

قد يكون للإجماع جانب في ذلك، من جهة تعضيده وتقويته لثبوت الأذكار الواردة في الكتاب والسنة، إذ تلقتها الأمة بالقبول وجرى عليها عمل السلف والخلف، كأذكار الأذان والإقامة وما في داخل الصلاة وعقبها، وأذكار الصباح والمساء وغير ذلك.

أما من جهة كون الأذكار من باب التعبُّديات في تعيين ألفاظ دون أخرى، وأعداد دون غيرها، وربط هذا أو ذاك بحالٍ أو وقت، وتقديم هذا عن هذا في الاشتغال أو مزيد الثواب فهل فيما كان كذلك دخل للإجماع أن ينشئ فيه جديداً أو يضيف على متقدم منه مزيداً، فضلاً عن أن يكون الشارع أحوجنا إلى ذلك؟.

والمقرر أن أمور التعبد الجارية على هذا النحو، لا دخل للاجتهاد فيها، يقول الشاطبي[1]: (إن عامة التعبدات لا يعقل لها معنى على التفصيل كالوضوء والصلاة والصيام في زمان مخصوص دون غيره والحج إلخ... ثم نظرنا في أوقات الصلوات فلم نجد فيها مناسبة لإقامة الصلوات فيها لاستواء الأوقات في ذلك، وشرع للإعلام بها أذكار مخصوصة لا يزاد فيها ولا ينقص منها فإذا أقيمت ابتدئت إقامتها بأذكار أيضاً ثم شرعت ركعاتها مختلفة باختلاف الأوقات، وكل ركعة لها ركوع واحد وسجدتان دون العكس، وقل هكذا في نوافل الصلاة وترتيبها وأوقات النهي وصلوات العيدين والكسوف والاستسقاء وهيئاتها والصيام واختيار شهره وكونه بالنهار لا بالليل واعتبار الجماع كالأكل مع أن الجماع راجع إلى الإخراج والأكل إلى الضد، ثم الحج وفيه أكثر صور التعبد، وما كان من التكاليف من هذا القبيل فإن قصد الشارع أن يوقف عنده، ويعزل عنه النظر الاجتهادي جملة، وأن يوكل إلى واضعه، ويسلم له فيه)[2].

---

(١) الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، فقيه أصولي، ولغوي مفسر، له تصانيف منها: التعريف بأسرار التكليف، والموافقات في أصول الأحكام، وعنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، وغيرها، انظر: الأعلام ١/ ٧٥.

(٢) انظر: الاعتصام ١/ ١٣٠ ـ ١٣٢.

وهذا باب يشترك فيه الذكر ويدخل مع أنواع العبادات التي هي على هذه الشاكلة، والمقصود بالذكر هنا هو المقيد[1] بلفظ معين وعدد وهيئة ومناسبة وحال يقال فيها، وما كان من الذكر على هذا النحو لا يجوز أن يتجاسر الإنسان على إنشائه، وقد تبين ذلك في مفهوم الذكر الشرعي.

وإنشاء المسلمين من خلال الإجماع لهذا النوع من الأذكار ليس حاصلاً[2]، بل هو غير متصور، إذ التعيين لحروف وألفاظ دون غيرها وأعداد معينة مع ربطها بحال ومكان يتعين فيه أداؤها وتعليق الجزاء بذلك، فهذا أمر لا يتصور أن يجمع مجتهدون على إنشائه أو أن يتولى أمر إنشائه مجتهد ما، ثم تتلقاه الأمة عنه بالقبول كما تلقت المأثور عن الرسول ﷺ.

يضاف إلى هذا ويوضحه أن معرفة مقاصد الشريعة وموافقتها لا تكفي - إن كان الفعل والترك غير موافق، كإنشاء العبادات المستأنفة، فهذا ابتداع مذموم[3].

ولا يشفع له الندب العام والقصد الموافق، كإنشاء الأذكار الخاصة المقيدة بناءً على الترغيب العام المطلق في الذكر اشتغالاً وإكثاراً ومداومة، فإذا كانت معرفة مقاصد الشريعة وموافقتها هي التي عليها إلحاق الفرع بأصله ومتحد العلة بمماثله لاستنباط الحكم للفرع والمماثل، وهو صنيع المجتهدين مع فروع الأحكام ومستجدات الحوادث.

فهذا ليس كافياً ولا يستقيم في باب استئناف العبادات وإنشائها، بل لا بد مع موافقة الشريعة في مقصدها أن توافق في الفعل نفسه، فليس في هذا

---

(١) أما الذكر المطلق سواء كان بالثناء على الله أو الدعاء دون أن يتقيد فيه بلفظ أو عدد أو هيئة أو حال ومناسبة ودون التزام وتعهد، فهذا في حق الفرد المسلم لا حجر عليه ولا مشاحة فيه، اللهم إلا وضوح اللفظ وسلامة المعنى.

(٢) فلم يحصل في دنيا جماعة المسلمين أن أجمعوا على تلقي ذكر معين من غير النبي ﷺ.

(٣) انظر: الموافقات ١/ ٢٥٨.

الباب إلا الامتثال[1].

وعلى هذا فإن الإجماع ليس مصدراً للذكر من جهة الإنشاء والاستئناف إذ الإنشاء والاستئناف والتعيين في باب العبادات الخاصة هو من حق الشارع الحكيم أي هو الله وحده وفق مراده وحكمته سبحانه.

والمجتهد ليس منشئاً أو مشرعاً بل مستخرجاً للحكم الشرعي من دليله الشرعي ببذل الجهد، فوظيفته الكشف والإبانة[2].

وإذا تبين هذا من أن الإجماع والاجتهاد ليس مصدراً للذكر من هذا الباب، فيكون دور الإجماع وقيمته في تعضيد وتقوية المأثور، بتلقيه بالقبول والسير عليه دون عدول.

وهذا في الأذكار المقيدة، وأما الذكر المطلق فيجوز فيه الإنشاء بضوابطه، لكنه لا يرد هنا، حين الكلام عن الإجماع، إذ لو فرضنا إنشاء ذكر بالإجماع أو انعقاد الإجماع على ذكر منشأ مثلاً، فهو لم يعد مطلقاً بل أصبح معيناً مقيداً، للإجماع عليه بصفة معينة وهو ما انصب عليه الكلام بالمنع هنا، ومحصلة الكلام أن الإجماع لا يكون مصدراً للأذكار، فوق أنه غير متصور، والله أعلم.

❖ ب ـ وقفة تقييمية مع القياس:

القياس هو المصدر الرابع من مصادر الشريعة، من جهة كونه طريقة للوصول لمعرفة الأحكام فيما لم يتناوله النص، من خلال إلحاق الفرع بالأصل للشبه بينهما، ومن ثم تسويتها في الحكم، والقياس يقوم على معرفة المجتهد للعلة والشبه بين المقيس والمقيس عليه لتوحيد الحكم على ما أداه إليه ما أراه الله بعد بذل ما في الوسع.

فهل ما كان هذا شأنه يكون مصدراً للأذكار الخاصة المقيدة؟

والجواب: القياس لا يكون مصدراً للأذكار المقيدة لأمرين:

(١) انظر: المصدر نفسه ١/٢٥٣ ـ ٢٥٩. (٢) انظر: الثبات والشمول ص٨٩.

أولاً: ما قيل في الإجماع يقال فيه وينطبق عليه.

ثانياً: يضاف إلى ذلك أن إنشاء الذكر المقيد قياساً، لا بد له من وضوح ومعرفة علة القياس وسببه لجواز تعدية الحكم، وهذا أمر خارج الإمكان، إذ تعيين الشارع لعبادة بوصف ما، أو عدد ما، أو وقت، أمر قد لا يعرف له المكلف في الظاهر وجه تعليل وإن عرف وجهاً فلا يجزم بعدم وجود غيره، فكيف يتأتى له القياس؟.

وعليه فإن باب العبادات الخاصة المعينة ليست مما يجري عليه القياس[1].

لأنها ليست مما يمكن الوصول إلى معرفته بالمسالك المعهودة كالاجتهاد سبراً وقياساً، فهي مما لا يطلع عليه إلا بالوحي، ومعلوم من الشريعة في مواطن كثيرة أن ثم مصالح أخر غير ما يدركه المكلف، ولا يقدر على استنباطه ولا على التعدية في محل آخر، وإذا لم يعرف كون المحل الآخر وهو الفرع وجدت فيه تلك العلة، لم يكن إلى اعتبارها في القياس سبيل، فبقيت موقوفة على التعبد المحض لأنه لم يظهر للأصل المعلل بها شبيه إلا ما دخل تحت الإطلاق أو العموم، وإذ ذاك يكون أخذ الحكم بها متعبَّداً، ومعنى التعبد به، الوقوف عند ما حد الشارع فيه من غير زيادة ولا نقصان[2].

وإذا تبين هذا، من أن القياس الذي هو نوع من الاجتهاد كالإجماع، فلا يكون مصدراً لإنشاء الأذكار الخاصة المعينة التي هي من باب العبادات المحضة التي يتوقف على الوحي في تلقيها، بل إن بعض العلماء يذهب إلى عدم التبديل في ألفاظ الأذكار الواردة، فضلاً عن إنشائها ابتداءً، مستدلين على ذلك بإنكار النبي ﷺ على البراء بن عازب ﷺ في حديث: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت وجهي إليك. . . ـ إلى قوله ـ: آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. . .»، فقلت أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت، قال: «لا وبنبيك

(١) انظر: الاعتصام ١/٢٤٩ ـ ٢٥١. (٢) انظر: الموافقات ١/٢٣٨.

الذي أرسلت»[١]، قالوا: سبب الإنكار أن هذا ذكر ودعاء فينبغي فيه الاقتصار على الذكر الوارد بحروفه، وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف، ولعله أوحي إليه بتلك الكلمات، فتعين أداؤها بحروفها[٢].

وهذا بالنسبة للأذكار المقيدة وقد سبق الكلام في مفهوم الذكر الشرعي في حكم ما ينشئه العبد من عند نفسه، أنه لا يجوز له إنشاؤها كما هو الحال هنا.

أما بالنسبة للأذكار المطلقة، فقد يكون للقياس دور في الإتيان بأذكار يبتدئ بها المسلم من عند نفسه وقد تشبعت نفسه بالمأثورات في ذلك من الكتاب والسنة، ألفاظاً ومعاني ومضامين وضوابط، حتى أصبح هواه تبعاً لما جاء به المصطفى ﷺ، والقياس كما في تعريفه: هو تسوية ومكيال ومقياس[٣].

فإن أتى المسلم من الذكر والدعاء بما يستقيم حين يقاس بما ورد في الشرع ويقبل التسوية معه ولا يخرج على مكياله زيادة ونقصاناً، بأن يكون واضح اللفظ جميل العبارة جليل المعنى، واقفاً في حدود الشارع في مضمونه، باقياً في دائرة الذكر المطلق غير مقيد بشيء فهذا جائز، وإن كان في الاشتغال به عن المأثور اشتغال بمفضول عن فاضل وفي كلٍّ خير.

وعليه فيكون القياس من هذه الحيثية مصدراً للذكر والدعاء المطلق، كما ذكرنا في المطلبين السابقين، من أن القرآن والسنة يكونان مصدرين من جهة ما جاء فيهما من مادة ثرية فيما يتعلق بالثناء على الله وتسبيحه وتحميده وتوحيده، ودعائه مطلقاً، مما يجعل المسلم وعاءً لهذا السلسبيل العذب، فإن فاض أو نضح لا يقول إلا ما هو غرف من ذلك أو رشح منه ولا يخالفه بحال، لأن نضح الإناء يكون بما فيه، ورائحة الريح إنما تكون مما تمر به.

(١) الحديث متفق عليه، سبق تخريجه، انظر ص٧٦.

(٢) انظر: فتح الباري ١١/١١٦، والفتوحات الربانية ٣/ ١٤٤.

(٣) انظر: إرشاد الفحول للشوكاني ص٣٣٧، تحقيق محمد سعيد البدري، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ.

صاحب أخا ثقة تحظَ بصُحبته   فالطبع مكتسِبٌ من كل مصحوب

كـالـريـح آخـذة مـمـا تـمـرُّ بـه   نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

والحال المقصود أشبه ما يكون بحال النحلة، التي تنطلق من وحي، وتسير على هدى واختيارها لا يجاوز الأحسن، فكان من أمرها أن أخرجت من أعجازها ما يستقبله البشر بأفواههم، وبمثل هذه الصفة، ومن هذه الناحية فقط يكون القياس مصدراً للذكر والدعاء المطلق، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الباب الثاني

الذكر البدعي وآثاره

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الذكر البدعي.

الفصل الثاني: نشأة الذكر البدعي وتطوره.

الفصل الثالث: نماذج من الذكر البدعي مع النقد.

الفصل الرابع: آثار الذكر البدعي.

الفصل الخامس: مصادر الذكر البدعي دراسة نقدية.

الفصل الأول

مفهوم الذكر البدعي

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: كيف يكون الذكر بدعياً.

المبحث الثاني: مفهوم الذكر عند المبتدعة.

المبحث الأول

كيف يكون الذكر بدعياً

المطلب الأول

❖ الذكر عبادة:

تبين لنا فيما مضى من البحث أن الذكر عبادة، بل هو أفضل العبادات، وأن العبادات إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]، كما سبق الكلام عليه مراراً.

وبما أن مصطلح العبادة يطلق على ما وضع بذاته للتعبد والتقرب به إلى الله[2].

فإن الذكر والصلاة والدعاء تأتي في مقدمة أمور التعبد، والذكر ليس عبادة أو أفضل عبادة فحسب، بل هو كل العبادة، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾[3].

ففي هذه الآية وصف الله سبحانه الدعاء بالعبادة، وهذا المعنى هو ذاته الذي نطق به المصطفى في قوله: «إن الدعاء هو العبادة»[4]، وإذا كان الدعاء هو العبادة كلها فكيف بالذكر والدعاء جزء منه، ذلك لأن الذكر ثناء ودعاء، والثناء أعلى شأناً من الدعاء، كما جاء في الحديث القدسي: «من شغله القرآن

(١) سورة طه: الآية ١٤.

(٢) انظر: مجلة التوعية الإسلامية، عدد ٢٠٩، ص٣٢، ٣٣، البدعة حقيقتها ومعناها، د. صالح السدلان.

(٣) سورة غافر: الآية ٦٠.

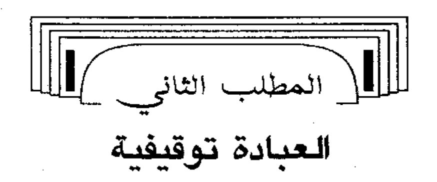
(٤) الحديث، سبق تخريجه في ص٧٧.

وذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[1].

ومكانة الذكر هذه هي التي عنتها الأدلة التي فضلت الذكر على غيره من أعمال الطاعات، ومن هنا فإن مكانة الذكر في العبادة هي فوق البيان.

❊ ❊ ❊

(١) من حديث أبي سعيد الخدري، سبق تخريجه في ص٨٥



العبادة توقيفية

العبادة بماذا تكون؟ وكيف تكون؟ هذه أمور يحتاج الناس في بيانها إلى الوحي، وهي متوقفة عليه.

ذلك لأن العبادات مبناها على التوقيف والاتباع لا على الهوى والابتداع[١].

وهذا الأمر مقرر بالنظر والأثر:

فالنظر: لأن الشريعة جاءت لتوجيه البشر إلى السبيل الأمثل لتحقيق المصالح الدنيوية والأخروية، وشرعت العبادات على ما يحقق ذلك، هذا شأن الشريعة في مصالح الدنيا والآخرة، وربما كان توجيهها في العبادات على وجه إلزام المعبود للعابد، وأمر الرب للمربوب، ثم أن المصالح قد علم بالتجارب والخبرة السارية في العالم من أول الدنيا وإلى يوم الناس عدم استقلال العقول فيها لا استجلاباً ولا حفظاً، وهي عن الاستقلال في مصالح الآخرة أعجز، وهي أكثر عجزاً وبعداً من جهة وضع أسباب مصالح الآخرة التي هي العبادات[٢].

وأما من ناحية كون العبادة أمر للعابد من المعبود، وإلزام من الرب للمربوب، فالعقل مع قصوره عنها فهو لا دخل له فيها، إذ الأمر هنا للخالق كما قال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٣]، ولذلك يكون التسليم حين تخفى حكمة تشريع أو عبادة ما عن الفهم، فلله سبحانه أن يأمر خلقه بما يشاء،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٢٢/٥١١، وما بعدها.

(٢) انظر: الاعتصام للشاطبي ١/٤٦ ـ ٤٨. (٣) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

والتعبد هنا هو التسليم، والعقل إن لم يدرك فالأمر هنا ليس متوقفاً عليه.

وأما توقيفية العبادة من جهة أدلة الشرع فهي بما يلي:

١ ـ القرآن الكريم: وما جاء فيه من ذلك كثير مما يتضمن وقف الأمر على كتاب الله، وتوجيه نبيه، وعلى الأمر باتباع النبي ﷺ وأمره، والتزام ذلك، وطرح ما سواه، وإرجاع كل الأمور في كل الأحوال إلى الله ورسوله، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[١]، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[٢]، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات التي توقف الأمر على ما جاء به محمد ﷺ وعلى اتباعه وطاعته والتحذير من معصيته ومخالفته.

٢ ـ أما الأدلة من الأحاديث فلا تكاد تحصر، ومنها:

قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٥]، أي مما يتقرب به إلى الله، إذ لا بد أن يكون خاضعاً لأمر الشارع، ومنه قوله ﷺ في الصحيح المتفق عليه: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٦]، إلى غير ذلك مما جاء عنه ﷺ. وكل الأحاديث التي تأمر بالاتباع وتنهى عن الابتداع والإحداث في الدين، فهي إنما تعني هذا التوقيف الذي نحن بصدده.

ومن هنا كان للفقهاء رحمهم الله موقفهم من رسم الحد الذي يجب أن تقف عنده العقول حين تأتي أمور التعبد، فاستسلام العقول بالإذعان والقبول واجب حتى لو لم تدرك حكمة التشريع في عبادة ما، فضلاً عن أن يكون للعقول دخل في أصل التشريع ووضعه، وهذا الموضوع يتعرض له الفقهاء عند كلامهم في بعض القضايا الفقهية كالتسبيع مما ولغ فيه الكلب، والتفريق بين

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٢.

(٣) سورة النور: الآية ٦٣.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٥) رواه مسلم، تقدم تخريجه ٣٧.

(٦) متفق عليه، سبق تخريجه في ص٣٧.

بول الجارية والغلام بالغسل من بولها والنضح من بوله، وكمسألة مسح ظاهر الخف دون أسفله، فنجدهم يقولون في مسألة التسبيع مثلاً: (والحاصل: أن الحق ما قضى به رسول الله ﷺ من التسبيع والترتيب وليس من شرط التعبد الاطلاع على علل الأحكام التي تعبَّدنا الله بها... وقد صح لنا الأمر منه بالغسل على الصفة المذكورة)[1].

❖ موقف من ابن مسعود، وأثر من أبي بن كعب:

وأسوق هنا موقفاً من الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من حادثة ذات صلة بما نحن فيه من أن العبادات توقيفية لا سيما الذكر، وذلك: أن رجلاً أخبر ابن مسعود أن قوماً يجلسون في المسجد بعد المغرب، فيهم رجل يقول: كبِّروا الله كذا، وسبِّحوا الله كذا وكذا، واحمدوه كذا وكذا، قال عبد الله: فإذا رأيتهم فعلوا ذلك فأتني فأخبرني بمجلسهم، فلما جلسوا أتاه الرجل فأخبره، فجاء عبد الله بن مسعود فقال: ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلُ وآنيته لم تُكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد ﷺ، أو مفتتحو باب ضلالة[2].

فهذا الأثر وهذا النكير من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لهذه الظاهرة، فيه القول الفصل في أن من لا يمكنه القول بأنه على هدي هو خير مما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه، فعليه أن لا يلتفت من الطريق الذي كانوا عليه في العبادة يَمنة أو يَسرة، إذ ليس وراء ذلك إلا الضلال البعيد.

وفي أثر لأُبي بن كعب رضي الله عنه يقول فيه: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبدٍ على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله،

(١) الروضة الندية شرح الدرر البهية ١/٣٦، صدِّيق حسن الحسني القنوجي، تخريج وتحشية أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى ١٤١٠ ـ ١٩٩٠، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه في المقدمة، باب كراهية أخذ الرأي ١/٧٩، وانظر: تلبيس إبليس ص٢٥.

فتمسه النار[1].

وعلى هذا فالعبرة بالعبادة أن تكون على سبيل الشارع، وسنة المشرع، وليس التعويل على هيئة عبادة، أو حال عابد، وهذا هو فهم من تخرج في مدرسة النبوة، لا يطلب الهدى من غير طريقه ﷺ.

ورضي الله عن أُبي، فكأنه يقول: نعم للعبادة والذكر والبكاء من خشية الله فهذا سبب لعدم مس النار، لكن إن كان ذلك على هدي محمد ﷺ وهذا منطوق كلامه.

وأما المفهوم: فهو رد على المدعين والملبسين الذين يرون أن الذكر لا بدعة فيه بأي شيء أو أي هيئة وكيفية وحالة كان، لا سيما وقد أدى إلى رقة القلب وبكاء العين، فكأنه يقول لهؤلاء كلا ثم كلا حتى تلتفتوا إلى السبيل والسنة.

❃ ❃ ❃

(١) تلبيس إبليس ص١٦.

المطلب الثالث

مراتب البدعة وأحكامها

لقد سبق في تعريف البدعة الإشارة إلى الخلاف في شمول الذم لكل البدعة، أم أن منها ما يستثنى من الذم، وتبين أن ما استثناه أحد الفريقين من الذم هو ما لا يدخله الفريق الثاني في البدعة أصلاً مما يجعل الخلاف في التسمية واللفظ فقط، وإلا فليست هناك بدعة في العبادة تكون بمنأى عن الذم، والمقام هنا لبيان البدعة التي يقع عليها الذم ولا يشملها الخلاف، وهي ليست على مرتبة واحدة ولا على حكم واحد بل تنقسم إلى: بدعة (حقيقية) (وإضافية).

فالبدعة الحقيقية: هي التي لم يدل عليها دليل شرعي لا من كتاب ولا من سنة ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا في الجملة ولا في التفصيل.

وأما البدعة الإضافية: فهي التي لها شائبتان: إحداهما لها من الأدلة متعلق فلا تكون من تلك الجهة بدعة، والأخرى ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية، فلما كان العمل الذي له شائبتان، ولم يتخلص لأحد الطرفين إذ هو سنة من جهة وبدعة من جهة وضعنا له هذه التسمية (البدعة الإضافية).

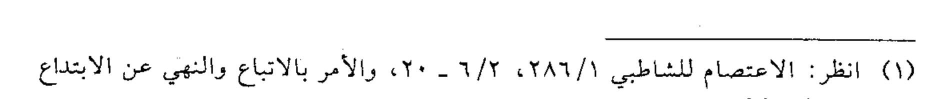
وكل من البدعة الحقيقية والإضافية داخلتان في القبح وينالهما الذم، الأولى من كل الوجوه، والثانية من الوجه المضاف إليها دون الاستناد على أصل الشرع.

والمذموم من البدع في الشرع لا ينفك أن يكون مكروهاً أو محرماً، ومدار البدعتين على هذين الحكمين، فالبدعة المحرمة هي التي تؤدي إلى

عقائد فاسدة وإضلال صاحبها ويكون العمل بها مؤدياً لهدم الدين، وأما المكروهة فهي التي ضمَّت إلى المسنون ما ليس بمسنون، وزادت في المندوب ما لم يكن منه[١].

على أن البدعة: قد تكون قولية أو عملية، والحكم عليها يكون حسب مؤداها. وأخطر البدع هي الاعتقادية، وغالب إطلاق الذم في الشرع منصب عليها[٢].

❃ ❃ ❃



(١) انظر: الاعتصام للشاطبي ١/٢٨٦، ٢/٦ ـ ٢٠، والأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص٩٢ ـ ٩٤.

(٢) انظر: مجلة التوعية الإسلامية، ص٣٣، البدعة حقيقتها ومعناها، د/ صالح السدلان العدد ٢٠٩، ١٤١٢هـ.

المطلب الرابع

الأذكار المبتدعة

على ضوء تقسيم البدعة إلى حقيقية وإضافية، وأنها إما مكروهة أو محرمة، نذكر هنا الأذكار المبتدعة، ودخولها في قسمي البدعة، ومن ثم الحكم عليها بالكراهية أو التحريم تبعاً لذلك وهي:

❖ أولاً: الأذكار المندرجة تحت البدعة الإضافية وهي:

١ - كل ذكر ورد في الشرع مطلقاً، ويقوم الإنسان بتقييده من عند نفسه بزمان أو مكان، أو هيئة أو عدد، لم يكن له ذلك في الشرع[1].

٢ - كل ذكر جاء به الشارع بهيئة معينة، أو ألفاظ وأعداد فهم أن الشارع قصدها بذلك، فغير المرء هيئتها، أو زاد أو نقص في أعدادها وألفاظها[2].

٣ - ذكر أنشأه العبد من عند نفسه صحيح المعنى، واضح اللفظ، لكنه قيده بشيء من تلك القيود، أو رتب له ثواباً معيناً[3].

والقاسم المشترك بين أنواع هذه الأذكار، المندرجة تحت البدعة الإضافية، هو في كونها متضمنة لجزءٍ مما يدخل في حد البدعة، وهو مضاهاة الشرعية، فهي (تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك بل هي مضادة لها من أوجه متعددة، منها وضع الحدود، ومنها التزام الكيفيات، والهيئات المعينة، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد ومنها التزام

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي ١/٣٩، واقتضاء الصراط المستقيم ص٣٠٤ - ٣٠٦، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢/٥١١.

(٢) انظر: فتح الباري ١٢/٣٩٤، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢٢/٢٣٨ - ٢٤١.

(٣) انظر: الاعتصام ١/٣٩، واقتضاء الصراط المستقيم ص٣٠٤ - ٣٠٦.

العبادات المعينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة)[1].

فالتعيين والإلزام والحدود، وتحديد الكيفية والهيئة، والعدد والأجر، هي من الحقوق الخاصة بالشارع، والناس وعقولهم عنها بمعزل، فالأذكار التي أتى بها الشارع مطلقة ليس للمرء أن يضع لها من عنده قيوداً، بل إن المسلم له أن ينشئ بنفسه من الأذكار المطلقة صحيحة المعنى ولكن أيضاً دون أن يضع لها شيئاً مما ذكر.

وهذا المنع إنما لصيانة حق من حقوق الشارع لا يملكه غيره، (إذ ليس لأحد أن يسن للناس نوعاً من الأذكار والأدعية غير المسنونة ويجعلها عبادة راتبه يواظب الناس عليها كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دين لم يأذن به الله، بخلاف ما يدعو به المرء أحياناً من غير أن يجعله للناس فهذا إذا لم يعلم أنه يتضمن معنًى محرماً لم يجزم بتحريمه)[2].

قال القاضي عياض[3] رحمه الله: أذن الله في دعائه وعلَّم الدعاء في كتابه لخليقته، وعلم النبي ﷺ الدعاء لأمته، واجتمعت فيه ثلاثة أشياء: العلم بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة للأمة، فلا ينبغي لأحد أن يعدل عن دعائه. وقد احتال الشيطان للناس من هذا المقام، فقيض لهم قوم سوء يخترعون لهم أدعية يشتغلون بها عن الاقتداء بالنبي ﷺ[4]، والتكليف بالوظائف والرواتب مع التعيين أمر لا يكون لغير الشارع، وهو كذلك حتى على لسان أصحاب البضاعة، أعني مبتدعي الأذكار، فيما لو طلعت عليهم الشمس قبل أن يتواروا عن الآخرين، كما ذكر في كتاب: أنوار التحقيق في

(١) الاعتصام ١/٣٩. (٢) مجموع الفتاوى ٢٢/٥١١.

(٣) القاضي عياض: هو عياض بن موسى بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، قاضيها، أحد المشايخ المالكية، وصاحب المصنفات الكثيرة المفيدة الشهيرة، منها: شرح مسلم، والشفا، ومشارق الأنوار، ولد سنة ٤٧٦هـ، وتوفي في سنة ٥٤٤هـ. انظر: البداية والنهاية ١٦/٥٢٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٢١٣ - ٢١٧.

(٤) الفتوحات الربانية ١/١٧.

صحة أعمال الطريق قال: وقال رجل لسيدي عبد السلام[1]: يا سيدي وظف علي وظائف وأوراداً، فغضب وقال: أرسول أنا فأوجب الواجبات[2].

وهذا الموقف إنما كان منه لأن الرجل ليس ممن يرغب في تلقينه الأوراد.

❖ ثانياً: الأذكار المندرجة تحت البدعة الحقيقية المحرمة وهي قسمين:

○ أ ـ أذكار تتضمن الإشراك بالله والكفر:

وذلك كالأذكار المنشأة التي تتضمن صرف حقوق الله من التذلل والخضوع والاستغاثة والدعاء إلى غيره، أو تتضمن الكفر بأي وجه كان، أو تعطي ما لله من الصفات والأفعال، كالقدرة الكاملة، والإرادة النافذة، والعلم المطلق بالغيب لغيره، أو تتضمن قدحاً لحق من حقوقه سبحانه فيما ينبغي له من الكمال والتنزيه، إلى غير ذلك، مما له تعلق بما يليق بالله وما لا يليق به وما يكون له ولا يكون لغيره.

وهذا أمر معلوم مقرر، يقول ابن أبي العز[3]: واتفقوا كلهم على أن كل رقية[4] وتعزيم[5]، أو قسم فيه شرك بالله تعالى فإنه لا يجوز التكلم به، وإن

(١) عبد السلام: هو عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر منصور بن علي، أو إبراهيم الإدريسي الحسني، ناسك مغربي اشتهر بصلاة تدعى «الصلاة المشيشية» ولد في جبل العلم بثغر تطوان، وقتل ظلماً في أرض مولده، وكان وراء قتله ابن الطواجين ساحر متنبئ، وكان مقتله في سنة ٦٢٢هـ. انظر: الأعلام ٤/٩.

(٢) نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، حامد إبراهيم محمد صقر الشاذلي، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ، مطبعة دار التأليف بالمالية المصرية.

(٣) ابن أبي العز: هو علي بن علي بن أبي العز الحنفي ولد سنة ٧٣١، فقيه ولي منصب قاضي القضاة بالديار المصرية، له تصانيف منها: التنبيه على مشكلات الهداية، وشرح العقيدة الطحاوية، وغيرها، توفي سنة ٧٩٢، انظر: الأعلام ٤/٣١٣.

(٤) الرقية والرقى والرقيُ والاسترقاء: هي العوذة التي يرقى بها الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك، انظر: النهاية ٢/٢٥٤.

(٥) العزائم: سبق التعريف بها في ص٩٤.

أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف[1].

نعم قلنا: للمرء أن ينشئ من عنده ذكراً مطلقاً، ولكن بشرط: أن يكون ما ينشئه موافقاً لقوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[4] وغير ذلك من الآيات، أما ما يناقض ذلك فهو حرام بإجماع الأمة ومردود على فاعله لأنه إحداث في الدين وعمل على غير أمره، ولا ريب في أن الذكر المتضمن لتحريف أسماء الله تعالى، والذي فيه إخراجها عن حقيقتها الواردة عن رسول الله ﷺ هو من أقبح البدع المحرمة وتسميته تعالى بما لم يرد به نص صحيح هو من الإلحاد المحرم بالإجماع[5].

○ ب ـ أذكار حاصلها الضرر على الدين:

وتكون هذه الأذكار مما ينشئه العبد من عنده دون أن يراعي ضوابط الشرع، أو تكون الأذكار مما جاء به الشرع، ولكن يجعلها الإنسان بتصرفه بحيث يترتب منها الضرر على الدين، ويحكم عليها لذلك بأنها من الأذكار البدعية المحرمة، وأبرز ما في هذا النوع مما فيه الضرر ما يلي:

١ ـ ما يكون فيه الضرر على الدين واضحاً، إذ فيه هدم له أو لأصل من أصوله، وذلك كالأذكار التي أنشأها من أنشأها ثم صرح بأنها أفضل من القرآن أو السنة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك وأكثرها وقاحة الصلاة المسماة بصلاة الفاتح[6] التي تعد شعاراً للتجانية، ويصرحون بأن القرآن لا يعدلها في الفضل

(١) شرح الطحاوية ٥٠٥.
(٢) سورة محمد: الآية ١٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٤) سورة الشورى: الآية ١١.
(٥) انظر: الإبداع في مضار الابتداع ص٣١٢، ٣١٣، علي محفوظ، الطبعة السابعة، دار النصر للطباعة الإسلامية.
(٦) نص صلاة الفاتح هو: اللهم صلِّي وسلِّم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله =

بل إنها تعدل بالمرة الواحدة منها أضعاف المرات من القرآن، وبئس ما قالوا، يقول شيخهم: (ثم أمرني بالرجوع إلى صلاة الفاتح لما أغلق فلما أمرني بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها، فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء كبير أو صغير ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار[1].

هكذا قال، جعل الله له الجزاء بقدر هذه الأضعاف التي فضل بها كلامه على كلام الله ورسوله، فهذا النوع من الأذكار المنشأة المصرح فيه بالتفضيل على كلام الله ورسوله هو محرم دون النظر إلى مضمونه، فيكفيه في القبح والجرم هذا الضرر على الدين، والذي يترتب حين يقبل مسلم ما، بأفضليته المضاعفة على أجل وأكرم ما كان لديه من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وصلاة الفاتح هذه لم ترد عن النبي ﷺ في رواية ضعيفة فضلاً عن رواية صحيحة، بل هم مقرون أنها نزلت عليهم في صحيفة من نور، ثم جاء هذا التجاني المفتري ليزعم أن النبي ﷺ أملى عليه بهذا الفضل لها، وأن الذاكر لا بد من أن يعتقد أنها من كلام الله، فانظر كيف لعاقل أن ينسب لله تعالى كلاماً لم ينزل به وحي على نبي معصوم ويعتقد أنه من كلامه تعالى وكيف يصح له أن يفضل صلاة مخترعة من مخلوق على كلام الله تعالى، فضلاً عن أن يجعلها تعدل ستة آلاف منه، فأي استخفاف وتحقير لكلام الله تعالى من مثل هذا، أما كفاه نسبتها إلى الله تعالى، وجعلها من كلام الله

= وأصحابه حق قدره ومقداره العظيم. انظر كتاب: التجانية ص١١٦، نقلاً عن أحزاب وأوراد التجاني ص١٢، تحقيق محمد الحافظ، الطبعة الخامسة. وانظر كتاب: أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٣٧، جمع يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الفكر للنشر.

(١) جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التجاني ١/١٠٣، علي حرازم بن العربي برادة المغربي الفاسي الطبعة الثالثة ١٩٧٣، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

حتى تجاوز إلى هذه البشاعة[1].

فهذا النوع من أخطر أنواع الابتداع لما يترتب عليه من هذا الضرر المباشر على الدين وهدمه لمرتكزاته ومسلماته، وأيّ ضررٍ أبلغ وأكبر على دين الإسلام من استهداف القرآن والسنة بهذه الصورة؟ بل أيّ مَعْلَم للدين سيبقى وأيّ مضمون لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2] فيما لو خرج على المسلمين في كل فترة مدَّعٍ يقول أن النبي ﷺ أخبره بكذا وكذا يقظة أو مناماً ليضيف إلى الدين أو ينقص منه ومن قدره ما أراد.

وتفضيل التجاني لصلاة (الفاتح لما أغلق) على القرآن، استهزاء واستهتار بكتاب الله، لأن التفضيل إن لم يكن من باب الاستهزاء والتهكم فلا بد فيه من مشاركة المفضول للفاضل في أصل الفضل، فلا يقال أعلم من الحمار إلا على جهة التهكم، بل لو أنه قال: إن القرآن أفضل من صلاة الفاتح لكان في ذلك تنقيصاً له، فكيف وقد فضل صلاة الفاتح على القرآن[3].

إنه بقوله هذا يصد عن القرآن ويصرف الناس عن قراءته وتدبر معانيه ويدعو إلى هجره، فإذا كانت هذه الصلاة التي لا تتجاوز الأسطر الثلاثة تعدل ستة آلاف ختمة من القرآن، فإن من يعتقد ذلك سينصرف عن قراءة القرآن إلى هذه الصلاة التي لا تتطلب وقتاً ولا جهداً، وفي الصرف عن القرآن صرف عن طريق الإسلام الصحيح حتى يصبح الناس أسرى لمثل هذه الخرافات[4].

والضرر الحاصل على الدين من مثل هذا التجاسر، هو على لسان حال هؤلاء أن الدين ليس بكامل وليس بمحفوظ من قابلية الزيادة، بل وفي المبتدَع ما هو أفضل مما جاء به الشارع.

---

(١) انظر: مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني ص١٦١، ١٦٢، الشيخ محمد الخضر عبد الله الشنقيطي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ص١٦٢ وما بعدها.

(٤) انظر: التجانية ص١١٩.

٢ ـ أذكار يترتب منها الضرر على الدين بالنتيجة وبما تفضي إليه، وهي:

أولاً: الأذكار المنشأة أو المأخوذة من الشارع، ولكن يرتب عليها العبد من عنده ثواباً وجزاءً فيه من المبالغة والتهويل، والإغراء، ما لم يجعل الشارع، ثواباً مثله لذكر معين.

ومن أمثلة ذلك دعائي (السيفي، ويا من أظهر الجميل) فثواب السيفي: في المرة الواحدة منه ثواب صوم رمضان وقيام ليلة القدر وعبادة سنة، قال: وأعظم من السيفي دعاء يا من أظهر الجميل... إلخ قال في ثوابه: لو اجتمعت ملائكة سبع سموات على أن يصفوه ما وصفوه إلى يوم القيامة، وكل واحد منهم يصف ما لا يصفه الآخر فلا يقدرون عليه، ومن جملة ذلك أن الله يقول: فيه أعطيه من الثواب بعدد ما خلقت في سبع سماوات وفي الجنة والنار وفي العرش والكرسي، وعدد القطر والمطر والبحار وعدد الحصى والرمل، ومن جملتها أيضاً أن الله تعالى يعطيه ثواب جميع الخلائق ومن جملتها أن الله تعالى يعطيه ثواب سبعين نبياً كلهم بلغوا الرسالة، إلى غير ذلك...)[١].

ويكون الضرر على الدين من مثل هذا التضخيم والتهويل في كلمات معينة، في إغراء العامة به، وتزهيدهم في المشروع من الأذكار وصرفهم عنه، كما هو الحاصل في واقع كثير من الأمة، فها نحن نرى عامة المسلمين إلا من رحم الله (قد أولعوا بأدعية وأذكار منكرة مخترعة، ما أنزل الله بها من سلطان صنفها لهم بعض المتكلفين، من أهل الجهل والجرأة على الله عز وجل أكثرها زور وافتراء على الله)[٢].

فإذا نظرنا مثلاً إلى أعلى وأفضل ذكر تقرر معنا في الأذكار الشرعية وهو: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نجد ثوابه كما جاء في الحديث لمن قاله في اليوم (مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم

(١) جواهر المعاني ١/١٠٣.
(٢) شأن الدعاء ص١٦.

يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه)[١]. والتهليل له الأفضلية، لمضمونه إذ أنه كلمة التوحيد والإخلاص، وهو مفتاح الإسلام والجنة، وهو شعار الدين والملة، بالإضافة إلى أن شواهد الأدلة رجحت أفضليته على الأذكار[٢]، ومع هذه الأفضلية والمكانة فإن الثواب الذي ذكر له، لا يصل إلى شيء من هذا الذي جعل ثواباً عند هؤلاء لدعاء (يا من أظهر الجميل)، ومن هنا يكون الضرر على الدين، فها نحن نرى تهافت العامة إلى هؤلاء المروّجين، إلا من رحم الله، وقد تعلقت منهم الأبصار والقلوب ببريق هذا السراب، فيمضون خلفهم ينشدون ما عندهم من الزبد وربما تكون أقدامهم قد زلقت وتجاوزت، وخطاهم قد امتدت إلى خارج أسوار الشرع وهم ذاهلون إذ أعماهم هذا البريق.

ثانياً: ومما يترتب عليه الضرر بالدين أيضاً بمؤداه وحاصله، ما أحدثوه من السماع ومجالسه ومحافله التي تشتمل على الجلبة والغناء والرقص مع الإيقاع، وربما صاحب ذلك الاختلاط مع اعتبار ذلك ديناً وعبادة وذكراً لله وقربة إليه.

والضرر الحاصل على الدين من ذلك هو في وسم الدين الإسلامي بأنه دين لعب ولهو وعبث، مع أن الإسلام بكله ولا سيما عباداته بعيد عن أيّ شيء من هذه السمة فضلاً عن الذكر والذاكرين الذين يجللهم الخشوع وتحيطهم السكينة وتحفهم الملائكة.

ثم إن السماع لم ترد به الشريعة لا في كتاب ولا سنة ولم يفعل ذلك معتبر من أتباع الأنبياء، وإنما يفعله الذين التبست عليهم الحقائق[٣].

يقول السيوطي رحمه الله عنه: (ومن ذلك ما أحدث من السماع والرقص

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، برقم ٦٤٠٣، البخاري مع الفتح ١١/٢٠٤.
(٢) انظر: مبحث التفاضل بين التهليل والتسبيح، في فصل الذكر الشرعي، ص٧٩.
(٣) انظر: الإبداع في مضار الابتداع ص٣٢٣، ٣٢٤.

والوجد[١] وفاعل ذلك ساقط المروءة مردود الشهادة عاص لله ولرسوله، وهو محظور[٢]، قال ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣]. نعم فالغناء واللهو والرقص مع ما فيه من الطيش والرعونة التي تتنافى مع السكينة والخشوع الملازمين لأهل الذكر، فإن أوضاعه على عكس الذكر تأخذ بفاعلها إلى سبيل مضل عن الله، يقول ابن الجوزي رحمه الله: اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين:
أحدهما: أنه يلهي القلب عن التفكير في عظمة الله سبحانه والقيام بعبادته.

والثاني: أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية[٤]، ويضاف إلى هذا النوع ما أحدثوه مما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد مع اعتقادهم أنه من أكبر العبادات، وقد احتوى على بدع ومحرمات جمة، إذ فيه استعمال المغاني وآلات الطرب... إلى غير ذلك من الغناء والرقص والاختلاط والجلبة وفتن المردان والنسوان[٥].

وقد أنكر العلماء الحادبون الناصحون هذا الخلط بين اللهو والغناء، والذكر والعبادة لأنه أمر منكر عقلاً وشرعاً، وقرروا منعه وعدم جوازه، يقول الشاطبي رحمه الله بعد ذكره لبعض الزيادات في الذكر: يا ليتهم وقفوا عند هذا الحد المذموم، ولكنهم زادوا على ذلك الرقص والزمر[٦] والدوران والضرب على الصدور، وبعضهم يضرب على رأسه وما أشبه ذلك، من العمل المضحك للحمقى لكونه من أعمال الصبيان والمجانين، والمبكي للعقلاء رحمة لهم، إذ لم يتخذ هذا طريقاً إلى الله وتشبهاً بالصالحين[٧].

---

(١) الوجد: هو ما يصادف القلب من الأحوال المغيبة له عن شهوده، انظر ملحق التعريفات للجرجاني ص٢٣٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٣٨.
(٢) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص٩٩.
(٣) سورة لقمان: الآية ٦. (٤) انظر: تلبيس إبليس ص٢٤٧.
(٥) انظر: المدخل لابن الحاج ٢/٣، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت.
(٦) الزمر: من زمر ويزمر زمراً: أي غنى في القصب، ومزامير داود ما كان يتغنى به من الزبور، وضروب الدعاء، جمع مزمار به، انظر: القاموس المحيط ٢/ ٤٠.
(٧) الاعتصام للشاطبي ١/٢٢٣ ـ ٢٢٥.

ثم إنه يناقش أمثال هؤلاء فيقول: يقال لمن فعل هذا اعلم أن أصدق الناس موعظة وأنصح الناس لأمته، وأرق الناس قلباً، وخير الناس من جاء بعده ـ أي بعد النبي ﷺ لا يشك في ذلك عاقل، ما صرخوا عند موعظة ولا زعقوا، ولا رقصوا ولا زفنوا[١]، ولو كان هذا صحيحاً لكانوا أحق به أن يفعلوه بين يدي النبي ﷺ ولكنه بدعة وباطل ومنكر[٢].

وإذا كان النبي ﷺ كره رفع الصوت عند قراءة القرآن وعند الجنائز والزحف والتذكير، فما الظن عند الغناء الذي يسمونه وجداً ومحبة، فإنه مكروه لا أصل له في الدين[٣].

والضرر الحاصل على الدين من هذا الباب هو في وسمه بأنه دين هزل ولهو ولعب، وأن لأهله مواسم ومناسبات، وموالد ينتظرونها ليتذكروا دينهم ونبيهم ويعبدوا ربهم على هذه الطريقة، هذا مع أن اللهو واللعب لم يذكرا في كتاب الله إلا مذمومين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[٥]، فليس للهو واللعب إلا الذم، وهما مذمومان حتى في العبث المطلق، فكيف بهما أن يخلطا بالذكر والعبادة، فهذا دون شك اتخاذ للدين وكأنه لهو ولعب، والدين والعبادة لا يكونان في هذا الوادي الذي لا ينفك عنه الذم بكل حال، فما أبلغ ضرر هؤلاء وصنيعهم على الدين كما قال القائل:

يا عصبة ما ضر أمة أحمد ... وسعى في إفسادها إلا هي
طار ومزمار ونغمة شادن[٦] ... أرأيت قط عبادة بملاهي[٧]

فهذا الصنيع مع ما فيه من الابتداع والتزيد على الدين، والميل بأهله عن العبادة السوية، ففيه الضر على الدين بوسمه بسمة هو عنها بمعزل. والله أعلم.

---

(١) الزفن: زفن يزفن أي رقص، انظر: القاموس المحيط ٤/ ٢٣١.
(٢) الاعتصام ١/ ٢٢٦. (٣) انظر: حاشية ابن عابدين ٥/ ٢٥٥.
(٤) سورة محمد: الآية ٣٦. (٥) سورة الأعراف: الآية ٥١.
(٦) شادن: شدن الظبي شدوناً: قوي واستغنى عن أمه، انظر: القاموس ٤/ ٢٣٩.
(٧) انظر: المدخل، لابن الحاج ٢/ ٩.

المبحث الثاني

مفهوم الذكر عند المبتدعة

قد سبق في مفهوم الذكر الشرعي، بيان مكانة الذكر الجليلة وسعة معناه، وتبيّن مدى هذه السعة وشمولها لأعمال القلب واللسان والجوارح وخطرات النفس، وأنه ليس في حياة المسلم شيء لا يدخله الذكر، وأن الأفضلية التي تميز بها الذكر عن بقية الأعمال إنما هي من خلال هذا المفهوم الواسع، وفي هذا المبحث سنرى مفهوم الذكر عند المبتدعة، وما فيه من إفراط وتفريط وميل عن الفهم الشرعي، ومشاركة لأهل الأهواء في بعض نواحي الفهم والسلوك، وسنقف مع فهمهم من خلال النقاط الآتية:

في مكانة الذكر عندهم وفهمهم المخالف، ثم تضييقهم لمضمون الذكر وإخراجهم لطلب العلم منه، ثم ما هو حاصل الذكر والمرجو منه عندهم، أهو صلاح النفس والقلب والروح، واستقامة الدين والدنيا في المعاش، والفوز برضى المولى وما أعده للذاكرين في المعاد؟ أم هو الكشف[1] عن المغيبات ورفع الحجب والوصول إلى ما وراء العيون والأخذ عن العوالم الأخرى، والتصرّف في الكون والكائنات، ثم ما القواسم المشتركة بينهم وبين أهل الفلسفات القديمة، وما الفارق بينهم وبين أهل السحر[2]

(١) الكشف سيأتي الكلام عليه في فصل: مصادر الذكر البدعي ص٣٨٨.

(٢) السحر: هو ما خفي سببه وصعب استنباطه لأكثر العقول، وحقيقته كل ما انقادت إليه النفوس بخدعة فتميل إلى إصغاء الأقوال والأفعال الصادرة عن الساحر. واختلف الحكماء في طرق السحر، فطريق الهند بتصفية النفس، وطريق النبط بعمل العزائم في بعض الأوقات المناسبة، وطريق اليونان بتسخير روحانية الأفلاك والكواكب، وطريق العبرانيين والقبط والعرب بذكر بعض الأسماء المجهولة المعاني. انظر: هدية العارفين =

والعرافة[1] والكهانة[2].

* * *

= ٢/ ٩٨٠ ـ ٩٨١، دار الفكر، ١٤٠٢.

(١) العرافة: العراف المنجم أو الحازي، الذي يدعي علم الغيب، فيدعي معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالة، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢١٨ و٤/ ٢١٥، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية.

(٢) الكهانة: الكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعاً من الجن، ورئياً يلقي إليه الأخبار، انظر: النهاية ٤/ ٢١٤.

المطلب الأول

مكانة الذكر عندهم وفهمهم له

لقد اتُّخذ الذكر عند كثير من أهل البدع شعاراً ودثاراً، ووسيلة إلى أغراض خاصة، وربما أظهروه على أنه الغاية القصوى والهدف الأخير، وقد كان أصحاب القدح المعلّى في هذا المجال طوائف الفرق الصوفية: التي ظل الذكر فيها ذا مكانة طوال أدوار تاريخها حتى إنها لم يسعها أن تجعله آثر العبادات وحسب وإنما رفعته إلى مرتبة الفرائض الحتمية التي تتضاءل دونها الفرائض، بل وتصبح الفرائض بالنسبة لها واجباً ثانوياً سيان أداؤه أو إغفاله، مما جعل الذكر هو هيكل الدين الأساسي في بناء هذه الفرق[1].

جاء في كتاب الأنوار القدسية: (وأجمعوا على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله عز وجل، حتى لا يكون للمريد شغل إلا به وحده!!! وما أذن فيه وقالوا - يعني شيوخ الفرق -: إن الذكر منشور الولاية، أي مرسوم من الله للعبد بالولاية، كمراسيم ملوك الدنيا بالوظائف، ولله المثل الأعلى، فمن وفق لدوام ذكر الله تعالى فقد أعطي المرسوم بأنه ولي لله)[2].

وهذا الذكر الذي يجمعون على أن الإكثار منه هو عمدة الطريق، ويقصرون شغل المريد عليه وحده، ويجزمون على أن من وفق إليه قد أعطي مرسوماً بالولاية، ليس المقصود به الذكر بالمفهوم الشرعي الواسع الشامل،

(1) انظر: التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام ص١٢٦، ١٢٧، عبد الكريم الخطيب، الطبعة الأولى ١٩٨٠، دار الفكر العربي.

(2) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ١/٣٥، عبد الوهاب الشعراني، تحقيق وتقديم طه عبد الباقي سرور، والسيد محمد عيد الشافعي، مكتبة المعارف، بيروت، دون مزيد بيان عن الطبعة.

وإنما المقصود به الذكر بمعناه الخاص عندهم، وهو مجموعة من الأوراد تؤخذ من الشيخ صاحب الإذن بالتلقين الخاص، وتمارس بآداب وشروط وسلوك خاصة، يقول صاحب جواهر المعاني: (واعلم أن هذا الورد عظيم - يعني واحداً من أوراد شيخه التجاني لا يلقن لمن كان له ورد من أوراد المشايخ رضي الله عنهم، إلا إن تركه وانسلخ منه، ولا يعود إليه أبداً وعاهد الله على ذلك، فعند ذلك يلقنه الورد من له الإذن الخاص من الشيخ، وإلا فلا يلقنه إن لم ينسلخ عن الورد الذي بيده فيتركه... فمن أراد الدخول في طريقتنا فلا بد له من هذا الشرط، ولا خوف عليه من صاحبه ولا من غيره، أياً كان من الأولياء الأحياء والأموات في الدنيا والآخرة، لا من شيخه، ولا من غيره، ولا من الله ورسوله بوعد صادق لا خلف فيه)[1].

فإذا دخل المريد في سلكهم وأخذ هذا الورد بشروطه عندهم، فقد ظفر بالمطلوب وبلغ الأمان، ولا خوف عليه حتى من الله ورسوله، - زعموا - هكذا يُنال الأمان في الدنيا والآخرة، وتنال الولاية ويعطى المريد منشورها، فسبحان الله ما أعجبه من فهم للذكر ولقيمة الإنسان المسلم ولهذا الدين الذي يقول فيه الباري سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2]، بل يا لها من جرأة! ولاية وأمان في آن، وكأن المريد إذا عمل بوردهم حقق العبادة التي خلق من أجلها؟

وهذا الذكر الذي جعلوه شعاراً ظلوا يرفعونه وما زالوا، ودثاراً انعزلوا به عن الأمة في الفهم والممارسة، لم يكن خطأهم فيه مقصوراً حين ضيَّقوه عن الفهم الشرعي الواسع الشامل لأعمال القلوب والجوارح المصاحب لحركة الناس في الحياة كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[3]، وإنما كانت خطيئتهم الكبرى مع ذلك هي في مفاضلتهم بينه وبين تكاليف الدين الأخرى

(1) جواهر المعاني في فيض التجاني ١/٩٢، علي حرازم، دار الكتاب العربي، بيروت.

(2) سورة الذاريات: الآية ٥٦. (3) سورة الجمعة: الآية ١٠.

وتفضيله عليها مع فهمهم الضيق له وأداءهم القاصر على نوع من أنواعه فقط، يقول الشيخ الغزالي رحمه الله في هذه المفارقة العجيبة والفهم الخاطئ: (ولكن عدداً كبيراً من المسلمين - في قرون مضت - حسب الذكر آثر عند الله وأدنى إلى رضاه من أي عمل آخر وربما حسب أن درجة الإحسان لا تنال إلا بطول الذكر، ونحب أن ننبه المعجبين بمسالك القوم - وقد مضت أيامهم - أن مقام الإحسان ينال بمسلك أرشد من ذلك، وليس الإحسان تجويد جزء من العبادات، وإهمال أجزاء أخرى، قد تكون أخطر وأجل، وإنما الإحسان أداء فروض العين، وفروض الكفاية وتناول شؤون الدنيا وشؤون الآخرة معاً، هو إشرابُ الحياة الإنسانية حقائق الأمر الإلهي، وإضفاء صبغة السماء على أحوال أهل الأرض هو ترقية كل عمل بذكر الله فيه لا الفرار من الأعمال بدعوى ذكر الله في العراء)[1].

فهؤلاء القوم قطعوا مساحات واسعة في بعدهم عن الفهم الصحيح لمكانة الذكر فالشرع حين أعطاه المكانة العليا، جعله هو الأساس لأعمال الطاعات، والمخالط لها وجعله هو المانع من الوقوع في المنهيات، والحامي لحدود الله، وشرع الشرائع كلها لإقامته، وليس هناك فصل بينهما، فلا تقوم طاعات بلا ذكر، ولا يقوم هو بدونها وفصل الذكر عن أفعال الناس وحركتهم في الحياة، ثم إعطائه الأفضلية، هو فهم خاطئ، حتى لو كان الذكر بألفاظ الأذكار المأثورة فكيف بصنيع هؤلاء الذين يملؤون المكيال ذكراً، محتجين بأنه أفضل الأعمال، وكان المفترض أن يمتلئ بأعمال الطاعات المخالطة لذكر الله، على أننا حين ننظر عن قرب إلى هذا المكيال المملوء بالذكر على زعمهم، نجد أنهم إنما كالوه حشفاً، وليتهم إذ أفرغوه عن بقية الأعمال ملؤوه ذكراً نقياً، ولعل من المناسب هنا ذكر مثال مما في المكيال، فهذا واحدٌ من أدعيتهم: قال: اللهم حققني بك تحقيقاً يسقط النسب والرتب والتعينات والتعقبات والاعتبارات والتوهمات والتخيلات حيث لا أين ولا كيف ولا رسم ولا علم

(١) الجانب العاطفي في الإسلام ص٩٦.

ولا وصف ولا مساكنة ولا ملاحظة، مستغرقاً فيك ممحق الغير والغيرية بتحقيقي بك من حيث أنت بما أنت وكيف أنت حيث لا حس ولا اعتبار إلا أنت، بك لك، عنك منك، لأكون لك خالصاً، وبك قائماً، وإليك آيباً وفيك ذاهباً بإسقاط الضمائر واجعلني في جميع ذلك مصوناً بعنايتك بي وتوليك لي واصطفائك لي ونصحك لي آمين أربعين مرة متوالية أو موزعة على الأوقات[1] اهـ.

وقد ذهب هذا الداعي بعيداً، في شطحه[2] الذي اختار ألفاظه وكلماته بعناية وأوغل ولم يقف حيث ينبغي أن يقف بقول اللسان ومعتقد الجنان، وإني لأمسك بقلمي فسبحان الله الكبير المتعال تقدس عن أن يدانيه في عليائه شيء أو يماثله شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3]. وهؤلاء القوم حين فصلوا الذكر عن بقية الدين أغراهم ذلك ففصلوا المريد الذي يسلك على أيديهم عن الحياة والأحياء، فيكفيه من الحياة اختيار المكان الذي يقبع فيه حين يؤدي الذكر، ومن الأحياء تكفيه صورة شيخه الذي لقنه الذكر حاضراً كان أو غائباً ولو استطاع أن يفنى عن ذلك أيضاً يكون أكمل.

يقول في قلادة الجواهر: شرط الاستمداد في وقت الرابطة[4] التخلي[5] عن الغير ونسيان الأهل والأولاد، والبيع والشراء، وقطع الفكر الدنيوي والأخروي!! وهناك يجعل حضرة صاحب الطريق واسطة لرسول الله ﷺ، فإذا استدام الطالب على هذه الحالة تحصل له حالات وتظهر عليه إشارات، وينقطع

(١) جواهر المعاني ١/١٣٥، ١٣٦.

(٢) الشطح: هو عبارة عن الكلام الذي عليه رائحة الرعونة، يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدن مقرون بالدعوى، إلا أن يكون صاحبه مستلباً، انظر: اللمع ص٤٢٢، وملحق التعريفات ص٢٣٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) الرابطة: تعني تخيل حضور صاحب الطريقة أحمد الرفاعي الكبير أثناء الذكر ويستمد منه الذاكر.

(٥) التخلي: اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، انظر ملحق التعريفات ص٢٣٩.

فكره عن الغير، ويندهش[1]، وهو مقام الفنا[2] في الشيخ)[3].

فبهذا الفصل الذي حجر الأتباع في زاوية الذكر، مع هذا الإغراء بالفضل والأجر، وبهذه الطريقة المذيبة للشخصية، المؤدية إلى اضمحلال المريدين في ظل المشايخ، تقاسم أرباب الطرق كثيراً من مجتمعات المسلمين إلا من رحم الله كالقطيع يتتبع كل شيخ بمريديه ما يختار من السهول والأودية.

مع أن الذكر الذي أعطاه الإسلام المكانة العالية ليس فيه فصل ولا انفصام، وهؤلاء القوم لم يفهموه ولم يعرفوه فهو لا يمثله إلا من: يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال والقيام على العيال، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه، كتعليم العلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هؤلاء هم الذين قال فيهم علي بن أبي طالب ﷺ: (صحبوا الدنيا بأبدان، أرواحها معلقة بالمحل الأعلى)[4].

هذا هو الفهم الصحيح للذكر وإلا فمن: (الذي قال إن المجاهدين في سبيل الله طائفة أخرى تقابل الذاكرين لله، وتوضع في كفة مغايرة ثم يقال هذه أرجح من تلك، إن الجهاد في سبيل الله أرفع درجات الذكر، والمجاهد في سبيل الله رجل يعرف ربه ويريد أن يغرس هذه المعرفة في الحياة وأن يرويها بدمه حتى تزدهر وتنمو، المجاهد في سبيل الله رجل يُذكر الآخرين بالله بعد أن امتلأ هو بهذا الذكر من أخمص قدميه إلى ذؤابة رأسه)[5].

فالذكر ليس وقفاً على ترديد بعض الألفاظ مع عزله والانعزال به عن

---

(١) الدهش: الدهشة سطوة تصدم عقل المحب من هيبة محبوبه، انظر: اللمع ص٤٢١.
(٢) الفنا: هو عدم رؤية العبد لفعله بقيام الله على ذلك، انظر ملحق التعريفات ص٢٣٦.
(٣) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر ص٣٨٣، محمد أبي الهدى الصيادي، طبع في بيروت المطبعة الأردنية ١٣٠١هـ.
(٤) لطائف المعارف فيما للمواسم من الوظائف ١/ ١٥، ١٦.
(٥) الجانب العاطفي في الإسلام ص٨٩، ٩٠.

الحياة والتأثير فيها، فهذا فهم مشوش لمكانة الذكر وقيمته، ومن فهم أن مكانة الذكر هي هذه ثم ادعى لها الأفضلية مع ذلك، فهو ينعق بما لا يسمع، وعليه أن يعيد النظر إلى ما كانت عليه حياة سيد الذاكرين ﷺ، وما كان يعنيه مفهوم الذكر في مجالسه.

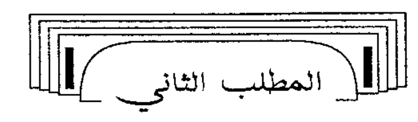
فقد كانت مجالس النبي ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله، وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم الناس ما ينفع في الدين كما أمره الله في كتابه، أن يذكر ويعظ ويقص، وأن يدعو، وأن يبشر وينذر، وسماه الله مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً[1].

وكانت مجالسه تحفل بالتعبئة للجهاد، وإقامة شؤون الناس على الدين، والحث على الصدقة والتفقد لأحوال المحتاجين، هذا كله دون أن ينفك اللسان عن رطوبته بذكر الله ﷻ.

❀ ❀ ❀

---

(١) انظر: لطائف المعارف ص٦١.


المطلب الثاني

إخراج المبتدعة، مجالس العلم، عن الذكر، وتزهيدهم في طلبه

في الفهم الصحيح للذكر تعتبر حلق العلم ومجالس تعلم الحلال والحرام ومقاصد الأمر والنهي الشرعي داخلة في رياض الجنة إن صح فيها القصد شأنها في ذلك شأن كل عمل صالح، يقول الشوكاني[1] رحمه الله: (فرياض الجنة تطلق على حلق الذكر ومجالس العلم والمساجد، ولا مانع من ذلك... والحاصل أن الجماعة المشتغلين بذكر الله ﷻ أي ذكر كان، والمشتغلين بالعلم النافع، وهو علم الكتاب والسنة وما يتوصل به إليهما، هم يرتعون في رياض الجنة)[2].

والمبتدعة في فهمهم للذكر لم يكتفوا بإخراج العلم عن حلق الذكر فحسب وإنما تهكموا بالاشتغال به، يقول ابن الجوزي رحمه الله: (ومن الصوفية من ذم العلم، ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: إن علومنا بلا واسطة، وقد سموا علم الشريعة علم الظاهر[3]، وسموا هواجس[4] النفوس العلم الباطن)[5].

(١) الشوكاني: محمد علي بن محمد الشوكاني، ولد سنة ١١٧٣هـ، مفسر ومحدث أصولي، فقيه ومجتهد، كان من كبار علماء اليمن في عصره، توفي سنة ١٢٥٥هـ انظر: الأعلام ٦/٢٩٨.

(٢) تحفة الذاكرين ص١٣، ١٤ للشوكاني. دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) علم الظاهر: عبارة عن أعيان الممكنات. انظر: اللمع ص٤٢١.

(٤) الهاجس: يعبرون به عن الخاطر الأول وهو الخاطر الرباني، وهو - في زعمهم - لا يخطئ أبداً، انظر ملحق التعريفات ص٢٣٣.

(٥) تلبيس إبليس ص٣٩٠، ٣٩١.

كما قال أحدهم: (اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك أن الرجل لا يكمل في مقام العلم، حتى يكون علمه عن الله ﷻ بلا واسطة، من نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفاداً من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ من المحدثات، وذلك معلوم عند أهل الله - يعني شيوخ الطرق - ولو أنك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله ﷻ لأوصلك إلى حضرة شهود الحق[1] تعالى، فتأخذ منه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر، كما أخذه الخضر عليه السلام، وكان الشيخ الكامل أبو يزيد البسطامي[2] يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم عن علماء الرسوم[3] ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت)[4].

فتلقي العلم الشرعي عندهم بطالة واشتغال بالرسوم وأخذ عن الأموات، أما العلم الحقيقي الذي يستغنى به عن علم الشرع، فهو ما يؤخذ عن الله مباشرة دون الحاجة إلى الأنبياء كما هو علم الخضر عليه السلام، في زعمهم، ويكون ذلك بالتسليم لشيخ منهم.

يقول في الأنوار القدسية: إن الشيخ يتوجه إلى الله تعالى ويفرغ على المريد من قوله - (قل) لا إله إلا الله، جميع ما قسم له من علوم الشريعة

(١) الشهود: هو رؤية الحق بالحق، انظر: التعريفات ص١٤٣.

(٢) البسطامي: هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطاني أحد مشايخ الصوفية، وكان جده شروسان مجوسياً، فأسلم، وتحكى عن البسطامي كلمات شطح، تكلم فيها الصوفية والفقهاء، فمن متأول على المحامل البعيدة، أو قائل إن هذا قاله في حال اصطلام وسكر، ومن مبدِّع ومخطئ، والله أعلم، توفي سنة ٢٦١هـ، انظر: الرسالة القشيرية ١/٨٠ - ٨٢ لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن شريف الطبعة الأولى ١٩٦٦م جزأين في مجلد، مطبعة دار التأليف بالمالية بمصر. سير أعلام النبلاء ١٣/٨٦ - ٨٩، والبداية والنهاية ١٤/٥٥٦، ٥٥٧.

(٣) الرسم: ما رسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق فيمتحي بإظهار سلطان الحق عليه، انظر: اللمع ص٤٢٧.

(٤) جواهر المعاني في فيض التجاني ١/١١.

المطهرة، فلا يحتاج بعد هذا التلقين، إلى مطالعة كتاب من كتب الشريعة حتى يموت، وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد[1] يقول: لما لقنني شيخي السري[2] رَحِمَهُ اللَّهُ أفرغ فيَّ جميع ما كان عنده من علوم الشريعة، وكان يقول: ما نزل من السماء علم وجعل الحق تعالى للخلق إليه سبيلاً، إلا وجعل لي فيه حظاً ونصيباً[3].

فباب العلم الحقيقي عندهم هو في سلوك طريق تلقين الذكر عن الشيوخ الأمر الذي يؤدي إلى استفادة العلوم عن الله بلا واسطة، وهذه الطريقة السهلة لتلقي العلم التي ليس فيها نصب ولا تعب، هي المؤدية وبنفس السهولة إلى استبدال مصدر التشريع وللشريعة ذاتها وفتح الباب لكل راغب في إضافة أو تشريع ما أراد، كما هي الحال التي انتهت إليها الصوفية إلا من رحم الله، من طرق تنسب لمشايخ تعرف بهم وتسمى بأسمائهم، وتتقيد بأورادهم.

وقد كان باب الأذكار هو الباب الذي دخل منه هؤلاء للتشريع للأتباع والمريدين، فوضع كل منهم لأتباع طريقته منهجاً خاصاً في الذكر، وأذكاراً مخصوصة[4].

وحين أعرضوا عن طلب العلم وزهدوا فيه وأزهدوا عنه استعاضوا عنه بهذا الذي يأتيهم عن طريق التلقي دون واسطة النبي ﷺ أو الحاجة إليه على زعمهم.

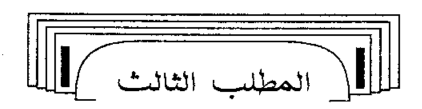
---

(١) الجنيد: هو الجنيد بن محمد الخزار، كان أبوه يبيع الزجاج، فكان يقال له القواريري، أصله من نهاوند، مولده ومنشؤه بالعراق، صحب جماعة من أهل الخير، واشتهر بصحبة الحارث المحاسبي، وسري السقطي، ولازم التعبد، وتكلم على طريقة التصوف، توفي في سنة ٢٩٧، انظر: طبقات الصوفية ص١٥٥ ـ ١٦٣، والرسالة القشيرية ١/ ١٠٥ ـ ١٠٨.

(٢) السري: هو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي، خال الجنيد وأستاذه، كان تلميذاً لمعروف الكرخي، كان أدم البشرة وكان يعمل في حانوت بالسوق يتجر فيه، فمر عليه يوماً معروف الكرخي فترك الاتجار، توفي سنة ٢٥١هـ. انظر: الرسالة القشيرية ١/ ٦٤ ـ ٦٧، وشذرات الذهب ٢/ ١٢٧.

(٣) الأنوار القدسية ١/ ٤٢.

(٤) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، لعبد الرحمن عبد الخالق، مكتبة ابن تيمية، الكويت ص٢٨٣.


المطلب الثالث

حاصل الذكر وفوائده عندهم هو طريق لكشف الحجب[1] وباب إلى الغيب

لقد سبقت الإشارة في مفهوم الذكر الشرعي إلى شيء من فوائد الذكر الجليلة التي تعود على المسلم في معاشه ومعاده، تلك الفوائد التي تشمل نضرة الوجه وراحة النفس واطمئنان القلب وسرور الروح وانشراح الصدر، فضلاً عن زيادة الإيمان والتقدم في طريق الإحسان والتوفيق إلى أعمال الطاعات والانصراف عن المعاصي والخاتمة بالخير، ثم الظفر بالجنان والحلول فيها، والعلو في منازلها، والتنعم بما فيها والتلذذ بالنظر إلى وجه المنعم سبحانه، وناهيك بهذا من فضل وفوائد يرجوها المسلم ويطمع إليها الذاكر ورضي المذكور، وذكره لمن ذكره أعلى المطامع.

ولكن هؤلاء المبتدعة الذين اتخذوا لأنفسهم ولمن سلك مسالكهم الأذكار الخاصة وأوقفوا الدين عليها وقصروا الحياة على أدائها، فمع إفراطهم هذا، فليست هذه الفوائد المشار إليها هي مطمعهم من الذكر، إذ هم لا يحفلون بما يتحقق من الذكر في معاش المسلم حتى لو كان اطمئنان القلب أو زيادة الإيمان، ولا ما يجنيه الذاكر في معاده حتى لو كان دخول الجنان!! فهذه الفوائد تحصل من الذكر، بيد أنها ليست المعول عليه عندهم، لأنها من مطالب العوام، وأما مطالبهم هم من الذكر وفوائده المرجوة عندهم فهي ليست في دخول الجنة أو النجاة من النار بل ليست في ميدان الثواب والعقاب فما هي يا ترى؟

---

(١) الحجاب: كل ما استتر عن عينك من مطلوبك، انظر: ملحق التعريفات ص٢٤٢.

يقول في الأنوار القدسية: (ومعلوم أن مقصود القوم القرب من حضرة الله الخاصة ومجالسته فيها من غير حجاب، وأما الثواب فحكمه حكم علف الدواب)، ويقول أيضاً: (وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب)[١].

ويقول صاحب القلادة: (وليس مقصود العارفين بكثرة الصلاة على النبي ﷺ حصول الثواب لهم أو نفعه بذلك، وإن كان ذلك حاصلاً في نفس الأمر، ولكن القصد حصول فيوضاته[٢] النبوية، ونفحاته المحمدية، ولكون الصلاة عليه أعظم الأسباب لشهود أنواره الذاتية ووسيلة عظمى لزوال الحجب التي بينه وبين ذلك المصلي)[٣].

ومن هنا يتبين أن الهدف من الذكر عند هؤلاء ـ كما صرحوا ـ ليس ما رتبه الشارع من عظيم الثواب وجليل الأجور وكثرة الأفضال وعلو المنازل يوم القيامة، وإنما هو شيء يتحقق في هذه الدار العاجلة، وهو أن الذكر طريق للكشف[٤]، وباب يدلف منه إلى الغيب، ووسيلة للحضرة مع الله والأخذ عنه دون الحاجة إلى واسطة، يقول في الأنوار القدسية عن ذلك: (فوائد الذكر لا تنحصر؛ لأن الذاكر يصير جليس الله تعالى، لا يرى فيه بينه وبين ربه واسطة، فلا يعلم أحد قدر ما يتحفه الحق تعالى من العلوم والأسرار كلما ذكر، لأنها حضرة لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد، فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه

---

(١) الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية ١/ ٣٤ ـ ٤٣.

(٢) الفيض: له معنيان: فيض أقدس هو عبارة عن تجلي حسي ذاتي موجب لوجود الأشياء واستعداداتها في الحضرة العلمية ثم العينية، وفيض مقدس: هو عبارة عن التجليات الأسمائية الموجبة لظهور ما يقتضيه استعداد تلك الأعيان في الخارج، فالفيض المقدس مرتب على الفيض الأقدس، فبالأول تحصل الأعيان الثابتة واستعداداتها الأصلية في العلم. انظر: التعريفات ص١٦٩.

(٣) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر ص٢٨١، محمد أبو الهدى الرفاعي الصيادي، طبع مطبعة بيروت الأدبية ١٣٠١هـ.

(٤) والكشف: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً اهـ، معجم مصطلحات الصوفية للحفني ص٢٢٥؛ وهو بيان ما استتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأي العين اهـ، اللمع ص٢٤٩.

في ذكره مع ربه: ماذا أتحفك وأعطاك في هذا المجلس؟ فإن قال: ما أعطاني شيئاً، قلنا له: وأنت الآخر لم تحضر معه شيئاً)[١].

وعلى هذا فإن عبادات أصحاب هذا المفهوم وأذكارهم التي وضعوا لها حدوداً تؤدى من خلالها، ليس ذلك إلا لحصول هذا المطلوب.

وقد أشار ابن القيم ﵀ إلى أن هذا الاتجاه يمثل خطأ الفعل، بعد أن ذكر خطأهم في الترك. يقول: (المثال الثاني: من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال والكشف والتصرف، ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها ألبتة، فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلاً وتركاً ويراها حقاً عليه كفعل الرياضات والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم[٢] واصطلاحاتهم)[٣].

والخلاصة أن الكشف الذي هو سماع أو رؤية أو علم لأمور غيبية[٤]، هو حاصل الذكر وهدفه الأول عند المبتدعة.

يقول الغزالي: ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد[٥].

وهذا هو ما ينتظر حصوله عندهم والوصول إليه، من الذكر، وهو الهدف المطلوب والذكر الذي لم يحصل منه هذا، فهو دون الجدوى.

❊ ❊ ❊

---

(١) الأنوار القدسية ١/ ٤٢.

(٢) الوجد: ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، وقيل: هو بروق تلمع ثم تخمد سريعاً، انظر: التعريفات ص٢٥٠.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٧٤.

(٤) انظر: الفتاوى ١١/ ٣١٣.

(٥) المنقذ من الضلال ص١٤، أبي حامد الغزالي، مطبوع مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي لعبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، طبع دار العصر بالقاهرة، الطبعة السادسة ١٩٦٨.

المطلب الرابع

الغاية القصوى من ذكرهم حصول (الفناء)

وأما الغاية الأخيرة والفائدة القصوى من الذكر عند القوم، فهي حصول الفناء، وهو مرحلة تالية لمرحلة الكشف ـ يتوصل إليها بمزيد من الاستغراق والغيبة، يقول في جواهر المعاني عن المراحل التي تنتهي إلى الفناء: «فإن الأمر أوله محاضرة[1]، وهو: مطالعة[2] الحقائق من وراء ستر كثيف، ثم مكاشفة[3]، وهو: مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، ثم مشاهدة[4]، وهو: تجلي[5] الحقائق بلا حجاب ولكن مع خصوصية، ثم معاينة، وهو: مطالعة الحقائق بلا حجاب ولا خصوصية، ولا بقاء للغير والغيرية عيناً[6] وأثراً[7]، وهو مقام السحق[8]، والمحق[9]، والدك[10]، وفناء الفناء[11].

---

(١) المحاضرة: حضور القلب بتوارد البرهان ومجاراة الأسماء الإلهية بما هي عليها من الحقائق، ملحق التعريفات ص٢٣٩.

(٢) المطالعة: توفيقات الحق للعارفين ابتداءً، المصدر نفسه ص٢٤٠.

(٣) المكاشفة: تطلق بإزاء الأمانة بالفهم، وتطلق بإزاء تحقيق زيادة الحال، وتطلق بإزاء تحقيق الإشارة، المصدر نفسه ص٢٣٩.

(٤) المشاهدة: تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، وتطلق بإزاء رؤية الحق في الأشياء، وتطلق بإزاء حقيقة اليقين من غير شك، المصدر نفسه ص٢٣٩.

(٥) التجلي: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، انظر: ملحق التعريفات ص٢٣٨.

(٦) العين: ما أعطته المشاهدة والكشف، انظر: التعريفات ص١٦٠.

(٧) الأثر: هو علامة لباقي شيء قد زال، انظر: اللمع ص١٦٠.

(٨) السحق: هو ذهاب تركيبك تحت القفر، انظر: ملحق التعريفات ص٢٣٨.

(٩) المحق: فناؤك في عينه، المصدر نفسه، والصفحة

(١٠) الدك: الدق والهدم، انظر: القاموس المحيط ٣/ ٣٠١.

(١١) فناء الفناء: هو مرحلة تالية للفناء، حيث يذهب فيه الذاكر عن الدنيا بالذكر ثم يذهب عن الذكر إلى حظه فيه، ثم يفنى ويغيب عن الفناء أيضاً فيكون في فناء الفناء، انظر: اللمع ص٢٨٥، ٢٨٦.

فليس هذا إلا معاينة الحق[1] في الحق للحق بالحق، فلم يبق إلا الله لا شيء غيره (فلا ثَمَّ موصول ولا ثَمَّ واصل)[2]، ويسمي صاحب منازل السائرين هذا الذكر المفني بالذكر الحقيقي فيقول: (الدرجة الثالثة: الذكر الحقيقي، وهو شهود ذكر الحق إياك، والتخلص من شهود ذكرك، ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع الذكر).

ويقول ابن القيم في ذلك: (فيتركب من ذلك ذوق خاص، أنه ما وحد الله إلا الله، وما ذكر الله إلا الله، وما أحب الله إلا الله، فهذا حقيقة ما عند القوم...) ـ ويعقب على صاحب المنازل بقوله: «ولكن الشيخ لا تأخذه في الفناء لومة لائم، ولا يصغى فيه لعاذل»[3].

ويوضح هذا الفناء الحاصل بالذكر الحقيقي صاحب الرماح بقوله: (وهذا الذكر الذي طلب بالتعظيم ليس ذكر اللسان المعهود في حق العامة، وإنما هو الذكر الحقيقي الذي هو الغاية القصوى من الذكر، وهو إذا أخذ العبد فيه أُخِذَ عن جميع دائرة حسه، ونهايته أن يستهلك العبد في عين الجمع[4]، ويغرق في بحر التوحيد[5] وليس في جميع عوالمه حس وإدراك وذوق وفهم وعيان وخيال وأنس ومساكنة وملاحظة ومحبة، وتعويل واعتماد على الله تعالى في محو الغير والغيرية، وفي هذا الميدان ينمحي الذاكر والذكر ويصير في حالة أن لو نطق لقال: أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، لاستهلاكه في بحار التوحيد، وهذه المرتبة في آخر مراتب الذكر[6].

---

(١) الحق: هو الله سبحانه ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ النور ٢٥، انظر: اللمع ص٤١٣.

(٢) جواهر المعاني ١/ ١٦٠.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

(٤) الاستهلاك بالكلية في الله، انظر: ملحق التعريفات ص٢٣٦.

(٥) التوحيد: هو وجود عظمة وحدانية الله تعالى وحقيقة قربه بذهاب حس العبد وحركته لقيام الله تعالى له فيما أراد منه، انظر: اللمع ص٤٢٤.

(٦) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم ١/ ١٨١، ٢٨٢، عمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدوي، الكتاب مطبوع بهامش جواهر المعاني، طبعة دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

فالذكر عندهم مراتب متدرجة، وأعلى هذه المراتب هي هذه التي تفضي بالذاكر إلى هذه الغيبة عن نفسه وعن الذكر وعن كل ما حول الذاكر، وحين ينمحي الذكر والذاكر ومن حول الذاكر فلا يبقى إلا المذكور، وهذا هو الفناء، والفناء هو الغاية التي يراد الوصول إليها من خلال الذكر، يقول في قلادة الجواهر وهو يتحدث عن انتقال المريد في أحوال الذكر ومراتبه تحت إشراف المرشد: «فحينئذ يعرفه المرشد حقائق الذكر، ومعاريج القلب، ودقائق إلهام الحق والتوجه وربط القلب بالشيخ والفناء فيه، والفناء في الرسول وربط القلب فيه، والفناء في الله وربط القلب فيه، وهناك إذا وصل لهذا المقام يجول في ميدان:

وبعد الفنا في الله كن كيفما تشاء فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

صاحب هذا الوصف يقال له في اصطلاح القوم - يعني المتصوفة - في حضرة الإطلاق، ويقال له من الأحرار، لكونه مطلوقاً من طبائعه[(1)].

إذاً فالفناء المقصود هو فناء مفقد للشعور، بحيث يكون صاحبه كيفما يشاء حراً طليقاً من طبائع البشر حتى إنهم يعفونه من آداب الذكر بالجملة ويسلمون معه لما يرد عليه من حال. يقول في الأنوار القدسية: «وما ذكروه من آداب الذكر محله في الذاكر الواعي، أما المسلوب الاختيار فهو مع ما يرد عليه من الأسرار فقد يجري على لسانه الله الله، أو هو هو هو، أو لا لا لا، أو آه آه آه، أو عا عا عا، أو آ آ ى، أو هـ هـ هـ، أو ها ها ها، أو صوت بغير حرف أو تخبيط وأدبه عند ذلك التسليم للوارد[(2)(3)].

وليت أمر الفناء يقف في حد الشعور، لكنه كما رأينا من هذه النقول، يصل إلى الغلبة على العقل والإخراج من قيود العلم، ولا أدري ماذا يبقى

---

(١) قلادة الجواهر ص٢٨٣، ٢٨٤.
(٢) الوارد: كل ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمد من العبد، انظر التعريفات ص٢٤٩.
(٣) الأنوار القدسية ١/ ٣٩.

لأحدهم بعد غياب العقل وانحلال قيد العلم، يقول صاحب منازل السائرين: «الدرجة الثانية: الأنس بنور الكشف، وهو أنس شاخص عن الأنس الأول، تشوبه صولة الهيمان، ويضربه موج الفناء، وهو الذي غلب قوماً على عقولهم وسلب قوماً طاقة الاصطبار وحل عنهم قيود العلم.

ولعل ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وقف أمام هذا الكلام طويلاً حين أراد له تأويلاً أو وجهاً حسناً يحمل إليه، وتكلف لذلك كلاماً، ثم عقب مشيراً إلى ما انتهى إليه بعضهم حين طووا بهذا الفناء، بساط الشريعة وأحكامها فقال: (ومن ها هنا تزندق من تزندق وظن أنه إذا لاحت له حقائقها وبواطنها خلع قيود ظواهرها ورسومها، اشتغالاً بالمقصود عن الوسيلة وبالحقيقة عن الرسم، فهؤلاء هم المقطوعون عن الله، القطاع لطريق الله، وهم معاطب الطريق وآفاتها)[(1)].

وعلى كل فهذا الفناء هو المبتغى عند هؤلاء من الذكر، بل من كل العبادات والمجاهدات والرياضات والمشاق التي يتكلفونها ويكلفون بها المريدين، حتى تشوب نفوسهم صولة الهيمان ويخبطهم ويتخبط بهم موج الفناء، فيغيبون عن الواقع والعقل ويكونون في حل من الشرع وعلومه وحدوده، والشاطئ الذي يمنون به أنفسهم بعد هذه الموجة وهذا الانعتاق هو حصول المكاشفات والمشاهدات والاجتماع بأرواح الأنبياء والصالحين وحصول الفيوضات، بل ما هو أبلغ من ذلك كسماع الخطاب من الجن أو الملائكة أو حتى عن الله ﷻ زعموا، سواء كان هذا السماع يقظة أو مناماً، والكشف عن حقائق الوجود وارتفاع الحجب عن عين البصيرة والقلب، وبالتالي انفتاح باب الغيب، وهذا هو تحقيق غاية العبادة عند هؤلاء.

فغاية الأمر عندهم من سلوك الطريق وتصفية النفس أنهم يظنون الوصول بذلك إلى أن يخاطبهم الله كما خاطب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[(2)].

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤١٨ - ٤٢٠.
(٢) رسالة في السماع والرقص ص٧٥؛ محمد بن محمد المنبجي، تعليق محمد ضبعي حلاق، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

والذكر والتأمل الروحي وتركيز الذهن في الملأ الأعلى هو من وسائل هذه الغاية، والحمل على النفس حتى يحصل لها الفناء باستهلاكها في الله بالكلية، فينسى العبد نفسه وما سوى الله ويستولي عليه سلطان الحقيقة، فلا يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً ولا رسماً، وهنا يكون قد حل في مقام الفناء، وهو مقام تكون فيه الحالة متراوحة في تصوراتها بين قطبين متعارضين هما: التنزيه والتجريد[1] من جهة، والحلول[2] والتشبيه من جهة أخرى[3].

وهذا الفناء الذي جعلوه في منزلة عالية يسعون لتحقيقه ليغرفوا بعده من علوم الغيب، هو الذي يعرضهم للغرق في بحر الزندقة من خلال القول بالحلول أو بتخيل حصوله لهم، وسبب ذلك الوهم، أنهم قذفوا بالعقل وراء ظهورهم حين سلكوا الطريق، لأنهم في زعمهم يطلبون من الأمور ما لا ينبغي حضور العقل حال حصوله، وعندما حصلت لهم الإشارات وتواردت عليهم العبارات، ظنوا ما ظنوا، وقالوا ما قالوا، وما ظنك حين يغيب العقل والعلم؟ فما أشبه حالهم بسكران في ظلمة مسته دابة بذيلها فظنها يد ليلى تغمزه ليتبعها.

والفناء ليس بمطلوب ولا محمود: (والذي لا ريب فيه أن البقاء[4] في الذكر أكمل من الفناء فيه والغيبة به، لما في البقاء من التفصيل للمعارف، وشهود الحقائق على ما هي عليه، والتمييز بين الرب والعبد، وشهود العبودية والمعبود، وليس في الفناء شيء من ذلك، والفناء كاسمه الفناء، والبقاء بقاء كاسمه، والفناء مطلوب لغيره، والبقاء مطلوب لذاته، والفناء وصف العبد،

---

(١) التجريد: إماطة السوى والكون عن القلب والسر، انظر: ملحق التعريفات ص٢٣٨.

(٢) الحلول له معنيان: سرياني، هو عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر، كحلول ماء الورد في الورد فيسمى الساري حالاً والمسري فيه محلاً، الثاني: الحلول الجواري، وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء في الكوز، انظر: التعريفات ص٩٢.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/٢٦٧، إشراف مانع حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة.

(٤) البقاء: رؤية العبد قيام الله على كل شيء، انظر: ملحق التعريفات ص٢٣٦.

والبقاء وصف الرب، والفناء نفي، والبقاء إثبات، والسلوك على درب الفناء مخطر، وكم به من مفازة ومهلكة، والسلوك على درب البقاء آمن، فإنه درب عليه الأعلام والهداة والخفراء، ولكن أصحاب الفناء يزعمون أنه طويل ولا يشكون في سلامته وإيصاله للمطلوب)[1].

والطريق الآمن الموصل، ليس من الحكمة أن يقدَّم عليه طريق أقصر، ولكن فيه قطاع للطرق وقد يوصل كالبرق ولكن إلى غير الهدف، سيما والمجازف به هو تلف الدين قبل البدن.

ولذلك لما علم إبليس حال هؤلاء القوم من أنهم قد ركبوا طريق الخطر وتركوا عقولهم مع بداية الطريق، وليس معهم زاد من العلم، اختبأ لهم في بعض نواحي الطريق وقد أعد لهم من حيله ما يشبه مطلوبهم.

❊ ❊ ❊

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٣٧.

المطلب الخامس

الكشف والتأثير والكرامات

وهنا مرحلة تترتب على هذه الأمور السابقة يترقبها القوم في سلوكهم، وهي التمكن من الكشف والتأثير على الحياة والأحياء، وهو هدف طالما سعى إليه كثير من المتصوفة وادّعوه، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن هذا المسلك: «وأما الكشف والتأثير، فإن لم يقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات، وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال، فإن من سلك طريق الجوع والرياضة[١] المفرطة خاطر بقلبه ومزاجه ودينه، وربما زال عقله ومرض جسمه وذهب دينه، وإن سلك طريق الوله[٢] والاختلاط بترك الشهوات ليتصل بالأرواح الجنية وتغيب النفوس عن أجسامها فقد أزال عقله وأذهب ماله ومعيشته وأشقى نفسه شقاءً لا مزيد عليه، وعرض نفسه لعذاب الله في الآخرة، وكذلك من قصد تسخير الجن بالأسماء والكلمات من الإقسام والعزائم، فقد عرض نفسه لعقوبتهم ومحاربتهم، بل ـ حتى ـ لو لم يكن الخارق إلا دلالة صاحب المال المسروق والضال على ماله، أو شفاء المريض أو دفع العدو[٣]».

وإذا كان الكشف والتأثير، والتطلع إلى رفع الحجب عن الغيب، هي مطالب القوم من سلوكهم وعباداتهم وأذكارهم، فهذه المطالب إن سلمت من

(١) الرياضة: رياضة أدب، وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة طلب وهو صحة المراد، انظر: ملحق التعريفات ص٢٣٨.
(٢) الوله: هو إفراط الوجد، المصدر نفسه والصفحة.
(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٣٠، ٣٣١.

الغرق في بحر القول بالحلول والاتحاد[١] أو توهمه، فقل أن يسلم العقل حين المرور على مسالكها، فها هم لا يجاوزون هذه المواقف إلا وهم حيارى وسكارى كما عبروا، والسكر[٢] والحيرة[٣] ليسا محمودين.

والحيرة التي هي دون السكر، هي من جنس الجهل والضلال، ولم يمدحها أحد من أهل العلم والإيمان، ولكن مدحها طائفة من الملاحدة الحيارى[٤].

وسواءٌ طلب القوم هذه المطالب لذاتها أو لما يترتب عليها على اعتباره من الكرامات[٥] والمبشرات على سلامة الطريق، فهم على خطأ وخطر ذلك؛ لأنهم يُقدِمون غير المطلب على المطلب، يقول أحد الصالحين: كن طالباً للاستقامة، لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة، ـ قال: وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك، وذلك أن المجتهدين والمتعبِّدين سمعوا عن سلف الأمة وما مُنحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك، وسبيل الصادق على غير هذا فهو مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة، والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفاً من النار أو طلباً للجنة، يجعل همه أدنى خارق من خوارق الدنيا، ولعله يجتهد اجتهاداً عظيماً في مثله وهذا خطأ، ومنهم من يكون قصده من طلب ذلك تثبيت

(١) الاتحاد: تصيير ذاتين واحدة، ولا يكون إلا في العدد وهو محال، انظر: ملحق التعريفات ص٢٤٢.
(٢) السكر: غيبة بوارد قوي، المصدر نفسه ص٢٣٦.
(٣) الحيرة: بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم، انظر: اللمع ص٤٢١.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى ١١/ ٣٨٤، ٣٨٥.
(٥) الكرامة: هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة، انظر: التعريفات ص١٨٤.

قلبه واطمئنانه لصحة طريق سلوكه ولعله يغتم أو يتهم نفسه وعمله إن لم يحصل له ذلك)[1].

يقول ابن الجوزي رحمه الله مصوراً هذا الحال: (ومن العباد من يرى ضوءاً أو نوراً في السماء، فإن كان رمضان قال: رأيت ليلة القدر، وإن كان في غيره قال: قد فتحت لي أبواب السماء، وقد يتفق له الشيء الذي يطلبه فيظن ذلك كرامة، وربما كان اتفاقاً، وربما كان اختباراً، وربما كان من خدع إبليس، والعاقل لا يساكن شيئاً من هذا)[2].

ومما يزيد الأمر خطورة، ما قد عرفنا فيما سبق أن هؤلاء القوم يسخرون من تعلم العلم الشرعي، ولا يحفلون به، ثم يدخلون خلواتهم ويستشفون كراماتهم، وليس معهم من نور العلم ما يكشفون به حقائق واقعاتهم، وربما تكلموا عن الله وعن ما يتعلق به سبحانه بغير علم والكرامات حق، ولكنها لا تأتي من هذا الباب.

يقول ابن تيمية رحمه الله في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: (فالقول على الله بغير علم، والشرك، والظلم والفواحش، قد حرَّمها الله تعالى ورسوله، فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها ـ ذلك ـ كاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية، . . . وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم، وهم على مذهبهم، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ، فإن كان الإنسي كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمون من الجن وغيرهم)[3].

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٢٠ ـ ٣٣٤. (٢) تلبيس إبليس ص٤٥٦.

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٧١، ٧٢ شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت بدون تفاصيل أخرى عن الطبعة.

وهذه هي الحقيقة، ففي كتاب (شمس المعارف الكبرى) جعل صاحبه يعدد أنواعاً من الرياضات التي لها خدَّام مسخَّرون يلبُّون للراغب حاجته، فيقول في إحدى تلك الرياضات وهي (رياضة: يا كريم يا رحيم، والقسم والبخور)، يقول فيها: اعلم أنك إذا أردت العمل بهذه الدعوة الشريفة وهذه الرياضة فتختلي في مكان خال من الناس. . . وتصوم مدة الخلوة والرياضة ولا تفطر إلا على زيت وزبيب ودقيق الشعير والخل وتكون مدة الخلوة (٧) أيام أولها الأحد وآخرها السبت، . . . إلى أن يقول ـ . . . فإذا كان في ليلة الأحد نصف الليل فيأتيك في منامك أو يقظتك ويقول: ماذا تطلب وتريد يا عبد الله، فتقول: أريد من فضل الله ومن فضلك. . . والبخور عود قاقلي وجاوي وند. . . وهذه صورة القسم تقول: اللهم إني أسألك يا شمخ شماخ العالي على كل براخ أناديك يا جبريل تأمر منادياً من السماء ينادي من قبلك يا سماشنوت شنوت ما سمعك عبدك إلا خضع وخشع، ولا جبار إلا تزعزع. . . حتى نعلم من علمك ما علمتنا، ونتصرف به تصرف الروحانيين بسر اسمك. . .) إلخ[1].

فمن هؤلاء المنادون ومن هذا الآتي؟ وما هذا المسلك الممهد المؤدي إلى نتيجة محددة؟ وهل ما يحصل بمسلك كهذا يعد كرامة؟؟؟ بل إن جعل التأثير والكرامات غاية وسلوك هذه المفاوز ودخول هذه المغاور بحثاً عنها في حال تطغى عليها ظلمة الاختلاء الحسي، وظلام غياب العقل والشرع المعنوي، هي التي تجعل هؤلاء صيوداً في قيود الجان، في الوقت الذي يظنون فيه أنهم يتصيدون الكرامات، فربما غرفوا ما يظنونه كرامة، ولكن من حيث يغرف أولياء الشيطان، وقد يعرفون ذلك أو لا يعرفون، وكيف لهم أن يعرفوا وقد تجردوا عن النور الحسي والمعنوي.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف ص١٢٦ وما بعدها، أحمد بن علي البوني، المكتبة الشعبية، بيروت لبنان، ١٩٧٠م.

المطلب السادس

خطأهم في الوسيلة والمطلوب

الإسلام كرم العقل وجعله مناطاً للتكليف، ورفع القلم حال غياب العقل، والإسلام استهل أوامره بـ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾[1]، وجعل درجات أهل العلم أرفع الدرجات: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[2].

وجاء هؤلاء القوم بمسلك اختاروا فيه تغييب العقول، والتزهيد في العلم الذي رغب فيه الشارع، وهذا تجريد للإنسان من كل ما تميز به، العقل الذي ارتفع به عن نوع الحيوان، والعلم الذي سجدت له من أجله ملائكة الرحمن، ثم هو تجريد للإنسان من سلاحه في أثناء المعركة، فهو لا يزال في دار العمل، وكيف له أن يعمل أو يسير مستقيماً وقد غاب عنه النيران: العقل والعلم، ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾[3].

ثم إذا كان الذكر وغيره من العبادات والرياضات والرسوم، التي اتخذها هؤلاء القوم وسيلة لهم إلى مطالب خاصة شذوا فيها عما تكون العبادة من أجله، فهم يريدون نتائج عباداتهم في العاجل، مع أن الدنيا ليست بالضرورة هي الساحة التي ينتظر فيها المسلم الثواب والجزاء، ولو صح لنا أن نقول عكس[4] ما قالوا، لقلنا إن ما يحصل في الدنيا من الثواب العاجل وإن كانت

(١) سورة العلق: الآية ١ ـ ٥. (٢) سورة المجادلة: الآية ١١.
(٣) سورة الملك: الآية ٢٢.
(٤) أردت أن أقول: إن عاجل ثواب الدنيا حكمه حكم علف الدواب، كما قالوا هم عن ثواب الآخرة، ثم عزفت عن ذلك، أما هذا المذكور وكونه ليس المعول عليه فصحيح، والله أعلم.

تفرح به النفوس وتطمئن به القلوب كما في قوله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾[1]، وقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾[2]، بيد أن ذلك ليس هو المعول عليه، وإنما الغاية هي الفوز في عرصات القيامة والنجاة يوم الندامة: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[3]، وليس قبل ذلك.

أما هؤلاء فمع خطئهم في الوسائل التي يتعبدون بها، فإن غاية المطلوب من عباداتهم ومجاهداتهم هو ما يحصلونه هنا في دار الدنيا، من تلك الأمور المشار إليها، كالكشوفات والاطلاع على المغيبات والتلقي عن أرواح الغائبين من أحياء وأموات، بل وربما التلقي عن رب السماوات ﷻ.

يقول الشاطبي رحمه الله مستشكلاً مطلوب هؤلاء القوم: (ومما يشكل من هذا النمط التعبد بقصد تجريد النفس بالعمل، والاطلاع على عالم الأرواح ورؤية الملائكة وخوارق العادات ونيل الكرامات، والاطلاع على غرائب العلوم، والعوالم الروحانية وما أشبه ذلك، ولقائل أن يقول إن قصد مثل هذا التعبد جائز وسائغ؛ لأن حاصله راجع إلى طلب نيل درجة الولاية وأن يكون من خواص الله ومن المصطفين من الناس، وهذا صحيح في الطلب مقصود في الشرع الترقي إليه، وقد يقال: إنه خارج عن ذلك لأنه تخرص على علم الغيب، ويزيد بأنه جعل عبادة الله وسيلة إلى ذلك، وهو أقرب إلى الانقطاع عن العبادة لأن صاحب هذا القصد داخل بوجه ما، تحت قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾[4].

كذلك هذا إن وصل إلى ما طلب فرح به، وصار هو قصده من التعبد، فقوي في نفسه مقصوده، وضعفت العبادة، وإن لم يصل رمى بالعبادة، وربما كذب بنتائج الأعمال التي يهبها الله لعباده المخلصين، ولا أعلم دليلاً يدل على طلب هذه الأمور، بل ثم ما يدل على خلاف ذلك... والعلم إنما يطلب

(١) سورة الصف: الآية ١٣. (٢) سورة الأنفال: الآية ٧.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٥. (٤) سورة الحج: الآية ١١.

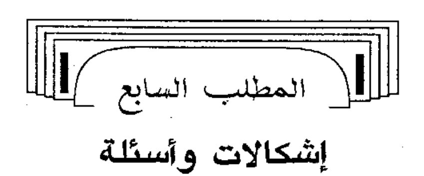
شرعاً لأجل العمل، وما في عالم الشهادة كاف وفوق الكفاية، والزيادة عليه فضل وإن كان مطلوباً بالجملة كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، وطلب الخوارق بالدعاء وطلب فتح البصيرة به للعلم لا نكير فيه، وإنما النظر فيمن أخذ يعبد الله ليرى هذه الأشياء، فالعبادة إنما قصد بها التوجه لله فلا تتحمل الشركة، ولولا أن طلب الأجر والثواب الأخروي مؤكد لما ساغ القصد إليه بالعبادة)[2].

وبهذا يتبين لنا مطلوب القوم من العبادة عموماً، ومن الذكر على وجه الخصوص، وتبيّن ضمناً ما في الوسيلة من وعورة، وما في المطلب من عوار، والمتأمل في صنيع القوم يرى رحلة في ظلام على مسلك زلق لمقصد خطر، وغايات تأبى مجانبة الخطأ، والله أعلم.

❃ ❃ ❃

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٢) انظر: الموافقات ٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٧.



المطلب السابع

إشكالات وأسئلة

يضاف إلى ما سبق أن هناك إشكالات في صنيع القوم، تصوغ من نفسها أسئلة تلح عليهم بالإجابة، وهي من نواح:

❖ الناحية الأولى:

أنهم يقولون، إن طريقهم ومسلكهم ورسومهم تؤدي بالسالك إلى زوال الحجب، وإلى الكشف، بل إن مريدهم يشاهد في مستهل الطريق أرواح الملائكة والأنبياء ويسمع منهم ويأخذ، ويشرَع له باب الغيب، وقد يصل إلى الأخذ عن الله بلا واسطة، وقد نقلنا هذا من كتبهم وأقوالهم بما لا يحيج هنا للتكرار[1].

بل إن من هؤلاء من يضمن لمن يأخذ عنهم الذكر أن تحصل له الكرامات حتى لو لم يكن صادقاً، إكراماً من الله لشيخ الطريقة، ومروءة من الشيخ وغيرة منه[2].

والإشكال والسؤال على هذا، هو: كيف يكون أمر الغيب وتجاوز حجبه والتلقي عن عالمه ميسوراً هكذا ومؤكداً ومع بداية الطريق، بل لمن أخذ مسلكهم ولو كان عابثاً، مع ما علم ضرورة من أن الغيب لله، وليس لأحد في السماوات والأرض منازعة إليه، كما قال ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: الأنوار القدسية ١/ ٣٤ ـ ٤٢، والمنقذ من الضلال ص١٤٠، وقلادة الجواهر ص٢٨١؛ وجوهر المعاني في فيض التجاني ١/ ١١.

(٢) وهو عند الرفاعية فقد يكتسب المنتهي إليهم أن يلعب بالنار والدبوس والحيات، والكرامة ليست له بل لشيخ الطريقة، انظر: قلادة الجواهر ص٢٨٠.

وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[1]، وإعلان الرسول ﷺ صراحة بأنه لا يعلم الغيب كما ذكر الله ذلك في غير ما موضع من كتابه، وأمره أن يعلم أمته بذلك: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾[2]، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾[3].

فهو ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه بالوحي: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[4]، ومما يؤكد ذلك أنه ربما تأخر عنه خبر السماء، وليس له ولأهل الأرض بمن فيهم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأجلاء الأصحاب من سبيل إلى ذلك، ويفتر عنه الوحي وهم أحوج ما يكونون إلى الفصل في نازلة ما، وربما طالت النازلة بشررها بيت الرسول ﷺ وبعض من آله، كما حصل في قصة الإفك الذي رميت به زوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، الأمر الذي أصبح بسببه المجتمع المسلم في عرضة وتمحيص شديدين حتى إن الأوس والخزرج كادت أن تقتتل، كما جاء في الحديث: (فثار الحيَّان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبر)[5]، واستمرت المحنة بالمسلمين وبعائشة رضي الله عنها شهراً كاملاً كما في الحديث: (وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء)[6].

وزيادة على هذا يأتي النبي ﷺ إلى عائشة وعندها أبواها فيقول: «فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه»[7].

وليس فوق هذا شيء أقسى على الحبيب من الحبيب، زيادة على الهجران الذي أتى على الثلاثين يوماً بلياليهن، وهذه صورة عجيبة وفترة عصيبة قاتمة غيمت على بيوت المسلمين وحبست أنفاسهم شهراً، وكادت تودي بالمسلمين

(1) سورة النمل: الآية ٦٥.
(2) سورة الأنعام: الآية ٥٠.
(3) سورة الأعراف: الآية ١٨٨.
(4) سورة الكهف: الآية ١١٠.
(5) الحديث بتمامه أخرجه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم مع شرح النووي كتاب التوبة حديث الإفك ١٧/٢٠٢ ـ ١١٣.
(6) المصدر نفسه، ونفس الحديث.
(7) المصدر نفسه، ونفس الحديث.

إلى الاقتتال، وطال فيها القيل والقال في أحب أزواج النبي ﷺ إليه، ولم ينجل الغبار على طول الانتظار إلا عندما جاء الفرج من جهة السماء ونزل الوحي بشأن الحادثة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾[1].

سبحان الله ما أشدها من محنة لو تصورها المرء في بيته ولو لبضع ساعات تخيم على بيت النبوة شهراً بتمامه، فنقول: وعسير على النفس الانتقال من هذه الصورة دون مزيد من الاعتبار لنعود على القوم بالسؤال:

هل ترى غاب عن النبي ﷺ أن يمارس عبادة ما، أو واحدة من رياضاتكم أو أذكاركم المجربة خلال شهر كامل، حتى ينفتح له الغيب ويتلقى حقيقة الأمر من العوالم الروحانية، لا سيما والأمر هين، فهو في عتبة الطريق عندكم كما يقول أبو حامد الغزالي[2]: (ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد)[3].

نبي الله ورسوله وحبيبه محمد ﷺ أمين الله على وحيه يحبس عنه الغيب شهراً كاملاً وهو أحوج ما يكون إليه، وأنتم يفتح للسالك عندكم من أول

(1) سورة النور: الآية ١١ ـ ٢٠.
(2) الغزالي: هو محمد بن محمد بن أبو حامد الغزالي، ولد سنة ٤٥٠هـ، تفقه على إمام الحرمين، وبرع في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة، كان أعجوبة الزمان، ومن أذكياء العالم، في كل ما يتكلم فيه، ودرس بالمدرسة النظامية وله أربع وثلاثين سنة، وحضر عنده رؤوس العلماء في ذلك الوقت، وكان ممن حضر عنده ابن عقيل وأبو الخطاب من رؤوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه، ثم إنه أقبل على أعمال الآخرة، وأقام بدمشق وبيت المقدس، وصنف في هذه المدة كتابه إحياء علوم الدين مشتملاً على علوم كثيرة من الشرعيات، ممزوج بأشياء لطيفة من التصوف، وأعمال القلوب، وفيه الكثير من غرائب ومنكرات الأحاديث، ومنها ما هو موضوع، وقد شنع عليه بعض العلماء منهم ابن الجوزي وابن الصلاح، توفي رحمه الله في سنة ٥٠٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢ ـ ٣٤٦، والبداية والنهاية ١٦/٢١٣ ـ ٢١٥.
(3) المنقذ من الضلال ص١٤٠.

الطريق، سبحان الله، ما أحرانا هنا من إعادة قراءة الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾[1]، ومن يتولى كبر هذا الزعم لا أخاله يقلّ جرماً عمن تولى كبر حديث الإفك، والله أعلم.

❖ الناحية الثانية، والإشكال الآخر:

مبني على ما سبق، وهو أن الغيب ليس للناس إليه من سبيل، فقد يطلع الله من شاء على ما شاء حينما يشاء ابتداءً منه سبحانه، ولا يُستدعى استدعاء، فليست هناك عبادات تفعل لذلك، ولا رياضات خاصة، ولا أذكار، وهذا هو المعلوم المقرر لدى أهل الأديان السماوية وأتباع الأنبياء، وحسبنا ما ذكرنا من شأن الرسول ﷺ مع حادثة الإفك[2]، وحال أكمل المؤمنين وأرجحهم إيماناً بعد الرسول ﷺ أبو بكر الصديق، والمرمية بالإفك فلذة كبده، بيد أنه لا يعرف إلى الغيب سبيلاً، وقل مثل ذلك عن بقية المسلمين بطريق الأولى، وهذه هي جهة الحق، والأمر عندكم على خلافها فأنتم تقولون: «وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب»[3]، فمن أي جهة اغترف هؤلاء علومهم حتى يجمعوا على علمهم بمفتاح للغيب، والله يقول: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[4] على أننا لو تلفتنا عن جهة أهل الأديان السماوية وعن الرسالات، إلى من هم بالمقابل ممن لا يشك في باطلهم من أهل الأهواء الماشين على رؤوسهم منذ القدم فسنجدهم يزعمون أن للغيب طرقاً وأبواباً ومفاتيح، ولهم كما لكم لذلك رياضات ورسوم وطقوس، بل أدعية وأذكار وكلمات.

والسؤال: ما العلاقة بينكم وبينهم، ولماذا اختلف نهجكم مع جهة الأنبياء ووافق أهل الأهواء سواء بسواء؟ خاصة ونحن نعلم بأن رياضات

---

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) وليست هذه الحادثة هي الأولى والأخيرة التي يتأخر فيها خبر السماء، فمثلها كثير، ومن ذلك توبة كعب بن مالك وصاحبيه حين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وحبس الوحي في أمرهم خمسين ليلة حتى نزلت توبتهم من السماء، ومن ثم علم أهل الأرض بصدق توبتهم، انظر الحديث في صحيح مسلم مع النووي ٩/ ٨٧ ـ ١٠١.

(٣) الأنوار القدسية ١م ٣٤ ـ ٤٢.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

التطلب الخاص فلسفية قديمة ومنقولة عن قدماء الحكماء المتألهين المعتنين بتجريد النفس بهدف الاطلاع على العوالم التي وراء الحس، ولهم لذلك رسوم مقررة كالامتناع عن أكل ذوات الأرواح وما انفصل عنها إلى غير ذلك[1].

وجُل أهل الأهواء ونحلهم منذ القدم تفترق وتلتقي على هذا، كما يلخص الشهرستاني[2] ذلك مسمياً إياهم بـ(أصحاب الروحانيات) ويحكي عنهم قولهم: طريقتنا في التوسل إلى حضرة القدس ظاهر وشرعنا معقول، فإن قدماءنا من الزمان الأول لما أرادوا الوسيلة عملوا أشخاصاً في مقابلة الهياكل العلوية ـ أي الكواكب ـ على نسب وإضافات راعوا فيها جوهراً وصورة، وعلى أوقات وأحوال وهيئات أوجبوا على ما يتقرّب بها إلى ما يقابلها من العلويات تختماً ولباساً وتبخراً ودعاءً وتعزيماً فتقربوا إلى الروحانيات، فتقربوا إلى رب الأرباب، وهو طريق متبع وشرع ممهد[3].

وما عدى أتباع الأنبياء، فجُل أهل الضلالات من قدماء الفلاسفة وأهل الهند في مقولاتهم وفرق الصابئة، الذين هم في مقابلة أهل الأديان، كان لكل أولئك على زعمهم نوع اتصال ووسائط للاتصال، قال في الفهرست: زعم طائفة من الفلاسفة، وعبدة النجوم، أنهم يعملون في الطِّلّسْمات على أرصاد الكواكب لجميع ما يريدونه من الأفعال البديعة والتهيجات والعطوف والتسليطات... وهذا علم فاش ظاهر في الفلاسفة، وللهند اعتقاد في ذلك وأفعال عجيبة، وللصين حيل وسحر من طريقة أخرى، وللهند خاصة علم

---

(١) انظر: الموافقات ١/ ٣٠٧.

(٢) الشهرستاني: هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني، ولد سنة ٤٧٩هـ، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة يلقب بالأفضل، كان مولده بشهرستان بين نيسابور وخوارزم، وانتقل إلى بغداد سنة ٥١٠هـ فأقام بها ثلاث سنين وعاد إلى بلده وتوفي هناك، ويؤخذ عليه تخبطه في مسائل الاعتقاد، من كتبه: الملل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، والإرشاد إلى قضايا الاعتقاد، وتلخيص الأقسام لمذاهب الأنام، وغيرها، توفي سنة ٥٤٨، انظر الأعلام ٦/ ٢١٥.

(٣) الملل والنحل، لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني ص٢٨٦، وانظر ص٢٦٠ وما بعدها، تحقيق عبد العزيز الوكيل، طبعة دار الفكر، بيروت، دون بيانات أخرى.

التوهم ولها في ذلك كتب[1].

ويذكر الشهرستاني كيفية التعامل مع الكواكب قائلاً: «لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط ولا بد للمتوسط من أن يرى فيتوجه إليه ويتقرب به فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع فتعرفوا أولاً بيوتها ومنازلها، وثانياً مطالعها ومغاربها، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها، ورابعاً تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها، فعملوا الخواتيم، وتعلموا العزائم والدعوات، وعينوا ليوم زحل مثلاً يوم السبت، وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته وصنعته، ولبسوا اللباس الخاص به، وتبخروا ببخوره الخاص ودعوا بدعواته الخاصة به، وسألوا حاجتهم منه الحاجة التي تستدعى من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به، وهكذا مع غير زحل لبقية الحاجات والآثار للكواكب الأخرى[2].

والسؤال ما العلاقة بين مسلك هؤلاء وبين مسلك مبتدعي الأذكار، لا سيما وأن القواسم المشتركة واضحة وتتمثل فيما يأتي:

١ ـ الاعتماد على الحساب والأرقام والأعداد المحددة.

٢ ـ اشتراط الهيئة المعينة والأغذية المعينة.

٣ ـ اختيار الألفاظ والدعوات والعزائم المعينة.

٤ ـ اشتراط تبخير الموضع.

٥ ـ تحديد الأيام المعينة للدخول والخروج.

٦ ـ اعتبار اتباع المسلك موصل للنتيجة.

٧ ـ النتيجة هي الاتصال بالعالم العلوي والأرواح الطاهرة والتعامل معها

(١) الفهرست ص٤٨٢، أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالنديم، ضبط وتعليق الدكتور يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) انظر: الملل والنحل ص٢٥٧ و٣٠٣ وما بعدها.

إلى غير ذلك[1] مما هو معروف في آداب الذكر والخلوة عند القوم، وسنذكر بعد طرفاً من ذلك.

وحول هذه المفارقة والأوضاع والأحوال المتجانسة يقول ابن تيمية: (وهذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكين، واشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية فمن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة، وقوت معين، ولهم تنزلات معروفة، وهي تنزلات شيطانية، ثم إن هذه الطريقة ـ يعني الاختلاء بأوضاع مخصوصة تهيئة لحصول العلوم والتنزلات ـ لو كانت حقاً فإنما تكون في حق من لم يأته رسول، فأما من أتاه رسول وأمر بسلوك طريق، فمن خالفه ضل، وخاتم الرسل ﷺ قد أمر أمته بعبادات شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة، لم يأمر قط بتفريغ القلب من كل خاطر، وانتظار ما ينزل، فهذه الطريقة لو قدر أنها طريق لبعض الأنبياء لكانت منسوخة بشرع محمد ﷺ فكيف وهي طريقة جاهلية لا توجب الوصول إلى المطلوب إلا بطريق الاتفاق، إذ أن ما يجعله الله في القلوب يكون تارة بواسطة الملائكة إن كان حقاً، وتارة بواسطة الشياطين إذا كان باطلاً، والملائكة والشياطين أحياء ناطقون، والإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر، فمن أين يعلم أن ما يحصل فيه حق)[2].

ولقد استنكر بعض الخيرين من الصوفية أنفسهم، فشو هذه النزعة بين أرباب الخلوات من القوم، وأن هذه الطريقة التي يتبعونها يشتركون فيها مع أهل الباطل، فها هو أحدهم يسجل شهادته فيقول: (وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار، واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة، والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقاً، . . . وما

(١) انظر لمجمل هذه الأمور ولشروط خلوة الذكر، أعداداً وألفاظاً وهيئة وأغذية وأياماً ونتيجة وترقياً: قلادة الجواهر ص٢٨٥ ـ ٢٩٠.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٠/٣٩٨ ـ ٤٠٣.

كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة الرسول ﷺ ينتج عنه صفاء في النفس يستعان به على علوم رياضية مما يعتني به الفلاسفة والدهريون، وكلما أكثروا من ذلك كثر بعدهم عن الله، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية، أو بما يتراءئ له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون، ويظن أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة، ولا يعلم أن الفن بالفائدة غير ممنوع منه النصارى والبراهمة)[1].

وهذا الفن المجرب المعلوم لدى كل الراغبين في تفريغ الخاطر واستجماع القوى، هو الذي ألبسه المبتدعة غطاء الذكر من خلال التركيز على مفردات معينة.

قال في المقدمة: ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه، واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر، حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها، فإذا حصل ذلك، زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذٍ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود، وتصوروا حقائقها كلها... ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة، لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة، وإن لم يكن هنالك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين...)[2].

وقصدُ هؤلاء السالكين من رياضاتهم وكلمات أذكارهم هو تفريغ القلب والذهن وتهيئة النفس لما يتنزل عليها بأي حال كان، ولهذا صار بعض من يأمر به من المتأخرين يبين أنه ليس قصدنا ذكر الله تعالى، ولكن جمع القلب على شيء معين حتى تستعد النفس لما يرد عليها، وأبلغ من ذلك من يقول: ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان، حتى يقول ـ والعياذ بالله ـ لا فرق

(١) نور التحقيق في صحة أعمال الطريق ص١٠٩، حامد إبراهيم الشاذلي.
(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ص٤٧٠، طبعة دار الفكر، دون مزيد بيان.

بين قولك: يا حي، أو قولك يا جحش، ومقصودهم بذلك أن تجتمع النفس حتى يتنزل عليها)[1].

ولعل وجود بعض الكلمات الأعجمية الغريبة في بعض أذكارهم ودعواتهم هي من هذا القبيل إن لم تكن أسماء للجن مقصودة يدعونها ويستعيذون ويستغيثون بها على طريقة مشركي العرب كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾[3]. وهؤلاء هم مشركو العرب في جاهليتهم كان لهم هذا النوع من الاتصال والتعامل مع الجن المفضي إلى عبادتهم، مع زعمهم بأن تعاملهم إنما هو مع الملائكة ـ وهي التي تتنزل عليهم ـ كما يقول شارح الطحاوية: (فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وأنها تنزل عليهم: ضالون، وإنما تنزل عليهم الشياطين)[4].

وهذا يضاف إلى أن التعامل مع عالم الغيب بمثل هذه المسالك كان شاملاً، حتى لجاهلية العرب الجهلاء، فهي أيضاً تزعم أن الملائكة تتنزل عليها.

الناحية الثالثة: والإشكال والسؤال الثالث ـ وقد وصل الكلام إلى هذا التداخل بين مسالك مبتدعة الأذكار وبين أهل الفلسفات القديمة في نظرياتهم وتطلبهم للاتصال، وأهل الجاهليات في ادعائهم لذلك ـ فهنا أيضاً وعلى مقربة مما نحن فيه ثمة أمر أسوأ، إذ أن من طبيعة السيء والأسوأ المجاورة، وهذا المجاور هم أهل الكهانة والعرافة والسحر الذين هم حزب الشيطان الصريح، لأنهم يقدمون طاعتهم له، ويتعلمون حيلهم منه، كما قال عنهم سبحانه:

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٣٩٦، ٣٩٧. (٢) سورة الجن: الآية ٦.
(٣) سورة سبأ: الآية ٤٠، ٤١.
(٤) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ص٥٠٥، ٥٠٦.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[1] فإذا نظرنا لنقارن بين هذا الفريق وبين كل من سبق نجدهم يشتركون معاً في نفس القواسم التي هي:

١ ـ استشراف الغيب والتعامل مع القوة العلوية والخفية.

٢ ـ كشف حقائق الأمور والبحث عن المؤثرات في الحياة والأحياء.

٣ ـ التمتع بهذه الأمور على أنها كرامات أو استخدامها في الإيذاء والإيقاع.

والسؤال هو: ما العلاقة بين هؤلاء جميعاً، ثم ما العلاقة بين حزب الشيطان الذين هم أسوأ من في القائمة، وبين أهل الأذكار المبتدعة؟

مع العلم بأن العلاقة بين السحرة والكهنة، وبين أهل الفلسفات القديمة من أصحاب الروحانيات والكواكب هي علاقة فرع بأصل، إذ بينهم سبب ونسب، فالآخرين خلف للأولين، يقول الشهرستاني عن ذلك: (ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منهم العجب، وهذه الطلسمات المذكورة في كتب السحر والكهانة والتنجيم والتعزيم والخواتيم والصور كلها من علومهم)[2].

وإذا كانت هذه هي العلاقة والصلة بين موج السيئ والأسوأ من الظلمات المتلاطمة عبر تاريخ البشرية، فلم سلك مبتدعة الأذكار من الصوفية هذا الوادي وبنفس القواسم والمعالم ولمقصد ومطلب لا يكاد يختلف؟ الأمر الذي حير كثيراً من الباحثين حين رأوا هذا التداخل والتماثل فها هو أحدهم يقول: فالصوفية في هذا يشبهون السحرة أو الكهان أو ضحايا الزار حين يتركز انتباههم على كلمات معينة، أو إيقاع مخصوص فيخرجون من طورهم ويغيبون عن الظاهر ويعيشون في الخيال، وفي ذلك العالم الذي خرجوا إليه الوسوسة والاضطراب... والأمر لا يفترق كثيراً فيما يقوم به الساحر من تدريب لكي

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٢) الملل والنحل ص٣٠٤.

يؤهل نفسه لممارسة السحر من أساليب ينمي بها اضطرابه العصبي ويصل إلى حالة الانجذاب، وكذلك الأمر في خلوة الصوفية ورياضتهم وصيامهم مما تسمع عنه العجب، وتقف بين التصديق والتكذيب[1].

وهذا القول ليس فيه تحامل، فإن المتأمل لن يرى بين هذه الصور كثير فرق لا في المسلك ولا في الأثر والنتيجة، وكثيراً ما يتعدى الأمر تشابه الصور إلى تبادل الأدوار، وقيام دعي من أحد الفريقين بدور الآخر، فما أكثر أن تجد ساحراً دجالاً وقد ارتدى جبة شيخ وعمامته وعرف بذلك، أو شيخاً طرقياً معروفاً، لا تمنعه الجبة والعمامة عن القيام بدور الكاهن والعراف، وعن مثل هذا يتحدث صاحب شرح الطحاوية في ممارسات أمثال هؤلاء التي حفلت بها ديار المسلمين وأزبدت على كثير من المجتمعات حيناً من الدهر، وما تزال تفعل ذلك، في كل جزء لم يسطع عليه بعد نور الصحوة يقول: (والواجب على ولي الأمر وكل قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى... ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات، أو يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك... وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع: منهم أهل تلبيس وكذب وخداع، الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له، و يدع الحال من أهل المحال من المشايخ النصابين والفقراء الكاذبين والطرقية الماكرين، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة... ونوع يتكلم في هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر)[2].

وكم يبلغ العجب بالمرء وهو بصدد القراءة عن هذا التداخل والتشابك والتلاقي بين مبتدعي الأذكار وبين أهل الشعوذة والسحر، أن يجد كل هذه البضاعة بدءاً من منازل القمر والفلكيات والبروج وإشاراتها وارتباطاتها،

(١) انظر: ولاية الله والطريق إليها، للشوكاني، دراسة وتحقيق إبراهيم بن إبراهيم هلال ص١٦٣، ١٦٤، مطبعة المدني، توزيع دار الكتب الحديثة، دون مزيد بيان من كلام محقق الكتاب.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ص٥٠٤، ٥٠٥.

والفصول وأوفاقها، إلى جانب أحكام الخلوة الموصلة للعلويات وأسرار الحروف والمقطعات وأسماء الله الحسنى وما لها من التصريفات والأذكار والدعوات المسخرات، بل والطلسمات النافعات، والحروف العربية وما لها من الكواكب والخدام، واستخداماتها وخلواتها إلى جانب علم السيمياء[1] وجميع المقالات... إلخ ما هنالك، وقد رتب على بعضه، ونسق وكأنه جسم واحد، لا ينفصل عن بعضه، وعلم قديم لا تختص به أمة دون أخرى، في كتاب واحد لكاتب واحد، يقدم للراغب في طبق بين دفتين وقد أودع فيه ما يمكنك من خلاله أن تكون ممن ترغب من أصحاب هذه الأفعال، كاهناً أو عرافاً، أو تعمل ما يؤثر ويؤذي ويجمع ويفرق، أو تتعامل مع خدام الأسماء والحروف في تنفيذ المطالب والحاجات، كما يمكنك أن تكون شيخاً واصلاً عارفاً للأسرار والتصريفات من خلال الأذكار والأدعية والرياضات والخلوات، فقد تجد هذا وغيره مثلاً في كتاب (شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف)[2] لأحمد بن علي البوني[3].

وهذه بعض عناوين فصول الكتاب: الفصل الأول: في الحروف المعجمة

(١) علم السيمياء، قد يطلق هذا الاسم على ما هو غير الحقيقي من السحر وهو المشهور، وحاصله إحداث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس، وقد يطلق على إيجاد صور في الحس فحينئذ يظهر بعض الصور في جوهر الهواء فتزول سريعة لسرعة تغير جوهر الهواء، ولا مجال لحفظ ما يقبل من الصورة في زمان طويل، وأما كيفية إحداث تلك الصور وعللها فأمر خفي لا اطلاع عليه إلا لأهله، وحاصله أن يركب الساحر أشياء من الخواص والأدهان والمائعات وكلمات خاصة توجب بعض تخيلات خاصة... إلخ انظر كشف الظنون ٢/ ١٠٢٠.

(٢) انظر: كتاب شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف للبوني، المكتبة الشعبية، بيروت ١٩٧٠، ولا يوجد مزيد بيان عن الطبعة.

(٣) البوني: هو أحمد بن علي بن يوسف البوني متصوف مغربي نسبته إلى بونة بإفريقيا على الساحل، كنيته أبو العباس عالم بعلم الحروف، من تصانيفه، مفاتيح أسرار الحروف ومصابيح أنوار الظروف، ولطائف الإشارات في أسرار الحروف، وله شمس المعارف ولطائف العوارف في علم الحروف والخواص، وغير ذلك، توفي سنة ٦٢٢هـ انظر الأعلام ١/ ١٧٤، ومعجم المؤلفين ١/ ٢٥، ٢٦.

وما يترتب فيها من الأسرار والإضمارات، الفصل الثالث: في أحكام منازل القمر الثمانية والعشرين الفلكيات، الفصل الرابع: في أحكام البروج الإثنى عشر، وما لها من الإشارات والارتباطات، الفصل السادس: في الخلوة، وأرباب الاعتكاف الموصلة للعلويات، الفصل التاسع: في خواص أوائل القرآن والآيات البينات، الفصل الثاني عشر: في اسم الله الأعظم وما له من التصريفات الخفيات، الفصل السابع عشر: في خواص كهيعص وحروفها الربانيات الأقدسيات، الفصل التاسع عشر: في خواص بعض الأوفاق والطلسمات النافعات، الفصل الحادي والعشرون في أسماء الله الحسنى، وأنماطها وما لكل نمط من الدعوات والتصريفات، الفصل الحادي والثلاثون: في الحروف العربية وما لها من الكواكب والخدام، والمعادن والخلوات... إلخ فصول الكتاب[1].

والسؤال: ما الذي يجمع أولياء الرحمن مع أولياء الشيطان في واد واحد، وما هذه السلة التي جمعت كل الغلة، وما هذا الخلط الذي يُعدُّ فيه، الخارق والتأثير كرامة، وقد سلكت له خطوات وأعمال معينة، واستعدادت خاصة لاستدعائه وتحصيله، وكأني بسوق للتلبيس تضرب فيه البضاعة، ويحول العَطَلَّة فيه إلى باعة، على أن التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، هو من أولويات هذا الدين، إذ لا يجتمع هذان الفريقان في واد ولا فج، اللهم إلا لقاء نزال.

والذين يخطئون في التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان هم من يجعلون عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله، أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته للرسول ﷺ وموافقته لأمره ونهيه، وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور

(١) المصدر نفسه ص٤.

الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله فقد يكون عدواً لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي عليها الكتاب والسنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة[1].

وإلا فأولياء الله حق وصدق وكرامتهم حق وصدق، شهد بذلك القرآن والسنة، وشاهده التاريخ والواقع، لكنهم متميزون عن أولياء الشيطان كتميز أنبياء الرحمن عن متنبئي الشيطان.

○ **وهنا ما لا ينبغي فواته:**

إذا تقرر هذا وعلم، فلسنا مع قساة القلوب الذين حرموا طعم العبادة وحلاوتها، ولا المحرومين الذين لم يتذوقوا طعم الأنس بذكر الله، ولم يرشفوا من ألذ وأطيب ما ذاقته الأرواح في دار العمل، وهدأت وسكنت واطمأنت له وبه القلوب، وزكت ورقت به النفوس، من التقرب إلى الله والتحبب إليه والتذلل له، بإدامة ذكره والشوق إلى لقائه، دون غياب عن وعي وشعور، ولا اضمحلال أو تلاشي، فما تجده النفوس المؤمنة كلما ازدادات من الله قرباً بسماع آياته أو الاعتبار بمخلوقاته، وكلما انحنت الظهور راكعة لعظمته، وسجدت الجباه وخرَّت الأنوف لعليائه، وزفرت الأفئدة من خشيته، ورقت القلوب وخشعت واغرورقت العيون ودمعت، فهذه نعم لا يماثلها شيء عدا ما في الجنة من نعيم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2]، وهذا من ناحية أثر العبادات والأذكار في النفوس، وقد سبق الحديث عن هذه الناحية في تحقيق الذكر للتوحيد، وآثار الذكر في حق الأمة في الباب الأول.

ومن ناحية أخرى أيضاً هناك ما لا يتعجل في إنكاره وإن لم يكن

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/٢١٣، ٢١٤. (٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

استدعاؤه محموداً ولا مطلوباً، وهو ما يحدث لبعض النفوس الصادقة من ضعف حيال وقع سماع مشروع أو تأثير ذكر شرعي مما ينتج صياح أو سقوط من غير إرادة ولا تكلف، وهذه ظاهرة قديمة في حياة المسلمين فقد: (وجد في التابعين آثار ثلاثة: الاضطراب، والاختلاج، والإغماء أو الموت والهيام، فأنكر بعض السلف ذلك...، وأما جمهور الأئمة من السلف فلا ينكرون ذلك، فإن السبب إذا لم يكن محظوراً، كان صاحبه فيما يتولد عنه معذوراً، لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم، وضعف قلوبهم عن حمله، فلو لم يؤثر فيهم السماع لقسوتهم، كانوا مذمومين كما ذم الله الذين قال فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾[1]، وقوله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[2]، ولو أثر فيهم آثاراً محمودة لم يجذبهم عن حد العقل، لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضاً ومعذورين[3].

فما يحصل من التأثر لبعض النفوس الصادقة والقلوب الرقيقة حين سماعها السماع المشروع دون أن تتكلف، فليس ذلك مما ينكر، وإن لم يكن من أحوال الكمّل، وسيأتي عرض هذا في بداية نشأة الذكر البدعي، وعليه فالذي ينكر على أهل الابتداع في هذه الناحية أمران:

الأمر الأول: أن غالب أحوالهم لم تحصل من سماع مشروع أو أداء ذكر مرتب شرعاً على وجه وهيئة شرعية، وإنما تحصل من سماع الألحان والقصائد الغزلية، أو أذكار مرتبة من قبلهم في ألفاظها ومعانيها وأدائها وتلقينها، أو من سياحات وخلوات ورياضات ما كتبت عليهم إلا من أنفسهم.

الأمر الثاني: أن هذه الأحوال لا تأتيهم غلبة وإنما يستدعونها استدعاءً بسلوكهم من أجلها رسوماً ورياضات وأذكاراً محددة، وينتظرونها على أنها

---

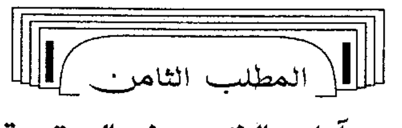
(١) سورة البقرة: الآية ٧٤. (٢) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١١/٥٩١.

حاصل جهدهم وجهادهم، بل على أنها فتحاً وحالاً.

ورأس المآخذ عليهم والذي أوردهم ما أوردهم هو مصادرتهم للعقل وتركهم للعلم جانباً كما أسلفنا، وعلى هذا فهم مسؤولون عما يترتب على هذه الحال التي ابتدعوها وجروا أنفسهم إليها حتى يغيب عنهم الوعي فتتفوه ألسنتهم بالمنكر، وتتساقط أشباحهم على قوارع الطرق بخلاف من يحصل منه ذلك اتفاقاً وغلبة دون أن يتجاوز الأذكار المشروعة فهو معذور مأجور، بل هو أفضل وأعلى من قساة القلوب الذين لا يرق لهم قلب ولا يطرف لهم جفن لسماع ذكر الله وآياته، والله أعلم.

❊ ❊ ❊



من آداب الذكر عند المبتدعة

لقد رأينا مقصد الذكر عند القوم، وعرفنا الغاية المرجوة منه، فليست هي الفوائد المحسوسة في المعاش، ولا تلك الأجور المرجوة في المعاد، بل هي الفتح والوصول، والفناء، والكشف ورفع الحجب، واستشراف الغيب.

فمفهوم الذكر مختلف عندهم كما تبين، والمقصود منه مخالف للشرع، والذكر نفسه خلاف المشروع، فكان من البديهي أن يشرعوا آداباً خاصة لسلوك هذا المسلك الذي هم أصحاب براءة الاختراع فيه، ولهم وحدهم حق الملكية لهذه البضاعة، ومن أراد أن يقوم بمهمة إيصالها للراغبين فعليه أن يحصل منهم على الإذن الخاص بذلك.

❖ فأوّل آداب الذكر وشروطه وآكدها عندهم:

اتخاذ الشيخ وأخذ الذكر بالتلقي وليس من الكتاب والسنة مباشرة، أو من أفواه العلماء في حلقات العلم، بل إن أخذ الذكر عن طريق التلقي يغني عن طلب العلم، قال في الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: وأما ثمرة التلقي الخاصة الذي هو تلقي السلوك بعد الدخول في سلسلة القوم فصورته: أن الشيخ يتوجه إلى الله تعالى ويفرغ على المريد من قوله له: لا إله إلا الله، جميع ما قسم له من علوم الشريعة المطهرة فلا يحتاج بعد هذا التلقي إلى مطالعة كتاب من كتب الشريعة حتى يموت[(١)].

فمن أراد أن يتحقق له هذا المرغب فيه من الترقية ومسلك المجاهدة المؤدي إلى الكشف فليس إلى ذلك من سبيل غير اتخاذ الشيخ، فالمرء بدراسة

---

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ١/٤١، ٤٢.

الكتب والاجتهاد في العلم والتفقه فيه قد يحقق الاستقامة في الدين، ويعرف طريق التقوى، أما الكشف من غير شيخ فلا، يقول في كتاب رماح حزب الرحيم عن هذا: (فالتقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها، والاستقامة تحتاج للشيخ في تمييز الأصلح منها وقد يكتفي دونه اللبيب بالكتب، ومجاهدة الكشف والترقية لا بد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها كرجوعه عليه الصلاة والسلام لورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ومبادئ ظهورها حتى فاجأه الحق)[1].

فالأمر الذي عند القوم ليس هو علوم الشرع والتفقه في الدين، وليس من قبيل تقوى الله والاستقامة على دينه، وإنما هو من باب الفتوحات والكشوفات واستشراف المغيبات في حال أشبه ما تكون بمبادئ ظهور النبوة.

والعوالم الخفية وأجواء عالم الغيب قد خبرها المشايخ وعرفوا مسالكها فمن العقل والفطانة تسليم القياد لهم: (إذ لا يخفى على من له أدنى دراية وفطانة أن السير في عالم الشهادة الذي هو عالم الجسمانيات براً وبحراً إذا كان بغير دليل يكون الغالب فيه الهلاك فضلاً عن أن يوصل إلى المقصود، فكيف في عالم الغيب الذي ليس من قبيل المحسوسات؟! فيجب على من في قلبه داعية السفر أن يبذل جهده في دليل عارف بعلامات الطريق خبير بالمهالك والمخاوف وآداب الدروب، قطع هذه البوادي المبيدة بقدم الصدق مراراً، وكثر مجيئه وذهابه فيها بعد أن وصل إلى الكعبة الحقيقية، فإذا وجد مثل هذا الدليل سلم نفسه إليه وتبرأ منها ويطلق اختياره ثلاثاً، ويفنيه في اختيار الدليل وإرادته، فإذا فعل ذلك استعد لتصرّف الشيخ)[2].

وكلام القوم في هذه الناحية وفي كثير مما شذُّوا به لا ينقضي عجب المرء حين يسمعه أو يقرؤه، ولو أن المرء قرأه عنهم في غير كتبهم، ربما لقال لعلّ الناقل أساء الفهم، وإلّا فكيف استقام هذا الادعاء الذي ورد في هذا

(١) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم ١/ ١١٢.
(٢) المصدر نفسه ١/ ١١٢، ١١٣.

النص، من أن عالم الغيب هناك من سلك طريقه وخبرها وقطعها جيئة وذهاباً حتى وصل إلى الكعبة الحقيقية فيها مراراً!! سبحان الله!!؟ وعلى كلٍّ فهم متواطئون على أن الشيخ هو المعول عليه، فلا يسلك مريد من غير شيخ البتة، فلا بد من شيخ عارف تستند إليه، قال بعضهم: الزم باباً واحداً تفتح لك الأبواب، واخضع لسيد واحد تخضع لك الرقاب[1].

فعلى المريد أن يأخذ الذكر من شيوخ الطرق أو عمن أذنوا له هم بإعطاء الأذكار والأوراد، وعند ذلك يحصل له النفع العميم، يقول أحدهم: ومن أخذ عني الورد المعلوم الذي هو لازم للطريقة أو عمن أذنته يدخل الجنة هو ووالده وأزواجه وذرياته المنفصلة عنه.... بلا حساب ولا عقاب بشرط أن لا يصدر منهم سب ولا بغض ولا عداوة ويدام محبة الشيخ بلا انقطاع إلى الممات، وكذلك مداومة الورد إلى الممات، ثم قال ﷺ: (قلت) لرسول الله ﷺ: هذا الفضل هل خاص بمن أخذ عني الذكر مشافهة أو هو لكل من أخذه ولو بواسطة؟ فقال لي: كل من أذنته وأعطى لغيره فكأنه أخذه عنك مشافهة أنا ضامن لهم[2]!!.

فقيمة الذكر ليست في جمال لفظه ولا في عظم مضمونه، ولا في سلامة مبناه ولا في فهم الذاكر لمعناه، ولا في مواطأة القلب له بالصدق حال الأداء، وإنما في كونه مما رتبوه هم ويؤخذ عنهم، أو عمن أذنوا له بالإعطاء، ويشترط الصدق فيه، ولكن في التعامل معهم وفي محبتهم، وليت الأمر يقف عند إعطاء المشيخة لهم وأخذ الذكر عنهم، وإنما هناك سلسلة من الآداب لتعامل المريد مع الشيخ تتلخص فيما يلي:

أن يبايع المريد الشيخ المرشد الكامل، ثم يربط حبل قلبه بالاعتقاد والتسليم لهذا المرشد ويحفظ قلب شيخه ويراعيه في الغيبة والحضور، ويتواضع له ولذريته ولأقاربه، ويثبت قدمه على خدمته وتنفيذ أوامره كلّيها وجزئيها، ويستحضر شخصه في قلبه في جميع المهمات مستمداً من همته،

(١) انظر: قلادة الجواهر ص٢٧٧. (٢) جواهر المعاني ١/ ١٠٠.

ويفني فيه ويلازمه ولا يفتر عنه طرفة عين، ولا ينكر عليه ما ظهر منه من صفة عيب فلعله لا يعرف باطن الأمر، وليحذر من الإنكار عليه لأن المنكر قد تتغير عليه قلوب المشايخ، ومن تغيرت عليه قلوب المشايخ لا يفلح أبداً، ولا يعترض عليه في شيء، ولو كان ظاهره أنه حرام، ويؤول ما يبهم عليه، ولا يلتجئ إلى غيره من الصالحين إلا بإذنه، ولا يحضر مجلس غيره، ولا يسمع من سواه حتى يتم سقيه من ماء سرّ شيخه، وأن يرى كل نعمة وصلت له من بركته، وأن يلازم الورد الذي رتبه له فإن مدد الشيخ في ورده، فمن تخلّف عنه حرم المدد[1].

هكذا يصل الأمر في طاعة الشيوخ والخضوع لهم إلى حد عجيب وغريب بل أنه يتجاوز حق النبي ﷺ، إذ هو عليه أفضل الصلاة والسلام لم يطلب أن يكون المسلمون بين يديه كالأموات بين يدي غاسليهم، ولم يقل لا تسألوني ولا تناقشوني، بل إن سنته وسيرته ومجالسه حافلة بالكثير من ذلك.

أما هؤلاء فإن من سألهم بلمَ وكيف، في شيء لا يقبله الشرع أو العقل، فهو لا يفلح أبداً ويطرد من الرحمة، جاء في جواهر المعاني: وصاحب هذه المرتبة هو المعبر عنه بالكبير، ومتى ما عثر المريد على من هذه صفته فاللازم في حقه أن يلقي نفسه بين يديه كالميت بين يدي غاسله لا اختيار له ولا إرادة، ولا عطاء له ولا إفادة، وليجعل همته منه تخليصه من البلية التي أغرق فيها إلى كمال الصفاء بمطالعة الحضرة الإلهية... وليتنزه نفسه عن جميع الاختيارات والمرادات مما سوى هذا، ومتى أشار عليه بفعل أو أمر فليحذر من سؤاله بلم وكيف وعلام ولأيّ شيء، فإنه باب المقت والطرد، وليعتقد أن الشيخ أعرف بمصالحه منه[2].

والحاصل أن شروطهم في الأذكار وآدابها كثيرة، يقول عنها صاحب الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: (ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدباً، من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح، خمسة منها سابقة على الذكر، واثنا

(١) انظر: قلادة الجواهر ص٢٧٨، ٢٧٩. (٢) جواهر المعاني ١/١٢٦.

عشر حال الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر[1].

ولعلنا نأخذ بعضاً من هذه الآداب العشرين التي ذكرها ونخلص بها من هذا المبحث.

❖ فمن الآداب التي تسبق الذكر:

١ ـ الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر وتعطير ثيابه وفمه بالبخور والماورد.

٢ ـ أن يستمد عند شروعه في الذكر بهمة شيخه بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته ليكون رفيقه في السرّ.

٣ ـ أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله ﷺ.

❖ ومن الآداب حال الذكر:

١ ـ تطييب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

٢ ـ اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب.

٣ ـ تغميض العينين.

٤ ـ أن يخيل شخص شيخه بين عينيه، وهذا من آكد الآداب لأن المريد يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

❖ ومن الآداب التي بعد الذكر:

فأولها: أن يسكت بعد سكون وتخشع ويحضر مع قلبه مترقباً لوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد فيعمر وجوده في تلك اللحظة.

ثانيها: جمع الحواس بحيث لا تتحرك منه شعرة كحال الهرة عند اصطياد الفأرة.

ثالثها: نفي الخواطر كلها وإجراء معنى الله على القلب.

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ٢/٣٦.

رابعاً: أن يذمّ نفسه مراراً بقدر ثلاثة أنفاس إلى أربعة أنفاس حتى يدور الوارد في جميع عوالمه.

خامساً: منع شربه الماء البارد عقيب الذكر فإن الذكر يورث حرقة وهيجاناً وأشواقاً إلى المذكور وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة[1].

هذا غيض من فيض من آداب القوم للذكر، وتأدب المريد معهم، وشروط الاستمداد منهم وحصول الفتح والترقي من خلال أذكارهم، وما ذكر هنا ليس من باب الحصر، وإنما هو للتدليل على شذوذ هؤلاء في مجمل مناحيهم، ذلك لأنهم قد تجاوزوا حدود النصوص الشرعية مع بداية الطريق، فكان من الطبيعي أن تكون تشريعات ما يحتاجه هذا الطريق وسالكيه منهم، بالإضافة إلى أنه طريق هم الذين شقوه وسلكوه، فمن حقهم أن يطلبوا ضريبته من كل عابر، ويوزعوا أدلة السلامة فيه على كل سائر، والله أعلى وأعلم.

❊ ❊ ❊

(١) الأنوار القدسية ١/٣٦ ـ ٤٠.

الفصل الثاني

نشأة الذكر البدعي وتطوره

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المرحلة الأولى، والثانية (خلو، ونشوء، ثم اختفاء).

المبحث الثاني: المرحلتان الثالثة، والرابعة (تنظيم وتطور، ثم تتابع).

المبحث الأول

الخلو والنشوء والاختفاء

التوطئة: (المائة الأولى للهجرة)

القرون المفضلة: السلامة من البدع

إن القرون المفضلة التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية وأثنى عليها بالفضل بقوله: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...» إلخ[1]، كانت عهوداً سالمة من الابتداع في الأذكار، بل وفي عافية من كل أنواع البدع، ذلك لوجود النبي الناصح اليقظ الحريص: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[2]، فإذا بدا شيء من ذلك كان يقضى عليه في مهده، فلم تظهر الأذكار المبتدعة إلا بعد ذهاب القرون المفضلة التي هي عصر النبي ﷺ وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين، فعصر النبي ﷺ كان عصر تشريع ورسالة ووحي بحيث لا يُقرُّ النبي ﷺ على خطأ ولا يُقِر هو أمته عليه، فما أن يظهر من بعض الصحابة ﷺ ميل أو جنوح إلى مخالفة السنة، في العبادات بالإفراط عن الوسطية والاعتدال في شتى نواح الدين، إلا كان ﷺ ينهى عن ذلك، ويوجه إلى الطريق السوي، ولعل موقفه مع النفر الثلاثة أبلغ شاهد على ذلك، فهم جاؤوا إلى نساء

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ برقم ٣٦٥٠ و٣٦٥١، البخاري مع الفتح ٥/٧، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، صحيح مسلم مع النووي ٨٦/١٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

النبي ﷺ فسألوا عن عبادته في بيته فلما أخبروا بها كأنهم تقالُّوها، فعزم كل منهم أن ينقطع عن شيء من المباح، بقصد المبالغة في العبادة فنهاهم ﷺ عن ذلك وأرشدهم بأن الميل عن الاعتدال والخروج عن التوسط والرغبة في الإفراط والتنطع هي رغبة عن سنته فقال: «..من رغب عن سنتي فليس مني»[1]، هكذا قولاً واحداً، وبمثل هذا كان يحسم النبي ﷺ أي بادرة في هذه الناحية وأقواله الحاسمة الجازمة في الحفاظ على ثوابت الدين ومعالمه كثيرة ومعلومة، وبهذه اليقظة والحرص والنصح ترك النبي ﷺ لأمته، الدين كاملاً غضاً طرياً، قوي الحجة واضح المحجة، لا يختلف ليله عن نهاره، وقد جسد لهم أن الطريق واحد، وهو الوسط المستقيم، وأن الخطوط والطرق عن يمينه وشماله كلها زيغ وضلال مهما تزينت، أو ظهر من أصحابها ودعاتها من مبالغة في العبادة والتنسك، فها هو عبد الله بن مسعود يروي عنه قائلاً: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها»[2]، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[3].

وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى قام على حراسة هذا الباب أصحابه رضوان الله عليهم فساروا على ذات المنهج الذي رسمه لهم المصطفى ﷺ ومضوا على نفس الطريق الذي تركهم عليه، فوقفوا بالمرصاد لكل بدعة تخالف سنة النبي ﷺ وتصدوا بالإنكار لكل مخالفة فور ظهورها.

فها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ بلغه من أحد عماله عن ظهور الذكر الجماعي والدعاء الجماعي، وذلك أن قوماً يجتمعون فيدعون للمسلمين

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح برقم ٥٠٦٣، البخاري مع الفتح ٩/٥.

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي ١/٧٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

وللأمير فطلب إحضارهم إليه وعلا أميرهم بالسوط[1].

وهذه هي الطريقة العمرية في إقامة من لا يسعه الواسع أو يتعامى عن النور الساطع، ومن لا يكفيه العلم والعمل مع توافره بين ظهراني المسلمين فالدرة تزيل عنه ما به من عمش أو رمد، ومن هذا الأثر يتضح أن بدعة التسبيح والدعاء الجماعي ظهرت مبكرة إلا أنها لم تستمر لنكير الصحابة لها، فها هو عبد الله بن مسعود وهو بالكوفة يسمع بأن هناك أناسٌ يؤدون التسبيح جماعة، وبنوا مسجداً لذلك، فيأمر ابن مسعود بهدمه فهدم، فاجتمعوا في ناحية من مسجد الكوفة يسبحون ويهللون ويكبرون، فأنكر عليهم ابن مسعود قائلاً لهم: (لقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علماً أو جئتم ببدعة ظلماً، ثم قال رجل: ما فضلنا ولكنا قوم نذكر ربنا، قال: بلى فضلتم، والذي نفس ابن مسعود بيده لئن أخذتم آثار القوم ليسبقنكم سبقاً بعيداً، ولئن حرتم يميناً وشمالاً لتضلنَّ ضلالاً بعيداً)[2].

نعم أيها المتلفتون إلى جنبات الطريق لتضيفوا على الدين ما يروق لكم مما لم تخل منه جنبات الطريق حين مر منها المصطفى ﷺ وأصحابه ففضلتم عليهم لأنكم عرفتم حوجة سالك هذا الطريق إلى هذا الذي أضفتم، وإلا فهي بدعة تأتونها ظلماً، بهذه الحجة القاطعة والحس اليقظ أوقف عبد الله بن مسعود هذا الاتجاه.

وبمثل هذا مضى أيضاً التابعون رحمهم الله مقتفين آثار الصحابة باتباع السنة والتمسك بها والقيام عليها بالحماية، فلم تفش في عهدهم البدع ولم تعرف في زمانهم أذكار بدعية. وكان غاية ما عرف في عهد التابعين هو ظهور طائفة من الزهاد والعباد الذين اشتهر عنهم كثرة العبادة أو شدة الخوف أو كثرة

(١) انظر: كتاب ما جاء في البدع ص٥٤، محمد بن وضاح القرطبي، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، دار العصيمي الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

(٢) انظر: كتاب ما جاء في البدع والنهي عنها، لابن وضاح ٨ - ١٠، وتلبيس إبليس ص٢٥.

البكاء[1] لا سيما في البصرة فقد عرفت هذه الظواهر فيها أكثر من غيرها في تلك الفترة[2].

بيد أن شيئاً مما له صلة بهذه الأمور ظهر في حالات خاصة من بعض الأفراد وكان للتابعين عليه تحفظ واستفهام، ذلك هو ما ذكر من ظواهر الصياح أو السقوط وربما الصعق عند سماع بعض آيات القرآن، وهو أمر لم يكن من هدي السلف، وهو مخالف لأحوالهم مع القرآن فلما ظهر ذلك[3] تصدى له من بقي من الصحابة وكبار التابعين وواجهوه بالنكير فمن ذلك أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مر برجل من أهل العراق ساقط فقال: ما شأنه؟ فقالوا: إذا قرئ عليه القرآن يصيبه هذا. قال: إنا لنخشى الله عز وجل وما نسقط[4].

وكذلك أنس بن مالك أخبر بأناس إذا قرئ عليهم القرآن يصعقون فقال: ذاك من فعل الخوارج[5].

وقد سئلت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عن حال أصحاب رسول الله ﷺ عند قراءة القرآن فقالت: كانوا كما وصفهم الله عز وجل تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم، فقيل لها: إن ها هنا رجالاً إذا قرئ على أحدهم القرآن غشي عليه فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[6].

وهنا موقف فيه كثير من العبر، وهو ما جرى بين عبد الله بن الزبير وابنه عامر بصدد هذه الظاهرة يقول عامر بن عبد الله بن الزبير: جئت إلى أبي فقال لي: أين كنت؟ فقلت: وجدت أقواماً ما رأيت خيراً منهم، يذكرون الله عز وجل

(١) هذه الأمور ليست من البدع لكنها كانت بداية لنتوء وتميز في الصف بالإضافة إلى كونها غدت لبنة قام عليها ما جاء بعدها من ظواهر أكثر نتوءاً وشذوذاً.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١١/٦.

(٣) استنكار هذه الظواهر، مع احتمال صدق صاحبها يتمثل في أن فاعلها قد أشهر نفسه، وهذا شيء غير محمود بالإضافة إلى كونه خلاف ما كان عليه الصحابة.

(٤) تلبيس إبليس ص٣١٠.

(٥) المصدر نفسه ص٣١١.

(٦) المصدر نفسه ص٣١٠.

فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله عز وجل، فقعدت معهم، قال: لا تقعد معهم بعدها فرآني كأني لم يأخذ ذلك فيَّ فقال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن ولا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله من أبي بكر وعمر، فرأيت أن ذلك كذلك فتركتهم[1].

وهذا الأثر فيه النكير لهذه الظاهرة مع التعليل المقنع، بالإضافة إلى ما حواه من لفتات تربوية قيمة تشير إلى ما كان عليه أسلوب سلفنا الصالح في التعامل مع أبنائهم.

وكل من أدرك مثل هذه الظواهر من معمَّري الصحابة، قد أنكرها: وأنكره أيضاً التابعون الذين شاهدوه أو سمعوا به خشية أن يكون تكلفاً أو تصنعاً، وعلى كل فهو مخالف لأحوال الكمَّل الذين مضوا[2].

وهذا كبير التابعين وأميرهم عمر بن عبد العزيز[3] حفيد الفاروق يقول: أوصيكم بتقوى الله تعالى، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسول الله ﷺ وترك ما أحدثه المحدِثون بعد[4].

وظواهر الصياح والسقوط والصعق عند سماع القرآن هي أمور لم تعرف في عهد الصحابة مع أنهم كانوا أبلغ من تأثر وتفاعل مع القرآن، ولذلك كانت

(١) هذه الآثار رواها ابن الجوزي بسنده في التلبيس. انظر ص٣١٠ - ٣١٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١١/٨.

(٣) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، أبو حفص الخليفة الصالح، والملك العادل، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، روى عن أنس، والسائب بن يزيد، ولد سنة ٦١هـ وقيل ٦٣، كان من ثقات التابعين، ولد بالمدينة ونشأ بها وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعده بعهد منه سنة ٩٩هـ، وسكن الناس في أيامه، ومدة خلافته سنتان ونصف، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة، توفي رحمه الله سنة ١٠١هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٧/٤١٨ - ٤٢٠، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، والأعلام ٥/٥٠.

(٤) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص١٣.

جديرة بالتحفظ وربما بالاستنكار إذا خشي من كون الباعث إليها التكلف والتصنع أو أنها تكون باباً إلى ذلك لكن (إن كان الواحد من هؤلاء مغلوباً عليه فهو معذور ويثاب على ما حدث له من الإيمان، ولكن من يثبت مع ما يحدث له من الإيمان أكمل وأفضل، وهو حال الصحابة ﷺ، وكذا حال نبينا محمد ﷺ فقد أسري به ولم يصعق فهو أكمل وأعلى وأفضل ممن صعق)[١].

ثم جاء أتباع التابعين وسلكوا نهج التابعين في التمسك واتبعوا ولم يبتدعوا، وظلوا على حراسة باب الاتباع ووقفوا بالمرصاد لنافذة الابتداع.

فهذا كبيرهم وشيخهم سفيان الثوري[٢] رَحِمَهُ اللهُ يقول: (دع الباطل أين أنت عن الحق اتبع السنة ودع البدعة)[٣].

وبذلك مضت العهود المفضلة التي هي قرن النبي ﷺ وأصحابه وقرن التابعين وقرن أتباع التابعين كلها سالمة من انتشار البدع وشيوعها ولم تعرف شيئاً من البدع في الأذكار، والمقصود بهذه العهود والقرون هي المائة الأولى للهجرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز، ولا بالشام، ولا باليمن، ولا مصر، ولا المغرب، ولا العراق، ولا خراسان، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء، والتصدية، لا بدق ولا بكف، ولا بقضيب، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في آخر المائة الثانية)[٤].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١١/١١ ـ ١٣.

(٢) الثوري: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة من مضر، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، نشأ بالكوفة وخرج منها سنة ١٥٠هـ فسكن مكة والمدينة، ثم انتقل إلى البصرة، وكان آية في الحفظ وإماماً من أئمة المسلمين وعلماً من أعلام الدين، قال عنه النسائي: هو أجل من أن يقال عنه ثقة، وقال ابن أبي ذئب: ما رأيت أشبه بالتابعين من سفيان، توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ١٦١هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٤/٩٩ ـ ١٠٢، والأعلام ٣/١٠٤.

(٣) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص٧٠.

(٤) الفتاوى ١١/٥٦٩.

بهذا يتبين أن هذه الفترة الواقعة في المائة الأولى للهجرة، التي هي فترة القرون المعنية بالتفضيل، كانت خالية من استقرار البدع سواء في الأذكار أو في غيرها، وذلك لقرب العهد من نور النبوة، واتقاد جذوة النصح لهذا الدين، وصفاء النفوس، إذ أن جرثومة الكدر ما وفدت بعد.

* * *

المطلب الأول

المرحلة الأولى: المائة الثانية
إلى نهاية المائة الثالثة ١٠١هـ إلى ٣٠٠هـ

مرحلة النشوء للذكر البدعي:
(مجالس السماع[1] العامة، وأذكار خاصة)

لقد جاءت المائة الثانية، ومعها بدأت بذور حادثة في الذكر تنحو به منحى الابتداع، وكان ظهور هذه البذور في اتجاهين:

❖ **الاتجاه الأول: يتمثل في ظهور مجالس عامة للذكر والتذكير في البصرة وغيرها[2]:**

وهذه المجالس وإن كانت حادثة من حيث الهيئة إلا أن الذكر والتذكير فيها كان من المعلوم الذي لا ينكر لا سيما مع بداية ظهورها.

فالتذكير فيها كان يقوم على الكلام في علم الآخرة، والتذكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفاتها، وخواطر الشيطان ووجوه الحذر منه، وتذكر

(١) السماع: هو مصطلح كان يطلقه متقدمي الصوفية على فهم يقع لأحدهم بغتة يكون عنده غيبة، سواءً كان ذلك حال سماع نظم أو غيرهما، وأما عند المتأخرين منهم فهو عبارة عن مجموع أمور منكرة، يقيمونها وقد أحضروا المشتغلين بالغناء ومعهم آلات اللهو كالدفوف والمزامير وغيرها، ثم تضاف إلى ذلك بقية المفاسد من الاختلاط، والرقص، والسهر، والإسراف، وغير ذلك. انظر: كشف القناع عن حكم الوجد والسماع، أحمد بن عمر إبراهيم القرطبي ص٤٤، تقديم وتحقيق د. عبد الله بن محمد الطريقي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ الرياض.

(٢) انظر: نشأة التصوف الإسلامي ص١٦، إبراهيم بسيوني، دار المعارف بمصر.

بآلاء الله سبحانه ونعمائه وتقصير العبد في شكره، وتعرف بحقارة الدنيا وعيوبها، وتصرمها وقلة عهدها، وخطر الآخرة وأهوالها، وهذا التذكير محمود شرعاً وورد الأمر به والحث عليه[1].

لكن الأمر لم يبق على ذلك، فقد تحولت تلك المجالس إلى تجمعات يقوم عليها الوعاظ والقصاص ويقصدها العامة والرعاع، وتلقى فيها غرائب القصص والأشعار والطامات[2].

وإذا كانت حلقات القصاص والوعاظ تشير إليها أصابع الاتهام من قبل أهل التفسير بأنها كانت طريقاً لدخول الإسرائيليات، ومن أهل الحديث باتهامها ببداية الوضع والكذب في الحديث، فلعل من المناسب هنا الإشارة إلى أنها أيضاً: كانت السبب في ظهور مجالس السماع المبتدع للقصائد والأشعار الغزلية واعتبار ذلك من الذكر والتذكير[3].

وما أن شارفت المائة الثانية على الانتهاء حتى غدا السماع المبتدع للقصائد الزهدية الربانية بقصد ترقيق القلوب بالألحان والموسيقى ظاهراً بدء في الانتشار، وعرف الحادي[4] في حلقة الذكر - زعماً منهم - أن ذلك يهيج القلوب ويوجهها إلى علام الغيوب[5].

وحين ظهر هذا السماع المبتدع المقارب للعبث واللهو، بقدر ما فيه من مباعدة عن العبادة والذكر، أنكره العلماء وعابوا أهله، فها هو الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) انظر: مفتاح السعادة ومصباح السيادة ٣/١٢ - ٤، لأحمد مصطفى طاش كبري زاده، تحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، مطبعة الاستقلال الكبرى.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ١٥١ - ١٥٢.

(٤) الحادي: هو من حدا حدواً وحُداء، وحدا الإبل أي ساقها وحثها على السير بالحداء، فعل أي غنَّى لها لتسير، وحداها بمعنى زجرها من خلفها فهو حاد... انظر: القاموس المحيط ١/٦٠٥ الطبعة الثانية الحلبي باب الحاء.

(٥) انظر: التاج المكلل من جواهر الطراز الآخر والأول ص٥٠٥ - ٥٠٦، صديق حسن علي القنوجي، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م، المطبعة الهندية العربية بمباي الهند.

يقول: (تركت بالعراق شيئاً يقال له: التغبير[1]، أحدثه الزنادقة يصدون الناس به عن القرآن)[2].

ثم تتابع العلماء على إنكاره كل في مكانه وزمانه، فأنكره الإمام أحمد قائلاً: التغبير محدث، ووصفه بأنه بدعة ونهى عن سماعه وكرهه[3].

وهذا السماع المبتدع (لم يحضره أكابر الشيوخ الصالحين والذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه)[4].

وهذا السماع الذي كانت بدايته مجالس الذكر والتذكير، ثم حلقات الوعاظ والقصاص ثم التغبير والسماع المبتدع للقصائد والأشعار الملحنة مع الإيقاع، اكتملت صورته في هذه المرحلة المبكرة.

○ صورة موجزة لمراحل وتطور السماع:

وأذكر هنا بإيجاز مراحل تطور السماع المبتدع في المفهوم والممارسة.

فالسماع كان عند متقدمي الصوفية يطلقونه على فهم يقع لأحدهم بغتة، يكون عنده وجد وغيبة سواء كان ذلك في نظم أو نثر أو غيرهما، وأما عند متأخريهم فهو عبارة عن مجموع أمور جديرة بالإنكار، وذلك أنهم يستدعون المعروفين بصنعة الغناء وإن كانوا مشتهرين بالمفاسد والفحشاء ومعهم آلات اللهو المعروفة عند أهل البطالة واللغو كالمزامير، ثم يغص المكان بالسكان وتجهز الأطعمة والحلاوات بألوانها فتمتلئ البطون ويشبع النهم ثم يندفع المغنون بتلك الأصوات والنغمات ويوقعوا ذلك مع مطابقة المزامير والآلات وحينئذ لا حياء، فيختلط الحاضرون ويقومون على قدم وكأنهم شربوا بنت الكرم، فإشارات

(١) التغبير هو تزهيد الناس في الفانية وترغيبهم في الباقية ومعنى يغبرون يذكرون الله... ويرددون الصوت بالقراءة وينحوها. انظر: لسان العرب ٩/١٠، وتعليق زهير الشاويش في كتاب ذم ما عليه مدَّعو التصوف ص٧.

(٢) انظر: كتاب ذم ما عليه مدَّعو التصوف، لابن قدامة ص٧ ـ ٨.

(٣) انظر: الفتاوى ٥٩٢/١١ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق والصفحة.

بالأكمام ورقص بالأردان[1] ـ وليس هذا المشهد إلا من ذاك ـ.

وبهذا يكون السماع المبتدع قد استكمل صورته مبكراً، وذلك لأنه جاء ليصبغ شيئاً يستهوي الطباع ويجذب المفتونين والرعاع، بصباغ العبادة والذكر، والزمان لم يخل من الكلام الرقيق والصوت الأنيق، والآلة المطابقة، وهو قد يقل هنا ويكثر هناك، ويقل في حين ويتوافر في آخر، ولكن لم تزده السنون شيئاً فوق ما وصل إليه في هذه المرحلة، إلا ما أتى من تغير في الآلة، وزيادة في الحضور، وكثرة في الجلبة، ولذلك ونحن بصدد الذكر المبتدع لن نتتبع السماع وسنكتفي بما عرفناه من بدايته وكونه ما احتاج للوقوف على القدمين إلى كثير زمان، ونشير هنا بصورة موجزة إلى مراحل تطوره وتتمثل فيما يلي:

١ ـ بداية كان السماع باستماع منشد صاحب صوت حسن، مع الإيقاع، لقصائد زهد بقصد ترقيق القلوب.

٢ ـ ثم تطور إلى إنشاد قصائد الغزل وذكر (ليلى) و(سعدى) وعلى زعم أن المقصود بذلك رسول الله ﷺ وهذه القصائد فيها تهيج للطباع وتحريك للحب المطلق لغير المعين وتهيج لما يعتلج في النفوس من النسوان والأوطان والأشجان.

٣ ـ ثم تطور إلى ذكر الله بالرقص والدف والغناء وإقامة التراتيل بذكر اسم (الله) مفرداً ثم يشتد الرقص ويتحول اسم الله إلى (هو) ثم لا تسمع إلا همهمات، وقد يجتمع إلى ذلك مع القفز والصراخ، اختلاط النساء بالرجال حتى غدا كأنه (تراث شعبي) لا يختلف عن أي مهزلة[2].

وهذه هي صورة السماع المبتدع بالأمس واليوم، وفي الليل الطويل الذي امتد بين اليومين.

(١) انظر: كشف القناع عن أحكام الوجد والسماع ص٤٤.

(٢) انظر: الصوفية نشأتها وتطورها ص٩٩ ـ ١٠٠ محمد العبدة وطارق عبد الحليم، دار ابن الأرقم، برمنجهام بريطانيا، الطبعة الثالثة.

❖ الاتجاه الثاني: مما كان فيه بدايات للذكر المبتدع، في هذه المرحلة يتمثل:

فيما نقل عن وجود أذكار خاصة، لبعض الأفراد في هذه الفترة، وما زعم عن معرفة أشخاص لاسم الله الأعظم والالتقاء بمن يؤخذ عنه ذلك كالخضر[1].

وهذه الأمور هي بمثابة لبنة للاتجاه الذي أخذه الذكر المبتدع فيما بعد، وأول من أثر عنه أنه كان له أذكار وأدعية خاصة، أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور البلخي[2].

يقول عنه في الرسالة القشيرية: وأنه رأى في البادية رجلاً علمه (اسم الله الأعظم) فدعا به بعده، فرأى الخضر عليه السلام وقال له: إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم، وقيل: كان عامة دعائه: «اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك»[3].

وفي وقت متزامن مع عصر ابن أدهم ولكن في بيئة أخرى هي بيئة غلاة التشيع كانت فكرة الاسم الأعظم منتشرة، وقد ظهر أكثر من مدعي لمعرفته وسره، وأنه يستطيع أن يهزم به الجيوش ويدعو به الزهرة فتجيبه، بل إن هناك من قال بأنه يستطيع إحياء الموتى بالاسم الأعظم[4].

ومظاهر الأذكار الخاصة المتمثلة في كلمات تنسب لشخص معين، متضمنة لدعوات أو كلاماً عن فلسفة الذكر نفسه، أو مواقف لها صلة بهذه

(١) الخضر سيأتي الحديث عنه في مبحث مستقل في فصل مصادر الذكر البدعي ص٣٨٣، وما بعدها.

(٢) ابن أدهم: إبراهيم بن منصور بن زيد بن جابر، أبو إسحاق العجلي، وقيل التميمي نزيل الشام، ولد في حدود المائة، وتوفي سنة اثنتين وستين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء ٧/٣٨٧ ـ ٣٩٦، والبداية والنهاية ١٣/٤٩٤، ٥١٦.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥١ ـ ٥٢.

(٤) انظر: التصوف الإسلامي ومدارسه ٨١ ـ ٨٣، دار المطبوعات الجامعية، مطابع رويال، إسكندرية.

الأمور، ظلت تظهر على قلتها هنا وهناك من شخص أو آخر بدءاً من منتصف المائة الثانية وحتى نهاية المائة الثالثة، فقد جاء في طبقات الصوفية[1] عن أبي حفص النيسابوري أنه قال مرة وقد ذكر الله تعالى وتغير عليه حاله فلما رجع قال: (ما أبعد ذكرنا من ذكر المحققين؟ فما أظن أن محققاً يذكر الله عن غير غفلة ثم يبقى بعد ذلك حياً، إلا الأنبياء فإنهم أُيدوا بقوة النبوة، وخواص الأولياء، بقوة ولايتهم)[2]. وقد توفي أبو حفص هذا في سنة سبعين ومائتين أو سنة سبع وستين ومائتين ٢٧٠هـ أو ٢٦٧هـ[3]. وجاء في صفة الصفوة أيضاً في ترجمة أبي يزيد البسطامي أنه صعد ليلة سور بسطام فلم يزل يدور على السور إلى وقت طلوع الفجر يريد أن يقول: لا إله إلا الله فيغلبه ما يرد عليه من هيبة الاسم فلا يستطيع أن يطلق لسانه، فلما كان وقت طلوع الفجر نزل فبال دماً، ووفاة البسطامي كانت في سنة إحدى وستين ومائتين[4].

وهذه فلسفة غريبة، يكون الذكر فيها مما يتلف النفوس والأبدان والعقول، وهذا فهم بعيد عن الفهم الصحيح للذكر وشأنه مع النفوس والقلوب السوية، فهو فيه راحة للنفس وطمأنينة للقلب، ومناقض لما تجده النفوس من الراحة والطمأنينة في الذكر كما قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[5]. وحكي عن أبي يزيد أيضاً في الرسالة القشيرية قال: ذهب أبو يزيد ليلة إلى الرباط ليذكر الله سبحانه على سور الرباط، فبقي إلى الصباح لم يذكر، ـ فلما سئل عن ذلك ـ قال: تذكرت كلمة جرت على لساني في حال صباي، فاحتشمت أن أذكره ﷻ[6].

(١) أبو حفص النيسابوري: شيخ خراسان عمرو بن سلم، وقيل: عمر، وقيل: ابن سلمة النيسابوري الزاهد، ويقال: إنه أوّل من أظهر طريقة التصوف في نيسابور، توفي في سنة أربع وستين ومائتين، وقيل سنة خمس. انظر: البداية والنهاية ١٤/٥٦٨، وسير أعلام النبلاء ١٢/٥١٠ ـ ٥١٣.

(٢) انظر: طبقات الصوفية ص١١٨. (٣) انظر: المصدر السابق ص١١٨.

(٤) انظر: صفة الصفوة ٤/٨٨ ـ ٩٣، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، الطبعة الثانية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن الهند ١٩٧٢م.

(٥) سورة الرعد: الآية ٢٨. (٦) الرسالة القشيرية ١/٨٢.

وجاء عن سهل بن عبد الله التستري[1] قوله: قال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟.

فقال لي: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله شاهدي، فقلت ذلك ثلاثة أيام ثم أعلمته به، فقال لي: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك، فوقع في قلبي له حلاوة، فلما كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سري[2].

وهذه الحكاية فيها نواحي بدعية متعددة، فالذكر فيها ليس من الوارد، والكيفية مبتدعة وفيها وضع وترتيب للأعداد والأيام، ثم التوصية للاستمساك بهذه الصيغة مع إهمال الوارد، ثم فيها ذكر لفائدة هذا الوضع في الصيغة والكيفية والترتيب المبتدع.

وقبل نهاية المائة الثالثة أيضاً ذكر شيء من الكلام عن تقسيم الذكر وتصنيفه وتعديد الآفات التي قد تذهب بالمراد منه، فقسم الذكر إلى ذكر باللسان وهو القولي، وذكر بالقلب وهو ذكر التدبر والتفكر، وذكر السر، وذكر بالروح[3].

فقد نقل عن ابن عطاء السكندري[4] المتوفى ٣٠٩هـ قوله:

(١) التستري: هو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع، أبو محمد التستري أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات وفي الخلاص من عيوب الأعمال، توفي سنة ٢٨٣هـ. انظر: طبقات الصوفية ص٢٠٦ - ٢١١، والرسالة القشيرية ١/ ٨٣ - ٨٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/ ٨٣ - ٨٤.

(٣) انظر: نشأة التصوف الإسلامي ص١٦٢، إبراهيم بسيوني، دار المعارف بمصر.

(٤) ابن عطاء السكندري: هو أبو العباس أحد أئمة الصوفية، أحمد بن محمد بن عطاء الأدمي، كان يقرأ في كل يوم ختمة وكان ممن اشتد عليه أمر الحلاج وأظهر موافقته، فعوقب على ذلك بالضرب على شدقيه وأمر بنزع خفيه وضربه بهما على رأسه، ومات =

أرى الذكر أصنافاً من الذكر ... حشوها وداد وشوق يبعثان على الذكر

فذكر أليف النفس ممتزج بها ... يحل محل الروح في طرفها يسري

وذكر يعزي النفس عنها لأنه ... متلف من حيث تدري ولا تدري

وذكر علا من المعارف والذرى ... تجل عن الإدراك بالوهم والفكر

تراه لحاظ العين بالقلب رؤية ... فيحفوا عليه أن يشاهد بالذكر[1]

❖ خلاصة هذه المرحلة:

هذه المتفرقات المتناثرة التي لم تأخذ معلماً واضحاً، امتدت من بداية المائة الثانية للهجرة وإلى نهاية المائة الثالثة للهجرة، ولعلها هي جل ما رصد في تلك الفترة، ولكن مع قلتها وتناثرها في الأمكنة والأزمنة والأشخاص، إلا أنها بمجموعها ومضمونها، تعتبر البذور والجذور الحقيقية التي نشأ عنها الذكر المبتدع، حين قامت له فيما بعد جماعات وطرق منظمة تلتقي وتفترق عليه.

وتتلخص هذه البذور والنزوات في هذه المرحلة فيما يأتي:

١ - استكمال السماع المبتدع لتمام صورته في الهيئة من حيث الرقص واستخدام أدوات الطرب، وفي المضمون حيث تحولت القصائد الزهدية إلى قصائد غزل وأوصاف، وجعل ذلك كله من الذكر والعبادة.

٢ - ظهور أدعية خاصة يعرف بها فردٌ ما، كما ذكر عن إبراهيم بن أدهم وغيره.

٣ - ادعاء اللُّقيا بالخضر أو غيره لتعليم دعاء أو ذكر معين، وهذا باب كبير أصبح فيما بعد عمدة في مصدر الذكر البدعي.

٤ - الكلام في اختيار صيغة معينة للذكر وبكيفية خاصة وبعدد مرتب على أيام معينة دون أن يكون ذلك من الشارع، وذكر ذلك على أنه مما يكسب الفوائد.

= بعد سبعة أيام من ذلك، وكان موته في سنة ٣٠٩هـ. انظر: البداية والنهاية ١٤/ ٨٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٥٥.

(١) انظر: نشأة التصوف الإسلامي ص٨٥، ١٦٢، نقلاً عن عوارف المعارف ص٧٦.

٥ ـ ظهور الكلام في تصنيف الذكر وتقسيمه.

هذه هي خلاصة الظواهر التي تعتبر النواة والبذور الحقيقية التي تجعل هذه المرحلة هي مرحلة النشوء والتمهيد للذكر المبتدع، ومع هذا فلم يكن الذكر آثر الأمور عند المبتدعة في هذه الفترة كما يقول أصحاب دائرة المعارف الإسلامية وهم يعرفون لكلمة (حزب)[١] إن كلمة حزب لم تطلق على الأدعية إلا في القرن السادس للهجرة، وأن الغزالي المتوفى في ٥٠٥هـ لا يتكلم إلا عن الدعاء ثم يشيرون إلى تأريخ نشوء الأحزاب المتأخر[٢].

ويؤكد ذلك صاحب كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري فهو يقول: وقد بقي الذكر في أثناء القرن الثاني الهجري قليل القيمة ـ يعني القيمة التي أصبحت له فيما بعد عند أرباب الطرق ـ ويندر أن تجد له ذكراً في كتب العلماء في ذلك القرن[٣].

وعليه، فهذا هو ما كان من شأن الذكر المبتدع في هذه الفترة تمهيد وبدايات وبذور لمنحى الابتداع في الذكر، ولكن دون أن تكون منتشرة أو منظمة، فضلاً من أن تقوم لها أو بها جماعات كما حدث فيما بعد.

❊ ❊ ❊

(١) حزب: يطلق على ذكر يتلوه كل رباط في الحضرة التي بعقدها كل جمعة في الزواية ويتألف الذكر من مختارات، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ٣٦٩ تأليف مجموعة من المستشرقين، ترجمة أحمد الشيتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد، وليس فيها إشارة عن الطبعة والتاريخ.

(٢) نفس المصدر ٧/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) الحضارة الإسلامية ٢/ ١١٤، تأليف آدم ميتز، نقله إلى العربية محمد الهادي أبو ريدة الطبعة الرابعة ١٩٦٧، دار الكتاب العربي بيروت.

المطلب الثاني

المرحلة الثانية من ٣٠٠ هـ ـ إلى ٥٠٠ هـ (جمود واختفاء)

❖ قيام التصوف على أرضية النزعات الخاصة:

في خلال المرحلة السابقة، التي امتدت من بداية المائة الثانية للهجرة وإلى نهاية المائة الثالثة حصل شيء مهم وخطير في الساحة الإسلامية، وهو أن تلك الظواهر والنزعات الفردية التي كانت متناثرة هنا وهناك من أصحاب المبالغة في التنسك والزهد أو الكلام عن النفس وأهوائها وأدوائها وعن الدنيا وتصرمها وعن القلوب ودواخلها، وما إلى ذلك، تلك البدع التي ظاهرها انصراف للعبادة وانشغال بها كالأذكار الخاصة ونحوها، وكانت مما استراب منه مقتفو الطريق الذي كان عليه المصطفى ﷺ من معمَّري الصحابة وكبار التابعين وتابعيهم.

هذه الأمور التي كانت كظواهر متعددة ومختلفة ومتناثرة، ولا يجمعها سوى أنها مما لم يكن عليه هدي السلف، لجنوحها إلى جانب الإفراط والمبالغة والميل عن الوسطية، وكانت كزبد رابي في أودية متشعبة لا يُعرف لها مساراً محدداً، ولا وجهة معينة، لقد جاءت مدرسة التصوف فجعلت من ذلك كله لبنات لبنائها، ومنه أخذت صورتها وشكلت ملامحها.

إذ أن مدرسة التصوف قامت على أرضية هذه الظواهر والنزعات الفردية[١].

وبالمقابل فحين ظهر التصوف وقامت مدرسته وجد فيه من كان له رغبة

(١) انظر: تلبيس إبليس ص٢٠١، ومجموع الفتاوى ١١/ ٦ ـ ١٩.

في المبالغة ونزوعاً عن الوسطية بغيته، كما وجدت هي فيهم الأرضية الخصبة التي قامت عليها.

تقول الموسوعة الميسرة: التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقاً مميزة معروفة باسم الصوفية[1].

وقد رصد ذلك ابن الجوزي رحمه الله في التلبيس، حيث يذكر الملامح التي كان عليها أوائل القوم ثم كيف تدرج بهم الأمر فيقول: ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن هيئته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص.. إلخ، وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبَّس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبَّس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أن صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود هو العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم حتى أنه كان فيهم من لا يضَّجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة، ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك، وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات وميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، ثم ما زال الأمر ينمو والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمون بواقعاتهم، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمان فيه وهؤلاء بين الكفر والبدعة، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/٢٥٣.

من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد، وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع[1].

هذا التصوير الملخص للتصوف هو من ابن الجوزي الخبير الذي جاء بعد جلاء الزبد ومضي الفترة التي تدرج فيها المتصوفة في الممارسات والأفكار وانقشع الدخان وانجلى الغبار، فبدا واضحاً ما ألحقوه بالجسد الإسلامي من الندوب والتشويه، وما ملؤوا به ساحة المسلمين من أفكار دخيلة بعيدة عن الحق الذي أنزله الله لينفع الناس ويمكث في الأرض. والحديث عن الصوفية ونحن بصدد الذكر المبتدع ونشأته وتطوره اقتضاه أمران:

أحدهما: دور التصوف في هذه المرحلة في اختفاء الجوانب العملية من العبادات والزهديات وحمل النفوس على المشاق وضمن ذلك ظواهر الاشتغال ببعض الأذكار الخاصة وكل الأمور التي عبرنا عنها بالنزعات الفردية، التي كانت سائدة إلى نهاية المائة الثالثة.

الثاني: احتضان التصوف وطرقه للذكر المبتدع فيما بعد، وجعلهم له شعاراً يتميزون به عن بقية الأمة وألواناً يتمايزون بها عن بعضهم، كما سيتبين في المرحلة الثالثة.

أما بالنسبة لدور التصوف في هذه المرحلة، فبعد التلاقي الذي حصل بين أهل تلك النزعات الفردية وبين الصوفية بدأت عملية التأثير والتأثر كطبيعة كل تلاقي بين شيئين، فعلى أرضية أهل النزعات والمجاهدات نشأ التصوف، وبعد نشوئه لاذ إليه كل أولئك الذين لم يكن لهم كيان يجمعهم وأصبح المسار فيما بعد وفقاً لتطور التصوف.

ففي الوقت الذي كان ما حفل به القرن الأول وبعض القرن الثاني من طوائف العباد والزهاد والتائبين الذين كانوا أهل عمل ومجاهدة أكثر من كونهم أهل قول ونظر[2].

(١) تلبيس إبليس ص٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٢) انظر: نشأة التصوف الإسلامي ص٨٩، إبراهيم بسيوني، دار المعارف بمصر.

قد تحول الأمر مع الصوفية في المائتين الثالثة والرابعة إلى الأقوال والتنظير أكثر من الأعمال والمجاهدات.

وبعبارة أخرى: إن التصوف الذي كان في القرنين الأولين طريقاً من طرق العبادة يتسمى باسم الزهد أو الفقر أو النسك، أصبح في القرنين الثالث والرابع علماً للباطن يتناول الأحكام الشرعية في العبادات من ناحية آثارها على قلوب المتعبدين[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: الحياة الروحية في الإسلام ص١٢٣ ـ ١٢٤، محمد مصطفى حلمي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

خلاصة تطور مراحل التصوف

قد أطلق: الصوفي والمتصوف بادئ الأمر في هذه الحقبة التاريخية بالذات، أي بعد انقضاء مائتي عام من الهجرة، مرادفاً للزاهد والعابد، ولم يكن لهذه الألفاظ معنى يزيد على شدة العناية بأمر الدين، ولكن مع بداية الانفتاح وبروز ظاهرة التصوف بدء الانحراف في الفكر في ممارسة العقيدة داخل المجتمع المسلم على اعتبار مظهر وخروج على نهج السلف، وكان هذا بعد مرحلة القرنين الثالث والرابع الهجريين[1].

ولعل صاحب كتاب التصوف الإسلامي تأريخه ومدارسه أجاد في تحديد ما تطور إليه التصوف من مدارس ثلاثة متوالية فهو يقول: اتخذ مفهوم التوحيد في تطور التصوف الإسلامي ثلاث مراحل:

لا إله إلا الله. بمعنى: لا معبود إلا الله.

لا إله إلا الله. بمعنى: لا فاعل إلا الله.

لا إله إلا الله. بمعنى: لا موجود إلا الله.

فنزعت مدرسة الزهد وهي أول مراحل التطور إلى العبادة، والتقشف، والإخلاص والمجاهدة، والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا، فلا معبود إلا الله.

ونزعت مدرسة (الكشف) وهي ثانية المراحل ـ إلى التأمل والفكر والاستدلال ومعرفة النفس الإنسانية وقواها، والكشف عن حقائق الوجود، والنظر في خلق السموات والأرض، فلا فاعل إلا الله.

(١) انظر: دراسات إسلامية في الفرق ص١٠٤ ـ ١٠٧، صابر طعيمة، مكتبة المعارف الرياض ١٤٠٣هـ.

ونزعت مدرسة الوحدة ـ وهي آخر أطوار التصوف إلى الفناء في الله ومحو الوجود المجازي في الوجود المطلق الحقيقي، فلا ترى موجوداً حقاً إلا الله تعالى وما سواه عدم، فلا موجود إلا الله[1].

وهذا الكلام يبين مراحل التصوف وتطوره، ويتبين منه أيضاً أن المرحلة الثانية للذكر المبتدع التي قصدنا بها من ـ ٣٠٠ هـ إلى ٥٠٠هـ تقع ضمن المرحلتين الأخيرتين من مراحل تطور مدرسة التصوف، وهما مدرستا الكشف والوحدة، وهي فترة تحول فيها المتصوفة إلى أهل كلام وتنظير، وطوام في الأقوال والأفكار التي تدور بين الكفر والزندقة والبدعة إلا من رحم الله.

وبالتالي تعتبر هذه الفترة بالنسبة للذكر المبتدع فترة كمود وجمود، واختفاء تحت الرماد إلى أن تأتي العاصفة التي حركت هذا الجمود، وأضرمت النار فيما تحت الرماد كما سيتبين في المرحلة التالية.

❊ ❊ ❊

(١) التصوف الإسلامي تأريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ص١٢٧، أحمد توفيق عيّاد، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.

المبحث الثاني

مرحلتي التطور والتتابع

المطلب الأول

المرحلة الثالثة من (٥٠٠هـ إلى ٨٠٠ هـ)

❖ مرحلة تطور الأذكار المبتدعة والظهور المنظم للطرق:

هذه المرحلة هي مرحلة الظهور المنظم والتطور الفعلي للأذكار المبتدعة، فقد رأينا منحى التصوف مع نهاية المائة الثالثة للهجرة، من أنه كان متجهًا إلى أخطر مراحله على الإطلاق وهي التي اختلط فيها التصوف بالفلسفة، فظهرت أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وأن الموجود الحق هو الله، وما عدا ذلك فأوهام وخيالات تمامًا كما يقول الفلاسفة، وبذلك كان التصوف قد تعدى في تلك المرحلة من البدعة العملية إلى البدعة العلمية التي خرج بها في مجمله عن الإسلام بالكلية، ومثّل هذا المنحى الحلاج[1] المقتول في ٣٠٩هـ، واقتفى أثره من جاء بعده من أصحاب هذه الأفكار[2].

ومن ناحية أخرى فقد أصبح المتصوفة لا يحفلون بالجانب العملي في

(١) هو الحسين بن منصور بن محمي الحلاج أبو مغيث، ويقال أبو عبد الله، كان جده مجوسيًا فأسلم، نشأ بواسط وقيل بتستر فصحب سهل بن عبد الله التستري والجنيد ببغداد وأبا حسين النوري، وأكثر الترحال والأسفار والمجاهدة وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء لسوء سيرته ومروقه ونسبوه إلى الضلال والانحلال، ومنهم من نسبه إلى الزندقة والانحلال، وانتحله طائفة من ذوي الضلال والانحلال نسأل الله السلامة، وكان مقتله في سنة تسع وثلاثمائة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣ ـ ٣٥١، والبداية والنهاية ١٤/ ٨١٨ ـ ٨٤٠.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة ١/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

العبادات عمومًا ولا في جانب الأذكار على الخصوص، ولكن بما أن سفينة التصوف يتغير سيرها وفق ما ينزع إليه أقوى الرجال حضورًا وأعلاهم صوتًا، فقد ظهر في القرن الخامس الهجري في سماء التصوف أبو حامد الغزالي[١] فكبح شيئاً من جماح الإفراط الفكري المارق وأيقظ شيئاً من ركود التفريط العملي في جانب العبادات.

فقد صنف وقعَّد للتصوف، ومنذ القرن السادس أخذ التصوف في النفوذ في العالم الإسلامي بتأثير ثقل شخصية الغزالي[٢].

تقول الموسوعة الميسرة عن هذه المرحلة: ما بين النصف الثاني من القرن الخامس وبداية السادس، في زمن أبي حامد الغزالي الملقب بحجة الإسلام ت٥٠٥هـ، أخذ التصوف مكانه عند من حُسبوا على أهل السنة، وبذلك انتهت مرحلة الرواد الأوائل أصحاب الأصول غير الإسلامية[٣].

وإذا كان الغزالي قد أثَّر في التصوف فأعاده إلى شيء من العلم والعمل، فالتصوف أيضاً بدوره قد أثَّر في الغزالي فجعله يتبنى نظرية الكشف[٤] التي تعتبر عند المتصوفة باباً للتلقي عن الله ينقص به أو يضاف أو يبدل في الدين، وعلى تسليم الغزالي للمتصوفة بحالهم في الكشف فقد حشى في كتابه: إحياء علوم الدين - ما يرفضه الشرع ويأباه العقل من دعاوى المتصوفة وشطحاتهم، وقد أشار ابن الجوزي إلى بعض من ذلك وتعجب منه أشد العجب قائلاً: وقد حكى أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء قال: كان بعض الشيوخ في بداية إرادته يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتسمح نفسه بالقيام عن طوع، قال: وقد عالج بعضهم بأن باع جميع ماله ورماه في البحر،

(١) الغزالي سبقت ترجمته في ص٢٦٧.

(٢) انظر: مدخل للتصوف الإسلامي ص١٨، د. أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

(٣) الموسوعة الميسرة ١/٢٦١.

(٤) الكشف سيأتي تعريفه والكلام عنه في فصل مصادر الذكر البدعي ص٣٨٨.

إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود ورياء البذل - قال: وحكى أبو حامد: أن أبا التراب النخشبي[١] قال لمريد له: لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرة، قلت: سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء فليته لم يحك فيه مثل هذا الذي لا يحل، والعجب منه أنه يحكيه ويستحسنه ويسمي أصحابه أرباب أحوال[٢].

وإذا كان ابن الجوزي يتعجب من الغزالي في إغماضه الفقه وتغميضه العقل تسليماً منه لكشوفات المتصوفة، فلعل مما يقال أيضاً إن المرء قد يحتار فيما إذا كان الغزالي قد أحسن أم أساء، فيما قام به من دور في تحول الصوفية من منحى المروق الكلي، إلى التستر بثوب جديد مما أتاح لها القبول في الساحة الإسلامية، ومن ثم التأثير والنفوذ في القرون التالية، فمن هذا التأريخ وعلى أرضية هذا التحول، ومع منتصف القرن السادس، بدأت الطرق الصوفية المنظمة في الظهور، وأصبح الذكر وآدابه وطرق تلقينه وأدائه هو القاسم المشترك لكل الطرق، وهو الذي يميز كل طريقة عن غيرها.

والذكر المعني: هو الذي يقوم على ترديد العبارات المعينة مرات كثيرة جداً، وربما صحبه أغاني صوفية لا يفرق بينها وبين أغاني الحب، يصحب ذلك رقص ونقر ونفخ[٣]. ومنذ القرن السادس الهجري وحتى اليوم، فإن معظم الفرق الصوفية إن لم تكن جميعاً تنتظم حلقات الدرس الطرائقي والورد الصوفي وهم في ذكرهم وحلقاتهم مجموعات[٤].

❊ ❊ ❊

(١) النخشبي شيخ الطائفة أبو تراب عسكر بن الحصين النخشبي، ومدينة نخشب من نواحي بلخ، كتب العلم وتفقه، ثم تأله وتعبد وساح وتجرد، مات بطريق الحج، انقطع فنهشته السباع في سنة خمس وأربعين ومائتين. انظر: سير أعلام النبلاء ١١/٥٤٥ - ٥٤٦.

(٢) تلبيس إبليس ص٤٢٧ - ٤٢٩.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٩/٣٨٨.

(٤) الصوفية معتقداً ومسلكاً ص٢٠١ - ٢٠١.

أوائل الطرق المنظمة التي ظهرت في هذه المرحلة

والمقصود بها الطرق التي تستقل كل واحدة منها باسمها ونظامها وسلوكها وأورادها.

وسأذكر هنا أوائل هذه الطرق وأهمها، والتي تعتبر أصول تفرعت عنها بقية الطرق التي أتت بعد ذلك، بالإضافة إلى أنها ما زالت مستمرة إلى اليوم، ولها انتشار واسع وهي:

١ ـ القادرية

٢ ـ الرفاعية

٣ ـ الشاذلية

٤ ـ النقشبندية

٥ ـ البدوية

ولقد ذكر كثير من الباحثين أن هذه الطرق المذكورة هي أول من ظهر، وما جاء بعدها يعتبر فروعاً عنها.

يقول صاحب كتاب التصوف بين الحق والخلق، وهو يتحدث عن مراحل التصوف وتطوره: ثم نشأت بعد ذلك طرق صوفية كثيرة في القرنين السادس والسابع أهمها القادرية... إلخ[1]. فيذكر هذه الطرق، وكذلك صاحب الفكر السامي، وصاحب المدخل إلى التصوف، كما أشارت إلى ذلك دائرة المعارف الإسلامية.

(١) التصوف بين الحق والخلق ص٢٣١، وانظر: الفكر السامي في تأريخ الفقه الإسلامي ٢/ ٥٩، ومدخل إلى التصوف الإسلامي ص٢٣٦ ـ ٢٤٢، ودائرة المعارف الإسلامية ٧/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠، و١٤/ ١٨٦.

وسأقف هنا وقفة قصيرة، مع كل واحدة من هذه الطرق المذكورة، للتعرف على ما عندها من مسلك مبتدع في الذكر أو في ممارسته وفهمه ومضامينه، ليتضح من ذلك أهمية هذه المرحلة في تطور الذكر البدعي.

* أ ـ القادرية *

هي طريقة صوفية تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني[1]. وهي من تأسيس الشيخ عبد القادر، وتنظيمه[2]. فقد وضع لها نظاماً وتعاليم وآداباً، وشروطاً، وأصبح له أتباع ومريدون وحملة لدعوته، وظهر من ينشر طريقته في البلدان ومنهم من بدء بذلك في حياته[3].

وللقادرية أوراد وأحزاب كما هو شأن كل الطرق الصوفية، ومن الأذكار الخاصة بالقادرية حزب ينسب إلى عبد القادر الجيلاني، يطلق عليه حزب الرجاء والانتهاء، أوله: سبحان الله تسبيحاً... إلخ[4].

ومن أحزابهم الرئيسية، حزب المحّ: (محاً محاً محاً، وحا بحا حم لا ينصرون... إلخ) ويقولون عنه: (أن من قرأه صباحاً ومساء ثلاث مرات لا يضره شيء بإذن الله تعالى)[5].

(١) عبد القادر الجيلاني هو: عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض، ولد بجيلان في سنة ٤٧١هـ وتوفي سنة ٥٦١هـ، ويكنى الجيلاني بأبي محمد، وينسب إلى جيلان. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٣٩ ـ ٤٥٠، والأعلام للزركلي ٤/ ٤٧، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٧٠.

(٢) انظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراءه الإعتقادية والصوفية ص٦٣٦ وما بعدها للدكتور سعيد بن مسفر القحطاني، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، والشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد ص٢٤٩، عبد الرزاق الكيلاني، دار القلم دمشق ١٤١٤هـ.

(٣) انظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية ٢٥/ ٧٩٨١ ـ ٧٩٨٢، إصدار مركز الشارقة للإبداع الفكري الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

(٤) انظر: كشاف الظنون ١/ ٦٥١ ـ ٦٥٢.

(٥) انظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراءه ص٦٥١. نقلاً عن الأوراد القادرية ص٢١ محمد سالم بواب، الطبعة الثانية دار الألباب دمشق ١٤١٣هـ.

وقد مضت هذه الطائفة وهي تخفف عن كاهلها شيئاً فشيئاً ما أثقلها به الشيخ عبد القادر من سلوك ومنهج للتربية، حتى اقتصر محور السلوك والعبادة في هذه الطريقة في الترديد الدائم والذكر المتصل لاسم (الله)[١]. وهذه الأذكار والأوراد والأحزاب التي نراها في جماعات القادرية المتناثرة في البلدان، والتي ينسب بعضها إلى الشيخ عبد القادر هي ليست من وضعه ويتضح ذلك بأمور:

أولاً: لما يلاحظ عليها من الاختلاف باختلاف المجموعات القادرية في أنحاء العالم الإسلامي.

الثاني: أن هذه الأوراد لا نجدها في كتب الشيخ عبد القادر الصحيحة النسبة إليه.

الثالث: ما تحويه أكثر هذه الأوراد مما يخالف ما كان عليه معتقد عبد القادر ومنهجه رحمه الله[٢].

هذا فضلاً عن حلقات الذكر التي تقام اليوم في الطريقة القادرية، مع ما يصاحبها من القصائد الملحنة بالألحان الخاصة ـ وربما مع الإيقاع الموسيقي ـ فلعلها مما وضعه الشيوخ الذين أتوا بعد الشيخ عبد القادر[٣].

فهو رحمه الله كان يقول: من كان ذاكراً لله عز وجل بقلبه فهو الذاكر، ومن لم يذكر بقلبه فليس بذاكر، اللسان غلام القلب وتبع له، وأسس طريقته على قواعد سبعة هي المجاهدة، والتوكل، وحسن الخلق والشكر والصبر، والرضا، والصدق)، فهي دعوة إلى مكارم الأخلاق والنأي عن السفاسف وحسن التعامل مع الخلق، والتصوف عنده لا يجيء بلبس الصوف، وتصفير الوجوه ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح، وإنما هو مجاهدة

(١) انظر: الحياة الروحية في الإسلام ص١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) انظر: موجز دائرة المعارف ٢٥/ ٧٩٨٢.، والشيخ عبد القادر وآراءه ص٦٣٦ وما بعدها.

(٣) انظر: الشيخ عبد القادر الإمام الزاهد ص٢٥٠.

وعمل وإخلاص[١].

وللطريقة القادرية انتشار واسع في أنحاء العالم الإسلامي، لاسيما في إفريقيا، ولعل مما ساعد في انتشارها مقاومتها للاستعمار الفرنسي في الشمال الإفريقي.

وقد تطورت الطريقة تطوراً خطيراً في المفهوم والمسلك والممارسة، إذ أصبحت لهم مواسم وأعياد خاصة تعرف ـ بالجلالة ـ تكون لذكرى عبد القادر تعقب المولد النبوي في ربيع الأول، وتستمر أربعة أيام، تقرأ فيها أذكار منصوبة لعبد القادر، وتقام حلقات للذكر تصاحبها آلات للعزف، بالإضافة إلى الاستغاثات الشركية والتوسلات الممنوعة والعبادات البدعية، والمفاهيم البعيدة عن الإسلام[٢].

* ب ـ الطريقة الرفاعية *

هي طائفة صوفية وقد يطلق عليها الأحمدية البطائحية وتنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي[٣]، والشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله لعله مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني، أسس مدرسة وأقام طريقاً وأصبح له أتباع ومريدون بقصد التربية والسلوك إلى تزكية النفوس، ولكن طريقة الرفاعية سرعان ما استجدت فيها المخالفات وظهر التطور السلبي بعده.

ذلك على الرغم من أن جل ما أُثر عن الرفاعي فيه الحض الشديد على

(١) انظر: المصدر نفسه ص٢٤٠ و٢٤٩، نقلاً عن الفتح الرباني المجلس ١٥، والمجلس ٢٥.

(٢) انظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية ٢٥/ ٧٩٨٣ ـ ٧٩٨٨.

(٣) الرفاعي هو: أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة، المغربي البطائحي، شيخ الطائفة الأحمدية الرفاعية، توفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، انظر ترجمته في: وفيات الأعيان وأنباء الزمان ١/ ١٧١ ـ ١٧٢، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٧ ـ ٨٠، والبداية والنهاية ١٦/ ٥٩٩ ـ ٥٦٠، وكتاب قلادة الجواهر هو مما أفرد في ترجمة أحمد الرفاعي وطريقته، والكتاب مرجع سابق ولاحق في البحث.

التمسك بالسنة والنهي عن البدعة[١].

بالإضافة إلى ما كان عليه في شخصه إذ كان: رجلاً صالحاً فقيهاً شافعي المذهب مشتغلاً بالعبادة[٢].

ويشير إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، في معرض نقاشه واستنكاره على أتباع الرفاعي فيقول: (وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر، وحمل الحيات... إنما ابتدع... بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة، ابتدعه طائفة انتسبت إليه)[٣].

فالرفاعية وأتباع الرفاعي لم يخلفوا شيخهم خيراً إذ لم يأخذوا وقتاً طويلاً للميل عن الطريق، فقد عاجلوا الزمان وفاجأوا المكان وأزعجوا السكان بغرائبهم، فها هو صاحب وفيات الأعيان وهو من شيخهم قريب الأوان، يقف شاهد عيان، يسجل عليهم ما اشتهروا به قائلاً: (والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة إليه، ولأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية، والنزول إلى التنانير فيطفؤنها)[٤].

ولم تنته المائة السابعة من الهجرة إلا وقد شاع أمرها وعم خبرها وخطرها، وتميزت بأمور عرف بها أفرادها كـ: (طعن أنفسهم بالمدي، وأكل النار، وازدراد الأفاعي، وغير ذلك من الأمور العجيبة التي يفسرون قدرتهم على فعلها بأن النفس وقد ملك عليها ذكر الله كل سبيل تصبح في حالة غيبة)[٥].

وقد تزامن اشتهارهم بهذه الأمور مع عهد شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان له رحمه الله معهم مواقف ومناظرات، وقد ذكر بعضاً مما كان بينه وبينهم، والأمور التي استنكرها عليهم، كملابسة النار، والحيات، وإظهار الدم... وغير ذلك، وأن هذا ليس من باب العبادات والقربات في شيء، فضلاً عن أن يكون من

(١) انظر: الموسوعة الميسرة ١/ ٢٧٠.
(٢) انظر: وفيات الأعيان ١/ ١٧١ - ١٧٢.
(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٤٩٤.
(٤) وفيات الأعيان ١/ ١٧١ - ١٧٢.
(٥) الحياة الروحية في الإسلام ص١٥٩ - ١٦١.

قبيل الكرامات، بل هو من جنس صنيع أهل المخاريق والحيل[١].

ثم مضت الطريقة وهي تضيف إلى مسالكها لسالكيها ما يراه الشيوخ وكل ذلك أو جُلّه ينسب إلى الشيخ أحمد، ويأتي في مقدمته الصلوات، والأوراد الخاصة بالطريقة، وكذلك الآداب، وشروط التلقين للأوراد ومكانة هذا الطريق، وترتيب أوراده وخلواته، وتدرج السالك وترقيه، ومما نسب إليه من الصلوات والأوراد ما يلي[٢]:

حزب اسمه - حزب البركات - وفي آخره: (... والحمد لله رب العالمين، وعلى نية القبول لروح حضرة الرسول ولأرواح المشايخ الكرام وأهل الطريقة العلية الرفاعية وكافة أصحاب الطرق، ولقبول الدعاء ورد القضاء، ونجاح الأمور إصلاح القلوب)، ومنها حزب آخر يسمى - حزب الأسرار - وفيه: (اللهم بجاه أهل الجاه وبمحل أهل المحل وبحرمة أهل الحرمة، وبمن قلت له ألم نشرح لك صدرك، اشرح اللهم صدورنا.. اللهم إنا نسألك بالألف المعطوف وبالنقطة التي مبدأ الحروف وبباء البهاء، وبتاء التدقيق... إلخ) وهكذا مع جملة الحروف إلى اللام، ومن هذه الأحزاب - حزب السيف القاطع - وفيه: (... اللهم صل وسلم وبارك وشرف وعظم، بكل وقت من الأوقات، وساعة من الساعات ملء الأرضين والسماوات على سيد السادات وإمام القادات ورأس الكل في الحضرات، وعلى آله وأصحابه أصحاب الكمالات، وعلى المشايخ العارفين أرباب الحالات، والسلام على الفرد الأمجد القطب الغوث الأوحد، النائب عن حضرة رسول الله في ملك الله، والآمر بالله في سماوات الله وأرض الله... ونسأله أن يعطف علينا قلب صاحب الزمان، وأهل حاشيته الكرام الأعيان، جعلناهم وسيلتنا إلى الله في كل أمر حسن...)[٣].

قال عن هذا الورد الأخير: (وحلقته تجتمع في ليلة الجمعة وليلة الاثنين،

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١١/ ٤٤٥ - ٤٩٦.
(٢) انظر: قلادة الجواهر ص٢٨٢ - ٢٩٥.
(٣) انظر: قلادة الجواهر ٢٥٣ - ٢٧٠.

وأكابر هذه الطريقة يقرؤون ذلك كل صباح يومياً وكل مساء... وأن من داوم على قراءته لا يموت إلا غنياً بفضل الله ولا يغلبه عدو قط ويرجى له حسن الخاتمة ببركة رسول الله ﷺ وتشمله بركة الحضرة الرفاعية... ومن آدابها أن يستفيض المريد قراءة هذا الورد المذكور من روحانية الحضرة الشريفة الرفاعية، ويجعلها واسطة للاستفاضة من الحضرة النبوية المباركة...)[1].

ومن ذلك صلاة تسمى ـ جوهرة الأسرار ـ يقول ـ إن من داوم عليها فهي من أحسن الوسائل لنيل المعالي ومعاني الأسرار الخفية من جانب الحضرة النبوية، يقول فيها: (... **اللهم** صل وسلم وبارك على نورك الأسبق وصراطك المحقق الذي أبرزته رحمة شاملة لوجودك وأكرمته بشهودك واصطفيته لنبوتك... نقطة مركز الباء الدائرة الأولية وسر أسرار الألف القطبانية، الذي فتقت به رتق الوجود... فهو سرك القديم الساري وماء جوهر الجوهرية الجاري الذي أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات قلب القلوب وروح الأرواح... القلم الأعلى والعرش المحيط، روح جسد الكونين وبرزخ البحرين...)[2].

وتعقب هذه الدعوات والأوراد والصلوات أمر يطول وليس هو الغرض في هذا الموضع ولكن يمكن الإشارة على وجه الإجمال إلى نقاط مهمة هي من سمات أذكار هذه الطريقة وأبرزها ما يلي:

١ ـ ضرورة استحضار المريد في خياله وشعوره وقلبه سلسلة أهل الحضرة الرفاعية وأرواحهم، لحصول البركة والاستمداد في بدء الذكر وجعلهم واسطة للاستمداد من الرسول ﷺ.

وهذا الشرط في ذاته نافذة غير شرعية، وبدعة شركية، وليس لها في المشروع نظير، والمستمد من خلالها هو أمر وراء ذلك، إذ هو قفز من تلك النافذة إلى خارج حدود الشرع.

٢ ـ الإكثار من التوسلات المحرمة والممنوعة، فهناك توسلات إلى الله

(١) المصدر نفسه ص٢٧١.

(٢) قلادة الجواهر ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.

بمن لا يعرف من هم، وتوسلات بالحروف أو بنقط الحروف، وهذا مع ما فيه من كونه خلاف الشارع ففيه فلسفة وإغراب في موطن هو مكان للإفصاح بالحاجة وصدق التوجه إلى من بيده قضاؤها، وتوسلات أخرى بالأنبياء والصالحين بحقهم وحرمتهم وجاههم، وعن مثل هذا التوسل الأخير، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: قول القائل (أسألك بكذا) نوعان، فإن الباء قد تكون للقسم وقد تكون للسبب، فقد تكون قسماً به على الله، وقد تكون سؤالاً بسببه، **فأما الأول**: فالقسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق؟.

وأما الثاني: وهو السؤال المعظم كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع،.. فنقول: قول السائل لله تعالى، أسألك بحق فلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان، يقتضي أن هؤلاء لهم عند الله جاه، وهذا صحيح فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة... ويقتضي أيضاً أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيداً...، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك، بل جاههم ينفعه إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله أو تأسى بهم فيما سنّوه للمؤمنين، وينفعه إذا دعوا له وشفعوا فيه، فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة، ولا منه سبب يقتضي الإجابة، لم يكن متشفعاً بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله، بل يكون قد سأل بأمر أجنبي عنه ليس سبباً لنفعه، ولو قال الرجل لمطاع كبير: (أسألك بطاعة فلان لك، وبحبك له على طاعتك، وبجاهه عندك الذي أوجبته طاعته لك) ـ لكان ـ قد سأل بأمر أجنبي لا تعلق له به، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبته لهم، وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس في ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم، ـ فيما أمر فيه بالطاعة ـ أو سبب منهم لشفاعتهم له، فإذا انتفى هذا وهذا فلا سبب[1].

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٥٥ ـ ٥٦، شيخ الإسلام ابن تيمية، الدار العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠.

٣ ـ وفي أدعية الرفاعية إشارة إلى معتقد يشاطرون فيه الشيعة الإمامية وهو القول بالأئمة الإثني عشر، وإمام الوقت الغائب المنتظر، كما هو واضح في الدعاء السابق في قولهم: (الغوث الأوحد النائب عن حضرة رسول الله ﷺ) وفي قوله ـ اللهم عطف علينا قلب صاحب الزمان ـ والرفاعية تشارك الشيعة في غير هذا أيضاً[1].

وهي عقيدة تزيد في المساحة التي تحول بينهم وبين المنهج الصحيح، إلا أن مشكلة التائه ليست في المساحة، بقدر ما هي في فقد الطريق.

٤ ـ وفي أدعيتهم ما يشير إلى القول بأن محمداً ﷺ هو أصل الوجود وأوله وروحه وجوهره، وحقيقته، كما هو واضح في صلاة (جوهرة الأسرار المذكورة، وهذه العقيدة مع مصادمتها للحقيقة المقررة لأبوة آدم وكونه أول البشر في الخلقة، وأن تأخر محمد ﷺ في الخلقة لا ينافي علوه في الدرجة والقدر، كما الشأن بالنسبة لأمته ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] فهي خير الأمم مع أنها آخر الأمم، ففوق مصادمة هذه الحقيقة، فإن هذه العقيدة تنكس فهم القائل بها حتى يقبل بأن محمداً ﷺ هو أصل لأبيه آدم وقبل هذا ومعه فهي تمهد للغلو في الرسول ﷺ بدعائه وطلب الأمور منه، ثم هي أرضية للقول بوحدة الوجود، كما يقول في صلاة (روح الطالب: اللهم صل على روح السر الكائن بسر الروح روح الطالب ومحل طلب أرباب المطالب... ملاذ الصلحاء، تجلي الحق بالوجوه والأنواع حقيقة التجلي... مدد الكل حقيقة الكل، سر الكل... الكل فالكل...)[3].

٥ ـ ما ذكر من الإغراء والمبالغة لما يثاب به من دعا أو صلى بهذه الدعوات والصلوات كالاطلاع على العلوم الخفية، وحسن الخاتمة، وكونه لا يموت إلا غنياً وأنه لا يغلبه عدو أبداً إلى غير ذلك.

هذه النقاط هي مجمل ما تنطوي عليه أدعية وأوراد وصلوات الطريقة

(١) انظر: الموسوعة الميسرة ١/ ٢٧٠. (٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.
(٣) قلادة الجواهر ص٢٥٢.

الرفاعية، وأما بالنسبة للطريقة نفسها، فقد انتهى الأمر بها وبأهلها وما عرفت به إلى مجرد إظهار أصحابها للأحوال العجيبة والغريبة، وهو ما سجلوه على أنفسهم مع أسفهم على ذلك، يقول صاحب قلادة الجواهر: (وإني رأيت كثيراً ممن تصدر لمشيخة هذه الطريقة العلية الرفاعية، لا يعرفون أصولها ولا فروعها، ولا خلواتها ولا أورادها، وبسبب جهلهم ظن أكثر الناس أن هذه الطريقة العلية بلا أوراد، ولا سلوك، ولا خلوات، لأن تلك الفرقة التي ذكرناها غاية ما عرفوا في هذه الطريقة، اللعب بالنار، والدبوس، والحيات وغيرها، وادعوا أن هذه البراهين كرامات لهم، حاشا بل كل ذلك في الحقيقة من بركات أسرار حضرة صاحب الطريقة، قدس الله سره، وأن هذه الحماية والحفظ الذي يصدر من جانب فيض كرم الله من ضرر النار والسلاح والحيات هو سر ساري في جميع المنتسبين!! لخدمة طريقة هذا الغوث السيد قدس سره، وهي مروءة وغيرة منه على ستر الطريق خوفاً من فضيحة شرف الطريق بين العوام)[1].

فهو ينكر على هذه النوعية من المشايخ جهلهم بسلوك الطريقة وخلواتها وأورادها، لكنه يقرر أن جريان مثل هذه الخوارق على أيديهم هو من أسرار الطريقة، ومن كرامات صاحبها فهي تحصل لكل منتسب لهذه الطريقة.

* ج ـ الشاذلية *

طريقة صوفية منسوبة لأبي الحسن الشاذلي[2]، وطريقة الشاذلي يقال أنها أسهل الطرق، لأنها لا تعتمد على كثرة المجاهدة ومقامات السلوك[3].

(١) المصدر نفسه ص٢٨٠.
(٢) أبو الحسن الشاذلي هو: علي بن عبد الله بن عبد الجبار، وقيل بن عبد الحميد، الشاذلي شيخ الطريقة الشاذلية، الزاهد الكبير، صاحب الأحزاب العجيبة في التوحيد والفناء، ولد بمدينة غمارة وانتقل إلى تونس ثم إلى مصر، وإلى العراق، وقد حج مرات عديدة، ومات بصحراء عيذاب في طريقه للحج سنة ٦٥٦، انظر لترجمته: الأعلام ٤/ ٣٠٥، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، وكتاب أبي الحسن الشاذلي ص٤٧ مرجع سابق.
(٣) انظر: الموسوعة الميسرة ١/ ٢٧١،

وكل ما تميزت به الشاذلية كثرة الأحزاب وشهرتها، وأنها من وضع شيخ الطريقة نفسه، فلقد وضع الشيخ أبو الحسن رحمه الله أحزاباً كثيرة منها: حزب البحر، وحزب البر، وحزب النصر، وحزب اللطف، وحزب الخفاء، وحزب الفتح، وغير ذلك[1].

وحزبه المعروف بـ (حزب البحر، ويسمى أيضاً الحزب الصغير) من أشهر الأحزاب الصوفية، كتبه وهو في البحر في السنة التي استولى فيها المغول على بغداد، وحكي عنه أنه قال: لو تلي حزب البحر على بغداد لما سقطت[2].

ومما يقوله في حزب البحر: (يا الله يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم، أنت ربي وعليك حسبي، فنعم الرب ربي، ونعم الحسب حسبي... نسألك العصمة في الحركات والسكنات، والكلمات والإرادات والخطرات، من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فقد ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، ليقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً... وسخِّر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام، وسخر لنا كل بحر هو لك في الأرض والسماء والملك والملكوت، وبحر الدنيا وبحر الآخرة، وسخر لنا كل شيء يا من بيده كل شيء كهيعص كهيعص كهيعص، انصرنا فإنك خير الناصرين... ولو نشاء لطمسنا على أعينهم... وعنت الوجوه للحي القيوم... طس حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان، حم حم حم حم حم حم حم الأمر، وجاء النصر فعلينا لا ينصرون، حم تنزيل الكتاب... بسم الله بابنا، تبارك حيطاننا كهيعص كفايتنا....)[3].

---

(١) انظر: كتاب أبي الحسن الشاذلي ص١٦٤، والفكر السامي ٢/٥٩، وكشاف الظنون ١/٦٥١ ـ ٦٥٢.

(٢) انظر: الشيخ أبي الحسن الشاذلي ص١٦٢ ـ ١٩٨، ودائر المعارف الإسلامية ٧/٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) ذكره ابن بطوطة في رحلته ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ـ ص١٥ ـ ١٧، دار الشروق العربي بيروت، دون مزيد بيان عن الطبعة، وانظر: الشيخ أبي الحسن الشاذلي ص١٧٦ ـ ١٧٨.

❖ الملاحظ على أحزاب الشاذلي:

والملاحظ على أحزاب الشاذلي بدءًا من حزب البحر، وفي جل أحزابه ما يلي:

١ ـ التصرف في الآيات القرآنية، وإدخالها مقطعة ومجزأة في ثنايا أدعيته، دون أن يتضح لها وجه تعلق بما وضعها فيه من مواضع غالباً.

٢ ـ أخذه للمقطعات من فواتح السور، ـ كحم وكهيعص الر ـ وغيرها، والإكثار من تردادها، وهي أصلاً من متشابه التأويل، ثم هو يوردها في أدعيته بحيث يكون المعنى أكثر غموضاً، مثل قوله ـ كهيعص كهيعص كهيعص انصرنا فإنك خير الناصرين.

٣ ـ استعماله للضمائر المطلقة في دعاء الله وندائه وكأنها مما يثنى به عليه سبحانه، كقوله: (يا من هو هو هو، يا هو يا هو يا هو)[1]، مع أن ما يتوجه به إلى الله إن كان ثناء فلا بد من أن يكون مما يفيد الثناء، وإن كان دعاء فلا بد من أن يبين المعنى ويفصح بالحاجة، وهذا ليس فيه من الأمرين شيء.

٤ ـ فـ: الاسم المفرد، مظهراً أو مضمراً ليس بكلام تام، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي، ولا يعطي القلب معرفة مفيدة، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً، والذكر بالاسم المضمر أبعد عن السنة[2].

٥ ـ وفي أدعيتهم ما هو واضح العبارة، لكنه يحمل أو يحتمل معنى غير سليم، ومن ذلك قول الشاذلي في أحد أدعيته: (اللهم صلني باسمك العظيم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، وهب لي منه سراً لا تضر معه الذنوب شيئاً؟؟!.... وادرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة وإسقاط الملامة؟؟!!...)[3].

---

(١) انظر: المصدر نفسه ص١٧٦. (٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٠/٢٢٦.

(٣) انظر: أبي الحسن الشاذلي ص١٦٥.

فهو يسأل الله أن يعطيه سراً لا تضر معه الذنوب، ولا أدري كيف سيكون حاله فيما لو خيل إليه أنه أعطي هذا السر، ثم هو يؤكد هذا الطلب مرة أخرى، حين يسأل إدراج صفاته تحت صفات الله وأفعاله تحت أفعاله، ثم تسقط الملامة فيها حتى لو كانت ذنوباً لأنها أصبحت مدرجة تحت فعل الله، وإدراج مكاسب العبد في فعل الله بحيث يتصور معه سقوط التبعة عن الإنسان هو فهم خاطئ، وفوق ذلك فهو يدفع إلى الاجتراء على المعاصي، ثم هو يمهد إلى القول بوحدة الوجود، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

* د ـ النقشبندية *

وهي فرقة صوفية، تنسب إلى الشيخ خواجه بهاء الدين النقشبندي[1].

والنقشبندية من الطرق المهمة، ظهرت في بلاد ما وراء النهر، والأطراف الشرقية لخراسان وظهورها كان في فارس، ونصوصها الأساسية وأورادها بالفارسية[2].

ويقول النقشبندية عن ماهية طريقتهم، هي: (بدوام العبودية بذكر الله تعالى على الإطلاق باتفاق أهل الطريق، والتبتل بقطع العلائق الظاهرة والباطنة بالانقطاع إلى الله عن الدنيا وأمورها، وعن الخلق... واختيار الخلوات كما كان حاله ﷺ أوائل أمره ينقطع عن الخلق في غار حراء ليتحنث لله...)[3].

والرسول ﷺ إنما كان منه التحنث قبل أن يأتيه الشرع ببيان أمور الدين، وبيان كيفية العبادة، فلما جاءه الهدى والنور أصبحت عبادته الصلاة والصيام

(١) بها الدين النقشبندي هو: محمد بن محمد البخاري الأويسي ولد سنة ٧١٧، وتوفي في ٧٩١، إليه ترجع السلسلة النقشبندية المنتشرة بالمشرق والروم، وما وراء النهر، وذكرت له كرامات وحكيت عنه أحوال عجيبة. انظر ترجمته في كتاب: المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية، محمد أمين كردي الإربلي، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٢٥، وانظر: الفكر السامي من تأريخ الفقه الإسلامي ٢/ ٥٩.

(٢) انظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية ٣٢/ ٩٩٦٠ ـ ٩٩٦٤.

(٣) جامع الأصول ص٩٨ ـ ٩٩، أحمد الكمشخانوي النقشبندي المجدد، المطبعة الميمنية مصطفى البابي الحلبي بمصر، دون مزيد بيان عن الطبعة.

والجهاد والصدقة وتربية الأمة والنصح لها، والتقرب إلى الله بالنوافل، وقيام الليل وغير ذلك، وأصحابه وأتباعه اقتفوا أثره فيما جاءه من الهدي، وما سار عليه من عمل، ولم يتحنثوا، ولم يتخذوا الاختلاء طريقة.

أما أهل التصوف فعلى العكس من ذلك، فهم لا يستهويهم ما جاء إلى محمد ﷺ من الشرع والهدى والنور، بقدر ما تستهويهم خلوته وتحنثه في غار حراء، فيقتدون به فيها لا لأنها عبادة، وهو رسول الله، ولكن رجاء أن يحصل لهم من هذه الوسيلة معرفة أو فتحاً أو كشفاً، ومن ثم الاستقاء من عالم الغيب استقلالاً دون الحاجة إلى وسيط.

يقول أحدهم بعد أن ذكر حال النبي ﷺ قبل البعثة وكيف كان يختلي ويتحنث يقول: هذه الحياة التي هداه الله لها... هي التي رسمت لنا الطريق إلى الله طريق الكشف، طريق الإلهام طريق البصيرة، بل طريق المشاهدة على ما يرى الصوفية... ـ ثم يقول ـ ... (ولا ريب أن معرفة تأتي عن طريق الإلهام، أو إذا شئت فعن طريق الألوهية هي معرفة لا يتطرق إليها الهدم ولا تنهار..)[1].

فهذه إذاً ليست ماهية النقشبندية وحدها وإنما هي ماهية جل أهل التصوف، مهما اختلفت الشارات، وألغزت الإشارات، وشطحت العبارات، وتباينت ألوان الخرق.

فالوسيلة هي: المجاهدة والتخلي مع استجماع قوى النفس واستنفاد طاقة الجسد الحسية، والغاية هي: الوصول إلى الإلهام، والمعرفة والكشف، وإزالة حجب الغيب، ومن يحرك يرى.

ثم يعود الكلام لاستكمال بعض ما عند الطريقة النقشبندية، والنقشبندية مع اتفاقهم مع بقية الطرق الصوفية في معظم آداب السلوك والذكر، إلا أن لهم

(١) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي ص٢٨٧ ـ ٢٩٩، عبد الحليم محمود، مطبوع مع المنقذ من الضلال للغزالي، دار الكتب الحديثة، طبع دار القصر بالقاهرة، الطبعة السادسة ١٩٦٨.

في ذلك الجديد المبتكر وهو في استغنائهم عن اللسان في الذكر، فهو يكون بالقلب ولكن يؤدى بطريقة خاصة ولهم لذلك مصطلح خاص، وهو الذكر الخفي، أو الوقوف القلبي، وتعريف هذا المصطلح وصورته كما يلي:

الذكر الخفي والوقوف القلبي عند النقشبندية وهو: (أن يجمع جميع حواسه البدنية ويقطع عنها جميع الشواغل، والخطرات القلبية، ويتوجه بجميع إدراكه إلى أواسط قلبه وعمقه متوجهاً إلى الرب المقدس..)[1].

وإذا سأل المستزيد، أصحاب العلم الجديد، عن كيفية الذكر بهذا الوقوف القلبي، قالوا وكيفيته: (أن تلقى جميع الشعور والإدراكات، إلى قعر القلب للوقوف التام، ثم تخرج النفس من الأنف بعنف إلى انتهاء النفس بقصد إخراج الخواطر والهواجس.. ثم يحبس النفس ثم يلاحظ لا - يعني من كلمة الشهادة - ويتخيله خطاً مستطيلاً من السرة إلى أم الدماغ، مع ملاحظة معناه، الذي هو النفي والإثبات، ثم يلاحظ لفظة، إله، فيجر الخط من أم الدماغ إلى رأس الكتف الأيمن، ويلاحظ المنفي بلا، المعبود، لو كان مبتدءً، أو جنس المقصود، لو كان متوسطاً، أو الموجود، لو كان منتهياً، - وإذا أراد المريد محاولة البدء للذكر بهذه الكيفية، يقول له السادة النقشبندية - هناك طريقان اسم الذات، أو النفي والإثبات، أما الأول فهو الأسهل والأقرب في حصول المقصود **وطريقة الذكر به** - أن يلتصق اللسان بسقف الحلق والفم، والأسنان بالأسنان، والشفة بالشفة، وينطلق النفس من حاله، ويتخيل في القلب تحت الثدي اليسار لفظة الجلالة بمعناها، أي الذات الإلهية ..... لكن يلاحظه بغير واسطة عبارة عربية، أو عبرية أو فارسية، حافظاً له في خياله وقلبه..)[2].

والمتأمل في هذه الكيفية وهذه الهيئة يرى العجب، ولعلي ألخص أبرز ما فيها فيما يلي:

١ - الشد النفسي والتهيؤ العصبي كخطوة أولى.

---

(١) جامع الأصول ص١٦ - ١٧.
(٢) المصدر نفسه ص١٧ - ٩٩ - ١٠٠.

٢ - إخراج النفس من الأنف بقوة مع توهم خروج الهواجس والخواطر بذلك.

٣ - ثم حبس النفَس من جديد كخطوة ثانية.

٤ - ثم تخيل - لا - كأنها خيط ممتد من سرته إلى أم دماغه.

٥ - ثم مع هذا الشد، والنفس المحبوس، والخيط الممتد، يلاحظ معنى النفي والإثبات.

٦ - ثم يجر الخط من أم الدماغ إلى رأس الكتف الأيمن، مع ملاحظة لفظة إله والمنفي يكون بحسب مقام الذاكر، فللمبتدئ لا إله معبود إلا الله، وللمتوسط لا إله مقصود إلا الله وللمنتهي لا إله موجود إلا الله.

٧ - وبالنسبة للفظ الجلالة يلاحظ المسمى بها من غير واسطة لغة، أي لغة كانت.

٨ - وفي كل هذه المراحل والتخيل والملاحظات ليس هناك نطق، فاللسان ملتصق بالحلق والشفة على الشفة، والأسنان على الأسنان.

ومع هذه العملية المتكلفة والشاقة نفسياً، وجسدياً وعصبياً، لعل مما يزيد العجب أن نعلم أن هناك أمور ثلاثة وهي[1]:

الأول: أن هذا الشد وطرد النفس وحبسه والتنقل بالخيال والتركيز بالملاحظة كل هذا يكون والعينان مغمضتان.

الثاني: ومع هذا على الذاكر تخيل الشيخ ذو الهيبة والسلطان الروحي صاحب الأسرار واقف أمامه وعلى رأسه.

الثالث: أن مقدار الورد الذي سيؤدى بهذه الكيفية ومع هذه الأحوال، أقله من اسم الجلالة للسالكين خمسة وعشرون ألفاً، في مدة يوم وليلة، ومن الأحسن أن يكون في جلسة واحدة.

وبعد هذه الملاحظات والوقفات أقول لعل هؤلاء القوم حملهم على هذا

---

(١) انظر: المصدر نفسه ص١٦ - ١٧.

الإغراب والمبالغة في هذه الآداب والأعداد أمران ربما لا ثالث لهما:

أولهما: علمهم بأن جموع السالكين والمريدين لا تستطيع الإتيان بهذا المطلوب التعجيزي في الهيئة والكيفية والعدد، فتضطر لنسب العجز والقصور إلى ذواتها وعدم صبرها، وتسلم بأن الشيوخ أرباب الأحوال هم وحدهم الذين استطاعوا تجاوز هذه العقبة وفعل ذلك.

وقد حاولت من قبيل التجربة في أداء ذكر اسم الجلالة ـ الله ـ بهذه الكيفية الأسطورية المتكلفة، مرة واحدة، ومع أنها من دون تخيل شيخ يقف على رأسي، وجدتها تحتاج إلى خمس ثوان على أقل الأحوال، ومعنى ذلك فإن العدد المطلوب وهو خمسة وعشرون ألفاً سيحتاج إلى أربع وثلاثين ساعة، ولا أدري أيعجب المرء من تلك الصفحات، التي أثقلت بهذا المداد، أم يأسف لتلك العقول التي غدت بدورها صفحات يعلق بها مثل هذا السواد.

الثاني: علم مشايخ الطرق، بأن من حمل على نفسه وأعصابه وقواه ومزاجه وأراد القيام بكامل ما شرطوا على ما وصفوا ورتبوا، فإنه لن يقارب من تمام ذلك، أو الوفاء به، إلا وقد أصبح حملاً وديعاً، سواء عليه أن يساق أو يسقى أو يعلف، ولعل مما يؤكد ذلك، هو في أن من يتسنى له الدخول إلى بعض الزوايا، التي يشرف عليها شيخ من شيوخ الطرق وينظر إلى من حوله من المريدين بتأمل فسيرى هؤلاء المساكين، فارغي البال، شاردي الذهن، غائبي العقول خائري القوى، شاحبي الأجسام، وهم دوماً مطرقو الرؤوس والشيخ وحده بعكس ذلك كله.

* هـ ـ البدوية *

وهي طائفة صوفية تنسب إلى أحمد البدوي[1]، والبدوي في سيرته كان

(١) أحمد البدوي هو: أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي، صاحب الشهرة في الديار المصرية، أصله من المغرب ولد بفاس سنة ٥٩٦، وطاف ببعض البلدان، وأقام بمكة والمدينة، ودخل مصر واستقر بها، وتوفي بطنطا سنة ٦٧٥، وقبره يزار ـ من قاصدي القبور ـ انظر: شذرات الذهب ٥/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦، وانظر: الأعلام ١/ ١٧٠.

رجلاً غريباً في أحواله ونواله كما يحكى صاحب شذرات الذهب في ترجمته: إنه كان من أعظم أولياء مصر، كان يمكث أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، صعد إلى السطح لا يفارقه أبداً اثنتي عشرة سنة، إذا جاءه الحال صاح صياحاً عظيماً. . وكان لا يميط اللثام عن وجهه وقد ألح عليه رجل وأصر على أن يكشف له وجهه فكشف له فمات الرجل في الحال[1].

والناس منذ القدم إلا من رحم الله سريعو الافتتان بكل من كان غريباً في تصرفاته، ومثيراً في أحواله، ويخرج عن المألوف، وإلا فالرجل كان (في سلوكه من طبقة الدراويش الدنيا. . . وشخصيته ضئيلة القدر من الوجهتين العقلية والأدبية، وقد بقي من ثمار عقله شيء يسير يتمثل في بعض الأحزاب، وبعض الصلوات، وبعض الوصايا، وأتباعه ينتشرون في مصر، ويعرفون بالأحمدية[2].

وإذا كان انتشار هذه الطائفة لا يكاد يجاوز مصر، فإن خطرها لا يكاد يجاوز افتتان أتباعها بشخص أحمد البدوي ومساحة قبره، فمما دأب عليه أتباع البدوي: الاحتفال بمولده سنوياً، مع ممارسة كثير من الخرافات والبدع العقدية، من دعاء، واستغاثة، بما فيه شرك صريح، إذ يتوجهون بذلك إلى البدوي[3].

ومما أثر عن البدوي هاتان الصلاتان:

الأولى: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا شجرة الأصل النورانية، ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السنية، والرتبة العلية، من اندرجت النبوات تحت لوائه، فهم منه وإليه، وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت

(١) انظر: شذرات الذهب ٥/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) انظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية ٢/ ٤٧٤ ـ ٤٨٨.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة ١/ ٢٧٠.

ورزقت وأمت وأحييت، إلى يوم تبعث من أفنيت وسلم....).

والثانية: اللهم صل على نور الأنوار، وسر الأسرار، وترياق الأغيار، ومفتاح باب اليسار، سيدنا محمد المختار، وآله الأطهار، وأصحابه الأخيار، عدد نعم الله وأفضاله.)[1].

وإذا كان البدوي قليل الإنتاج والغزيرة، فأتباعه أيضاً ليسوا أحسن حالاً، فلم يزيدوا على الغلو في شيخهم، وتهويل كراماته، وإقامة الموالد له، وعدم الانفكاك عن قبره، وإن كانت كثير من الطرق الصوفية تشاركهم مثل هذا الصنيع بمتبوعيها.

والصلاتان المنقولتان عن البدوي لا تخرجان في مضمونهما عن مضمون بقية الصلوات السابقة للرفاعي، أو الشاذلي، التي تبتدئ بالغلو في شخص الرسول ﷺ وطلب المدد والاستمداد منه، ثم تتدرج إلى إصباغ أوصاف الألوهية عليه ﷺ، ثم تنتهي إلى أنه أصل الوجود، ومنه الجود، وهو الكل، فالكل منه وبه كان.

❊ ❊ ❊

(١) أفضل الصلوات على سيد السادات ص٨٥ ـ ٨٦.

خلاصة هذه المرحلة

وخلاصة القول بعد هذا العرض الوجيز عن هذه الطرق الخمسة التي ظهرت خلال هذه المرحلة الثالثة ـ أي الواقعة من بداية المائة السادسة، وإلى نهاية المائة الثامنة، ومن خلال النظر إلى بعض أفكارها، ومجمل ما تدور فيه أذكارها، يتضح من ذلك كله أن هذه المرحلة هي الفترة الرئيسية في تطور الأذكار المبتدعة، ذلك لأنه قد استكمل فيها كل عناصره الأساسية المتممة لصورته من كل نواحي الابتداع، من جهة المصدرية، أو من جهة الهيئة والممارسة والكيفية، أو من جهة الآداب والأهداف، أو من جهة المضمون والمحتوى، إلى غير ذلك، في صورة واضحة المعالم محددة المسار لم يخرج منها إلى يوم الناس هذا، وإن تعددت الطرق وكثرت الأسماء، وتتلخص هذه الصورة فيما يلي:

١ ـ قيام طرق منظمة تنسب لأشخاص وتتميز بذكر خاص لكل منها.

٢ ـ وضع الأذكار والأحزاب من قبل الشيوخ، وتحديد الأعداد والهيئات، وشروط وآداب التلقين الخاصة.

٣ ـ التسابق في تحديد مزايا الأجور والفوائد للأذكار الخاصة.

٤ ـ ظهور ممارسات ألحقت بالذكر واعتبرت أنها حاصلة منه، وأنها كرامات للذاكرين كأكل النار والأفاعي واللعب بها وبالحديد، وغير ذلك.

٥ ـ حشو الأذكار بالرموز والمقطعات والطلاسم، والعدول إلى الضمائر.

٦ ـ تضمن الأذكار للأفكار الباطلة كوحدة الوجود، والاتحاد، من خلال فكرة الذكر المفني المؤدي إلى ذلك.

٧ - الغلو في الرسول ﷺ والقول بأنه أصل الوجود والكل منه، بالتصريح أو التلميح.

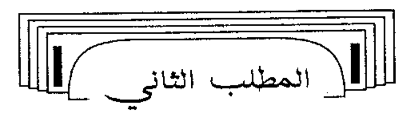
٨ - دخول الغناء والرقص واستعمال أدوات الإيقاع واعتبار ذلك من القرب والذكر.

٩ - ظهور من يلغي دور اللسان والبيان واللغة فيما سمي بالذكر الخفي والوقوف القلبي عند النقشبندية.

١٠ - تقديس الشيوخ، والغلو فيهم المتدرج من ذكر كراماتهم وقدرهم، إلى التوسل بهم والتماس المدد والفيض من جهتهم، ثم الاستغاثة بهم صراحة ودعائهم، واعتقاد تصرفهم في الحياة والأحياء، والأمر في ذلك سواء، إن كانوا أمواتاً أو أحياءً.

إلى غير ذلك مما شملته أو تضمنته أفكار وأذكار رواد هذه المرحلة وطرقهم، إذ لم يبقوا في شرعة الابتداع مساحة لمبتدع مجتهد.

* * *



المرحلة الرابعة من ٨٠٠هـ وإلى القرون المتأخرة

❖ مرحلة التفريع والتقليد:

بعد نهاية المائة الثامنة كان البيت الداخلي لمنتحلي مسلك الابتداع في الذكر، قد فرغ من ترتيبه، وتقررت قواعده، وعرف سلفاً الهدف من بنائه، ومن الذي يحوم حول فنائه، ولم يعد لمن أتى بعد هذا التأريخ، ورغب للتنكب لهدي المصطفى ﷺ في الذكر إلا أن يكون عالة على تلك النخالة التي تم عرض صورتها في المرحلة السابقة الممتدة من بداية القرن السادس وحتى نهاية الثامن، مرحلة الرواد شيوخ الطرق الرئيسية، ولم يعد بعد ذلك ثمة جديد يؤتى به.

فأصبح الأمر في القرن التاسع والعاشر قاصراً على مجرد التفريع والشروح والدفاع عن أفكار السابقين، وأخذت الطرق الصوفية في القرون المتأخرة خصوصاً منذ العصر العثماني في التدهور، واختلط الأمر على القوم، وانتشرت الفوضى بينهم، وانصرف أتباع هذه الطرق شيئاً فشيئاً إلى الرسوم والشكليات وسيطرت على جماهير المنتسبين إلى تلك الطرق الأوهام والمبالغة في التحدث بمناقب الأولياء وكراماتهم[1].

ولكن مع هذا التشتت والتدهور والفوضى ظلت الطرق تتكاثر، ومهما يكن من أمر فإنه (ليس من خلاف بين الطرق الصوفية من حيث المبادئ

(١) انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي ص٢٤٦، أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، دار الثقافة للنشر، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ القاهرة - والكلام يعتبر صورة صادقة من الداخل لأن التفتازاني من الحادبين على التصوف - وانظر: الموسوعة الميسرة ١/ ٢٦٣ - ٢٦٤.

الأصيلة، وإنما الفرق في نوع الأذكار والأوراد التي يواظب عليها المريد من كل طريقة)[1].

والذكر كما كان في القرون السابقة ما يزال الدين والديدن، والمعول عليه، سيما في هذه المرحلة الأخيرة، مرحلة الإفلاس، يقول صاحب كتاب التصوف في مصر إبان العصر العثماني: (كان الذكر آثر العبادات عند أهل التصوف جميعاً إبان هذا العصر، وإذا كان الغزالي ـ في القرن الخامس ـ يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه تعالى، فقد قام النزاع في العصر العثماني بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز، فقال قائلهم: إن الذكر آثر للمريد، أما تلاوة القرآن فأفضل للكامل الذي عرف عظمة ربه.. ولا عبرة بما يراه البعض من إيثار تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعاً، واتفقوا جميعاً على أن ذكر الله والاشتغال برياضة النفس، أفضل من الاشتغال بالعلم)[2].

وليت هذا المفاضل على أنه ذكر، لو كان يشابه الذكر أو يقاربه، فهو ذكر: (تصحبه أغاني صوفية لا يفرق بينها وبين أغاني الحب في كثير من الأحيان، كما يصحبه الرقص والنقر على شتى أنواع الدفوف... أو بالذكر في الحضرة التي تعتمد بانتظام في الزاوية.... يوم الجمعة والتي يتعين على الدراويش جميعاً أن يؤموها... ولكل طريقة ذكر خاص بها أنشأه مؤسسها، وفرضه على أتباعه، ولكن هذا الذكر يجوز أن يعدله الشيخ أو المقدم بحسب ما يتراءى له)[3].

وهكذا امتلأت ديار المسلمين منذ حوالي ألف عام بعناصر صوفية

(١) الصوفية معتقداً ومسلكاً ص١٩٠، نقلاً عن الفلسفة الإسلامية وملحقاتها ص٢٦٤.

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص٦٢ ـ ٦٣، توفيق الطويل، مكتبة الآداب، مطبعة الاعتماد نقلاً عن قواعد الصوفية ص٢٥، والعهود المحمدية ص١١، والبحر المورود ص١٠٣.

(٣) موجز دائرة المعارف الإسلامية ٩/٣٨٨.

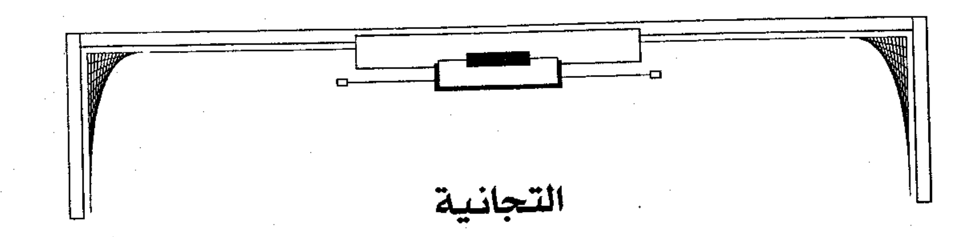
انضوت تحت مذاهب وطرق بعضها نقيض الآخر من حيث الممارسة وفن التعبير مما يسمى (بالطريق)... وأصبحوا نماذج إفساد في مجتمعاتهم، يمارسون الرقص في حلقات والتصفيق في مجموعات، وذلك هو ما ميز ملامح الطرق الصوفية على طوال مراحل التأريخ[1].

وهذا التردي الذي وصلت إليه الطرق الصوفية في القرون المتأخرة، أنف منه بعضٌ من أهل التصوف، واستهجنوا ممارسات كثير من الطرق، فها هو أحدهم ينقل نقداً لسابقين له في ذلك قولهم: ظنوا التصوف أذكاراً مشهورة، ومقامات مستورة، وخيالات مذكورة وأفكاراً مأثورة... ـ ثم يعقب بقوله ـ كيف لو أدركوا متصوفة وقتنا هذا، الذين خربوا الدين باسم التصوف،... فالموالد وما أدراك ما الموالد، وما هي إلا فرصة للاستعراض، ومباءة لما يصيب القلوب من الأمراض.. يدقون الدفوف، ويقرعون الطبول، وبيد كل منهم حديدية كالسيف بها يصول، يأكلون النار والصبار والثعابين، فقل بربك ما الذي يعود بهذا على الدين... ويدعون أن هذه كرامات أمام الناس، وإن هذه وأيم الحق منتهى الإفلاس، ويقول الراسخون منهم هذه أسرار، وما هي إلا من أسباب النار، وعلم الله أن الدين بريء من هذه المساخر، ولا يرضى لأتباعه أن يشتغلوا بمضحكات المظاهر[2].

هذه الصورة تكاد تكون شاملة لكل جماعات التصوف ومجموعاته، ولكن من حيث التفريع وظهور المسميات الجديدة ظلت الطرق في التكاثر، وإن كانت بالنظر إلى آحادها وأفرادها بمكان من الضآلة والضحالة، وليس لها ما تحمله من سمة اللهم إلا الاستقلال باسم وورد خاص، ويقل أن تجد بين هذه الطرق الكثيرة العدد المتعددة الأسماء في القرون المتأخرة ذات وزن وثقل، من جهة ما تتميز به مما يتبارى فيه القوم، ما تستحق معه أن تستثنى بالذكر لما لها من خطر، اللهم إلا التجانية التي سأفردها بشيء من التوضيح لما لها من خطر، وكونها أضافت جديداً وأتت بمزيد من الابتداع.

(١) دراسات في الفرق ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) انظر: نور التحقيق في صحة أعمال الطريق ص١٠٢ ـ ١٠٦، حامد إبراهيم محمد صقر الشاذلي.



التجانية

هي إحدى الطوائف الصوفية، وتنسب إلى أحمد التجاني[1]. وقد أخذ التجاني الطريقة القادرية، ثم انتقل إلى عدة طرق، ثم عنَّ له أن يتركها جميعاً وينشئ له طريقة جديدة خاصة به ففعل[2].

والطائفة التجانية حملت على ظهرها جُل ما كان ينوء به الجسد الصوفي المترامي الأطراف في مساحتي الزمان والمكان، فلا تكاد تجد فكرة قيل بها في فترة ما، إلا وفي معتقد التجانية وكلامهم، كلها أو بعضها، تصريحاً أو تلميحاً.

فهم يقولون بوحدة الوجود، وبالفناء ووحدة الشهود، ويعتقدون في بعض مشايخهم أنهم يعلمون شيئاً من الغيب، إلى غير ذلك[3].

ثم إنهم استصحبوا معهم خلاصة تجارب الطرق السابقة لهم، وأتوا بمزيد عليها وبجديد في الأفكار وفي فضائل الأذكار، مما كان قد ترك القول به من باب الحياء، فجاء شيخهم التجاني الجاني ليقول به.

ومن أبرز ما أتوا به من الأفكار ما يلي:

١ ـ اعتقادهم باللقيا بالرسول ﷺ يقظة والتلقي عنه.

---

(١) التجاني هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم التجاني، نسبة إلى بني توجين أخواله، ويزعم هو أن نسبه ينتهي إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، وأن الرسول ﷺ هو الذي أخبره بذلك يقظة. ولد في سنة ١١٥٠هـ ورحل إلى فاس ودرس بها ثم أخذ الطريقة القادرية، ثم انتقل إلى عدة طرق ورحل للحج، وقد توفي في سنة ١٢٣٠هـ، انظر ترجمته في: الأعلام ١/٢٣١، وجواهر المعاني في فيض أبي العباس التجاني ١/٢٦ ـ ٤٠، والتجانية لعلي الدخيل الله ص٤٠ ـ ٥٨.

(٢) انظر: التجانية ص٥٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه ص٨٢ ـ ١٠٤.

٢ ـ اعتقادهم بأن لهم مزايا عن غيرهم يوم القيامة، من الأمن والإظلال، ودخول الجنة في الزمرة الأولى.

٣ ـ اعتقادهم بأن من رأى التجاني يدخل الجنة من غير حساب ولا عقاب.

إلى غير ذلك من المعتقدات، والأفكار، وأما بالنسبة للأذكار فحدث ولا حرج ومن ذلك:

١ ـ أنهم خصوا بصلاة الفاتح لما أغلق، وهي أفضل من كل ذكر وقع في الكون، ومن القرآن بستة آلاف مرة.

٢ ـ عندهم من الأذكار ما من فضائله أنه تمحى به الذنوب صغائرها وكبائرها، وذكر آخر لا تكتب على قائله السيئات، وذكر آخر يكفي أن يحمله المرء ليكون من الذاكرين ولو لم يذكر.

٣ ـ أن آخذ وردهم يدخل الجنة هو وأزواجه، وذريته المنفصلة عنه[1].

إلى غير ذلك، ولعل هذه النقاط وحدها كافية لتبين الشؤم الذي أقحم فيه التجاني نفسه، إذ فضلها على المصطفى ﷺ أكرم من مشى على الأرض وحملته على ظهرها قدم، فها هو يقول: (وليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، وبلغوا من المعاصي ما بلغوا ألا أنا وحدي)[2].

والرسول ﷺ يقول لأحب الناس إليه ابنته فاطمة: «سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»[3]، ولم يشهد بالجنة إلا لنفر قليل من أصحابه مع أنهم آمنوا به ونصروه وجاهدوا معه، وهم الذين قام الدين على أكتافهم وبجهدهم وجهادهم بنيت دولته.

---

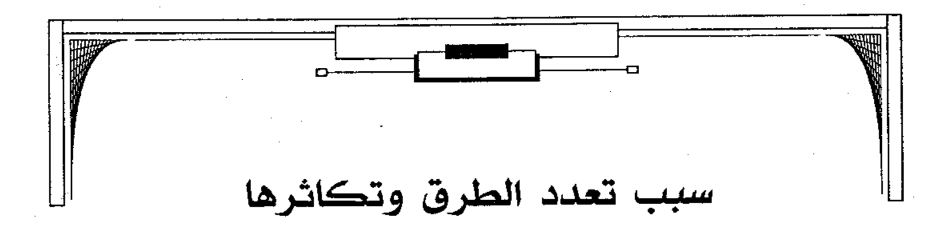
(١) انظر لجملة هذه الطوام: جواهر المعاني ١/٩٧ ـ ١٢٥، ٢/١٦٢ ـ ١٦٤، وص ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

(٢) انظر: رماح حزب الرحيم ٢/١٤٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ برقم ٤٧٧١، وانظر: البخاري مع الفتح ٨/٣٦٠.

ثم إن التجاني يفضل أذكاره على كل ذكر وقع في الكون، بل ومن القرآن ستة آلاف مرة، فماذا أبقى هذا للإسلام ولنبي الإسلام، وفي ظني إن الذي حمل هذا التجاني على هذه المجازفة، أنه عندما أراد الإتيان بجديد لم يجد إلا هذه المساحة التي مَنع من كان قبله من ولوجها متبقي الحياء الذي كان عندهم، والله أعلى وأعلم ورضاه أولى.

❊ ❊ ❊



سبب تعدد الطرق وتكاثرها

ما كان أمر تعدد الطرق وتكاثرها، ليحتاج إلى سبب وتعليل، وقد رأينا ونحن نتتبع تطور الفكر الصوفي، سيما في زعمهم، من أن طريقهم في المجاهدة والسلوك توصل بهم إلى الكشف، والتلقي عن عالم الأرواح من ملائكة وأنبياء وصالحين، بل إنهم قد يسمعون الخطاب من جهة رب الأرباب، كما سيتضح لاحقاً في مصادر الذكر البدعي.

فبعد فتح باب التلقي عن عالم الغيب، واستمراء أتباع المتصوفة لذلك وتشوفهم لبلوغه، وطالما قال شيوخ المتصوفة في مجالس الذكر لمريديهم: أن الذاكر يصير جليس الله تعالى فلا يعلم أحد قدر ما يتحفه الحق تعالى من العلوم والأسرار، لأنها حضرة لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد ـ ف ـ ماذا أتحفك وأعطاك في هذا المجلس؟ فإن قال: ما أعطاني شيء، قلنا له: وأنت الآخر لم تحضر معه شيئاً، فاتخذ شيئاً يزيل عنك الموانع المانعة لك من الحضور[1].

فكان الأمر بعد ذلك سهلاً لا سيما للراغب أن يقول شيئاً مما يتبارى فيه القوم، ويكفي بهذا أن يكون سبباً لظهور الفرق والطوائف.

يقول الدكتور أحمد غلوش: ليس من خلاف بين الطرق الصوفية، من حيث الأسس والمبادئ الأصيلة، وإنما الفرق في نوع الأذكار والأوراد، التي يواظب عليها المريد من كل طريقة منها ـ ف ـ قد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الإلهام، ويؤتى حظاً كبيراً من الأنوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر

(١) انظر: الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية ١/٤٢.

اسم معين من أسماء الله الحسنى، فيكون ذلك سبباً لإنشاء طريقة جديدة مشتقة من طريقته القديمة، ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور[1].

وقد أصاب الجزء الأكبر من الحقيقة، وإن كان يؤخذ عليه تأثره إلى حد ما[2]، في إقراره لهذه المكاشفة التي عرج عليها هكذا، دون أي تعليق.

وبهذا ننهي الكلام عن نشأة الذكر البدعي وتطوره، والله أعلم.

* * *

(1) انظر: الصوفية معتقداً ومسلكاً ص١٩٠، نقلاً عن الفلسفة الإسلامية وملحقاتها، لرضا كحالة ص٢٦٤.

(2) المصدر نفسه والصفحة.

الفصل الثالث

نماذج من الأذكار المبتدعة مع النقد

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: من أذكار الصوفية مع النقد.

المبحث الثاني: من أذكار الرافضة مع النقد.

المبحث الثالث: من غير ما ذكر مع النقد.

المبحث الأول

نماذج من أذكار الصوفية مع النقد

لقد تعرض البحث لكثير من أذكار الصوفية المبْتَدَعة لا سيما في الفصلين السابقين، ولكن وفقاً لخطة البحث سأسوق هنا نماذج معينة من أذكارهم، تصب في فكرة واحدة وهي الغلو في الرسول ﷺ، ثم تتدرج به إلى جعله ﷺ أصلاً للوجود، ثم هو الوجود كله، مع اعتباره ﷺ مظهراً لله قد تجلى فيه سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والمحصلة هي وحدة الوجود، من خلال ما يعرف عندهم (بالحقيقة المحمدية)[1]، والنماذج هي:

١ ـ **النموذج الأول**: هو لحامل لواء القول بوحدة الوجود، ابن عربي[2] في صلاة له على الرسول ﷺ يقول فيها: (اللهم أفض صلة صلواتك، وسلامة تسليماتك، على أول التعيينات المُفاضة من العماء الرباني، وآخر التنزلات

---

(١) الحقيقة المحمدية: هي الذات مع التعين الأول، وهو الاسم الأعظم. انظر: التعريفات للجرجاني ص٩٠.

(٢) ابن عربي: هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي ولد في مرسية سنة ٥٦٠ هـ ونشأ فيها، ثم ارتحل وطاف البلدان فجاء بلاد الشام والروم والمشرق ودخل بغداد، ثم ارتحل إلى مصر واتصل بأضرابه من الصوفية، وبدء بالكتابة والرسائل وظهر منه ما ينكر، وحكم عليه علماء مصر بكفره وإراقة دمه ولكن شفع فيه فعفي عنه، ثم رحل إلى مكة وجاور بها، وبدء تأليف كتابه الفتوحات المكية الذي اشتمل على مجمل المذهب الصوفي، وقد مرجه بمذهب وحدة الوجود. واختلف الناس في شأنه فذهبت طائفه إلى أنه زنديق، وقال آخرون إنه ولي ولكن يحرم النظر في كتبه، والصحيح أنه اتحادي خبيث، ولم يشتهر أمره وكتبه إلا بعد موته لأنه كان منقطعاً ولا يجتمع إلا بآحاد الناس، ثم تمادى ففضح أمره وهتك سره، مات سنة ٦٣٨هـ. انظر: شذرات الذهب ١٩٠/٥ ـ ٢٠٢، سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣ وما بعدها، والبداية والنهاية ١٥٦/١٣.

المضافة إلى النوع الإنساني، المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان إلى مدينة، وهو الآن على ما عليه كان محصي عوالم الحضرات الإلهية الخمس في وجوده... سر الهوية التي في كل شيء سارية وعن كل شيء مجردة وعارية... المظهر الأتم الجامع بين الربوبية والعبودية .... الفيض الأقدس الذاتي الذي تعينت به الأعيان واستعداداتها، والفيض المقدس الصفاتي الذي تكونت به الأكوان واستمداداتها، مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات، وواسطة التنزل من سماء الأزلية إلى أرض الأبدية، النسخة الصغرى التي تفرعت عنها الكبرى...) إلخ[1].

٢ ـ النموذج الثاني: صلاة على الرسول ﷺ منسوبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي ومعروفة عند الرفاعية (بجوهرة الأسرار) وقد سبق إيراد بعض منها عند الحديث عن الطريق الرفاعية في الفصل السابق من البحث، وهي: (اللهم صل وسلم وبارك على نورك الأسبق وصراطك المحقق..... نقطة مركز الباء الدائرة الأولية، وسر أسرار الألف القطبانية الذي فتقت به رتق الوجود، وخصصته بأشرف المقامات.... فهو سرك القديم الساري، وماء جوهر الجوهرية الجاري الذي أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات، قلب القلوب، وروح الأرواح، وأعلام الكلمات الطيبات، القلم الأعلى والعرش المحيط، روح جسد الكونين، وبرزخ البحرين وثاني اثنين، وفخر الكونين أبي القاسم أبي الطيب سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عبدك ونبيك وحبيبك ورسولك النبي الأمي...) إلخ[2].

ومن صلوات الشيخ الرفاعي أيضاً هذه الصلاة المعروفة بـ روح الطالب ـ وهي: (بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على روح السر، الكائن بسر الروح، روح الطالب، ومحل طلب أرباب المطالب، وراء رحمتك المبرقع بسر قولك وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين روح الوصول السالك بطريق القرب

(١) انظر: أفضل الصلوات على سيد السادات ص٨٨ ـ ٩٢.

(٢) قلادة الجواهر ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.

الموصول بمدد الرب الموصل لمقام الحب المذكور، باب الأولياء ملاذ الصلحاء تجلي الحق بالوجوه والأنواع، حقيقة التجلي بالاتضاع والارتفاع روح الطالب روح السر، روح المعرفة روح العناية بهجة الكل مدد الكل حقيقة الكل، سر الكل، معرفة الكل، فالكل، لإجله كان وبه نظم فكان معنى الكل....) إلخ[1].

٣ ـ النموذج الثالث: صلاة على النبي ﷺ لأحمد بن إدريس شيخ الطريقة[2] الإدريسية يقول فيها: (اللهم صل على طامة الحقائق الكبرى سر الخلوة الإلهية ليلة الإسراء، تاج المملكة الإلهية، ينبوع الحقائق الوجودية، بصر الوجود، وسر بصيرة الشهود، حق الحقيقة العينية، وهوية المشاهد الغيبية، تفصيل الإجمال الكلي، الآية الكبرى في التجلي والتدلي نفس الأنفاس الروحية، كلية الأجسام الصورية، عرش العروش الذاتية صورة الكمالات الرحمانية...) إلخ.

وفي صلاة أخرى له أيضاً يقول فيها: (اللهم صل على عين بحر الحقائق الوجودية المطلقة اللاهوتية، ومنبع الرقائق اللطيفة المقيدة الناسوتية، صورة الجمال، ومطلع الجلال مجلى الألوهية، وسر إطلاق الأحدية، عرش استواء الذات، وجه محاسن الصفات، مزيل برقع حجاب ظلمات اللبس بطلعة شمس حقائق كنه ذات الأنفس، عن وجه تجليات الكمال الإلهي الأقدس، كتاب مسطور، جمع أحدية الذات الحق، في رق منشور، تجليات الشؤون الإلهية الأقدس، كتاب مسطور، جمع أحدية الذات الحق، في رق منشور، تجليات الشؤون الإلهية المسمى كثرة صورها بالخلق، جانب طور الحقائق الروحية

(١) المصدر نفسه ص٢٥٢.

(٢) شيخ الطريقة الأحمدية: هو أحمد بن إدريس الحسني: أبو العباس، صاحب الطريقة الأحمدية المعروفة في المغرب ولد بفاس سنة ١١٧٢هـ، قرأ الفقه والتفسير والحديث، ثم انتقل إلى مكة وأقام بها نحو ثلاث سنين، ثم رحل إلى اليمن، فسكن صبيا إلى أن مات سنة ١٢٥٣هـ. أفرد بترجمة في كتاب المنتقى النفيس لصالح بن محمد الجعفري، مطبعة السعادة مصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٥م. وانظر: الأعلام ١/٩٥.

الأيمن المكلم منه موسى للنفس، بأنا الله لا إله إلا أنا في حضرة القدس، يا كامل الذات يا جميل الصفات يا منتهى الغايات، يا نور الحق يا سراج العوالم، يا محمد يا أحمد يا أبا القاسم، جل كمالك أن يعبر عنه لسان، وعز جمالك أن يكون مدركاً لإنسان، وتعاظم جلالك أن يخطر في جنان، صلى الله ﷺ عليك وسلم يا رسول الله، يا مجلى الكمالات الإلهية الأعظم)[١].

والوقفة النقدية مع هذه النماذج تكون من خلال ما يأتي:

١ ـ أولاً: هي صلوات وأوراد من وضع وتأليف أفراد، سواء في ذلك إن كان تأليفها ممن نسبت إليهم أو من غيرهم، والنقد في هذه الناحية والملاحظة، هي بالنظر إلى معظم ألفاظ هذه الصلوات الغامضة، وبالنظر إلى مضامينها المخالفة لمضامين الشرع صراحة، وهذا ما يجعلها تخالف شروط ما ينشئه العبد من عنده من ذكر ودعاء، فهي بهذا تكون من الأذكار البدعية المحرمة، كما اتضح معنا في مبحث (ضوابط ما ينشئه العبد من عنده) في فصل الذكر الشرعي، ومبحث (كيف يكون الذكر بدعياً) في فصل الذكر البدعي.

٢ ـ ثانياً: بالنظر إلى مضمون هذه الصلوات أيضاً، نجدها قد احتوت على جملة من المضامين الخاطئة والخطيرة وهي:

أ ـ أن هذه الصلوات يقوم مدارها على النظرية الصوفية في أن النبي ﷺ هو أصل الوجود ولا يمكن فهمها وتفسيرها إلا من خلال ذلك، بل ما هو فوق ذلك من اعتقاد أن محمداً ﷺ مظهر تجلى فيه الله تجلي حقيقي، تعالى الله عن ذلك، والمتأمل لهذه الصلوات لا يجد صعوبة في إدراك ما تحمله من هذا المضمون الخطير، ولكن من باب أن الاعتراف سيد الأدلة أسوق هنا بياناً وشرحاً منهم حول ذلك، يقول صاحب كتاب النفحات الأقدسية: (فليس لمحمد ﷺ من محمد شيء، ولذلك كان نوراً ذاتياً، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢] ـ أي من هويته ـ (نور) ـ أي محمد ﷺ.... ولما

(١) انظر: أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٦٦ ـ ١٦٩.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٥.

كان ﷺ نور الله، أنزل تعالى في حقه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[١] فلم يطلق هذا الاسم ـ يعني الله!! ـ بطريق الصراحة إلا على محمد ﷺ، ولذلك قيل له: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾[٢] لأن القول قول الله بالأصالة، وقال تعالى في حق المستجير: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[٣]، وما سمعه إلا من محمد ﷺ. فالبسملة نزلت على سليمان عليه السلام من باطن محمد ﷺ فكان سليمان ورسالته وخلافته وملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده مجلى من مجالي نور محمد ﷺ وصورة من صوره فما في الوجود إلا محمد ﷺ...... والحاصل أن معنى كونه سر الخلوة الإلهية ليلة الإسراء، اندراج كمالات الله تعالى بجميع أسمائه العلية وشؤونه الذاتية بالتحقيق العيني الذاتي في هيكل محمد ﷺ وجسمه البشري العنصري، وذلك عنوان جمعيته ما بين الظهور والبطون، والأولية والأخروية، والإطلاق والتقييد، والربوبية والعبودية[٤].

والقلم وصاحبه هنا يكفيهما في المؤونة الاستغفار عن نقل هذا الكلام فضلاً من أن يقيما في وادي الهلكة بحجة النقد ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[٥]، وخطورة هذا الأمر تتبين بمعرفة أن رفع المصطفى ﷺ فوق ما هو له من العبودية والنبوة والرسالة منهي عنه فيما هو أهون من هذه المعتقدات، كالقول بأقدمية كونه نبياً ﷺ قبل أن يوحى إليه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ومن قال إن النبي ﷺ كان نبياً قبل أن يوحى إليه فهو كافر باتفاق المسلمين، وإنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها وأعلنها بعد خلق جسد آدم، وقبل نفخ الروح فيه كما أخبر أنه يكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته بعد خلق جسده[٦].

ومن جانب آخر فقد يكون التلبيس من جهة كونه ﷺ نور: والحق أنه

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.
(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.
(٣) سورة التوبة: الآية ٦.
(٤) النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الإدريسية ص٩ وما بعدها، محمد بهاء الدين البيطار، دار الجيل بيروت، دون مزيد بيان عن الطبعة.
(٥) سورة الرعد: الآية ١٣.
(٦) مجموع الفتاوى ٨/٢٨٣.

ليس معنى وصفه ﷺ بأنه نور، أنه مخلوق من نور كما يزعم الصوفية، وإنما معناه أنه ﷺ هاد لمن اتبعه، منير له طريق الهدى وسبيل الرشاد بإذنه[1] كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[3]، على أن القصد هنا ليس هو التعرض للقضايا بقدر ما هو بيان أن هذه الأذكار تحمل أفكار ومعتقدات، وإذا علمنا ذلك سهل علينا معرفة ما يلمحون إليه أو يلغزون، ومعظم ما يدندنون حوله، يقول صاحب كتاب التصوف بين الحق والخلق: (نريد أن نفسر الغلو الذي يشهده كل من يقرأ ما مدح به الرسول ﷺ، ذلك الغلو الذي يقضي بأنه لولا محمد ﷺ ما ظهر شمس، ولا قمر، ولا نجوم، ولا أنهار، ولا بحار، ولا شجر، ولا مدر ولا جبال، نريد أن نبين كيف صح لقائل أن يقول:

لولاه ما كان أرض لا ولا أفق ... ولا زمان ولا خلق ولا جيل
ولا مناسك فيها للهدى شهب ... ولا ديار بها للوحي تنزيل

وكيف جاز للبوصيري[4] أن يحكم بأن محمداً دان الأنبياء قبل أن يخلق في قوله:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

وهذا الغلو لا يفهم إلا إذا عرفنا أنه يرجع إلى أصل من أصول التصوف، وهو القول بالحقيقة المحمدية، والحقيقة المحمدية هي العماد الذي

(١) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ص١٨٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥ ـ ٤٦. (٣) سورة المائدة: الآية ١٥.

(٤) البوصيري: هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، نسبة إلى بوصير من قرى بني سويف بمصر، ولد سنة ٦٠٨هـ، شاعر أغلب شعره في مدح النبي ﷺ على طريقة الصوفية، ومن تلك القصائد البردة، توفي سنة ٦٩٦هـ. انظر: فوات الوفيات ٣/٣٦٢، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت.

قامت عليه قبة الوجود كما عبر ابن عربي، هي صلة الوصل بين الله والناس فهي القوة المدرة التي يصدر عنها كل شيء)[1].

وهذا الكلام مع ما فيه من الغلو الخطير في الرسول ﷺ الذي هو في غنى عنه، فهو يقوم على غض الطرف عن حقيقة أنه ﷺ نهى وحذر مما هو دون ذلك، كما قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»[2].

وعلى هذا فهي دعوى عريضة تقوم على خلاف الدليل، وتتجه بمن يقول بها إلى ما هو أكثر شناعة القول بوحدة الوجود، في معادلة بسيطة، وهي في تجلي الله في محمد ﷺ وفيض الكون كله من محمد، وهذا هو الوجه الحقيقي للقول بالحقيقة المحمدية، التي قال بها ابن عربي، وهذا غير سبيل المؤمنين.

ب ـ ومن مضامين هذه الصلوات أنها تحتوي على الإشارة بأن ما يأتي من قبل الله من علم أو معرفة فهو بالفيض منه ﷺ، وليس المقصود بالعلم هنا ما جاء به ﷺ من الشرع وإنما المعني فيض مستمر كان قبل الرسالة ولا ينقطع بها ولا بموته ﷺ، وهذا كلام مؤسس على الهوى المطلق ليضيف من خلاله كل راغب إلى الدين ما يهوى، كما سيأتي ذلك في مصادر الذكر البدعي.

❁ ❁ ❁

(١) التصوف بين الحق والخلق ص٧٩ ـ ٨٠، محمد فهر شقفة، الدار السلفية، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.

(٢) الحديث أخرجه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: واذكر في الكتاب مريم، برقم ٣٤٤٥، البخاري مع الفتح ٦/٥٥١.

المبحث الثاني

نماذج من أذكار الرافضة مع النقد

إن للشيعة الكثير من الأدعية والأذكار والصلوات على النبي ﷺ والصلوات على آل البيت وعلى الأئمة منهم، وهم يدندنون بهذه الأدعية والأذكار والصلوات إما جماعة أو خلف داع واحد، وهم يؤمّنون خلفه، وهذا مألوف منهم في أماكن ومواسم العبادات التي تجمعهم ببقية المسلمين، أو تلك الأمكنة والأزمنة التي خصوها فاختصوا بها، وسنقف مع نماذج من هذه الأدعية والصلوات من خلال نقاط معينة وهي:

الجانب الأول: وهو جانب النظرة العامة سيما ما يقرع الأسماع من بعض هذه الأدعية وعلى الأخص فيما يجمعهم مع بقية المسلمين كالحج مثلاً، حيث يوجد فيها الثناء على الله وتمجيده بما هو أهله من الكمال والجلال والعظمة، بأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه، وتحتوي على ذكر نعمه ومننه وأفضاله وجوده وكرمه، مع التذلل والانكسار، وإظهار الفقر والحوجة إليه، مع الاعتراف بالذنوب والحوب والتقصير، إلى جانب الرضا والتسليم، والإلحاح في المناجاة والابتهال والانطراح بين يديه سبحانه، كل ذلك في ألفاظ جميلة عذبة وسلسة تفيض رقة، تحمل في طيها معاني متجانسة ومتماسكة تلامس القلب وتهز النفس وتوقظ كامن الشعور، وبصوت مؤثر متوائم مع الدلالات.

ومن ذلك مثلاً هذا الدعاء: يا ذا العرش المجيد، يا ذا القول السديد، يا ذا الوعد والوعيد، يا من هو الولي الحميد، يا من هو فعال لما يريد، يا من هو قريب غير بعيد، يا من على كل شيء شهيد، يا من ليس بظلام للعبيد، يا من لا شريك له ولا وزير، يا من لا شبيه له ولا نظير،... يا مغني البائس الفقير، يا رازق الطفل الصغير، ويا راحم الشيخ الكبير، يا جابر العظم

الكسير، يا عصمة الخائف المستجير.... يا ذا الجود والنعم، يا ذا الفضل والكرم، يا خالق اللوح والقلم،... يا ملهم العرب والعجم، يا كاشف الضر والألم.. يا رب البيت والحرم، يا من خلق الأشياء من العدم.... إلخ.

وفي دعاء آخر يقول: .... واجعل لساني بذكرك لهجاً، وقلبي بحبك متيماً، ومُنَّ عليَّ بحسن إجابتك، وأقلني عثرتي، واغفر لي زلتي، فإنك قضيت على عبادك بعبادتك، وأمرتهم بدعائك وضمنت الإجابة، فإليك يا رب نصبت وجهي، وإليك يا رب مددت يدي، فبعزتك استجب لي دعائي وبلغني مناي، ولا تقطع من فضلك رجائي... يا سريع الرضا اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء... يا من اسمه دواء، وذكره شفاء، وطاعته غنى، ارحم من رأس ماله الرجاء، وسلاحه البكاء، يا سابغ النعم، ويا دافع النقم، يا نور المستوحشين في الظلم، يا عالمًا لا يُعلم، صل على محمد وآل محمد... إلخ[1].

وهذا النوع هو بهذه الحال لو لم يؤخذ عليه الشكل الجماعي ربما لبقي في دائرة الاشتغال بالمفضول عن الفاضل، فما يعاب عليه إذاً هو الممارسة الجماعية والتقيد في رسوم معينة في الأداء، فهو وإن كان مشروعًا من جهة سلامة المعنى ووضوح العبارة، فهو مبتدع في ذات الوقت للأداء الجماعي الذي لم يكن من قبل الشارع، وعليه فهو يدخل ضمن البدعة الإضافية، ويكفيه هذا في الإثم.

الجانب الثاني: هو ما يتبين من خلال تمحيص لكثير من أذكار وأدعية وصلوات الرافضة، فإن محتواها فيه الكثير من الأمور المتفاوته في شدة الخطأ وتراكم الطوام ومن أبرزها:

١ ـ **الملمح الأول**: ما في بعضها من التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والسؤال، أو وصفه ﷺ بما هو لله، وصرف شيء مما لا يصرف إلا لله إليه ﷺ، كالدعاء والطلب ونداءه لكشف الكرب، وهذه أمور شركية، ونذكر هنا واحدًا من هذه الأذكار.

(١) وظائف الأبرار ص١٩٣ ـ ١٩٥ ـ ٢٦٨ ـ ٢٧٠، تأليف فرمان علي، الناشر كتب خانة اثنا عشري لاهور باكستان.

دعاء جاء في الصحيفة العلوية، منسوبا لعلي رضي الله عنه، يقول فيه: (ومن دعائه عليه السلام بعد السجود: أتوب إلى الله مائة مرة، بعد ركعتين ليلة الفطر أولياهما بعد الحمد يقرأ ألف مرة، وفي الثانية مرة واحدة: يا ذا المن والطَّول يا مصطفى محمداً ﷺ)[1].

٢ ـ **الملمح الثاني**: ما في بعضها من الغلو في آل البيت بوجه خاص، لا سيما علي رضي الله عنه، وهذا عام شائع في كثير من الأدعية والصلوات تبعًا لعقيدتهم في الإمامة وتنحلهم إلى آل البيت، وفي هذه العقيدة أمور غامضة، والواضح منها يكفي للحكم عليها، فهي تتجاوز مسألة الإمامة إلى العصمة، ثم القول باتصال المدد والفيض منهم، ولو مع غيبتهم، ثم إلى الإشراك فيهم وربما إلى التأليه الصريح، ومما يتضمن بعضاً من هذا مثلاً:

دعاء طويل جاء في ـ وظائف الأبرار ـ تحت عنوان (ناد علي كبير) يقول فيه: (ولي الله أدعوك كل هم وغم سينجلي بعظمتك يا الله، بنبوتك يا محمد ﷺ، بولايتك يا علي يا علي يا علي أدركني بحق لطفك الخفي، يا أبا الغيث أغثني، يا علي أدركني، يا قاهر العدو، يا والي الولي، يا مظهر العجائب، يا مرتضى علي، يا قهار تقهرت بالقهر، والقهر في قهر قهرك يا قهار، يا ذا البطش الشديد، أنت القاهر الجبار المهلك المنتقم القوي، الذي لا يطاق انتقامه، وأفوض أمري إلى الله)[2].

وهذا رفع لعلي إلى منزلة الربوبية والتأليه، والتوجه بالطلب والغوث والحماية منه لا من الله، زيادة على ما فيه من وصف علي بما لله من الأوصاف بل والأسماء ـ كالقاهر والجبار، المنتقم، والقوي، ذا البطش الشديد، المهلك، الذي لا يطاق انتقامه ـ ويكفي بهذا زيغاً وكفراً وإشراكاً وتحللاً، وليس ذكر الله أو إيراد اسم النبي ﷺ هنا إلا حشو للمرور إلى المبتغى عندهم.

---

(١) الصحيفة العلوية ص١٧٨. لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، المؤلف عبد الله بن صالح السماهيجي عن علي رضي الله عنه، دار التعارف للمطبوعات الطبعة الثالثة.

(٢) وظائف الأبرار ص٤٠ ـ ٤٤.

الملمح الثالث: هناك أوراد وأدعية عندهم فيها وصف لله بما لم يرد في الوحي وصفه به، بالإضافة إلى أن بعضه لا يحمل معنًى صحيحاً أو لا يفيد معنًى شرعياً، فمن ذلك ما جاء في أحد أدعيتهم وهو (دعائي مشلول) نداءات لله هكذا: (يا مفيد ـ يا نبيل ـ يا واصل ـ يا طاهر ـ يا شامخ ـ يا باذخ ـ يا نفاح ـ يا مرتاح ـ يا مبير)[1]، وهذا مسلك خاطئ ومزلق خطر وتجاوز للحظر.

٤ ـ **الملمح الرابع**: هناك أدعية تعبر عن حقدهم وضغينتهم على المسلمين من أهل السنة لا سيما الخليفتان أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فهناك أدعية بسبهما ولعنهما أوقع الله اللعنة على لاعنيهما، كما تتضمن هذه الأدعية السب واللعن لمن يوالي هذين الخليفتين ومن يحبهما، إما بالتصريح أو التلميح، ومن ذلك هذا الدعاء المشهور عندهم:

(اللهم العن صنمي قريش وجِبْتَيها وطاغوتيها وإفكيها، وابنتيهما الذين أكلا أنعامك وجحدا آلائك وخالفا أمرك، وأنكرا وحيك وعصيا رسولك وقلبا دينك وحرفا كتابك وعطلا أحكامك...... اللهم العنهما وأنصارهما....) إلخ[2].

وهذا جرم يفضي بصاحبه إن كان عالماً إلى الكفر لأنه طعن في تزكية الله ونبيه ﷺ للخليفتين ومن أحبهم من المؤمنين، وهو قول يتضمن وصف النبي ﷺ بالكذب أو أنه كان وحاشاه جاهلاً بحال أصحابه، ومن كانوا حوله، وهذا من لوازم مذهب الشيعة، وهو الذي سيودي بهم إلى ما يستحقون.

٥ ـ **الملمح الخامس**: هناك أدعية تحتوي على ألفاظ غامضة وطلاسم لا يعرف معناها وأسماء غريبة، ولعلها أسماء للجن والشياطين، ومن هذا القبيل هذا الدعاء وهو منصوب لعلي رضي الله عنه، قال عنه في الصحيفة المسماة بالصحيفة العلوية: أنه يكتب ويشد على العضد الأيمن، وهو (بسم الله الرحمن الرحيم أي كشوش أركنوش أره شش عطبيطسفيخ يا مططرون قربالسيون ما وما سوما

---

(١) انظر: المصدر نفسه ص٢٧٤ ـ ٢٧٧.

(٢) انظر: الصحيفة العلوية ص٢٨٥، ووظائف الأبرار ص١٣٣ ـ ١٣٦.

طيطسا لوس حيطوس مسفقيس مسا معوش أمر طيعوش هذا هذا[1] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾[2].

وهذا النوع من الممنوع شرعاً أن يكون ضمن ما يتقرب به إلى الله من دعاء أو ذكر، وأما إذا كان المقصود به الجان ومردة الشياطين فهو شرك، وهو من قبيل صنيع أهل الجاهلية في تعوذهم بالجن والتجائهم إليه، ولا شك أن هذا من ذاك.

وقبل تجاوز هذا المقام فإن هناك ما لا بد من الإشارة إليه، وهو أن هذه الأذكار هي من وضع غلاة التشيع وأن آل البيت وعلى رأسهم علي رضي الله عنه هم منها براء، كبراءتهم من بقية ما عرفت به هذه الطائفة، وليس لهم أي سند لدعاويهم سواء في الأذكار أو غيرها.

* * *

(١) الصحيفة العلوية ص١٩٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٤٤.

المبحث الثالث

نموذج لذكر مبتدع عند غير من ذكر مع النقد

المطلب الأول

الاحتفال بالمولد النبوي، تمهيد، وتأريخ ظهور

❖ سبب اختيار المولد للحديث عنه في هذا الموضع أمران:

١ ـ إفراد الكلام عن عمل المولد هنا مع أن الصوفية قد يكون لهم دور في ابتدائه، ومن دون شك في انتشاره وتبنيه، إلا أنه لم يعد قاصراً عليهم، كما أنه لم يعد بحاجة إلى تبنيهم فقد تبناه العامة والخاصة والموسرون في معظم أنحاء العالم الإسلامي منذ قرون، بل إنه في الفترات الأخيرة أصبحت تتبناه دول وحكومات، حتى أصبح مما عمت به البلوى فكان هذا الموضع هو الأنسب للكلام عليه.

٢ ـ إن الاحتفال بعمل المولد ليس من قبيل الأذكار المحضة فهو يتضمن أشياء كثيرة حتى إنه أصبح عيداً، وفيه كل ما يحتويه العيد، وزيادة، ذلك (لأن العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد إما بعود سنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، أو نحو ذلك، فالعيد يجمع أموراً منها أنه عائد ومنها اجتماع فيه، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات وكل هذه قد يتسمى عيداً)[1].

والاحتفال بالمولد: المقصود به ما شاع في معظم ديار المسلمين ومجتمعاتهم، من الاجتماع والاحتفال، والتخصيص لأعمال وأمور وأقوال في

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص١٨٩.

يوم مولد النبي ﷺ في شهر ربيع الأول من كل عام، واتخاذ ذلك اليوم عيداً أشبه ما يكون بعيدي الفطر والأضحى في التخصيص والتكرار والهيئة وإظهار الفرح والسرور، بل ويزيد عليهما بما فيه من المدائح والأناشيد مما ليس فيهما، مظهرٌ ينشأ على مشاهدته الصغير، ويألفه الجاهل، ويراه العابر بديار المسلمين، وإذا عرف هذا، فهنا إشارة إلى أمرين مهمين وهما:

الأول: أن هذا العمل في مضمونه، وفي هيئته حادث، وله تأريخ معلوم بدأ فيه ظهوره، ولا خلاف في هذا.

الثاني: أن العبادات والأمور الموضوعة بالذات للقرب، بالصفة والهيئة والزمان والمكان والعدد لم يترك الشارع شيئاً منها لغيره وهي من حقه الخالص.

ذلك لأن (أعمال الخلق العبادية التي تتخذ ديناً ينتفع به في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة، الأصل فيها أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله، والمواسم المحدثة إنما نهي عنها لما حدث فيها من الدين الذي يتقرب به)[1].

وعليه فالكلام هنا سينحصر في ثلاثة نواحي وهي: تحديد ظهوره وتأريخ إحداثه، ووقفة مع القائلين بجوازه، ثم الحكم عليه.

❖ تأريخ ظهوره:

اتفق العلماء على أن عمل المولد ظهر متأخراً، إلا أن هناك خلاف على تحديد بدايته.

القول الأول: على أنه ظهر في عهد الدولة الفاطمية (العُبيدية) في مصر، مع جملة من الأعياد التي كانت عندهم[2].

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٦٩.

(٢) انظر: الخطط للمقريزي ١/ ٤٩٠، وصبح الأعشى للقلقشندي ٣/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

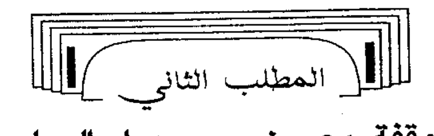
القول الثاني: أن أول من احتفل بالمولد هو صاحب إربل الملك المظفر أبو سعيد كوكبوري ابن زين الدين[1]، وقد ذكر هذا أبو شامة في كتابه «الباعث على إنكار البدع والحوادث»، وابن كثير في «البداية والنهاية»[2].

وسواء كان حدوثه على يد الفاطميين (العبيديين)، أو على يد المظفر، فهو محدث وتأريخ حدوثه متأخر، وهذا هو المقصد.

❁ ❁ ❁

(١) صاحب إربل: هو السلطان الملك مظفر الدين، أبو سعيد كوكبوري بن علي بكتكين بن محمد التركماني كان أحد الأجواد والسادات، والملوك الأمجاد، له آثار حسنة، توفي سنة ٦٣٠هـ، انظر: البداية والنهاية ١٧/ ٢٠٥، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٣٤.

(٢) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ص٢١، والبداية والنهاية ١٧/ ١٠٤ ـ ٢٠٥.



وقفة مع من يرى عمل المولد

هناك من العلماء من يرى أنه لا بأس بعمل المولد، مع أنهم يقولون بأنه مبتدع وحادث، ولكنهم يقولون باستحسانه، ويستدلون بدليل واحد، وهو ما روي من حال رؤي فيها أبو لهب بعد موته، وأنه يخفف عنه كل يوم الاثنين لفرحه بميلاد محمد ﷺ وإعتاقه مولاته ثويبة لذلك.

إذا كان هذا كافراً ذمه ... وتبّت يداه في الجحيم مخلَّدا
أتى أنه في يوم الاثنين دائماً ... يخفَّف عنه للسرور بأحمدَ
فما الظن بالعبد الذي كان عمره ... بأحمد مسروراً ومات موحِّدا[١]

ولا شيء غير هذا الاستدلال المتوقف على هذه الرؤيا التي كانت من العباس وهو لم يسلم بعد حين وقعت له هذه الرؤيا، ثم هو مخالف للأصل المقرر بقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[٢]، وهذا الأصل العام لا يستثنى منه بلا نص على الخصوصية، ولا توجد هنا، ولو صح الحديث لسقط بهذا الأصل فكيف به وهو مرسل[٣].

وهؤلاء المحسنون لعمل المولد، يقوم تحسينهم له على ما يلي:

١ ـ ينصون على أنه مبتدع وحادث.

٢ ـ والذي يحسِّنون عمله في المولد شيء معين.

(١) انظر: التأدب مع الرسول ﷺ ص٣٠١ ـ ٣٠٢، نقلاً عن مورد الصادي في مولد الهادي ص١٤.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٣.
(٣) انظر: التأدب مع الرسول ﷺ ٣٠١ ـ ٣٠٢.

٣ ـ هم يشترطون خلوه من الاشتمال على المفاسد.

يقول أبو شامة: (ومن أحسن ما ابتدع في زماننا... ما كان يفعل.... في كل عام في اليوم الموافق ليوم مولد النبي ﷺ من الصدقات والمعروف، وإظهار الزينة والسرور فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان إلى الفقراء مشعر بمحبة النبي ﷺ، وتعظيمه)[١]، ويزيد ابن حجر العسقلاني هذا المعنى وضوحاً مع اشتراط الخلو من المفاسد فيقول: (أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرَّى في عملها المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة وإلا فلا)[٢].

أما الفريق الذي يرى منع عمل المولد وأنه بدعة بكل الأحوال، فذلك: لأنه لم ينقل عن أحد من السلف فضلاً عن أن يقوم له دليل، والدين في الاتباع لا في الاستحسان[٣].

وعلى هذا فعمل المولد لا يستحسن بحال، سواء خلا من المفاسد أو لم يخل منها، لأن العمل نفسه غير مشروع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضي له، وعدم المانع منه، ولو كان خيراً لكان السلف أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً منّا له[٤].

ويقول صاحب المدخل: وهذه المفاسد مركبة على عمل المولد، إذا عمل بالسماع، فإن خلا منه وعمل طعاماً فقط ونوى به المولد، ودعا إليه الإخوان، وسلم من كل ما تقدم ذكره فهو بدعة بنفس نيته فقط[٥].

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص٢١.
(٢) انظر: الحاوي للفتاوي ١/١٦٩.
(٣) انظر: المورد في حكم المولد ١/٨ ـ ٩، لأبي حفص تاج الدين الفاكهاني، تحقيق علي بن حسن بن عبد الحميد، رسالة ضمن مجموعة رسائل في حكم الاحتفال بالمولد، مطبوعة تحت إشراف رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالسعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، واقتضاء الصراط المستقيم ص٢٩٤.
(٤) المصدر نفسه ص٢٩٤ ـ ٢٩٥. (٥) المدخل ٢/١٠.

المطلب الثالث

الوقفة الأخيرة حكم الاحتفال بالمولد

بناء على مما تقرر من القولين من كون أصل عمل المولد بدعة ومحدث، تبين أن عمله قائم على غير الاتباع، وهذه مقدمة، وأرضية مشتركة للحكم.

وأما تعظيم النبي ﷺ وهو فوق المراء والنقاش، إذ (هو أحق الخلق بكل تعظيم، إلا أنه ليس من التعظيم الحق له أن نبتدع في دينه بزيادة أو نقص أو تبديل، أو تغير لأجل تعظيمه به، وحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين)[1] وهذه نقطة يجب وضوحها، لنقترب بعدها من حكم هذا الاحتفال أكثر.

ثم الحكم عليه يكون من خلال صورتين:

الصورة الأولى: ما عليه المشاهد من فعله، وما يخالطه من مجموع المفاسد، كالمغاني وآلات الطرب، والرقص، والاختلاط، والإسراف.. إلخ، وهو إن خلا من واحدة من هذه الأمور فلا يكاد يخلو من الباقي.

وهو بهذه الصورة محرم بالإجماع، عند فريقي الاستحسان والمنع، فعند فريق المنع لأصل الابتداع فيه، وزيادة هذه المفاسد على ذلك، وعند فريق الإباحة لأجل هذه المفاسد أو بعضها، وليس هذا محل النزاع بين الفريقين ولا غيرهم[2].

الصورة الثانية: وهي حال خلو الاحتفال بالمولد من هذه المفاسد، وهي الصورة المستحسنة عند الفريق الأول.

(١) من كلام رشيد رضا رحمه الله، نقلاً عن رسالة للشيخ محمد بن إبراهيم، في إنكار الاحتفال ١/٢٩، ضمن رسائل حكم الاحتفال بالمولد السابق ذكره قريباً.

(٢) انظر: التأدب مع الرسول ﷺ ص٢٩٣.

وهو لا يخرج معها عن أصل البدعة كما يقول صاحب المدخل[1].

إلا أننا لنصل إلى الحكم عليه سوياً في هذه الصورة أيضاً نقول: هلموا ننظر هل فعل المولد واجب، أو مندوب، أو مباح؟ فهو ليس بواجب إجماعاً، ولا مندوب لأن حقيقة المندوب ما طلبه الشرع من غير ذم على تركه، وهذا لم يأذن فيه الشرع ولا فعله الصحابة، ولا التابعون، ولا جائزاً أن يكون مباحاً لأن الابتداع في الدين ليس مباحاً بإجماع المسلمين[2].

وعلى هذا فإن فاعل المولد يقف على أرضية الابتداع، وإن أقام له سقفاً فلا مستند له من الشارع حتى لو كان خالياً من المفاسد، فإن المُحتَفل بمولده ﷺ يقول: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[3]، ويقول: «كل بدعة ضلالة»[4]، ونحن قد قررنا معاً بأن المولد مبتدع وحادث، ولم يكن من عمل السلف، وأما حين تضاف المفاسد إلى عمل المولد، ويكون ظلاماً على ظلام، وتحفُّه الطوامّ، وتؤمُّه العوام، ولا يفرح به إلا الطغام محبي الشهوة والطعام، فهذا ما لا يجيزه أحد من علماء الإسلام، بمن فيهم محسِّنو البدعة، وهذا هو الغالب في الاحتفالات التي نشاهدها في ديار المسلمين الآن، بل إن فيها ما هو أدهى من ذلك وأمر.

لأن غالب هذه الاحتفالات بالموالد مع كونها بدعة لا تخلو من اشتمالها على منكرات أخرى كاختلاط النساء بالرجال، واستعمال الأغاني والمعازف... وغير ذلك من الشرور، وقد يقع فيها ما هو أعظم من ذلك، وهو الشرك الأكبر وذلك بالغلو في رسول الله ﷺ... ودعائه والاستغاثة به وطلب المدد منه، واعتقاد أنه يعلم الغيب، ونحو ذلك[5].

(١) انظر: المدخل ٢/١٠.

(٢) المورد في حكم المولد للفاكهاني ١/٩ - ١٠.

(٣) الحديث سبق تخريجه، انظر: ص٣٧.

(٤) الحديث سبق تخريجه، انظر: ص٤١.

(٥) حكم الاحتفال بالمولد النبوي ١/٥٧ للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مطبوع ضمن مجموعة الرسائل في حكم الاحتفال بالمولد مرجع سابق.

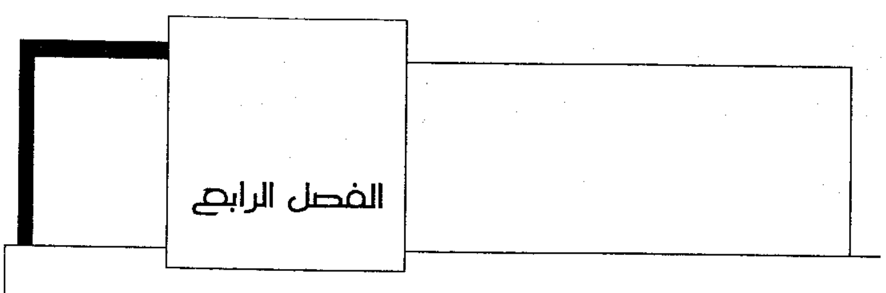
وعليه فالخلاصة في حكم الاحتفال بالمولد:

هو عمل محدث في الدين، وذلك لبدعية نية القيام بفعله، فضلاً عن الشروع فيه، على أنه لا يتصور خلوه من تلك المفاسد الكثيرة التي تحف به غالباً، والتي تجعله موغلاً في الحرمة: لاشتماله على المفاسد من الأغاني والطرب، والاختلاط والإسراف والسهر، أو تكون فيه المدائح الغالية المتضمنة للشركيات، أو برفع الرسول ﷺ إلى ما ليس له من الصفات.

(وهذه المفاسد ـ غالباً ـ مركبة على عمل المولد)[1]، فعمل المولد لا يجوز بأصله ولا بوصفه، وبهذا نكتفي في هذا المبحث، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: المدخل ٢/١٠.



آثار الذكر البدعي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أثر الذكر البدعي في حق الله ﷻ.

المبحث الثاني: أثر الذكر البدعي في حق الرسول ﷺ والرسالة.

المبحث الثالث: أثر الذكر البدعي في حق الأمة.

المبحث الأول

أثر الذكر البدعي في حق الله ﷻ

المطلب الأول

أثر الذكر البدعي في حق الله من التوحيد العلمي الخبري، وما يتعلق بذاته وصفاته سبحانه

إن المبتدعة ما قدروا الله حقّ قدره في ذكرهم، وذلك لأمور:

١ ـ اعتبارهم بأنّ الذكر يوصل للكشف، ورفع الحجب[١]، والتلقّي عن الله، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[٢]، وهذه الطرق الثلاثة للتلقّي عن الله خاصة بالأنبياء والرسل ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٣]، وإذا كان الكفار لم يقدروا قدر الله فيما حكى عنهم سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[٤]، فهؤلاء على العكس لم يقدروا قدره حين قالوا: يمكن الوصول إليه، والتّلقّي عنه بما هو أهون من ذلك، ومن غير طريق الأنبياء[٥].

(وَجَلَّ جناب الحق أن يكون شريعة لكل وارد)[٦].

---

(١) انظر: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني ١/٤٣، وانظر في فصل الذكر البدعي: المبحث الثاني المطلب الثالث ص٢٤٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٣) سورة الجنّ: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٥) انظر: فصل مصادر الذكر البدعي ص٣٨٣، وما بعدها.

(٦) الكلام لابن سيناء في الإشارات والتنبيهات نقلاً عن نظرية الاتصال عند الصوفية ص١٩٦، شاكرة بنت جلوي، دار المنارة جدة، ط١٤١١هـ.

٢ ـ قولهم بأنّ الذكر الحقيقي هو المفني في المذكور، وتجاوزوا فناء الشعور إلى فناء الذات في الذات حتّى قالوا: (فما ثم موصول ولا ثم واصل)[١]. ولم يذكر المذكور إلاّ نفسه فكان القول بالحلول، والاتّحاد.

وهذا مع ما فيه من زنْدقة، وكفر، وتحلُّل من الشريعة، فهو تعدٍّ في حقّ الله ذاتاً حين يكون كلّ شيء هو الله، أو أنْ يَحِلَّ في غيره ـ سبحانه ـ أو يتّحد معه غيره، وتعد في جانب الصفات، إذْ إنّ هذا كلَّه ممّا يتبرّأ عنه الله، ويتنزه، ويتقدّس ـ سبحانه، ولا يليق به، قال القاضي عياض ﷺ: (وكذلك من ادعى مجالسة الله والعروج إليه ومكالمته أو حلوله في أحد الأشخاص، كقول بعض المتصوفة والباطنية، فذلك كله كفر بإجماع المسلمين)[٢].

٣ ـ اعتقادهم في حقيقة الرسول ﷺ حين يمدحونه أو يدعونه ويتوسلون إليه أو به على أنه مظهر لله يتجلى فيه حقيقة في الذات والأسماء والصفات، تعالى الله عن ذلك.

يقول في النفحات القدسية: والحاصل أن معنى ﷺ سر الخلوة الإلهية ليلة الإسراء اندراج كمالات الله بجميع أسمائه العلية وشؤونه الذاتية بالتحقيق العيني الذاتي في هيكل محمد ﷺ وجسمه البشري العنصري، وذلك عنوان جمعيته ما بين الظهور والبطون والأولية والأخروية والإطلاق والتقييد والربوبية والعبودية[٣]. وقد أوردت هذا الكلام في الفصل السابق، في مبحث نماذج من أذكار الصوفية.

٤ ـ تعدي المبتدعة في أذكارهم في تسميته سبحانه بما لم يردْ به النصُّ،

(١) انظر: فصل الذكر البدعي، المبحث الثاني، المطلب الرابع ص٢٥٢، وجواهر المعاني ١/١٦٠.

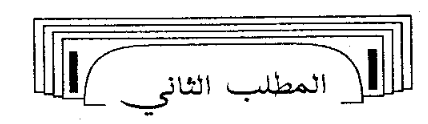
(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/٢٨٣، للقاضي عياض، دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الأخيرة ١٤٠٥هـ.

(٣) النفحات القدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية ص٩ ـ ١١. محمد بهاء الدين البيطار، دار الجيل ببيروت، وانظر: مبحث نماذج من أذكار الصوفية مع النقد ص٣٤٥.

أو وصفه بما لا يليق به أو ذكره بما لا يفيد ثناءً، أو مدحاً كالاسم المفرد أو الضمائر، أو بما لا يتميّز فيه ذكره عن العبث في الذكر، كالحروف التي لا تفيد اسمًا ولا ضميرًا كـ (ها ها ها، أو آه آه أو آ آ، أو هـ هـ. .) إلخ، أو بما يحتمل الاعتداء في أسمائه، أو الإشراك معه، كذكر بعض الكلمات المطلسمة، والأسماء الأعجميّة، فإنْ قصد بها الله سبحانه، فهو اعتداء في أسمائه سبحانه وإن قصد بها غيرَه فهي شرك، فقد تكون أسماء جانّ، أو حتّى ملائكة بصرف الذكر أو الدعاء لهم[١].

* * *

(١) انظر: فصل نماذج من الأذكار المبتدعة مع النقد مطلب نماذج من أذكار الرافضة من هذا البحث ص٣٥٢، والأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ١/٣٩.



مناقضة الذكر البدعي لتوحيد الله بالعبادة

١ ـ شروط أهل البدع في آداب مُتلقّي الأوراد، فيها طلبُ الذلّ، والخضوع لهم والخوف منهم، ومراقبتهم بالقلب والشعور والفناء فيهم قبل الفناء في الله، وعدم الاعتراض عليهم حتّى فيما يخالف شرع الله.. إلخ، وهذه هي أركان العبادة التي لا يستحقها إلّا الله سبحانه، ولا تُصرَفُ لغيره(١).

قال في جامع الأصول: أما آداب الذكر فتقديم الطهارة عن الحدث والخبث وصلاة ركعتين.... فإذا فرغ جلس متوركاً عند النقشبندية، وهيئة التشهد عند السائر... ثم يغمض عينيه، ويلاحظ نفسه كأنه مات، ثم يتوسل بمرشده ليشفع له عند ربه، (وهذا توسل محرم) ويلاحظ كأنه ناظر إلى المرشد بين عينيه، إما بالرؤية إن كان من أهلها أو بالإيقان والوجدان... ثم يشتغل بالوقوف القلبي(٢).

٢ ـ أذكارهم وأدعيتهم المتضمّنة لتمجيد غير الله، وتعظيمهم فيما لا يكون لغير الله سواء كانوا أنبياء أو أولياء، أو بتضمّنها دعاؤهم، أو سؤالهم، أو الاستغاثة بهم، وهذا كثير، وهذه أمور شركيّة. فالدعاء والسؤال، والاستغاثة لا تكون إلاّ بالله سبحانه.

---

(١) انظر: المطلب الثامن من مبحث مفهوم الذكر عند المبتدعة، فصل الذكر البدعي ص٢٨١، وما بعدها.

(٢) جامع الأصول ص١٦ ـ ١٧، أحمد الكمشخانوي النقشبندي، المطبعة الميمنية لمصطفى البابي الحلبي وأخويه بمصر دون مزيد بيان عن الطبعة، وانظر: المطلب الثامن المشار إليه من مبحث مفهوم الذكر عند المبتدعة.

ومن ذلك دعاء الرفاعية المسمى «بورد الفيوضات» جاء فيه: يا سيدي يا رسول الله، يا سندي ويا ملاذي وذخري، أنت تكفيني، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، يا صاحب الوقت يا غوث الزمان، ويا خلاصة الأنبياء يا جوهر الكون، شفيعنا محمد... يا مصطفى شيء لله يا سرًّا من سر الله، يا مصطفى شيء الله، يا متجلي ارحم ذلي، يا متعالي أصلح حالي.

يا رسول الله غوثاً ومدد ... يا رسول الله عليك المعتمد(١)

* * *

---

(١) قلادة الجواهر ص٢٦٠ ـ ٢٦٣.

المبحث الثاني

أثر الذكر البدعي في حق الرسول ﷺ والرسالة

المطلب الأول

أثر الذكر البدعي في حقّ الرسول ﷺ

❖ **من آثار الذكر البدعيّ في حقّ الرسول ﷺ:**

١ ـ يقول الله سبحانه لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ...﴾[1].

والرسول يقول في أعظم مَحفل يجتمع فيه المسلمون عامتهم وخاصتهم عامَ حجّة الوداع: «وأنتم تسألون عنّي فما أنتم قائلون؟ فيقولون نشهد أنّك بلّغْت الرسالة، وأدّيت الأمانة، فيقول: ألا هل بلغت اللهمّ فاشهد»[2]، ثمّ يأتي هؤلاء ليقولوا إنّ الرسول ﷺ خصّ الخاصّة بما لم يبلغه العامّة من التلقين، أو لقّن التلقين الخاص لفلان دون غيره، أو أنّه خبأ لأحد المتأخرين ذكراً خاصاً ولفلان صلاة لم يعرفها من كان قبله، وهذا كلّه على ما فيه من فِرْية، فهو يتضمّن الطعن في إبلاغ الرسول ﷺ للرسالة، وفي أدائه للأمانة، بل وفي نُصحه للأمّة وحاشاه عن ذلك بالأبّ هو والأمّ، والنفس، والولد.

يقول شيخ الطريقة الأحمدية أن الرسول ﷺ قال له مرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد، ما وسعه علم الله، خزنتها لك يا أحمد ما سبقك إليها أحد[3].

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.
(٢) الحديث سبق تخريجه في ص٢٠، ٢١.
(٣) أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٧٢.

بل إنهم يقررون بأن النبي ﷺ كان يخص من شاء، بما يشاء مما لا يعلم به غيره، وهو في ذلك في حياته وبعد موته سواء، يقول صاحب جواهر المعاني عن شيخه في ثواب صلاة الفاتح، وسألته رضي الله عنه: هل خبر خير الوجود ﷺ بعد موته كحياته سواء؟ فأجاب... الأمر العام الذي يأتيه عامًّا للأمة طوي بساط ذلك بموته ﷺ، وبقي الأمر الخاص الذي كان يلقيه للخاص فإن ذلك في حياته وبعد موته دائماً لا ينقطع[1].

٢ ـ يقول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾[2]، وهو ﷺ سيسأل يوم القيامة، كل من صُرِفَ له شيءٌ من العبادة، ولو لم يكن ذلك بطلبه أو لم يكن له علمٌ به، كما في شأن عيسى عليه السلام، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾[4]، والنبيّ ﷺ لخشيته من هذا الموقف يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنّما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله»[5]، وقد أمره الله سبحانه أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ...﴾[6].

وقد أتى هؤلاء من الأذكار والدعوات والصلوات، ما يتضمّن صرف كثير من حقوق الله إليه كعلم الغيب المطلق، أو يتضمن صرف بعض أنواع العبادة إليه، وفي هذا ـ على ما فيه من شرك ـ فهو إيراد للرسول ﷺ هذا المَورد الذي خشيه ﷺ.

فلدى القوم من الدعوات والصلوات ما يجعله متصفاً بما لله من الصفات والأفعال بل في كونه مظهراً لذات الله وهو حقيقة كل شيء، ومنه يستمد كل حي، ومعظم صلوات القوم عليه ﷺ بين واقع في هذا الحمى الحرام أو حائم

(١) جواهر المعاني ١/١٠٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٩.
(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.
(٤) سورة سبأ: الآية ٤٠.
(٥) الحديث سبق تخريجه في ص٣٥١.
(٦) سورة الكهف: الآية ١١٠.

حوله موشك بالوقوع فيه، ومصرح به أو ملغز إليه، وقد اتضح معنا هذا بجلاء فيما سبق[1].

٣ ـ إن إتيان هؤلاء بالأذكار والدعوات الخاصة المبتدعة، فيه منازعة له ﷺ في رسالته ومُشاركة له في أمّته، بنصب أنفسهم مكانه، وفي صرف النّاس إليهم عنه.

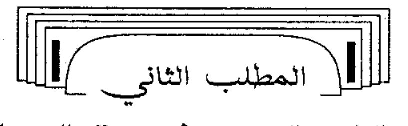
٤ ـ في صنيع هؤلاء تفريق للأمّة من خلال الأذكار والأوراد المبتدعة إلى طوائف وطرق، وفيه تمزيق للأمّة التي أراد النبيّ ﷺ أن يباهي بها الأمم، بالإضافة إلى أنّ ذلك فيه فجيعة له ﷺ في أمّته حين يذاد كثيرٌ منها عن حوضه ﷺ بسبب ما أحدثه هؤلاء، كما صور ذلك ﷺ في مشهد من مشاهد يوم الظمأ، حيث يقول ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن رجال منكم، ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[2].

وفي هذه النقاط ما يكفي لتوضيح ما للذكر البدعي من أثر سيئ على حقوق المصطفى ﷺ، وما لأصحاب هذا الذكر من تعدي على مكانته ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) انظر في الفصل السابق، مبحث: نماذج من أذكار الصوفية مع النقد ص٣٤٥. وانظر: أفضل الصلوات على سيد السادات للنبهاني ص٨٩..

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض، برقم ٦٥٧٦، البخاري مع الفتح ١١/٤٧١، ٤٧٢.



المطلب الثاني

أثر الذكر البدعي في حق الرسالة

إنّ من أخصّ ما تميّزت به رسالة الإسلام أمور ثلاثة: الكمال، وعدم التبدل، ووُحدة المصدر الرّبّاني، وإنشاء الأذكار والأدعية المبتدعة كغيرها من أمور الابتداع، هو استهداف لهذه الأركان التي قامت عليها الرسالة، وهذا أمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى مزيد فوق الإشارة، وهي:

❖ ١ ـ فعن كمال هذه الرسالة:

يقول الله سبحانه: ﴿.. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، وقد أنزلت هذه الآية أوان إشهاد النبي ﷺ للأمّة على التبليغ، وقد اكتمل الدين يومها وتقرر، وما لم يكن يومئذ ديناً فلن يكون اليوم ديناً.

والرسالة كاملة بشهادة الله، وإشهاد نبيّه ﷺ، وشهادة المتّبعين، وقد جاء هديها في الأذكار والدعوات كهديها في كلّ شيء من جهة الكمال والتمام.

وجاء مبتدعة الأذكار ليقولوا بصنيعهم إنّ ما تحتاجه الرسالة في باب الأذكار والأدعية هو بحيث يسع لكلّ هذا الذي أضافوا، وأحدثوا، وصنيعهم مع ما فيه من تضمّن التكذيب لقول الله في الآية السابقة، وما فيه من تضمّن الطعن في إبلاغ الرسول ﷺ لها، وما فيه من مخالفة لنهيه ﷺ من الإضافة والزيادة عليها، فهو يتضمّن بالإضافة إلى ذلك كله، محاولة هدم لركن من أركان هذه الرسالة ألا وهو الكمال[2].

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) انظر في التمهيد: مبحث كمال الدين الإسلامي، وشمولية الذكر الشرعي ص١٩.

❖ ٢ ـ عن عدم التبدل:

يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾[١].

ومزيّة تكفّل الله سبحانه بالحفظ والإبقاء هي ممّا خصّ الله به هذه الرسالة على كلّ الرسالات السابقة، إذ كان سبب تحريف الرسالات السابقة وتبديلها هو أنّ الله لم يتول حفظها، وأنّ أهلها قاموا بالزيادة فيها، والنقص منها، والابتداع بالزيادة والنقص في هذه الرسالة في الأذكار والدعوات، أو في غيرها، هو مصادمة لمراد الله من حفظ هذه الرسالة وإيراد لها موارد الرسالات السابقة، من التحريف والتبديل، وعليه فهو قطع لما أراد الله أن يوصل من حفظ هذه الرسالة وبقائها.

❖ ٣ ـ وحدة المصدر الربّاني:

لقد سبق فيما تقرر معنا في مصادر الذكر الشرعي، أنّ مصدر هذا الدّين الأوّل والأخير هو من الله، أي من كتابه سبحانه، وسنّة نبيّه ﷺ، وأنّ الإجماع والقياس هما في مجالهما ومن أهلهما ولا يخرجان عن هذا المصدر، ووُحدة المصدر من أعظم ما يحفظ للرسالة ميزتها وقيمتها كما قال ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا . .﴾[٢].

والابتداع بالزيادة والنقص هو مشاكسة حتّى لا يكون التشريع سَلَماً لله سبحانه، فهو هدم لخاصيّة وحدة المصدر، ومؤداه هو جعل الرسالة بحيث لا تحسم نزاعاً بين أتباعها ولا تعصمهم عنه، فهو مصادم لأمر الله في قوله: ﴿. . فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ . .﴾[٣]، إذ لا يتأتى ذلك حين يتفرّق المسلمون تبعاً للبدع، والمحدثات، والأهواء كما هو حاصل.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الحجر: الآية ٩. (٢) سورة الزمر: الآية ٢٩.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

المبحث الثالث

أثر الذكر البدعي في حق الأمة

المطلب الأول

أثر الذكر البدعي على الأمة من جهة كونه مبتدعاً، وذلك من نواحي

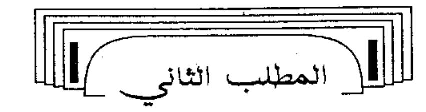
١ ـ فيه كون المسلم يتّخذ له مشرعاً في عبادته غير الشارع، وأثر ذلك تفرق الأمّة وتمزّقها، ووقوع التعصّب، والخلاف بينها، والابتداع في الذكر من قِبل مشايخ الطرق الصوفيّة، كان هو العامل الرئيس في تفرع هذه الطرق، وتكاثرها[١]، وتمايزها.

٢ ـ فيه فتح لباب الابتداع في الدّين، واستمراء ذلك، والاستهانة به من قبل من يرغب في المشيخة، ومن جهة أخرى جعله مألوفاً للأمّة لا تنكره.

يقول الشيخ الغزالي ﷺ: إن الذين ابتدعوا هذه الأذكار أضلوا المسلمين ضلالاً مزدوجاً، أضلوهم إذ أضافوا إلى ما شرع الله هذه الزيادات المتفخمة. . . . وإذ صرفوا الهمم عن أعمال أخرى كان الإقبال عليها أرجى في دين الله، وأدنى إلى نفع العباد[٢].

٣ ـ ومن أخطر ما فيه أن يدخل إلى الأمّة من خلاله من يريد إدخال شيء في دينها وعباداتها، إذ أنّ قابليّة الإضافة والزيادة فيه هي ممّا يطمع إليه الأعداء.

(١) انظر لسبب تعدد الطرق ص٣٤١ من هذا البحث.
(٢) ليس من الإسلام ص٢٣٠ ـ ٢٣١.



أثر الذكر البدعي من جهة الهيئة والشروط

لتلقّي الذكر المبتدع شروط ذات آثار سلبية على الفرد، والمجتمع، ومنها:

١ ـ لا بدّ من تلقّيها على يد شيخ خاص تكون له تبعيّة المتلقّي ظاهراً وباطناً، ويكون المتلقّي للشيخ كالميّت بيد الغاسل يقلبه كما يشاء، ولا يعترض عليه إلاّ إذا فعل الميّت ذلك مع الغاسل.

٢ ـ يقدم حبّ الشيخ على حبّ غيره كائناً من كان، ويحضره بين عينيه وفي قلبه، حاضراً كان أو غائباً، رجاء البركة والفتح من قِبله، ويفنى فيه قبل الفناء في الله ممّا تكون المحصّلة خضوع وذلّ وخوف، ورهبة منه، وكأنّه يعلم ما في الضمير.

٣ ـ فيه تكلّف، وتكليف من حيث الإقلال من الطعام، والامتناع عن بعضه، والسهر والاختلاء ممّا يضرّ بالبدن، والمزاج.

٤ ـ إظهار الأمّة على أنّها أمّة عبث ولهو، وأبعد ما تكون عن الجِدّ، وذلك في الموالد التي تكون بالإنشاد، والمديح، مع الدفوف والمزامير والموسيقى، ويكون الحضور غارقين وسط معمعة تجتمع فيها جملةٌ من المُنكرات، فوق ما فيها من مشابهة حفلات اللهو، والغناء إنْ لم تكن منافسة لها.

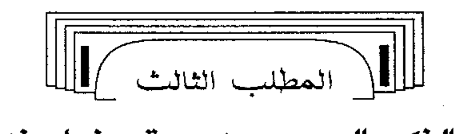
٥ ـ فيه من وجه خاصّ إزاحة للهيبة والوقار من كبار المجتمع أو من يظنّ أنّهم من أهل العلم، ولو ظاهراً، عندما ينخرطوا في صخب كهذا أو يرقصون، ويتمايلون.

٦ ـ بالنسبة لأذكار الألوف، ومئات الألوف، فيه إضاعة لأوقات الناس، وأعمارهم وتغييبهم عن بقيّة تكاليف الدّين والدنيا فضلاً عن الجهاد،

وهموم المسلمين، وفيه إخلاء للطريق أمام أعداء الإسلام بقدر ما في تلك الخلوات.

٧ ـ وفيه من جهة أخرى دفع إلى الخمول والدعة، وقتل لروح النشاط والجهاد، وتضييع للمال والعيال، وكلّما أقبل على هذا الاتجاه سالك ومريد كلّما زاد عدد العالة في المجتمع المسلم.

❊ ❊ ❊



المطلب الثالث

أثر الذكر البدعي من جهة مضامينه[1]

١ ـ هناك من الأذكار ما يتضمّن صرف العبادة لغير الله، والإشراك فيها، وهو أخطرها أثراً.

٢ ـ هناك أذكار تحتوي على كلمات غير منضبطة المعنى، وطلّسْمات تعلق المسلم بما لا يعرف معناه.

٣ ـ تعليق الأمّة بالثواب المتوهم المبالغ فيه الذي يؤدّي إلى مزيد من التعلق بالأذكار المبتدعة، وتزهيد الأمّة في المشروع.

٤ ـ هناك دفع إلى الجرأة على المعاصي، والأمن من مكر الله، إذ إنّ تلقين ذكر معيّن لا تكتب على قائله سيّئة في يومه، أو شهره، أو عامه، أو لا يموت إلاّ سعيداً، أو أن ضامنه هو المصطفى.. إلخ.

يقول التجاني: (كل من أخذ وردنا يبعث من الآمنين ويدخل الجنة بغير حساب ولا عقاب هو وولده، وأزواجه وذريته المنفصلة عنه)[2].

فهؤلاء المتصوفة ركبوا أورادًا وأذكارًا للعامة كما يركب الطبيب الجاهل أدوية سيئة، فيقبل عليها المفتونون بصلاح رؤسائهم ويضيعون أوقاتهم سدى في أعمال ما طلبها الله في فريضة أو نافلة، وعلى قدر ما ينشغلون به في هذه الأذكار المبتدعة ينسون من مطالب الإسلام الحقة[3].

وهذه مجرد نقاط وإشارات لآثار الذكر البدعي، في حق الله، وحق

(١) انظر: مبحث ما يترتب عليه الضرر على الدين من الذكر البدعي في فصل الذكر البدعي ص٢٣١.

(٢) جواهر المعاني ١/١٦٢. (٣) ليس من الإسلام ص٩٤ ـ ٩٥.

الرسالة وحق الرسول وحق الأمة، وهي غيض من فيض، ويصعب تقصّيها، كيف والابتداع استحداث واستبدال وباب متجدد، يستجيب لما يستجد من الرغبات والنزعات والأهواء، وعبر امتداد الزمان وترامي البلدان والأطراف والأمكنة.

فما أقبحه من جرم وشؤم تُقدم عليه فئام من المسلمين تنقض به بناء بيتها بأيديها لبنة إثر لبنة، وتعمل بنفسها على ما ينتهي بها يوماً في العراء ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾[1].

ويا ليت القوم يعلمون خطورة ما يعملون، وإلا:

فما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

❊ ❊ ❊

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

الفصل الخامس

مصادر الذكر البدعي دراسة تقويم ونقد

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

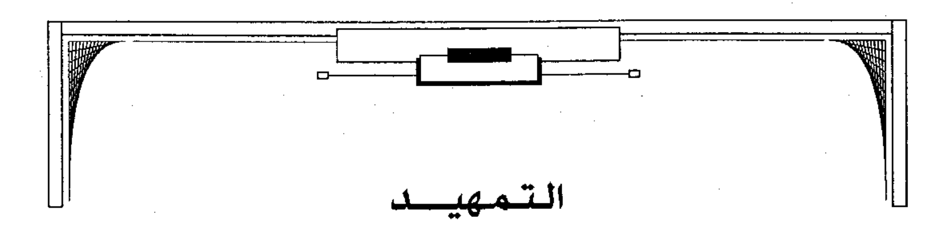
المبحث الأول: الكشف تعريفه وأبرز موضوعات.

المبحث الثاني: التلقي عن الله بالكشف.

المبحث الثالث: وقفة تقويمية مع مصدر الكشف.

المبحث الرابع: التلقي عن النبي ﷺ بالكشف.

المبحث الخامس: التلقي عن غير الله ونبيه بالكشف.



التمهيد

لقد مر معنا في مفهوم الذكر البدعي، أن غاية مراد أصحابه منه، هو كشف حجب الغيب وعلومه، والوصول إلى المغيبات، وحصول الفيوضات والواردات إلى قلوبهم، وهذا هو الباب الذي أوقفوا جهدهم وجهادهم وعباداتهم وأذكارهم أمامه، وعوَّلوا على طَرْقه ونقره، حتى فتحوه، أو خيل إليهم أنهم فتحوه فتعلقوا به، وعلقوا به أتباعهم، ومن ثم اتخذوه باباً بديلاً عن باب الشرع، وغدا هو مصدرهم للتلقي.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود في أبحاثه في التصوف تحت عنوان ـ وسيلة المعرفة ـ بعد أن سرد حياة الرسول ﷺ قبل البعثة وعزوفه عن المجتمع الجاهلي وتحنثه في غار حراء وتكبده المشاق وسهره الليالي حتى تهيأت نفسه، إلى أن كان من أمره أن أتاه جبريل بالوحي، فيقول معقباً على هذا: هذه الحياة التي هداه الله لها هي التي رسمت لنا الطريق إلى الله، طريق الكشف، طريق الإلهام طريق البصيرة، بل طريق المشاهدة على ما يرى الصوفية، ـ ثم في المبحث التالي يزيد المسألة إيضاحاً فيقول: فقضية الروح ليست غرضاً من أغراض الصوفية إلا لأنها تمهد للاتصال بالله والتلقي عنه، ولا ريب أن معرفة تأتي عن طريق الإلهام أو إذا شئت عن طريق الألوهية هي معرفة لا يتطرق إليها الهدم ولا تنهار أمام حجج المنطق، وأنت تحاول عبثاً إذا أردت أن تبعث الشك في نفس الصوفي أو أن تحوله عن رأيه إذ كيف يحيد عن فكرة يعتقد أنه تلقاها عن الملأ الأعلى[1].

(١) أبحاث في التصوف، ودراسات عن الإمام الغزالي. مع المنقذ من الضلال للغزالي ص٢٨٧ ـ ٢٩٩.

فمصدر التلقي عند معظم القوم، هو هذا، وهو باب واسع سعة هذا الملأ الذي يريدون التلقي عنه والتعامل معه، فقد يكون التلقي عن الله أو الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، وغير ذلك من عالم الأرواح يقظة أو مناماً، وهذا كله يجمعه مسمّى الكشف.

فما كان من الخوارق من باب العلم، فتارة يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناماً، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحياً وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة، ويسمى كشفاً ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات.

فالسماع مخاطبات والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله «كشفاً ومكاشفة، أي كشف له عنه»[1].

فالكشف هو المصدر للذكر البدعي ولغيره من معارف الصوفية، وهو جامع لبقية المتلقي عنه عندهم[2].

وعلى هذا سيكون الكلام في هذا الفصل على ما يأتي:

١ - الكشف تعريفه وذكر أبرز الأنواع الداخلة تحته.

٢ - التلقي عن الله عن طريق الكشف.

٣ - التلقي عن النبي ﷺ عن طريق الكشف.

٤ - التلقي عن غير الله ونبيه من خلال الكشف.

وقبل الدخول في ذلك، فهنا أمر لا بد من الإشارة إليه وهو من شقين:

الشق الأول: هناك أمور لا تفيد هذا المقام مع ما فيها من الأخذ والرد فلن نعرض لها، وذلك مثل رؤية الله سبحانه في الدنيا بالبصر أو البصيرة والقلب، على أن رؤيته بالبصر في الدنيا لا يقول بها من يعوَّل عليه حتى من أرباب التصوف[3].

(١) مجموع الفتاوى ١١/٣١٣.
(٢) انظر: الموسوعة الميسرة ١/٢٦٥.
(٣) انظر: الرسالة القشيرية ٢/٦٦٦.

وكذلك شأن الرسول ﷺ وحاله في برزخه وقبره وهل يرى بروحه وجسده، أم بروحه دون جسده، أم يرى مثاله أم يرى بالقلب؟ وهذا باب فتحه المتصوفة، وهم الذين أطالوا فيه الكلام والنزاع، والدخول معهم في ذلك هو من باب إعطائهم لمساحة من النقاش لا يستحقونها، وهي ليست محل النقاش، والنقاش إنما يبدأ بالسؤال التالي:

ما الذي تركه كتاب الله الذي يقول عنه سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، وما الذي أجّله النبي ﷺ ورحل مُخفياً إياه حتى يلاحق لأجله بعد رحيله بمثل هذه الطرق؟.

الشق الثاني: فيما يتعلق بالخضر ﷺ وقد عول عليه القوم في تلقيهم كثيراً، هناك جانبان من الحديث، الأول فيما يتعلق بكونه ولي أو نبي، والثاني هل هو حي أم ميت؟

فهو إن كان نبياً فليس ببدع من الأنبياء، سيما ونحن لم نؤمر إلا باتباع نبينا، ولو كان ولياً فليس هو أول أولياء الله ولا آخرهم، ويبقى الاتباع للنبي ﷺ.

وأما حياته فلو كانت حاجة الاستمداد قائمة، لما قبض الله نبيه محمداً ﷺ، ولكن حسبه ﷺ وصل الناس بربهم، وقد بين لهم كيف يعبدوه، بل لو أراد الله سبحانه البقاء لأحد من البشر ربما لكان لمحمد ﷺ، وهو ما عزّى به نبيه إذ يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2]، وعزّى أصحابه فيه بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾[3].

ولعلنا نفرد موضوع الخضر بشيء من البحث لشدة تعويل القوم عليه بقدر ما تدعو إليه الحاجة.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

المبحث الأول

الكشف تعريفه وأبرز موضوعاته

المطلب الأول

تعريف الكشف وبعض موضوعاته

الكشف في اللغة: الكاف والشين والفاء أصل صحيح للدلالة على سرو الشيء عن الشيء، كالثوب يسري عن البدن - أي يكشف عنه - يقال كشفت الثوب وغيره أكشفه. والأكشف: الرجل الذي لا ترس معه في الحرب، ويقال تكشف البرق إذا ملأ السماء والمعنى صحيح لأنه إبراز[1].

الكشف في الاصطلاح: يقول في الرسالة القشيرية عن المكاشفة: هو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل دليل وتطلب السبيل، ولا محجوب من نعت الغيب[2].

ومعنى كلامه حالة حضور مع ظهور واستغناء بمدلول عن الدليل وبوصول عن الطريق إذ لم يعد الحجاب صفة للغيب، وقد أتى بالكلام على طريقة القوم في الإغراب.

فحقيقة الكشف هي: الاطلاع على ما وراء الحجاب في المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً[3]. و(بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه العبد كأنه رأي العين)[4].

(١) انظر: لسان العرب ٩/ ٣٠٠. (٢) الرسالة القشيرية ١/ ٢٢٦.

(٣) معجم مصطلحات الصوفية للحنفي ص٢٢٥.

(٤) اللمع لأبي نصر السراج ص٤٢٢. تحقيق عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي، دار =

والكشف مرحلة يصل إليها المرء بعد مجاهدة يزيل بها نوازعه وشهواته، ويزكي نفسه ويطهرها في باطن الأمر، فإذا زالت الكدورات والشواغل والشهوات عن القلب والروح والنفس زالت بزوالها الحجب، والكشف مرحلة متوسطة بين المحاضرة والمشاهدة فقبل الكشف يصل إلى المحاضرة: وهي حضور القلب بتواتر البرهان، وهو بعد وراء الستر وإن كان حاضراً بسلطان الذكر[1].

ثم يترقى المرء إلى أن يرفع الستر والحجاب فيكون في مرحلة الكشف وقد يترقى إلى ما هو أعلى من ذلك إلى المشاهدة وقد لخص الغزالي الطريق والغاية والمراتب فقال:

أول الشروط تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها: استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله، ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد[2].

والحاصل أن الكشف هو المعول عليه إذ أن ما قبله من المجاهدات والمراتب موصلة إليه وهي بدون الكشف لا قيمة لها عندهم، كما قال في الأنوار القدسية: فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه في ذكره مع ربه، ماذا أتحفك وأعطاك في هذا المجلس، فإن قال ما أعطاني شيئاً؟ قلنا له وأنت الآخر لم تحضر معه شيئاً[3].

أما إذا تحقق فتلك هي الغاية، فقد زال الحجاب عن الغيب إذ يمكن الحصول على أسرار العلوم وخفيها، والوصول إلى منبع العلوم دون الحاجة إلى الرسول كما أشار إلى هذا صاحب منازل السائرين إذ قسم العلم إلى

= الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٠م.

(١) الرسالة القشيرية ١ - ٢٢٦.

(٢) انظر: المنقذ من الضلال مع أبحاث في التصوف ص١٣٢ - ١٣٣.

(٣) الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية ١/ ٤٢.

درجات ثلاثة: جعل الدرجة الأولى من العلم لما يمكن الحصول عليه بواسطة البصر مما يقع في العيان، وما استند إلى السمع مما استفاض خبره، وما استند إلى العقل وهو علم التجربة، وأما باقي الدرجتين العليا من العلم فهي لسالكي طريق الكشف يقول:

الدرجة الثانية: علم خفي ينبت في الأسرار الطاهرة، من الأبدان الزكية بماء الرياضة الخالصة، وهو علم يُظهر الغائب ويغيِّب المشهود...

الدرجة الثالثة: علم لدنِّي، اسناده وجوده، وإدراكه عيانه، ونعته حكمه، ليس بينه وبين الغيب حجاب.

يقول ابن القيم معلقاً: يشير القوم بالعلم (اللدني) إلى ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله، وتعريف منه لعبده كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى[(١)].

إذاً هذا هو الكشف من حيث المعنى والمضمون والهدف، وهو معنى عام وواسع، وفروع مصادر القوم تدخل تحته وسنذكر فيما يلي أبرزها.

❖ أبرز موضوعات وأنواع الكشف:

إذا كان الكشف رفعاً للحجب، فإن المكشوف عنه ربما كان شاملاً لكل ما كان وراء تلك الحجب، من حقائق الأشياء، وأمور الكون، وعالم الغيب.

وعلى هذا فلفظ الكشف يحمل معنًى واسعاً، تدخل تحته أنواع كثيرة، من أبرزها وأهمها: الإلهام ـ الهواتف ـ التلقي عن النبي ﷺ يقظة أو مناماً ـ التلقي عن غير الله ونبيه كالخضر وغيره[(٢)].

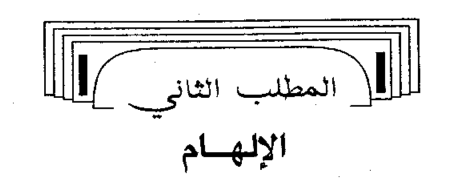
وسأقتصر على هذه الأنواع، لأنها هي التي تعد المصادر الرئيسية للذكر

(١) انظر: مدارج السالكين ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٥.

(٢) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، صادق سليم صادق ص٢١٨ مكتبة الرشد بالرياض الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ومجموع الفتاوى ١١/ ٣١٣، والموسوعة الميسرة ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

البدعي على وجه الخصوص، ويحسن ترتيبها على ما ذكر، لتناسب تسلسل الكلام الذي سيسير عليه البحث، إذ تلقيهم عن الله عن طريق الإلهام، والهواتف ثم تلقيهم عن النبي ﷺ، ثم تلقيهم عن غير الله ونبيه ﷺ وكل ذلك عن طريق الكشف وما يدخل في معناه.

❁ ❁ ❁



المطلب الثاني

الإلهــام

ويطلق على ما ينقدح في النفس دون مقدمات محسوسة، وهو في اللغة: ما يلقى في رُوع النفس من الأمور، من قِبل الله بما يدفع على الفعل أو الترك[١].

والإلهام في الاصطلاح: هو إيقاع شيء في القلب مما يطمئن له وينشرح، لا عن استدلال وإنما منحة من الله، أو يكون خطاباً يرد على الضمائر بإلقاء الملَك[٢].

وبعبارة أخرى هو: ما يقع في نفس الولي أو يلقى في قلبه مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق[٣].

وقد يطلق عليه بعضهم علماً «لدنيًّا»، إذ يحصل للعبد بإلهام من الله من غير واسطة، كثمرة للعبودية والمتابعة[٤].

وعلى هذا يكون خلاصة معنى الإلهام: هو ما يلقى في رُوع الإنسان ويقع في قلبه مما تطمئن له النفس وينشرح له الصدر، على أنه من جهة الحق دون أي نظر أو استدلال على ما يدعو إليه هذا الملقى من الخارج، وقد جعل صاحب منازل السائرين «الإلهام» هو مقام المحدثين، لكن ابن القيم استدرك عليه مفرقاً بينهما، على اعتبار أن التحديث أخص من الإلهام، فبينهما عموم وخصوص، فالإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم لأن كل مؤمن قد ألهمه الله

(١) انظر: لسان العرب ١٢/٥.
(٢) انظر: التعريفات للجرجاني ص١٤، والرسالة القشيرية ١/٢٤٢.
(٣) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية ص٢٨.
(٤) انظر: مدارج السالكين ٢/٤٧٥.

رشده، أما التحديث فخاص كما جاء في الحديث: «إنْ يكن في هذه الأمة أحد فعمر»[١]، يعني من المحدَّثين، والتحديث الذي هو إلهام خاص، هو وحي إلى غير الأنبياء ومنه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[٢]، ثم إن الإلهام موهبة مجردة لا تنال بالكسب ألبتة[٣].

والفائدة المضافة من كلام صاحب المنازل وتعقيب ابن القيم، أن التحديث هو من الإلهام بل هو من أدق وأخص أنواع الإلهام، وهو المقصود إذا ذكر الوحي لغير الأنبياء كما في الآية المذكورة، وكما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾[٤]، وقـولـه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[٥].

* * *

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عمر، مسلم بشرح النووي ١٥/١٦٦.
(٢) سورة القصص: الآية ٧.
(٣) انظر: مدارج السالكين ١/٤٤ ـ ٤٥.
(٤) سورة المائدة: الآية ١١١.
(٥) سورة النحل: الآية ٦٨.

المطلب الثالث

الهواتف

وهو: جمع لما يفيد كونه صوتاً يطرق السمع، يكون من العلو والشدة بحيث يُسمع وتُعرف ناحيته.

قال في اللسان: سمعت هاتفاً يهتف، إذا كنت تسمع الصوت ولا تبصر أحداً[1].

ومعنى الهاتف: هو المتحصل من هذا التعريف اللغوي، أي صوت عالٍ مسموع، وحاصله أن يقول قائلهم: «فسمعت هاتفاً أسمع صوته ولا أرى شخصه»[2].

فالهواتف هي: الخطاب المسموع[3].

وبين الهاتف والإلهام، افتراق والتقاء، فالافتراق: في كون الهاتف صوت مسموع والإلهام معنى يلقى في القلب، والالتقاء: في كون السامع والمُلْقَى في قلبه لا يعلمان لمن الصوت ومن الملقي.

* * *

(١) انظر: لسان العرب ٩/ ٣٤٤.

(٢) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ص٢٨٦، نقلاً عن الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية ١/ ٣.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٤٦.

المبحث الثاني

التلقي عن الله سبحانه من غير واسطة النبي ﷺ

المطلب الأول

مفهوم بعض المتصوفة للتلقي عن الله سبحانه

في اعتقاد المسلمين أن التلقي عن الله يكون عن طريق نبيِّه الأمين على وحيه، الذي أنزل الله عليه الكتاب وأمره بإبلاغه وبيانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]، وقد فعل ﷺ ولم يرحل عن دنيا الناس إلا بعد أن أوضح لهم المحجة وأقام عليهم الحجة وتركهم على الواضحة.

وقد مضى المسلمون وما يزالون على أن كتاب الله وسنة نبيه هما المرجع والمصدر، ومنهما يكون التلقي عن الله ورسوله ﷺ، وقد يختلفون في فهم أو استنباط، ولكن لا يختلفون على وقف المصدرية والتلقي على هذين الوحيين، وليس سواهما ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[3].

بيد أن بعض أهل التصوف شذُّوا عن هذا المعلوم المقرر الذي لا يقوم الدين على غيره فقالوا بأنهم يتلقون عن الله، لكن ليس من كتابه المنزل على محمد ﷺ ولا عن سنة محمد ﷺ وإنما عن الله مباشرة.

وقد حمل الغزالي لواء هذا المعنى، فها هو ذا يقول: إن ميل أهل

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل من ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم[(١)].

بل إنه يمازج بين الأولياء والأنبياء في حصول العلم وطريق تحصيله، فيقول: فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا... إلخ[(٢)].

حتى إنه يختلط عليه الإلهام، بوحي الأنبياء، وهو يتكلم عن أحوال الإلهام، فلا يرى الفرق بين الاثنين إلا أمراً يسيراً، إذ يقول: ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك - يعني حالات وأوصاف الإلهام - إلا في مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة[(٣)].

وتلقي العلم عن الله مباشرة من غير واسطة، يعتبر عند الصوفية أكمل للمتلقي وأوثق للعلم المتلقى، على خلاف علوم الرسوم المتوارثة ميتاً عن ميت على ما قالوا، فهم يتواصون بالقول لبعضهم: (اعلم يا أخي إن الرجل لا يكمل في مقام العلم، حتى يكون علمه عن الله ﷻ بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفاداً من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ من المحدَثات، وذلك معلوم عند أهل الله - شيوخ الطرق - ولو أنك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله ﷻ لأوصلك إلى حضرة شهود الحق تعالى، فتأخذ منه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر كما أخذه الخضر عليه السلام، وكان الشيخ الكامل أبو يزيد البسطامي يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتاً عن

---

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد الغزالي ١٩/٣ مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني القاهرة، دون مزيد بيان. عن الطبعة.

(٢) نفس المصدر ١٩/٣.

(٣) نفس المصدر السابق.

ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت)[(١)].

فالإلهام بالتلقي عن الله دون واسطة ليس مصدراً فحسب، وإنما هو علامة على علو الكعب والمنزلة، ومن هنا يأخذ الأولياء منزلتهم، فهم لا يحتاجون في تحصيل علومهم إلى من يتوسط بينهم وبين الله، وهذه هي حال الخضر عليه السلام في فهم المتصوفة، إذ أنه كان على علم وهو ولي، دون الحاجة إلى موسى النبي عليه السلام، كما قال ﷻ عنه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[(٢)]، وهذا هو العلم اللدني الذي يسعون لترسيخ أذهان الناس على أنهم توصلوا إليه، بل إنهم تفوقوا على الخضر في ذلك وبشهادته كما جاء في الرسالة القشيرية: يقول رأى بعضهم الخضر عليه السلام فقال له: هل رأيت فوقك أحد؟ فقال: نعم كان عبد الرزاق بن همام[(٣)] يروي الأحاديث بالمدينة، والناس حوله يستمعون فرأيت شاباً بالبعد منهم رأسه على ركبتيه، فقلت له: يا هذا، عبد الرزاق يروي أحاديث رسول الله ﷺ، فلم لا تسمع منه؟ فقال: إنه يروي عن ميت، وأنا لست بغائب عن الله؟ فقلت له: إن كنت كما تقول، فمن أنا؟ فرفع رأسه وقال: أنت أخي أبو العباس الخضر، فعلمت أن لله عباداً لم أعرفهم[(٤)].

إذاً هكذا يقررون وبطريق الإشادة على أن مثل هذا المسلك في التلقي هو لأهل المنازل العالية، بينما مجالس تلقي حديث رسول الله ﷺ، ودراسة العلوم الشرعية ليست من ذلك في شيء، وهل يزيد ما فيها على زعمهم، إلا ما ظل الأموات يتناقلونه فيما بينهم.

❊ ❊ ❊

---

(١) جواهر المعاني في فيض التجاني ١١/١.

(٢) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٣) عبد الرزاق: هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري مولاهم، أبو بكر الصنعاني من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء، ولد سنة ١٢٦هـ، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث، له كتب منها. مصنف في الحديث، وتفسير القرآن، توفي سنة ٢١١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٩، وشذرات الذهب ٢٧/٢ والأعلام ٣٥٣/٣٠.

(٤) الرسالة القشيرية ج٦٨٥/٢.

المطلب الثاني

نماذج من الأذكار المتلقاة عن الله في زعمهم

لقد قرر المبتدعة مبدأ التلقي عن الله بلا واسطة كما رأينا، ونقل عنهم الكثير من الموضوعات والمعارف التي استفادوها من خلاله، ولكن بالنسبة للأذكار المتلقاة من هذا المصدر ليست كثيرة، ونذكر هنا نماذج من الأذكار التي كان مصدرها من الله مباشرة لشخص معين، في زعمهم.

فمنها حزب الفتح: وهو الحزب الذي فتح الله به على أبي الحسن ـ الشاذلي ـ ويسمى أيضاً حزب «الأنوار»[1] وهو حزب طويل مليء بكثير من المعاني والمضامين التي لا تصح وأخرى لا تتضح.

ومنها قول أبو المواهب الشاذلي: سألت ربي ليلة أن يلهمني حمداً أحمده به، فأملى علي لسان الوارد في الحال: الحمد لله ولله الحمد بكل المحامد على كل المحامد.. إلخ[2].

وهذا الدعاء أو الحمد على ما فيه من مسحة الصناعة والتكلف ففيه ركة في الأسلوب وركة في المعنى.

ومنها الصلاة المشهورة المعروفة بصلاة الفاتح والتي أخذ التجاني على عاتقه جرم تفضيلها على القرآن بألوف الدرجات، مع أنها تنسب لغيره.

ويعتقدون أنها من كلام الله ويشترط على مؤديها أن يعتقد ذلك، وأنها أنزلت على صحيفة من نور من الله[3].

---

(١) انظر: كتاب أبو الحسن الشاذلي ص١٧٢ وما بعدها للدكتور عبد الحليم محمود.

(٢) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ص٢٧٧ ـ نقلاً عن طبقات الشعراني ٢/ ٧٧.

(٣) انظر: أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٤٣ ـ ١٤٥ جمع يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الفكر دون مزيد بيان عن الطبعة، وانظر: كتاب التجانية ص٢١٦ ـ ٢١٧ =

وقد تعرض البحث إلى شيء من الحديث عنها في مفهوم الذكر البدعي.

ومما يتلقى عن الله: نشوء الفرق والطرق الجديدة ضمن أصحاب الأذكار المبتدعة، أو تفرع الطرق الناشئة عمن سبقها يكون سببه الفتح من الله عن طريق الإلهام، كما يقول الدكتور أحمد غلوش: قد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الإلهام ويؤتى حظاً كبيراً من الأنوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من أسماء الله الحسنى، فيكون ذلك سبباً لإنشاء طريقة جديدة، مشتقة من طريقته القديمة ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور[1].

وعلى هذا فإن التلقي عن الله من خلال الإلهام والفتح في مجال الأذكار المنشأة لا يقف في حد المصدرية للذكر، بل يتعداه إلى أن يكون سبباً في نشوء طرق جديدة تثقل الجسم الإسلامي بمزيد من الأوجاع.

❊ ❊ ❊

= على محمد دخيل الله نقلاً عن بغية المستفيد نص ٣٧٥، وانظر: رماح حزب الرحيم.

(١) انظر لهذا الكلام: الصوفية معتقداً ومسلكاً ص١٩٠، صابر طعيمة، الطبعة الأولى دار عالم الكتب الرياض، نقلاً عن الفلسفة الإسلامية وملحقاتها ص٢٥٠ ـ ٢٦٤، رضا كحالة نقلاً عن مجلة المقتطف دون مزيد بيان عنها.

المبحث الثالث

وقفة تقويمية مع مصدر الكشف

المطلب الأول

أصل الإلهام الذي لا ينكر

إن ما يكرم الله به عباده الصالحين العابدين، ذوو النفوس الطاهرة والقلوب الصافية، المتوجهين إلى الله بقلبهم وقالبهم، هو حق، سواء كان في العلم أو العمل، فبالنسبة للعلم الذي نحن بصدده أي الإلهام أو العلم مثلاً (فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكره، واتباعهم لما يحب، ما لا يفتح به على غيرهم، وهذا كما في الأثر عن علي: إلا فهمًا يؤتيه الله عبداً في كتابه.. وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع)[1]، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[3]، وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[4]، بل إن في الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ: «قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر»[5]، مع ما فيه من مزية لعمر رضي الله عنه، فإن الحديث فيه إقرار بأصل الإلهام لغير الأنبياء فلا (سبيل لإنكار الإلهام سيما وقد فتح النبي ﷺ بابه بهذا الحديث)[6].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٤٥.
(٢) سورة محمد: الآية ١٧.
(٣) سورة الكهف: الآية ١٣.
(٤) سورة المائدة: الآية ١٦.
(٥) الحديث سبق تخريجه في ص٣٩٣.
(٦) انظر: كتاب ولاية الله والطريق إليها ص٢٣٤ ـ ٢٣٥، والكلام للشوكاني في قطر الولي في حديث الولي، دراسة وتحقيق إبراهيم هلال، مطبعة المدني، توزيع دار الكتب الحديثة، دون مزيد بيان.

وكان عمر يقول: (اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة).

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات، وقد ثبت في الصحيح تعين عمر بأنه محدث في هذه الأمة، فأي محدَّث ومخاطب في باقي أمة محمد ﷺ فعمر أفضل منه[1].

فمن حيث الأصل إنكار الإلهام مردود،... ونحن لا ننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه يزداد به نظره ويقوى به رأيه[2].

وعليه فكون هناك إكرام وإلهام من الله لمن يشاء من عباده، هو أمر شهدت به نصوص الشرع وشاهدته عيون الواقع.

❊ ❊ ❊

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٢٩.
(٢) انظر: فتح الباري ١٢/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

المطلب الثاني

أنواع ما يلقيه الله إلى البشر، وما يمكن وقوعه لغير الأنبياء من ذلك

إن تكليم الله للناس أنواع ثلاثة، اثنان منها لا تحصل لغير الأنبياء، وأما الثالث فيمكن حصوله لغيرهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وتكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه: من وراء حجاب كما كلم موسى، وبإرسال رسول كما أرسل الملائكة إلى الأنبياء، وبالإيحاء وهذا فيه للولي نصيب، وأما المرتبتان الأوليان فإنهما للأنبياء خاصة[١].

وقد ذكر ابن القيم هذه المراتب الثلاثة ضمن مراتب هداية الله الخاصة والعامة والتي عدها عشرة مراتب، أعلاها هذه الثلاث وهي:

الأولى: مرتبة تكليم الله ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا أفضل السلام، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[٢]، فالتكليم أعلى من الوحي المطلق.

الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[٣].

الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحي إليه ما أمره أن يوصله إليه[٤].

(١) مجموع الفتاوى ٢/٢٢٨.
(٢) سورة النساء: الآية ١٦٤.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦٣.
(٤) مدارج السالكين ٣٦ ـ ٣٨.

وهذه المراتب الثلاثة عنده خاصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم، ثم إنه يذكر في المرتبة الرابعة التحديث، ويقول عنها إنها دون مرتبة الوحي الخاص الذي ذكره للأنبياء في المرتبة الثانية، ثم يذكر الإلهام في المرتبة التاسعة مخالفاً لصاحب منازل السائرين الذي جعل الإلهام بمعنى التحديث.

وابن القيم يرى أن التحديث أخص وأعلى من الإلهام، إذ هو عام في نظره، وأما التحديث فهو الوحي إلى غير الأنبياء[١]، كما في قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾[٣].

وحاصل ما عند ابن القيم أن هناك مرتبتان من المراتب هما مما يمكن حصول العلم منهما لغير الأنبياء: التحديث والإلهام، وإحداهما أرفع وأخص من الأخرى، ولا مشاحة في الاصطلاح والتقسيم.

وخلاصة القول: أن ما يلقيه الله ويفتح به على غير الأنبياء، لا يكون خطاباً مسموعاً منه إليهم، كما كان لموسى، ولا يكون بواسطة ملك مبلِّغ عن الله يعلم به المتلقي، فهذان للأنبياء، ولكن يكون من قبيل الإلهام بالنفث في الرُّوع والقدح في القلب مما تطمئن له النفس وينشرح له الصدر على أنه من جهة الحق.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: مدارج السالكين ١/٣٧ ـ ٤٥.
(٢) سورة القصص: الآية ٧.
(٣) سورة المائدة: الآية ١١١.

المطلب الثالث

ما يلقى إلى غير الأنبياء هل يكون دليلاً مستقلاً

لقد سبق في بداية الكلام اعتبار المتصوفة لمكانة التلقي عن الله بلا واسطة وأنه من أعلى المقامات، زيادة على كونه أوثق مصدر لا يتطرق إليه الشك عندهم، وهو من مصادرهم في الأذكار، بل إن قيمة الذكر المتلقى من هذا المصدر تجعله مقدماً على غيره كما صنع صاحب كتاب «أبو الحسن الشاذلي» عندما بدء في ذكر أحزاب أبي الحسن الشاذلي، بدء بذكر حزب الفتح وعلل ذلك قائلاً: حزب الفتح، وهو الحزب الذي فتح الله به على أبي الحسن، ويسمى أيضاً حزب الأنوار، نبدأ به الأحزاب للتيمن والبركة[1].

فهل الإلهام مصدر للتلقي والاستدلال في التشريع حتى يقول أحدهم بملء فيه في صلاة على النبي ﷺ أتى بها: (كان الله فتح بها علينا في حالة ربانية منيفة)[2]، ويلقنها لغيره؟

فما الذي يقال لهؤلاء في صنيعهم هذا واعتمادهم على الإلهام وما جاء عن طريقه، كمصدر لذكر أو دعاء أو صلاة على النبي ﷺ لم يكن مما ورد به الشارع، زيادة على ما فيه من مآخذ في الألفاظ والمضامين لا يكاد يخلو منها.

مع العلم بأن المقرر في الأصول، أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء لعدم العصمة، وعدم الدليل على جواز الاستدلال به، بل الدليل على عدم جواز الاستدلال به، ذلك لأن غير المعصوم لا ثقة بخواطره، وقد ضُمنت الهداية في اتباع الشرع ولم تُضمن في اتباع الخواطر

(١) كتاب أبو الحسن الشاذلي ص١٧٢، للدكتور عبد الحليم محمود.

(٢) انظر: أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٥٨ ـ ١٥٩ ليوسف النبهاني.

والإلهامات: أما ما يلهمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم لأنهم معصومون بخلاف غيرهم[1].

والكلام هنا على إنشاء عبادة، أو أخذ حكم ابتداءً، بالاعتماد على الإلهام، وفي غير موافقة هدي الشارع، فهذا ممنوع وليس لأحد أن يقدم على مثله.

فهذا عمر سيد الملهمين: كان رضي الله عنه يفعل الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به رسول الله ﷺ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائله كما نزل القرآن بموافقته غير مرة وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية، لما كان قد رأى مقاتلة المشركين، ذلك لأن المُحَدَّثْ يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم، ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ويقررهم على منازعته، ولا يقول لهم: أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضون، فأي من ادعى ـ أو ادعى له أصحابه ـ أنه ولي الله، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا كل ما يقوله ولا يعارضوه، ويسلموا له حاله من غير اعتبار الكتاب والسنة فهو وهم مخطئون[2].

فليس هناك إلهام ولا ملهم له اعتبار إزاء ما جاء به الشارع، فإن وافق الشارع قُبل لا لحجيته، ولكن لحجية الشارع، وإن خالف فليس له إلاّ عُرض الحائط.

يقول ابن حجر رحمه الله: وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه لقول لا يعرف له أصل ولا نزعم أنه حجة شرعية، فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة[3].

فلا يجوز ـ لأحد ـ أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات... بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة، فإن كانت موافقة لها فهي حق وصدق وكرامة من الله سبحانه، وإن

(١) انظر: أضواء البيان ٤/١٥٩.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٢٩ ـ ٣١.

(٣) انظر: فتح الباري ١٢/٣٩٨ ـ ٣٩٩.

كانت مخالفة لشيء من ذلك فاليعلم أنه مخدوع ممكور به[1].

فالولي كرامته في متابعة النبي ﷺ، وإن خالفه فإما مخدوع، وإما أنه ولي ولكن لغير الله، فالمعول عليه هو شرع الله، والحجة لا تقوم بغير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، بل إن أوائل الصوفية يقرون بأنه لا يعول على غير الكتاب والسنة، قال أبو سليمان الداراني[2]: (ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة)[3].

وهذا كلام من لم يجز لنفسه تجاوز حدود الشرع مع أنه ذاق ما يتحدث عنه القوم وهو عمدة في الطريق لكنه لا يقبل فيه ما لا يشهد له الشارع، وعن الجنيد أنه قال: مذهبنا هذا مقيد بالأصول الكتاب والسنة، وقال أيضاً: عِلمنا منوط بالكتاب والسنة، وروي مثل هذا المعنى عن أبي يزيد وعن السري السقطي، وقال النوري[4]: من رأيته يدعي مع الله ﷻ حالة تُخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه في دينه[5].

فهذه هي أيضاً شهادات شيوخ الطريق الأوائل، تؤكد ما تقرر، من أن واقعات النفوس وإلهامات القلوب وخواطرها لا يعتمد عليها، وليس ثَمَّ ما يعوَّل عليه للاستدلال غير دليل الشرع.

(١) انظر: الولاية والطريق إليها ص٢٣٤، والكلام للشوكاني: في قطر الولي في حديث الولي.

(٢) أبو سليمان: هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبسي الداراني ـ وهي قرية من قرى دمشق، كان أحد العباد الصالحين، ومن الزهاد المتعبدين، ورد بغداد وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام فأقام بداريا حتى توفي سنة ٢١٥هـ أو ٢٠٥، انظر: حلية الأولياء ٩/ ٢٥٤ ـ ٢٨٠، رقم ٤٥٦، والرسالة القشيرية ١/ ٨٦ ـ ٨٨.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص٢٠٧.

(٤) النوري: هو أبو الحسن أحمد بن محمد النوري، بغدادي المولد والمنشأ بغوي الأصل، صحب السري، وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد، كان كبير الشأن وحسن المعاملة واللسان، وكان كثير العبادة والصوم وكان يخفيه، توفي سنة ٢٩٥هـ، انظر: الرسالة القشيرية ١/ ١١٢ ـ ١١٣.

(٥) انظر: تلبيس إبليس ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

المطلب الرابع

المانع من عدم الاعتماد على إلهام غير الأنبياء

❖ **وذلك لأمرين:**

الأول: إنه لا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ، وما ليس بمعصوم لا يكون مصدراً موثوقاً يتلقى منه، ولا يصلح للاستدلال به على مدلول.

الثاني: أن الإلهام يقع للقلب، والقلب فيه أبواب ونوافذ عديدة، وهو مسرح لصولات وجولات، بل هو نفسه متقلب.

ثم إن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع: رحمانية، وشيطانية، ونفسانية... فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت، والشيطان يجري منه مجرى الدم، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين هم وسائط بين الله ﷻ وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده، ومن عداهم يصيب ويخطئ وليس بحجة على الخلق[1].

ولعل أبا حامد الغزالي، حامل لواء مدرسة الكشف، هو أروع من يصور حال القلب في تعرضه للأهواء والنوازع والصوارف والخيالات، وهمزات الشيطان إذ يقول: اعلم أن القلب، مثال قبة مضروبة، لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ١٤٢ ـ ١٤٣ لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد السيد الكيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، دون مزيد معلومات عن الطبعة.

مختلفة من أنهار مفتوحة إليه[1].

ثم أتبع ذلك بتفسير لهذه الأبواب والأحوال والسهام والصور والمياه المختلفة المشارب وذكر أسبابها، من هواجس النفس، ووساوس الشيطان، ومخاوف الإنسان، أو إلهام الرحمن، إلى غير ذلك مما يتعرض له القلب ولا يخلو عنه، فما أبدعه من تصوير رائع استطاع أن يرصد القلب من جهات وواجهات.

ولكن ما لا ينتهي معه العجب، هو أن يقول لك أبو حامد بعد كل هذا: اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري!! ـ فقد صار عارفاً بصحة الطريق. وإذا قلنا: كيف هذا يا أبا حامد؟ قال: من لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به[2].

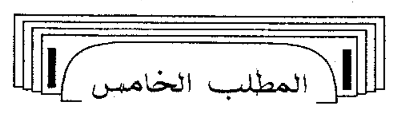
قلت وأنا أعلق على هذا لا لغياب أبي حامد عن الساحة الآن، ولكن أسفاً على الغيبة التي دخلها أبو حامد وهو حي حين غلَّب عاطفته على عقله وعلمه الذي دك به حصوناً ومعاقل ظلت مستعصية قبله، ثم انتهى به الأمر بعد التصوف لتكون حجته إن لم تدرك من نفسك أو تذق فينبغي أن تؤمن، وسبحان مغير الأحوال.

والحاصل أن إلهام غير الأنبياء لا يصلح دليلاً ولا مصدراً للتلقي، وذلك كما قلنا لأن الملهمين ليست لهم العصمة، إذ العصمة خاصة بالأنبياء، ثم موقع الإلهام ومأخذه من القلب، والقلب على ما علمنا، «فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك»[3].

وإذا كانت الحال على هذا «فمن أين للمخاطَب أن هذا الخطاب رحماني، أو ملكي، بأي برهان، أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه، ويلقي في السمع خطابه ـ وهناك خطاب خيالي ـ تكون بدايته من النفس وعوده إليها فيتوهمه من خارج»[4].

---

(1) الإحياء ٣/٢٦.
(2) الإحياء ٣/٢٣.
(3) المصدر نفسه ٣/٢٧.
(4) مدارج السالكين ١/٤٧.



حكم من يرى الاستغناء بالإلهام عن دليل الشرع

فيما مر معنا، تبين من مسلك القوم، فيما يتعلق بالتلقي عن الله، بالإلهام، والكشف عموماً من غير واسطة ثلاثة نواحي:

الأولى: اعتبار القوم للتلقي عن الله أو عن غيره بطريق الإلهام، بأنه أوثق مصدر لا يرقى إليه الشك، واعتبارهم للمُتَلقِي بهذه الطريقة، بأنه من الكمَّل، ذوي المقام العالي، كما هو شأن الخضر.

الثانية: التصريح بالتزهيد في العلم الشرعي على أنه رسوم منقولة عن طريق الأموات، وأن المرغب فيه هو الأخذ عن الله الحي الذي لا يموت ولا يفوت.

الثالثة: أثبتنا نماذج من الدعوات والأذكار والصلوات على النبي ﷺ متلقاة عن الله فتحاً وإلهاماً كما زعموا، وسنذكر نماذج أيضاً من المتلقى عن الرسول ﷺ وعن غيره، وكل ذلك مما لم يأت في الكتاب ولا في السنة، زيادة على ما في بعضه من المخالفة لهما في الألفاظ والمعاني بل في المبادئ والأصول.

والناظر حين يرى من يجمع أموراً كهذه، الزهد فيما جاء به الشارع، والنزوع إلى طريق آخر بديل عنه لتلقي العلوم والمعارف والعبادات، وفوق ذلك ربما زاد بعضهم المساواة بين إلهامهم ووحي الأنبياء في اكتساب العلم وفي محله وفي سببه، وأن الفارق بين الاثنين هو مما لا يذكر، ويعلل بذلك الميل إلى الإلهام بدلاً من التعلم[1].

---

(1) انظر: الإحياء ٣/١٩.

فما أخطرها من دعوة وادعاء، الموازاة بين الإلهام وبين الوحي، ثم الإشادة بمسلك من يميل إلى تطلب العلم بالإلهام بدلاً من تعلم علوم الشرع.

وعلى فرض الأخذ بهذه الدعوة، فالحاصل نبذ الكتاب والسنة وطرحهما وعدم الاحتكام إليهما، وفتح باب التلاعب في شريعة الله[(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ومن هؤلاء من لا يرى ذلك ـ تفضيل نفسه على الأنبياء ـ ولكن يرى أن له طريقاً إلى الله غير اتباع الرسول، ويسوّغ لنفسه اتباع تلك الطريق وإن خالف شرع الرسول، ويحتجون بقصة موسى مع الخضر، ولا حجة فيها لوجهين:

أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان يجب على الخضر اتباع موسى، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل، وفي الحديث حين قابله موسى قوله: «موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم...»[(٢)].

وأما نبينا ﷺ فإنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[(٣)]. فمحمد ﷺ رسول الله إلى جميع الثقلين، إنسهم وجنّهم، عربهم وعجمهم، ملوكهم وزهادهم، الأولياء منهم وغير الأولياء، فليس لأحد الخروج عن متابعته باطناً وظاهراً، ولا عن متابعة ما جاء به من الكتاب والسنة في دقيق أو جليل... وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى.

الثاني: أن قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة بل الأمور التي فعلها تباح في الشريعة إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر، ولهذا لما بين أسبابها لموسى وافقه على ذلك، ولو كان مخالفاً لشريعته لم يوافقه بحال[(٤)].

والمرء ربما كان في فسحة من دينه وستر الإسلام شامله ضمن

---

(١) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ص١٨٦.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام، البخاري مع الفتح ٦/٤٩٧، برقم ٣٤٠١.

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٤) مجموع الفتاوى ٢/٢٣٤.

المسلمين، حتى تضيق عليه مساحة شرع محمد الواسعة، فيدفع بنفسه من على شرفاتها، معللاً ذلك بعلم خص به مما لم يذكره محمد ﷺ، وقد يتعلق في ذلك بما ليس له فيه متعلق بأن يشبه نفسه مع محمد ﷺ بحال الخضر مع موسى.

يقول شارح الطحاوية: (وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني، الذي يدعيه بعض من عُدم التوفيق، فهو ملحد زنديق، فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين... فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه)[(١)].

وعلى هذا فإن زعم الاستغناء عن شرع محمد ﷺ باطل، وليس له مستند، بل إن من يدعيه فهو كمن يدعي أن له ديناً بإزاء ما جاء به محمد ﷺ، وما أسوأها من مجازفة تكون بالدين، لا يقدم عليها إلّا من خف وزن الدين عنده أو انعدم بالكلية، نسأل الله السلامة.

❊ ❊ ❊

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٥١١.

المبحث الرابع

التلقي عن النبي ﷺ عن طريق الكشف

التمهيد

❖ حول مفهوم التلقي عن النبي ﷺ:

المصدر الثاني للشريعة الإسلامية: السنة النبوية والتلقي فيها هو عن النبي ﷺ، ويكون بالأخذ بأقواله وأفعاله وتقريراته، والعمل بمتابعته في سنته وسيرته، إذ هو ﷺ المرسل بالهداية والبيان، المأمور باتباعه وطاعته كما قال عنه ربه سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]، وهذه هي منزلة رسول الله ﷺ في الدين، فهو المبلغ عن الله دينه ووحيه، وهو الآمر بإذن مولاه والهادي إلى الصراط المستقيم، فالإيمان به من الإيمان بالله، ومن أطاعه فقد أطاع الله ومن قبل عنه فعن الله قبل، لأجل هذا أمر الله العباد بطاعته وأوجب عليهم اتباع أمره وتصديق خبره[٢]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾[٣]، ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٤]. قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله[٥].

وقد بلّغ الرسول ﷺ رسالته كما أمر، وترك المسلمين وقد أشهدهم

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.
(٢) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ص١١١.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٠.
(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.
(٥) تفسير ابن كثير ٥١٨/١.

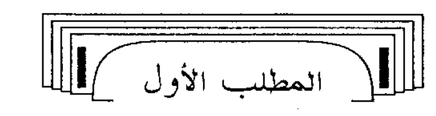
بالبلاغ على أنفسهم وعهد إليهم بكتاب الله وسنته وأنهم لن يضلوا إن تمسكوا بهما وتمت النعمة على المسلمين بهذا البلاغ للدين الكامل كما قال سبحانه ممتناً عليهم بذلك: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾[١]، ومن يومها والكتاب والسنة هما مصدرا التلقي عند الأمة، إليهما يردون، ومنهما يصدرون ويأخذون دينهم عقائد وعبادات وأحكام ومعاملات.

وعلى هذا، فمفهوم التلقي عن النبي ﷺ: هو بتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وأن يعبد الله على ما شرع، سيان الأمر في حياته أو بعد مماته ﷺ ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ﴾[٢].

وقد بلغ ﷺ، وأمره ونهيه، وأفعاله وتقريراته، وكل شرعه محفوظ متوافر، ومنه يكون التلقي عنه بعد وفاته ﷺ.

❋ ❋ ❋

(١) سورة المائدة: الآية ٣.
(٢) سورة المائدة: الآية ٩٩.



رؤية النبي ﷺ يقظة عند بعض الصوفية، ومفهوم التلقي عنه عندهم

مذهب كثير من شيوخ المتصوفة في التلقي، إلا من رحم الله، هو على غير هذا الذي قررناه، وذلك لأنهم لا يرون قصور التلقي عن النبي ﷺ على التلقي من سنته كما هو عند بقية المسلمين، بل إنهم يرون إمكانية التلقي منه ﷺ بعد وفاته، ذلك لأن النبي ﷺ حي حياة يمكن لقاءه فيها ومحادثته وتكليمه، وبالتالي الأخذ عنه وربما مشاهدته ﷺ، إما جسداً أو روحاً، فحياته عندهم، بعد رحيله عن دنيا الناس، هي بحيث يمكن معها كل هذا.

وأما واقعة موته ﷺ في ذلك اليوم الذي لم تر المدينة أشد ظلمة منه، وما جرى يومئذ من مواقف للصحابة، وكلام صديق الأمة أبي بكر رضي الله عنه، وموقفه بعد أن قبَّله قائلاً: ما أطيبك حياً وميتاً يا رسول الله، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، وقولته المشهورة: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله تعالى فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[1]. يقول أبو هريرة: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها[2]، وموقف عمر العجيب وما جرى له من صدمة، إذ لو كان النبي ﷺ يحدِّث بعد موته أحداً، لحدثه إشفاقاً عليه، سيما وهو المحدَّث، وما جرى بين الصحابة من النزاع فور غيابه عنهم، كل هذا، يقوم

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٢) انظر: مختصر السيرة النبوية ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

فهم الكثير من المتصوفة على إغفاله وإغماض الطرف عنه، وهذا هو ديدنهم في كل تعاملهم معه ﷺ، وحاصل مذهبهم أن رسول الله ﷺ يُرى بعد وفاته بل إن رؤيته علامة على علو المقام، قال في رماح حزب الرحيم: (ولا يكمل العبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله ﷺ يقظة ومشافهة)[1].

بل إن رؤيته المعنية لا تختلف عن رؤية أصحابه رضي الله عنهم، قال في الدرة الخريدة: (وأما الذي هو أفضل وأعز من دخول الجنة فهو رؤية سيد الوجود ﷺ في اليقظة، فيراه الولي كما يراه الصحابة رضي الله عنهم فهي أفضل من الجنة)[2].

فرؤيته ﷺ عندهم ليست حاصلة فقط، وإنما هي بغية وغاية تنشد أكثر من نشدان الجنة، وأمنية يقول عنها القائل:

ليته خصني برؤية وجهه   زال عن كل من رآه الشقاء[3]

بل إن لهم صلوات يزعمون أن من صلى بها عليه ﷺ يراه، يقول صاحب أفضل الصلوات عن واحدة من الصلوات، المنقولة عن بعضهم: ومن الصيغ المجربة للاجتماع بالنبي ﷺ هذه الصيغة: (اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الجامع لأسرارك والدال عليك وعلى آله وصحبه وسلم) كل يوم ألف مرة ـ قال ـ ولم يذكر أن هذا الاجتماع يكون في المنام أو في اليقظة، والظاهر أنه في المنام[4].

❖ دليلهم على أن النبي ﷺ يُرى بعد موته:

لقد استدلوا على ذلك بأدلة بعضها ليس في محل الاستدلال، وبعضها متكلف ومحال، وبعضها عام، والقضية عقدية تخصيصية، ولذلك لم يحفل أهل العلم من أدلتهم في المناقشة إلا بواحد منها وهو ما تمسك به السيوطي رحمه الله، وذلك لأن السيوطي رحمه الله ربما كان أمثل القوم طريقة، إذ أنه يستدل بحديث

(١) التجانية ص١٢٧، نقلاً عن رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم ١/١٩٩.

(٢) المصدر نفسه ص١٢٨، نقلاً عن الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة ١/٤٧.

(٣) قلادة الجواهر ص٢٨١.

(٤) انظر: أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٦٣.

وليس بواقعات أو إلهامات، وإن كان الحديث ليس صريحاً في المقصود، ومتطرق إليه الاحتمال، والمستدل به منه وجه من وجوه سبعة فُهِمَ بها الحديث.

يقول السيوطي فيما ذهب إليه: وبعد فقد كثر السؤال عن رؤية أرباب الأحوال للنبي ﷺ في اليقظة، وأن طائفة من أهل العصر ممن لا قدم لهم في العلم بالغوا في إنكار ذلك والتعجب منه، وادعوا أنه مستحيل، فألفت هذه الكراسة في ذلك وسميتها: «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك»، وتمسكت فيها بالحديث الصحيح الوارد في ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي»[1]، ثم نقل الأقوال في معنى الحديث، وأورد نقولاً للاحتمال الذي ذهب إليه عمن قال به قبله، ثم قال: (فحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبي ﷺ حي بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض، فإذا أراد الله رفع الحجاب عمن أراد إكراماً برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها لا مانع من ذلك ولا داعي للتخصيص برؤية المثال)[2].

وهذا القول قال به قبله محمد بن ابن أبي جمرة[3] أو قريباً منه إذ قال: هذا الحديث يدل على أنه من رآه في النوم فسيراه في اليقظة، وهل هو على عمومه في حياته وبعد مماته، أو هذا كان في حياته، وهل ذلك لكل من رآه قال: اللفظ يعطي العموم ومن يدَّعي الخصوص فيه بغير مخصص منه فمتعسِّف[4].

وخلاصة القول: أنهم يتصورون حياة للنبي ﷺ يتحرك بها وينتقل ويُرى ويكلم اعتماداً على هذا الحديث، وأن من رآه في المنام يراه في اليقظة.

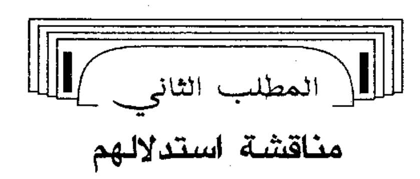
---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب من رأى النبي ﷺ في المنام، البخاري مع الفتح ١٢/٣٩٩، برقم ٦٩٩٣.

(٢) الحاوي لفتاوي السيوطي ٢/٤٥٣.

(٣) ابن أبي جمرة: هو عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، من تصانيفه: المرائي الحسان، وبهجة النفوس، وكانت وفاته بمصر سنة ٦٩٥هـ. انظر: الأعلام ٤/٨٩.

(٤) الحاوي ٢/٤٣٨.



المطلب الثاني

مناقشة استدلالهم

لقد تعقب أهل العلم هذا الفهم والاستدلال السابق، وقرروا بأنه لا يستقيم، لأنه يترتب على القول به أمور منها بقاء الصحبة، ومنها تخلف خبر الصادق، وغير ذلك، ومناقشة هذا الدليل والاستدلال به من وجوه أربعة:

الوجه الأول: إن الحديث له روايات أخرى يتغير بها المعنى، فهناك رواية فيها: «من رآني فقد رأى الحق»[1]، وأخرى: «فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتكوَّنني»[2]، وغير ذلك من الروايات، فلم التعلق برواية واحدة في محل نزاع؟.

الوجه الثاني: هذه الرواية المتمسك بها لها سبعة احتمالات[3] على أقوال أهل العلم في معنى هذه الرواية، ومعلوم أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال لا يقوى على الدلالة.

الوجه الثالث: أن السيوطي وهو من هو في حفظ السنة والمعرفة بمتونها وبطونها وكتبها وصحيحها وضعيفها، لم يأت بحديث آخر ليقوي به رأيه لا صحيح ولا ضعيف، وهذا يؤس في قيام حجة للمسألة[4].

الوجه الرابع: أن القول بالرؤية في اليقظة يترتب عليه لوازم غير صحيحة ومستحيلة منها:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ برقم ٦٩٩٦. انظر: البخاري مع الفتح ١٢/٤٠٠.

(٢) المصدر نفسه والكتاب، والباب، برقم ٦٩٩٧.

(٣) انظر: مشتهى الخارف الجاني ص٥٣ ـ ٥٤.

(٤) المصدر نفسه ص٥٢ ـ ٥٣.

١ ـ أن النبي ﷺ قد مات، فادعاء حياته بعد موته ﷺ قبل يوم القيامة مستحيل شرعاً لما يلزم منه مخالفة لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[١].

٢ ـ ومستحيل عقلاً، يدرك فساده ببادئ العقول، إذ يلزم عليه أن يراه اثنان في مكانين في آن واحد، ما دامت الرؤيا على صورته التي مات عليها، وأن يمشي ويتحرك، فيخلو منه القبر ويسلم على القبر وهو غائب عنه، وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل[٢].

٣ ـ وحمل هذا الحديث على الرؤية يقظة في الدنيا أيضاً يلزم منه ادعاء الكذب على النبي ﷺ، ذلك لقوله: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، فعلق الجواب على الشرط، ومن المعلوم أن جمعاً كثيراً من سلف الأمة وخلفها قد رأوه في المنام ولم يذكر أحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف[٣].

٤ ـ يلزم من هذا القول أيضاً بقاء الصحبة، إذ هي ملاقاة مع النبي ﷺ بل وأخذ عنه مع الإيمان به والموت على ذلك، وهذا لا يصفو ولا يستقيم إذ لا مزية للصحابة حالتئذٍ.

وإذا تبين هذا، علمنا أن ما يدعيه هذا الفريق من الصوفية من حياة النبي ﷺ ورؤيتهم له يقظة هو محض خرافة، يكذبها العقل والواقع والتاريخ، وأن ما بُني على هذا الباطل فهو باطل، وأن هذا من تلاعب الشياطين بهم لأنهم ليسوا على الطريقة الشرعية في عقائدهم وعباداتهم، وإلا لو كان هذا صحيحاً لحصل لأفضل الخلق بعده ﷺ وهم صحابته، لكنهم لما كانوا على الصراط المستقيم لم تطمع الشياطين في إضلالهم بمثل هذه الخرافات والبدع[٤].

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣٠.

(٢) انظر: فتح الباري ١٢/٤٠١ حكاه عن القرطبي.

(٣) المصدر نفسه ١٢/٣٨٥.

(٤) انظر: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ص٢٥٢، نقلاً عن فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ٥/١٨٤٥.

ولعل في هذا القدر الكفاية في مناقشة زعم المتصوفة في مصدرهم وتلقيهم وما استدلوا به، والرد عليه وتفنيده، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المطلب الثالث

نماذج مما زعموا تلقيهم عنه ﷺ من الأذكار

١ ـ فمن ذلك ما حُكي عن الكتاني[1] أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله ادع الله لي ألا يميت قلبي، فقال: قل في كل يوم أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت[2].

٢ ـ ومن ذلك ما زعمه أحمد بن إدريس شيخ الطريقة الأحمدية الإدريسية من أن النبي ﷺ (لقنه بنفسه أوراد الطريقة الشاذلية، واعطاه أوراداً جليلة وطريقة تسليكية خاصة، وقال له: من انتمى إليك فلا أكله إلى ولاية غيري ولا إلى كفالته بل أنا وليه وكفيله)[3].

٣ ـ ومنها زعمه أيضاً أن النبي ﷺ قال له: يا أحمد قد أعطيتك مفاتيح السموات والأرض والذكر المخصوص والصلاة العظيمية والاستغفار الكبير، قال: ثم لقنها لي رسول الله ﷺ من غير واسطة فصرت ألقن المريدين كما لقنني به ﷺ[4].

٤ ـ ومن ذلك زعم التجاني والتجانية بأن أورادهم مأخوذة منه ﷺ مباشرة يقول عن ذلك في جواهر المعاني:

(١) الكتاني: هو محمد بن علي الكتاني، وكنيته أبو بكر، بغدادي الأصل، صحب الجنيد والخزار والنوري، من أقواله: الشهوة زمام الشيطان فمن أخذ بزمامه كان عبده، توفي سنة ٣٢٢هـ، انظر: الرسالة القشيرية ١/ ١٥٥.

(٢) انظر: الفكر الصوفي ص٢٨٤ ـ ٢٨٥، نقلاً عن مفاتيح كنوز السموات والأرض المخزونة.

(٣) انظر: أفضل الصلوات ص١٧٠ ـ ١٧١. والمصادر العامة للتلقي ص٢٢٩، نقلاً عن المنتقى النفيس ص٩١٢.

(٤) انظر: المصدر نفسه ص١٧٢.

تجانينا بيته بالذكر معمور ... وبالصلاة وبالخيرات مغمور

أوراده عن رسول الله قد رويت ... كذاك أفعاله والسر مأثور

ثم يقول: وهذا الذي ذكرناه هو فضل الورد الذي لازم للطريقة، الذي لقنه لسيدنا رضي الله عنه سيدنا رسول الله ﷺ، وأمره بإعطائه لكافة الخلق[1].

٥ ـ ومن ذلك زعم التجاني في (صلاة الفاتح لما أغلق) قوله: ثم أمرني بالرجوع ﷺ إلى صلاة الفاتح لما أغلق، فلما أمرني بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء كبير أو صغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة!![2].

٦ ـ بل أن هناك الغريب والعجيب في هذا الباب مما يزعمون أنهم تناقشوا فيه مع النبي ﷺ وسألوه عنه، فمن ذلك مثلاً يقول أحدهم: وقع بيني وبين شخص من الجامع الأزهر مجادلة حول البيت القائل:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

وقال لي: ليس له دليل على ذلك، فقلت له: قد انعقد الإجماع فلم يرجع، فرأيت النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر جالساً عند منبر الجامع الأزهر، وقال لي: مرحباً بحبيبنا، ثم قال لأصحابه: أتدرون ما حدث اليوم؟ قالوا: لا يا رسول الله، فقال: إن فلاناً التعيس يعتقد أن الملائكة أفضل مني، فقالوا بأجمعهم: لا يا رسول الله، فقال لهم: ما بال فلان التعيس الذي لا يعيش.... يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلي، أما علم أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا تقدح في الإجماع.!![3].

إلى غير ذلك مما زعم القوم تلقيهم عنه ﷺ، ونكتفي بهذه الأمثلة منه وهو كثير.

* * *

(١) جواهر المعاني ١/ ١٠١ ـ ١٠٢. (٢) جواهر المعاني ١/ ١٠٣.

(٣) أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٢٥.

المطلب الرابع

قصدهم من استحداث أسطورة الكشف وزعم التلقي من خلاله

إن أذكار الشرع على ما فيها من كفاية وشمول إلا أنها يكون الولاء فيها لله ولرسوله ﷺ ويقصر تلقيها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس فيها والحالة هذه إلا التمسك والتقيد بها والتنافس فيها، وأن يكون الناس كل الناس في مقام الاتباع.

وليس هذا ما يريده شيوخ الطرق الصوفية، فهم يودون أن يكون لهم أتباع ومريدون وجاه ونفوذ، وهو أمر لايتحقق من هذا الباب، ولذلك لجؤوا إلى باب آخر، هو الكشف وزعم التلقي من خلاله، وأنهم على اتصال بالمصطفى ﷺ وأنه ما زال يتحفهم.

فنصب كل منهم من نفسه مشرعاً لمجموعة من المريدين وكان باب الأذكار هو الذي دخل منه هؤلاء للتشريع للأتباع والمريدين، فوضع كل منهم لأتباع طريقته منهاجاً خاصاً في الذكر، وكان لا بد أن يضفي على ذكره الخاص هالة من التقديس، ومن ثم كان التنافس بينهم لجذب المريدين، فمنهم من زعم أن ذكره الخاص قد أخذه من الرسول مناماً ومنهم من ادعى أنه أخذه من الرسول يقظة ومنهم من زعم أن الخضر هو الذي أوحى إليه بالذكر، وهكذا[1].

❖ مثالان لتوضيح القصد من هذا الزعم:

وأورد هنا مثالين يتبين منهما ما يريده هؤلاء من لجوئهم إلى هذا الباب، من الجاه وحظوظ النفس، والنفوذ الروحي، وجذب الأتباع.

(١) انظر: الفكر الصوفي ص٢٨٣.

○ المثال الأول:

يقول التجاني: أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا منامًا، قال لي: أنت من الآمنين وكل من رآك من الآمنين إن مات على الإيمان، وكل من أحسن إليك بخدمة أو غيرها، وكل من أطعمك يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب... فلما رأيت منه هذه المحبة ﷺ سألته لكل من أحبني ولم يعادني بعدها، ولكل من أحسن إلي بشيء من مثقال ذرة فأكثر، ولم يعادني بعدها، وأكد ذلك من أطعمني طعامه كلهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب ... وسألته ﷺ لكل من أخذ عني ذكراً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر وأن تؤدي عنهم تبعاتهم من خزائن فضل الله لا من حسناتهم، وأن يرفع عنهم محاسبته على كل شيء!!؟ وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة.... فقال ﷺ: ضمنت لهم هذا كله ضمانة لا تنقطع حتى تجاوروني أنت وهم في عليين.... وأن من رآني فقط غايته يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب ولا يعذب، ولا مطمع له في عليين!!؟ إلا أن يكون ممن ذكرتهم وهم أحبابنا ومن أحسن إلينا، ومن أخذ عنا ذكراً[1].

○ المثال الثاني:

يقول محمد عثمان الميرغني[2]: قال لي رسول الله ﷺ: من صحبك ثلاثة أيام لا يموت إلا ولياً..... ـ ويقول عن نفسه ـ ومن رآني، أو رأى من رآني إلى خمس لم تمسه النار!! قال لي به جدي عليه أفضل الصلاة والتسليمات الزكية[3].

(١) جواهر المعاني ١/٩٧ ـ ١٠٠.

(٢) الميرغني: هو محمد عثمان بن أبي بكر بن عبد الله المحجوب، ولد بالطائف سنة ١٢٠٨هـ يقول عن نسبه أنه ينتهي إلى آل البيت، أخذ الطريق عن أحمد بن إدريس، وله تنسب الطريقة الختمية المنتشرة بالسودان، انتقل إلى مصر، ثم توجه إلى السودان فاستقر في الختامية بكسلا، من مؤلفاته: تاج التفاسير لكلام الكبير توفي سنة ١٢٦٨هـ، انظر: الأعلام ٦/٢٦٢.

(٣) انظر: المصادر العامة للتلقي ص٢٣٤، نقلاً عن مناقب صاحب الراتب ١٠٢ ـ ١٠٣.

❖ جرأة المتبوعين وغفلة الأتباع:

قلت: سبحان الله ما أوسع حلمه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[1]، كيف يضمن من رأى هؤلاء دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب، ويأمن من العذاب، وعدم مس النار، بل ويكون ذلك لمن رأى من رآهم، إلى خامس، وتكفي صحبة أحد هؤلاء لثلاثة أيام ليضمن المرء الموت على الولاية!!!؟؟.

والرسول ﷺ وهو أفضل الخلق وأشرف من مشى على وجه الأرض الشافع المشفع لم يكن له هذا، فها هو يقول بأعلى صوته ومن على قمة الصفا لأقرب الناس إليه أمام مجمع الناس ومسمعهم: «ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[2].

وأصحاب النبي ﷺ الأنقى سريرة والأطهر سيرة من اختارهم الله لصحبة نبيه وقام كيان الدين على جهدهم وجهادهم، لم يضمن لهم رسول الله ﷺ الجنة كما ضمنها لمن أخذ ورد التجاني أو رآه وأحبه، أو أطعمه، أو أحسن إليه بمثقال ذرة، وكما ضمنها ﷺ على زعمهم لمن رأى الميرغني، أو رأى من رآه، إلى خامس مرئي رآه.

وعند الوقوف على مثل هذه المزاعم، ينتاب المرء شعوران، ففي الوقت الذي يعجب فيه من جرأة هؤلاء في تفضيل أذكارهم على ما جاء به الشارع، وفي رفع أنفسهم إلى منزلة لم تكن للمصطفى ﷺ، ووقاحتهم إذ يزعمون بأنه ﷺ هو الذي شهد لهم بذلك، ثم عدم الحياء حين يدعون حبهم له ﷺ مع هذا كله، فكم يأسف المرء ويحز في نفسه ويعز عليها أن ينطلي كل هذا على مسلمين، ويكون لأمثال هؤلاء أتباع من أمة محمد ﷺ وأحبابه، وما أغربه من أمر، جرأة من المتبوعين، وغفلة في الأتباع.

فوا عجبي كم يدعي الفضل ناقص ... ووا أسفي كم يظهر النقص فاضل

(١) سورة فاطر: الآية ٤٥.

(٢) الحديث سبق تخريجه في ص٣٣٩. مع الفتح ٨/ ٣٦٠.

المبحث الخامس

التلقي عن غير الله ونبيه عن طريق الكشف

التمهيد

❖ سعة التلقي الكشفي:

لم يقتصر التلقي الكشفي عند القوم في التلقي عن الله ونبيه ﷺ، بل جاوز أيضاً إلى التلقي عن غيرهما، وكانت شخصية الخضر هي المحور في ذلك، فقد يتلقون منه ويلتقون به في زعمهم بحضرة النبي ﷺ، أو بمفرده، وقد عوَّلوا على الخضر عليه السلام كثيراً سواء في التلقي عنه أو في الاقتداء به في تحصيله للعلم اللدنِّي من الله بلا واسطة كما سبق معنا مراراً.

ولشدة اهتمام القوم بشخصية الخضر وتعويلهم عليه فقد نوقشت أمور تتعلق به، منها اسمه ونسبه، وهل هو نبي أم ولي، وهل هو حي أم ميت، وفي كل ذلك خلاف[1] ونزاع، وسأكتفي بإشارات يسيرة إلى هذه الأمور، إذ المهم هنا، هو قضية التلقي عن طريق الكشف، وبطلانها، بغض النظر عن المتلقى عنه، مع بيان مقصد المتصوفة من الميل إلى هذا المنحى، ولذلك سأنهي هذا المبحث بما يلي:

١ ـ الخضر اسمه ونسبه.

٢ ـ هل هو نبي أم ولي؟

٣ ـ حي هو أم ميت؟

٤ ـ نماذج من الأذكار المتلقاة عنه في زعمهم.

٥ ـ ما يعنيه الخضر عند القوم.

(١) انظر: فتح الباري ٦/ ٤٩٩.

المطلب الأول

الخضر اسمه ومولده ونسبه

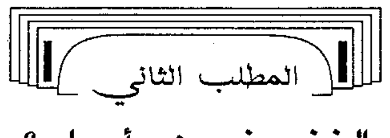
الخضر هو بَليا بفتح الموحدة، وقيل: اسمه إلياس، وقيل: خضرون ـ والأوّل أثبت ـ ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفشخد بن سام بن نوح، عليه الصلاة والسلام، وكنيته أبو العباس، فعلى هذا مولده قبل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم، وهناك أقوال على أنه ابن آدم من صلبه، أو أنه ابن قابيل بن آدم، وأقوال أخرى حول اسمه واسم أبيه، فقيل عن اسمه أنه ـ أرميا ـ وعن أبيه: عماميل أو قابل إلى غير ذلك، والأشهر أنه ملكان كما ذكرناه أولاً[1].

والأقوال كثيرة حول اسمه ونسبه، وليس ثم ما يرجح شيء منها، إذ لم يثبت شيء في ذلك من النصوص اللهم إلا تسميته أو وصفه بالخضر كما في الحديث الذي أخرجه البخاري عن عبد الله بن عباس قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدنا خضر...» إلخ الحديث[2].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: البداية والنهاية ٢/٢٤٣ ـ ٢٤٤، وفتح الباري ٦/٤٩٩ ـ ٥٠٠.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى ﷺ برقم ٣٤٠٠ مع الفتح ٦/٤٩٧.



المطلب الثاني

الخضر نبي هو أم ولي؟

في هذه الناحية أيضاً نقاش؛ لأن المصرح به في النصوص أنه أوتي علمًا من لدن العليم الخبير سبحانه، وأنه من خواص عباد الله كما في قوله ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾[1].

وفي الحديث السابق الذي يقص فيه الرسول ﷺ عتب المولى سبحانه على نبيه موسى ﷺ حين قال: بأنه ليس من هو أعلم منه فأوحى إليه: «بلى عبدنا خضر»، ففيه أنه كان أعلم من موسى فيما خصه الله به، وقد نقل ابن حجر الخلاف في كونه نبي أم ولي، وذكر أن أكثر أهل العلم على أنه نبي، ثم يؤكد القول بنبوته فيقول: (والآية تشهد بذلك لأن النبي لا يتعلم ممن هو دونه، ولأن الحكم بالباطن لا يطلع عليه إلا الأنبياء)[2].

أما الصوفية فهم على القول بأنه ولي، يقول في الرسالة القشيرية عنه: وما كان يعلمه مما خفي على موسى ﷺ كل ذلك أمور ناقضة للعادة اختص الخضر ﷺ بها ولم يكن نبياً وإنما كان ولياً[3].

والمتصوفة يقولون بولاية الخضر ليرتبوا على ذلك ما يميل إليه الكثير منهم من أن الولاية أفضل من النبوة، وهذه ذريعة إلى الزندقة[4].

وليس لهم من دليل يرجحون به ما ذهبوا إليه سوى هذا المقصد، بل الاستدلال على خلاف ما ذهبوا إليه.

(١) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٢) انظر: فتح الباري ٦/٥٠٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٦٦٨.

(٤) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ص٤٧٨.

يقول ابن كثير: وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾[1].

الثاني: قول موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾[2].

فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد هو على موسى هذا الرد، ولو كان غير نبي لم يكن معصوماً ولما طلب موسى صحبته وإفادة العلم من غير المعصوم، وموسى نبي كريم كليم معصوم، ثم إنه لو كان ولياً لما جزم بإلهامه وخواطره حتى يقدم على خرق وقتل، بل هذا مما يؤكد نبوته وعصمته، وأنه مؤيد بالوحي[3].

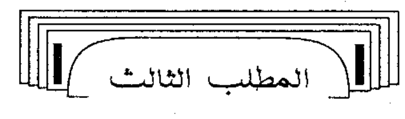
ثم إنه عند بيانه لموسى حقيقة الأمر يقول: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، فكأنه مسدد بالوحي وموسى يعلم ذلك، وبهذه الأدلة والاستنباطات فالأرجح أنه نبي والله أعلم.

* * *

(١) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٢) سورة الكهف: الآيات ٦٦ ـ ٧٠.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩.



المطلب الثالث

الخضر حي هو أم ميت؟

وهذه الناحية المتعلقة بكونه حي أو ميت باق إلى الآن، هي أكثر عرضة للنزاع والخلاف من سابقتيها والناس فيها على قولين:

القول الأول: أنه حي، وذلك لأنه شرب من عين الحياة، وقيل لأنه هو الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه فلا يموت إلا عند نفخ الصور، وقيل: مد له في أجله حتى يكذب الدجال وأن الذي يقتله الدجال ثم يحييه هو الخضر إلى غير ذلك من الأقاويل والحكايات[1].

وهذا متفق عليه عند الصوفية وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه... ووجوده أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يستر[2].

بالإضافة إلى الاستدلال ببعض الروايات من الأحاديث العديمة الصحة والموضوعة، البينة الكذب، يقول عنها ابن الجوزي رحمه الله: الأحاديث التي يذكر فيه الخضر وحياته كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد[3].

وقد أورد ابن كثير في البداية والنهاية، جل هذه الروايات والحكايات والآثار وذكر أقوال أهل العلم فيها وتعقبهم لها، وبيان أسباب ضعفها وعللها ثم قال: وهذه الروايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم، وكل الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد، وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس

(١) انظر: فتح الباري ٦/٥٠٠.

(٢) انظر: النووي في شرح مسلم ١٥/١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) انظر: المصادر العامة للتلقي ص٤٣٠، نقلاً عن المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٦٧.

بمعصوم ويجوز عليه الخطأ[١].

القول الثاني: أن الخضر مات وأنه لم يدرك زمان النبي ﷺ فضلاً عن بقائه إلى اليوم، وقد قال بهذا جمع من العلماء منهم البخاري، وأبو جعفر بن المنادي[٢]، وإبراهيم بن الحربي[٣]، وأبو بكر بن العربي، وابن الجوزي، وابن كثير، وغيرهم[٤].

وقد استدلوا بأدلة عامة وخاصة، فمن الأدلة العامة:

قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[٥]. فالخضر إن كان بشراً، فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله[٦].

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[٧]، فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن به وينصره، ولكان من جملة أمته فجاء إليه واتبع شرعه[٨].

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢٥٠ ـ ٢٦٤.

(٢) ابن المنادي: هو أحمد بن جعفر بن محمد أبو الحسيني ابن المنادي عالم بالتفسير والحديث، ولد في سنة ٢٥٦هـ، وكان كثير التصانيف، جمع بين الرواية والدراية، توفي سنة ٣٣٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٢، والأعلام ١/ ١٠٧.

(٣) الحربي: هو إبراهيم بن إسحاق الحربي البغدادي، هو من الأعلام من أصحاب أحمد، ولد سنة ١٩٨هـ، كان عالماً بالحديث عارفاً بالأحكام، صاحب زهد، من مؤلفاته: غريب الحديث، ومناسك الحج، توفي ٢٨٥هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٥٦ ـ ٣٧٣، والأعلام ١/ ٢٣.

(٤) انظر: فتح الباري ٦/ ٥٠٠، والبداية والنهاية ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٨.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

(٦) البداية والنهاية ٢/ ٦٥.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٨) البداية والنهاية ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٨ وفتح الباري ٦/ ٥٠٠ ـ ٥٠١.

وثمة أدلة خاصة تقطع بموته: منها حديث ابن عمر قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العشاء في آخر حياته فلما سلَّم قام فقال: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»[١].

وما رواه جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبي ﷺ يقول قبل موته بشهر: «تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله، وأُقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة»[٢]. يقول النووي: هذه الأحاديث فسر بعضها بعضاً، وفيها عَلم من أعلام النبوة، والمراد أن كل نفس منفوسة كانت تلك الليلة على الأرض لا تعيش بعدها فوق مائة سنة، ومعنى منفوسة أي مولودة، وفيه احتراز من الملائكة؛ وقد احتج بهذه الأحاديث من شذ من المحدثين فقال: الخضر ﷺ ميت، والجمهور على حياته... ويتأولون هذه الأحاديث على أنه كان على البحر لا على الأرض، أو أنها عام مخصوص[٣].

وهذا المذهب الذي يميل إليه النووي ﷺ لا يقوم على دليل سوى الحكايات والرؤى المشتهرة التي أشار إليها على عكس رأي القائلين بموت الخضر الذي تقويه أدلة العقل والنقل، يقول ابن الجوزي ﷺ معلقاً على الحديثين السابقين: فهذه الأحاديث الصحاح تقْطع دابر دعوى حياة الخضر... فالخضر إن لم يكن أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعده مائة سنة، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً، لأنه داخل في هذا العموم، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم[٤].

وبالنظر إلى القولين وما اعتمدا عليه، يتبين البون الشاسع بينهما، فبينما

---

(١) أخرجه البخاري، في كتاب العلم باب السمر في العلم برقم ١١٦، انظر: مع الفتح ١/ ٢٥٥، ومسلم مع النووي ١٦/ ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، انظر: مع شرح النووي ١٦/ ٩٠ ـ ٩١.

(٣) شرح النووي على مسلم ١٦/ ٩٠.

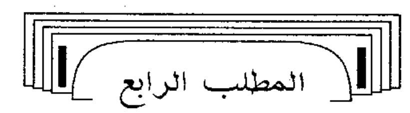
(٤) البداية والنهاية ٢/ ٢٧٠.

يتشبث القول الأول بما لا يعول عليه في الاستدلال، نجد القول الثاني يقوم على ما يصح الاستدلال به شرعاً وعقلاً مما يجعله هو الرأي الراجح، إذ الحجة إنما هي لدليل الشارع المعصوم، ولا عبرة لغيره بإزائه.

أما هذه الأخبار عن رؤيته واللقيا معه، فلا يخلو الزاعم بها من أن يكون رأى شيطاناً لبَّس عليه، أو أن يكون ذلك خيالاً ظنه حقيقة، أو أن يكون كاذباً والله أعلم[1].

❁ ❁ ❁

(١) المصادر العامة للتلقي ص٤٧٤.



المطلب الرابع

نماذج من الأذكار المتلقاة عن الخضر في زعمهم

١ - منها ما جاء عن إبراهيم بن أدهم: أنه رأى في البادية رجلاً علمه (الاسم الأعظم) فدعا به بعده فرأى الخضر عليه السلام، وقال: إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم[1].

٢ - ومن ذلك الصلاة الإدريسية يقول صاحبها: اجتمعت بالنبي ﷺ اجتماعاً صورياً ومعه الخضر عليه السلام، فأمر النبي ﷺ الخضر أن يلقنني أوراد الطريقة الشاذلية فلقننيها بحضرته ثم قال ﷺ للخضر رضي الله عنه: يا خضر لقنه ما كان جامعاً لسائر الأذكار والصلوات والاستغفار وأفضل ثواباً وأكثر عدداً[2].

٣ - ومن ذلك أن الخضر هو الذي لقن الوقوف العددي والذكر الخفي[3] وعلم كيفيته للنقشبندية[4].

إلى غير ذلك مما ذكر فيه القوم وشيوخهم الالتقاء به والتلقي عنه والإكثار من ذكره والدندنة حول كراماته وعجائبه وعلومه.

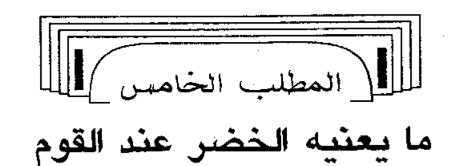
❁ ❁ ❁

(١) الرسالة القشيرية ١/٥١ - ٥٢.

(٢) أفضل الصلوات على سيد السادات ص١٧١.

(٣) انظر: الكلام عن النقشبندية في فصل نشأة الذكر البدعي ص٣٢٦.

(٤) انظر: المصادر العامة للتلقي ص٢٥٩، نقلاً عن المواهب السرمدية ص٧٧.



المطلب الخامس

ما يعنيه الخضر عند القوم

والحاصل من كل ما سبق من قول الصوفية، في أن الخضر وليّ وهو على علم لدني خاص يفوق النبي، ثم هو حي معمَّر، ثم هم على اتصال به ويتلقون منه، ويأخذون عنه، فالمقصد من ذلك أمران كلاهما غاية في السوء:

الأمر الأول: اتخاذ هذا الباب ذريعة للتحلل من الشريعة والخروج عنها بدعوى العلم اللدني الباطن الذي يبرر للولي التصرف بمقتضاه، وإن خالف الشرع الظاهر الذي جاء به النبي ﷺ، وعليه فالخضر يمثل عند القوم منهجاً وشارة ومصطلحاً، وليس هو مقصود لشخصه، فهنا نجد مثلاً أحد صغار القوم يتطوع بكشف هذا المعنى فيقول: القوم رضوان الله تعالى عليهم يطلقون اسم موسى عليه السلام في اصطلاحهم على العقل، لمناسبة بينهما، وهي تنظيم الملك وسياسته وتدبيره وتنظيم العلاقات مطلقاً... وهذه الأشياء هي فحوى الرسالات السماوية ومهمة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، وهي عامة، وهذه الأمور هي نفس مهمة العقل... ولهذا فإنا نرمز على ظاهر الشرع بموسى ثم نستعير هذا الاسم للعقل... وكذلك نرمز بالخضر عليه السلام على الروح؛ لأنه عليه السلام كلما حل في مكان اخضر مكانه[1].

فموسى رمز للعقل والظاهر، والخضر رمز للروح والباطن، ومهمته هي غير مهمة الرسل القاصرة على تنظيم الملك، وتدبير السياسة وتحديد العلاقات.

وكفى باعتقاد كهذا في مهمة الرسل، وفحوى الرسالات ضلالاً وزيغاً نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) تاج الأولياء والأولياء ص٧٥، علي زين العابدين الطبعة الأولى ١٩٨٤م، مكتبة دار الهلال.

الأمر الثاني: اتخاذ قضية بقاء الخضر صاحب العلم اللدني واللقاء به، باباً للتشريع ومصدراً وسنداً لما يعن للشيوخ إضافته من الأفكار والأذكار وغير ذلك، وهذا حاصل وكثير، وهو استبدال للشرع بهذا الجديد المضاف، أو استدراك على الشرع ما فاته مما هو ضروري وتتوقف عليه هذه المزايا والأجور، على ما زعموا!!!.

ويبطل هذا ما ذكرناه من بطلان الأساس الذي قام عليه هذا الاتجاه، وهو القول بالكشف والاعتماد على الإلهام، بالإضافة إلى ما اتضح لدينا من موت الخضر عليه السلام، وقبل ذلك كله ما تقرر في هذا الدين بأنه لا مشرع بعد المصطفى ﷺ، ولا متبع إلا هو، وأن الدين قد اكتمل قبل رحيله عليه الصلاة والسلام، والله أعلى وأعلم وأجل.

* * *

الخاتمة

* وبعد:

فقد وصل البحث إلى نهاية الخطة التي كانت موضوعة له وفق الاجتهاد، ولم يصل إلى نهاية المراد، وما تم في البحث لا بد فيه من قصور وخلل كطبيعة كل ما يقوم به الإنسان من عمل، فالعصمة خُصَّ بها الأنبياء، وأما الكمال فالخلق كلهم عنه بمعزل، والمقام هنا لذكر أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث بإيجاز وهي كما يأتي:

١ - إن كمال هذا الدين يتضح في كل جزئية منه، يتصدى لها باحث ما.

٢ - إن كمال هدي الشارع في الذكر يبرز في ناحيتين: الأولى في سعة المفهوم الشرعي للذكر سعة يتضح منها صلة الكون كله وما فيه بالله، والثانية في الشمولية التي يلمسها المسلم فيما جاء به هدي الشارع من الأذكار، فهي بحيث لا تنفك عنه بليل أو نهار إلا في حال إحدى الموتتين.

٣ - تبين لي بأن خلاف أهل العلم في تعريف البدعة لفظي لا تقوم عليه حجة لأهل الأهواء، وإن ألين الفريقين من أهل السنة هم أدنى العدو لأهل التعاطي والابتداع في الدين.

٤ - إن الذكر الشرعي يتحقق به التوحيد على أتم الصور.

٥ - إن التقيد بالأذكار الشرعية فيه أداء لحق الله على عباده، ووفاء بحق الرسول ﷺ على أمته، وفيه نصح للدين.

٦ - إن التقيد بالأذكار الشرعية له فوائد وآثار إيجابية في معاش المسلمين ومعادهم بالإضافة لما فيه من توحيد للأمة في التلقي، والعصمة لها من التمزق.

٧ - إن الابتداع في الأذكار ظهر بعد مضي القرون المفضلة.

٨ - إن المبتدعة حصروا فهم الذكر في الأوراد، والأحزاب، وعزلوه عن بقية تكاليف الدين وانعزلوا به عن شؤون الحياة وعن بقية جماعة المسلمين.

٩ - إن في الذكر البدعي إضاعة لحق الله على عباده، وخيانة للرسول ﷺ، وقطع للطريق أمام رسالته، وصرف للأمة عن شرع المصطفى وحوضه.

١٠ - إن في الذكر البدعي تعليق للناس بغير رب الناس، وفيه تبعية لغير المعصومين، ومن ثم إضاعة للأعمار، وشغل بغير المنجي من الأعمال، وطلب للرضا في مظان السخط.

١١ - إن في الاشتغال بأعداد الألوف من الأذكار البدعية، فوق ما فيه من الابتداع، ففيه إضعاف للأمة وتبديد لطاقاتها، وتضييع العيال، وإثقال للجسد للمسلم بمزيد من العالة.

١٢ - إن مصدر الذكر الشرعي هو وحي الله، ومصادر الذكر البدعي أهواء البشر، وشتان بين المصدرين.

١٣ - تبين لي من خلال البحث أن الذكر الذي عوّل عليه المبتدعة في الغالب، ليس هو الذكر الذي جاء به الشرع، لا في المفهوم والمضمون، ولا في الممارسة والشروط، ولا في النتيجة والغاية، فهم أخذوا من الشرع مكانة الذكر، ولم يأخذوا منه نفس الذكر، وجعلوا من ترغيب الشارع في الذكر، غلافاً للبضاعة التي صنعوا.

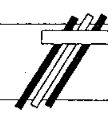
وفي الختام، إني لأحمد ربي وأشكره، وأذكره ولا أكفره، فالفضل منه أوله وآخره، ثم إني لأرجو منه سبحانه ثقة به وطمعاً في فضله الواسع أن يكون في عملي هذا بعضٌ مما رغبت فيه، وأن أكون به في عداد الذاكرين الذين لا يشقى جليسهم.

وصلَّى الله على نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلَّم.

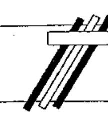
الفهارس العامة

- فهرس الآيات الكريمة .
- فهرس الأحاديث النبوية .
- فهرس الأعلام .
- فهرس المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات الكريمة



فهرس الأحاديث الواردة في البحث



فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ **أقيسة النبي ﷺ**: ناصح الدين عبد الرحمن بن الحنبلي، تحقيق أحمد حسين جابر وعلي أحمد الخطيب، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ.

٢ ـ **أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي**: عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، طبع دار القصر بالقاهرة، الطبعة السادسة ١٩٦٨م.

٣ ـ **الإبداع في مضار الابتداع**: علي محفوظ، الطبعة السابعة، دار النصر للطباعة الإسلامية.

٤ ـ **أبو الحسن الشاذلي**: عبد الحليم محمود، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة.

٥ ـ **الإحسان في تقريب صحيح بن حبان**: لأبي حاتم محمد بن حبان البستي، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق وتعليق وتخريج شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٦ ـ **إحياء علوم الدين**: لأبي حامد محمد الغزالي، مكتب ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة، دون مزيد بيان عن الطبعة.

٧ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦هـ.

٨ ـ **إعجاز القرآن**: لأبي بكر بن طيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م.

٩ ـ **الأعلام للزركلي**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م.

١٠ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**: لابن قيم الجوزية، حققه محمد سيد الكيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

١١ ـ **أفضل الصلوات على سيد السادات**: جمع: يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الفكر، دون مزيد بيان عن الطبعة.

١٢ ـ **الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع**: جلال الدين السيوطي، تحقيق مشهور حسن سلمان، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، دار ابن القيم للنشر.

١٣ ـ **الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية**: عبد الوهاب الشعراني، حققه عبد الباقي سرور ومحمد عبد الشافي، مكتبة المعارف، بيروت.

١٤ ـ **الإيمان والحياة**: يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة ط. ١٤٠١٧هـ.

١٥ ـ **الاعتصام**: أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي، دار عمر بن الخطاب للنشر.

١٦ ـ **الاقتداء في الذكر والدعاء**: محمد جودة صوان، ط. ١٤٠٥٢هـ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**: ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، الناشر دار المعرفة، بيروت.

١٨ ـ **الباعث على إنكار البدع والحوادث**: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة، الطبعة الثانية.

١٩ ـ **البداية والنهاية**: الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤١٧.

٢٠ ـ **البدع والنهي عنها**: محمد بن وضاح القرطبي، تحقيق محمد أحمد دهمان، الطبعة الثانية ١٩٨٠م، دار البصائر، دمشق.

٢١ ـ **البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها**: عزت علي عطية، دار الكتب الحديثة.

٢٢ ـ **البرهان المؤيد**: أحمد الرفاعي الكبير، تلقاه عنه عبد السميع الهاشمي والواسطي، خرج أحاديثه عبد الله الهرري الحبشي، حققه حسين ناظر الحلواني مطبوعات مكتبة الحلواني، دمشق.

٢٣ ـ **التأدب مع الرسول ﷺ في ضوء الكتاب والسنة**: حسن نور حسن دار المجتمع - جدة، ١٤١٢هـ.

٢٤ ـ **تاج الأولياء والأولياء**: علي زين العابدين، مكتبة دار الهلال، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٢٥ ـ **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**: لأبي الطيب صديق حسن بن علي الحسين البخاري القنوجي، المطبعة الهندية العربية، بمباي الهند، الطبعة الثانية ١٩٦٣م.

٢٦ ـ **تاريخ التصوف في الإسلام**: د. قاسم غني، ترجمه عن الفارسية صادق نشأة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٧م.

٢٧ ـ **التبيان في آداب حملة القرآن**: شرف الدين أبي زكريا يحيى النووي، تحقيق بشير محمد عيون، ط. ١٤١٢١هـ، دمشق، دار البيان ومكتبة المؤيد.

٢٨ ـ **التجانية، دراسة لأهم عقائد التجانية في ضوء الكتاب والسنة**: علي بن محمد الدخيل الله، نشر وتوزيع دار طيبة، الرياض.
٢٩ ـ **تحفة الذاكرين**: محمد بن علي محمد الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٠ ـ **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**: (رحلة بن بطوطة) دار الشرق العربي، دون مزيد بيان.
٣١ ـ **التدمرية**: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عودة السعوي، طبع شركة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٣٢ ـ **التذكار في أفضل الأذكار**: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، علق عليه أحمد الصديق الغماري، الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ.
٣٣ ـ **التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه**: أحمد توفيق عباد، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.
٣٤ ـ **التصوف بين الحق والخلق**: محمد فهر شقفة، الدار السلفية، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.
٣٥ ـ **التصوف في تهامة**: محمد أحمد العقيلي، الطبعة الثانية دار البلاد للطباعة، جدة.
٣٦ ـ **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**: توفيق الطويل، مكتبة الآداب ومطبعة الاعتماد، دون مزيد بيان.
٣٧ ـ **التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام**: عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٣٨ ـ **التعريفات**: الفاضل علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح، بيروت ١٩٦٨م.
٣٩ ـ **تفسير ابن كثير**: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، المكتبة التجارية، دار الفكر ١٤٠٧هـ، بيروت.
٤٠ ـ **التفسير الكبير**: الرازي، دار الكتب العلمية، طهران.
٤١ ـ **تفسير ابن باديس**: جمع وترتيب محمد صالح رمضان وتوفيق محمد شاهين، الطبعة الثانية، دار الفكر.
٤٢ ـ **تلبيس إبليس**: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، الطبعة السابعة ١٤١٤هـ.
٤٣ ـ **تهذيب التهذيب**: أحمد بن حجر العسقلاني، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٤٤ ـ **تهذيب اللغة**: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري.
٤٥ ـ **تيسير العزيز الحميد**: سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب، نسخة دار الباز دون مزيد بيان.
٤٦ ـ **الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية**: عابد السفياني، مكتبة المنار، مكة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٤٧ ـ **الجامع الأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد إبراهيم الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، طبع بالأوبست، بيروت.
٤٨ ـ **جامع الأصول**: أحمد الكشمخانوي النقشبندي، المطبعة الميمنية مصطفى البابي الحلبي، بمصر، دون مزيد بيان.
٤٩ ـ **جامع العلوم والحكم**: أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، توزيع دار الباز بمكة.
٥٠ ـ **الجانب العاطفي من الإسلام**: بحث في الخلق والسلوك والتصوف، للشيخ محمد الغزالي، مطبعة السعادة بمصر، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية ١٩٦٢م.
٥١ ـ **جمهرة اللغة**: لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ، مطبعة المعارف العثمانية.
٥٢ ـ **جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض التجاني**: علي حرازم، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة بالثانية ١٣٩٣هـ.
٥٣ ـ **حاشية البناني**: جمع الجوامع شرح الجلال المحلي، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٥٤ ـ **الحاوي للفتاوي**: جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، الطبعة الثالثة، ذي الحجة ١٣٧٨هـ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م.
٥٥ ـ **الحضارة الإسلامية**: آدم ميتر، نقله إلى العربية، محمد الهادي أبو ريدة، الطبعة الرابعة ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٦ ـ **حكم الاحتفال بالمولد النبوي**: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ضمن مجموع الرسائل في حكم الاحتفال بالمولد، الرئاسة العامة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
٥٧ ـ **حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار**: المعروف (بالأذكار النووية) لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق وتعليق، علي الشربجي وقاسم النوري، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٥٨ ـ **الحوادث والبدع**: لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون، ط. ١٤١٢هـ، مكتبة المؤيد ومكتبة دار البيان.

٥٩ ـ **الحياة الروحية في الإسلام**: محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

٦٠ ـ **حياة القلوب بدعاء علام الغيوب**: لأبي السمح محمد عبد الظاهر بن محمد نور الدين، الطبعة الثالثة.

٦١ ـ **خطط المقريزي**: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ تصدره دار التحرير للطبع والنشر.

٦٢ ـ **دائرة المعارف الإسلامية**: أصدرها أئمة الاستشراق، ترجمها إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، الشعب المصرية.

٦٣ ـ **دراسات إسلامية في الفرق**: صابر طعيمة، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٣هـ.

٦٤ ـ **الدين الخالص**: محمد صديق حسن خان، مطبعة المدني بمصر.

٦٥ ـ **ذم ما عليه مدَّعو التصوف (فتوى)**: لأبي محمد موفق بن قدامة، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

٦٦ ـ **الرسالة القشيرية**: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة بمصر.

٦٧ ـ **رسالة في السماع والرقص**: محمد بن المنجي، تعليق محمد صبحي حلاق، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٦٨ ـ **رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم**: عمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدري، الكتاب مطبوع بهامش جواهر المعاني، طبعة دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٦٩ ـ **روح الصلاة في الإسلام**: عفيف طبارة، دار العلم للملايين ط. ١٦.

٧٠ ـ **روح المعاني**: تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الألوسي، طبع دار الفكر بيروت، لبنان ١٤٠٣هـ.

٧١ ـ **الروضة الندية شرح الدرر البهية**: صديق حسن الحسين القنوجي تخريج وتحشية أحمد شمس الدين، ط١ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٧٢ ـ **رياض الجنة في أذكار الكتاب والسنة**: يوسف بن إسماعيل النبهاني، الطبعة الأخيرة ١٩٥٣م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٧٣ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان.

٧٤ ـ **السنة حجيتها ومكانتها في الإسلام**: د. محمد لقمان، مطبعة الإيمان بالمدينة المنورة ١٤٠٩هـ.

٧٥ ـ **سنن أبي داود**: الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار إحياء التراث العربي.

٧٦ ـ **سنن ابن ماجه**: الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق وترقيم فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٧٧ ـ **سنن الترمذي**: أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي، طبعة دار الفكر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٧٨ ـ **سنن الدارمي**: الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي، تحقيق وتخريج، فؤاد أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الريان للتراث القاهرة، ودار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٧٩ ـ **السنن الكبرى للنسائي**: أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البندراوي، وسيد كردي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١١هـ.

٨٠ ـ **شأن الدعاء**: لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، دار المأمون للتراث.

٨١ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: لابن أبي العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء تخريج محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثامنة ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي.

٨٢ ـ **شرح النووي على مسلم**: الحافظ يحيى بن شرف الدين النووي، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٨٣ ـ **شرح جوهرة التوحيد**: إبراهيم محمد البيجوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٨٤ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: للقاضي عياض، دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الأخيرة، ١٤٠٥هـ.

٨٥ ـ **شمس المعارف الكبرى ولطائف المعارف**: للبوني، المكتبة الشعبية بيروت ١٩٧٠م ولا يوجد مزيد بيان عن الطبعة.

٨٦ ـ **الشيخ عبد القادر الجيلاني**: الإمام الزاهد، عبد الرزاق الكيلاني، دار القلم، دمشق ١٤١٤هـ.

٨٧ ـ **الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراءه الاعتقادية والصوفية**: سعيد بن مسفر القحطاني، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٨٨ ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف المنشر.

٨٩ ـ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**: إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق عبد الغفور عطار، الطبعة الأولى دار العلم للملايين.

٩٠ ـ **صحيح البخاري مع الفتح**: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مطبعة الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٩١ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**: محمد ناصر الدين الألباني، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

٩٢ ـ **صحيح سنن أبي داود**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى.

٩٣ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٩٤ ـ **صحيح سنن الترمذي**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى.

٩٥ ـ **صحيح سنن النسائي باختصار السندي**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٩٦ ـ **صحيح مسلم مع شرح النووي**: مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٧ ـ **الصحيفة العلوية** ـ منسوبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ـ: المؤلف عبد الله بن صالح السماهيجي، دار التعاريف للمطبوعات، الطبعة الثالثة.

٩٨ ـ **صفة الصفوة**: لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، الطبعة الثالثة ١٩٧٢م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن ـ الهند.

٩٩ ـ **الصوفية معتقداً ومسلكاً**: صابر طعيمة، ط١ توزيع دار عالم الكتب، الرياض.

١٠٠ ـ **الصوفية نشأتها وتطورها**: محمد العبدة وطارق عبد الحليم، دار ابن القيم، برمنجهام ـ بريطانيا، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.

١٠١ ـ **العبادة في الإسلام**: يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة.

١٠٢ ـ **عقيدة التوحيد في القرآن**: محمد أحمد ملكاوي، الطبعة الرابعة، دار ابن تيمية، الرياض ١٤٠٥هـ.

١٠٣ ـ **عقيدة المؤمن**: أبو بكر الجزائري، دار الفكر، دون مزيد بيان عن الطبعة.

١٠٤ ـ **العقيدة في الله**: عمر بن سليمان الأشقر، ط٤، ١٩٨٣م، مكتبة الفلاح، الكويت.

١٠٥ ـ **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة**: لأبي الحسن الندوي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، دار القلم، الكويت.

١٠٦ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: ابن حجر العسقلاني، دار الريان القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١٠٧ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**: محمد بن علي محمد الشوكاني، ترتيب وتعليق سعيد محمد اللحام، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، مكة.

١٠٨ ـ **الفتوحات الربانية**: لمحمد بن علان الصديقي، دار إحياء التراث العربي، لبنان.

١٠٩ ـ **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**: لشيخ الإسلام ابن تيمية دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تفاصل أخرى عن الطبعة.

١١٠ ـ **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: محمد بن الحسن الحجوي الفاسي، المركز الإسلامي للطباعة والنشر، الأهرام.

١١١ ـ **الفكر الصوفي**: عبد الرحمن عبد الخالق، مكتبة ابن تيمية، الكويت.

١١٢ ـ **فن الذاكرين والدعاء عند خاتم الأنبياء**: الشيخ محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٥هـ، دار القلم.

١١٣ ـ **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**: شيخ الإسلام ابن تيمية، دار العربية للنشر، بيروت ١٩٧٠م.

١١٤ ـ **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**: الحسين بن محمد الدامغاني، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، تحقيق عبد العزيز سيد هلال.

١١٥ ـ **القاموس المحيط**: الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١١٦ ـ **قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر**: لمحمد أبي الهدى الرفاعي طبع في بيروت، المطبعة الأدبية ١٣٠٠هـ.

١١٧ ـ **كتاب الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**: لأبي البقاء أيوب بن موسى بن الحسين الكفوري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١١٨ ـ **كتاب فيه ما جاء في البدع**: محمد بن وضاح القرطبي، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، دار العصيمي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

١١٩ ـ **كتاب معنى لا إله إلا الله**: للزركشي، تحقيق علي محيي الدين قره داغي، دار النصر للطباعة شبرا، مصر.

١٢٠ ـ **كشاف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**: مصطفى عبد الله القسطنطني المعروف بحاجي خليفة، دار الفكر ١٩٨٢م.

١٢١ ـ **كشاف مصطلحات الفنون**: محمد على الفاروقي التهانوي، تحقيق لطف عبد الواسع، المؤسسة المصرية العامة، دار الكتاب العربي.

١٢٢ ـ **كشف القناع عن أحكام الوجد والسماع**: أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق وتقديم عبد الله بن محمد الطريقي، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١١هـ.

١٢٣ ـ **الكشف والتبيين ملحق مع منهاج العابدين**: لأبي حامد الغزالي، راجعه وعلق عليه محمود محمد جابر، الطبعة الأولى ١٩٥٤م، مكتبة الجندي.

١٢٤ ـ **كنز النجاح والسرور في الأدعية المأثورة التي تشرح الصدور**: عبد الحميد قدس (كتب صغير) طبع إحساني.

١٢٥ ـ **الكواشف الجلية عن معاني الواسطية**: عبد العزيز المحمد السلمان، طبعة خيرية الطبعة التاسعة عشرة ١٤١٨هـ.

١٢٦ ـ **لسان العرب**: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، دار صادر، بيروت ـ لبنان.

١٢٧ ـ **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من وظائف**: ابن رجب الحنبلي، تحقيق عبد المنعم إبراهيم، مكتبة مصطفى الباز، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٢٨ ـ **لمحات في المكتبة والبحث والمصادر**: د. محمد عجاج الخطيب: ط٣ ١٩٧١م.

١٢٩ ـ **اللمع**: لأبي النصر السراج الطوسي، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٠م.

١٣٠ ـ **لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات**: فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، راجعه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٦م.

١٣١ ـ **ليس من الإسلام**: محمد الغزالي، الطبعة الرابعة ١٩٦٣م، دار الكتب الحديثة.

١٣٢ ـ **مباحث في علوم القرآن**: مناع القطان، ط٢١، مؤسسة الرسالة بيروت.

١٣٣ ـ **مجلة التوعية الإسلامية**: العدد ٢٠٩، البدعة حقيقتها ومعناها د. صالح السدلان.

١٣٤ ـ **مجموع الفتاوى**: لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد ابن قاسم وابنه محمد، طباعة جمع الملك فهد للطباعة الصحف بالمدينة المنورة تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية.

١٣٥ ـ **مختار الصحاح**: محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، مكتبة دار الهلال، بيروت.

١٣٦ ـ **مختصر سيرة الرسول ﷺ**: لمحمد بن عبد الوهاب، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية ١٤١٨هـ.

١٣٧ ـ **مدارج السالكين**: ابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٢هـ.

١٣٨ ـ **المدخل**: لابن الحاج، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٣٩ ـ **مدخل إلى التصوف الإسلامي**: أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، دار الثقافة للنشر القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

١٤٠ ـ **المستدرك على الصحيحين**: لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

١٤١ ـ **مسك الختام في الذكر والدعاء بعد السلام**: أحمد بن سعيد بن خميس الأنبالي دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٤٢ ـ **مسند الإمام أحمد**: وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: للتقي الهندي، طبعة الرابعة ١٩٨٣م.

١٤٣ ـ **مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني**: محمد الخضر بن سيد عبد الله الشنقيطي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

١٤٤ ـ **مشكاة المصابيح الكاشف في حقائق السنن**: الحسين بن أحمد، تحقيق مجموعة من أهل العلم، نشر دار القرآن والعلوم الإسلامية كراتشي، الطبعة الأولى ١٤١٣.

١٤٥ ـ **المصادر العامة للتلقي عند الصوفية**: صادق سليم صادق، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٤٦ ـ **معجم ألفاظ القرآن الكريم**: إصدار مجمع اللغة العربية، الطبعة الثانية ١٩٧٠م، المطبعة الثقافية الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف.

١٤٧ ـ **معجم المناهي اللفظية**: بكر بن عبد الله أبو زيد، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ، دار العاصمية، الرياض.

١٤٨ ـ **المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم**: صبحي عبد الرؤوف، مصر، دار الفيصلية.

١٤٩ ـ **معجم لغة الفقهاء**: محمد رواس قلعة جي، حامد صادق قنبي، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٥٠ ـ **معجم مقاييس اللغة**: لأبي حسين أحمد بن فارس بن زكريا، طبعة دار الكتب العلمية، إيران.

١٥١ ـ **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**: أحمد مصطفى طاش كبري زاده، تحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، مطبعة الاستقلال الكبرى.

٢٥٢ ـ **المفردات في غريب القرآن**: لابن القاسم السين محمد بن الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
٢٥٣ ـ **مقدمة ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، دون مزيد بيان.
٢٥٤ ـ **مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب**: للشيخ أبي حامد الغزالي.
٢٥٥ ـ **ملحق مع التعريفات**: للشريف الجرجاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.
٢٥٦ ـ **الملل والنحل**: لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز الوكيل، طبعة دار الفكر، بيروت، دون مزيد بيان.
٢٥٧ ـ **المنقذ من الضلال**: لأبي حامد الغزالي، دار الكتب الحديثة، طبع دار القصر بالقاهرة، الطبعة السادسة.
٢٥٨ ـ **موارد الظمآن في دروس الزمان**: عبد العزيز المحمد السلمان، الطبعة التاسعة عشرة مطابع الخالد، الرياض ١٤١٠هـ.
٢٥٩ ـ **الموافقات في أصول الشريعة**: أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر مطبعة المدني، دون مزيد بيان.
٢٦٠ ـ **المورد في حكم المولد**: لأبي حفص تاج الدين الفاكهاني، تحقيق علي بن حسن بن عبد الحميد، مطبوع ضمن رسائل في حكم الاحتفال بالمولد تحت إشراف رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالسعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
٢٦١ ـ **الموسوعة الفقهية**: وزارة الشؤون الإسلامية بالكويت، ط٢ ١٤١٢هـ.
٢٦٢ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**: نشر دار الندوة للعالمية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.
٢٦٣ ـ **موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين**: محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق عاصم البيطار، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٩٨٢م.
٢٦٤ ـ **نزل الأبرار**: محمد صديق حسن خان، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية.
٢٦٥ ـ **نشأة التصوف الإسلامي إبراهيم بسيوني**، دار المعارف بمصر.
٢٦٦ ـ **نظام الإسلام والعقيدة والعبادة**: محمد المبارك، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.
٢٦٧ ـ **نظرية الاتصال عند الصوفية**: شاكرة بنت جلوي، دار المنارة، جدة ١٤١١هـ.
٢٦٨ ـ **النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية**: محمد بهاء الدين البيطار، دار الجيل، دون مزيد بيان.

٢٦٩ ـ **النهاية في غريب الحديث**: لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الرازي ومحمود محمد الطناحي، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.
٢٧٠ ـ **نور التحقيق في صحة أعمال الطريق**: حامد إبراهيم الشاذلي، مطبعة دار التأليف بالمالية المصرية، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ.
٢٧١ ـ **الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب**: شمس الدين محمد بن قيم الجوزية تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، توزيع مكتبة المؤيد.
٢٧٢ ـ **وظائف الأبرار**: فرمان علي، الناشر كتب خانة اثنا عشري، لاهور ـ باكستان.
٢٧٣ ـ **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، دون مزيد بيان.
٢٧٤ ـ **ولاية الله والطريق إليها**: للشوكاني، دراسة وتحقيق وإبراهيم بن إبراهيم هلال مطبعة المدني، توزيع دار الكتب الحديثة، دون مزيد بيان.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة